

# عَوْنُ الْحَمِيدِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

وَبَيَانِ مَا فِيهِ مِنَ الْهُدَايَاتِ وَالْفَوَائِدِ وَالْأَحْكَامِ

تَأَلِيفُ

أ. د. سُلَيْمَانَ بْنِ أَبِي هَيْسَمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ

الْأَسْتَاذِ فِي قِسْمِ الْقُرْآنِ وَعُلُومِهِ

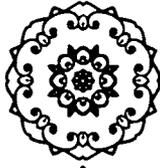
بِكَلِيَّةِ الشَّرِيعَةِ وَالذَّرَاسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ - جَامِعَةِ الْقَصِيمِ

المجلدُ السَّادِسُ عَشَرَ

تَفْسِيرُ سُورَةِ الشُّعْرَاءِ وَالنَّمْلِ وَالْقَصَصِ وَالْعَنْكَبُوتِ

دار ابن الجوزي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



عَوْنُ الْحَمْدِ  
فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

١٦



دار ابن الجوزي

لِلنَشْرِ وَالتَّوْزِيعِ

المملكة العربية السعودية:

الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان

ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣

ص ب. واصل: ٨١١٤

الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦

الرقم الإضافي: ٤٩٧٣

فاكس: ٨٤١٢١٠٠

الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨

جوال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨

الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢

جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩

جوال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:

بيروت - ت: ٠٢/٨٦٩٦٠٠

فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:

القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠

جوال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

✉ aljawzi@hotmail.com

☎ +966503897671

🌐 aljawzi

📍 eljawzi

🌐 aljawzi.net

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١ هـ  
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله  
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد  
والأحكام. / سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم. - الدمام، ١٤٤١ هـ

٤٩٣ ص؛ ٢٤×١٧ سم

ردمك: ٨ - ٩٥ - ٨٢٧٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - القرآن - تفسير ٢ - علوم القرآن ٣ - القرآن - أحكام  
أ. العنوان

١٤٤١/٥٤٤٣

ديوي ٢٢٧,٣

بَحْرِ حَقِّهِ حَقُّهُ مَحْفُوظَةٌ

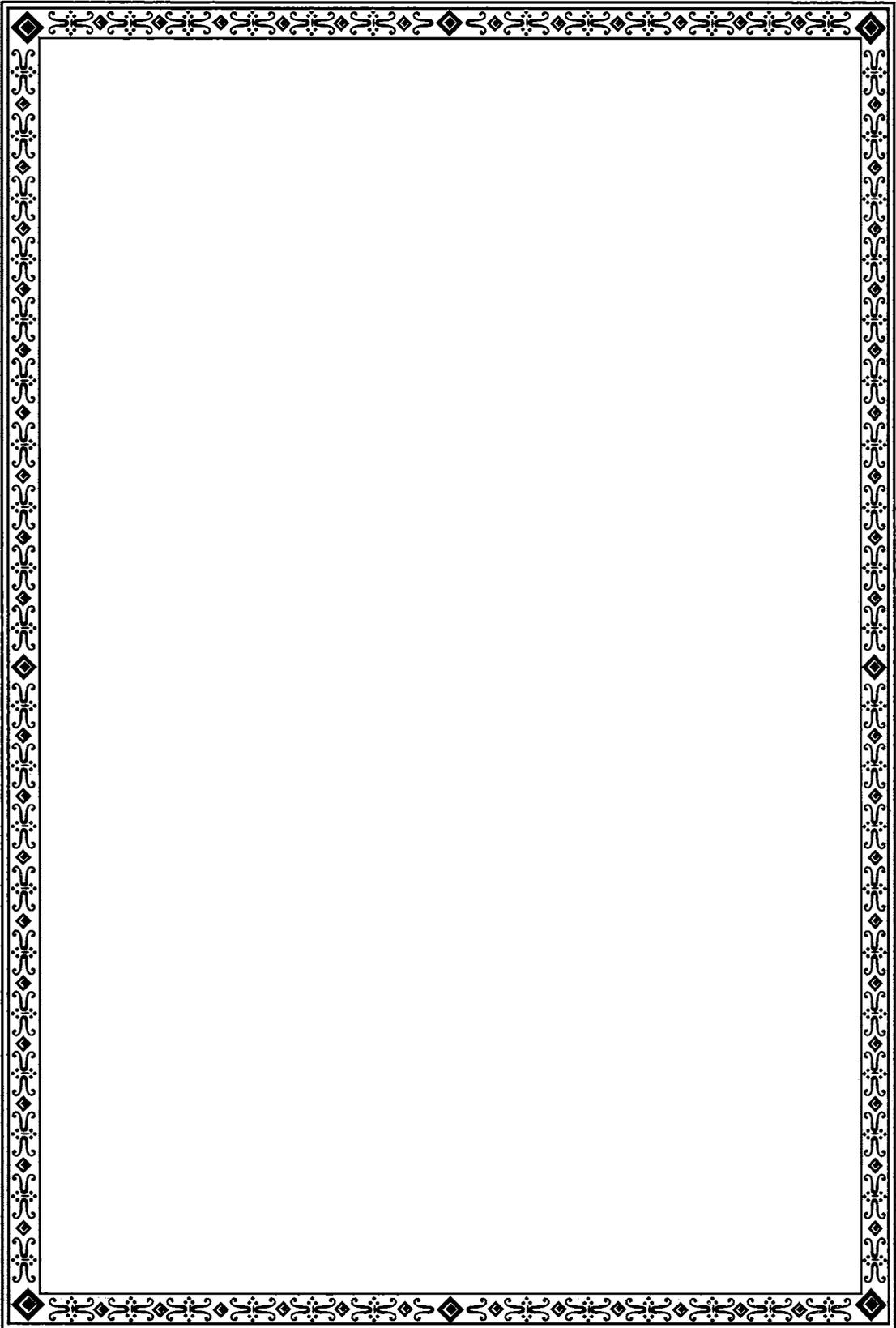
الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١ هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب  
أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام  
ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي  
لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

# تَفْسِيرُ سُورَةِ الشُّعَرَاءِ



## المقدمة

## أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة الشعراء»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الآية: ٢٢٤]، ولم يرد ذكر كلمة «الشعراء» في غيرها من السور.

وتسمى: «سورة طسم»، كأنها سميت بهذا؛ لأنها الأولى في ترتيب المصحف، قبل سورة القصص التي افتتحت أيضًا: بـ «طسم».

وتسمى أيضًا: «الجامعة»<sup>(١)</sup>، وكأنها سميت بهذا؛ لأنها جمعت ذكر الرسل أصحاب الشرائع المعلومة إلى الرسالة المحمدية.

## ب- مكان نزولها:

مكة.

## ج- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بتعظيم القرآن وبيان إعجازه: ﴿طَسَمَ ۝١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ

الْمُبِينِ﴾.

٢- تسلية الرسول ﷺ، وتأييده وتقويته أمام موقف المشركين المكذبين المعرضين المستهزئين، وتهديدهم ووعيدهم، وتوبيخهم؛ لعدم تأملهم في الأرض كم أنبت الله فيها من كل زوج بهيج، ونعمة الله على العباد بذلك وغيره.

٣- ذكر نداء الله تعالى موسى عليه السلام، وإرساله وهارون إلى فرعون وقومه، وتأييده عز وجل لهما، ومجيئهما إلى فرعون وقولهما له: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦﴾ أَنْ أَرْسَلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝١٧﴾، وتذكير فرعون لموسى بتربيته وليدًا، وبقتله القبطي؛ وإعلان موسى له ربوبية الله العامة لجميع الخلق. ورمي فرعون له بالجنون، وتهديده له إن اتخذ إلها غيره بالسجن. وإتيان موسى عليه السلام بالآيات: العصا واليد. واتهام فرعون له بالسحر، وجمعه السحرة؛ ليؤكد لموسى وما جاء به من الحق، وغلبة موسى عليه السلام لهم بما معه من الحق، وإيصال السحرة، وتهديد فرعون لهم: ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝٤٥﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجِدِينَ ۝٤٦﴾

(١) انظر «تفسير ابن كثير» ٦/١٤٤.

قَالُوا يَا مَتَّى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ الْآيَات.

٤- وحيه عز وجل إلى موسى بالإسراء ببني إسرائيل، وخروج فرعون وقومه على أثرهم، ووحيه عز وجل إلى موسى أن اضرب بعصاك الحجر، فانفلق فأزلف موسى وقومه، ثم أغرق الله فرعون وقومه، وفي ذلك آية من آيات الله، ودلائل على تمام قدرته وعزته ورحمته.

٥- ثم ذكر الله نبأ إبراهيم عليه السلام، ودعوته لأبيه وقومه إلى عبادة الله تعالى وحده، وبيان استحقاقه وحده للعبادة، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي لا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع، وإعلانه عليه السلام عداوته لها؛ إلا رب العالمين الذي بيده الخلق والهداية والأمر كله، والتجاؤه عليه السلام إليه وضراعه له: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِيقِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَغْفِرْ لِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾.

٦- الوعد بتقريب الجنة للمتقين، والوعيد بإبراز الجحيم للغاوين، وما لهم فيها من التقريع والعذاب المعنوي والحسي، والندم والحسرة والتلاوم، وفي ذلك آية من آيات الله الدالة على تمام قدرته وعزته ورحمته.

٧- ثم ذكر الله تعالى تكذيب قوم نوح عليه السلام له حين دعاهم إلى تقوى الله وطاعته، وما كان بينه وبينهم، وتكذيبهم له، وتهديدهم إياه بالرجم، وسؤاله ربه الفتح بينه وبينهم، وإنجائه ومن معه من المؤمنين وإغراقهم: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ السَّاحِرِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾.

ثم ذكر تكذيب عاد لنبيهم هود عليه السلام، حين دعاهم إلى تقوى الله وطاعته، وما جرى بينه وبينهم، وتذكيره لهم بنعم الله عليهم وتخويفهم عذاب يوم القيامة وعتوهم وتكذيبهم له، وإهلاكهم.

ثم ذكر تكذيب ثمود لنبيهم صالح عليه السلام، حين دعاهم إلى تقوى الله وطاعته، وما كان بينه وبينهم، وتذكيره إياهم ما هم فيه من الأمن ورغد العيش،

وإتيانه بالناقة آية لهم، وتكذيبهم له وعقرهم الناقة، وأخذ العذاب لهم. ثم ذكر تكذيب قوم لوط عليه السلام له حين أمرهم بتقوى الله، وأنكر عليهم إتيان الذكران من العالمين، وتهديدهم له بإخراجه. وإنجائه وأهله إلا عجوزاً في الغابرين، وتدمير الآخرين بمطر الحجارة فساء مطر المنذرين.

ثم ذكر تكذيب أصحاب الأيكة نبيهم شعيب عليه السلام حين دعاهم إلى تقوى الله وطاعته والوفاء بالكيل والوزن بالقسط، ونهاهم عن بخس الناس أشياءهم والإفساد في الأرض. ورميهم له بالسحر، وتكذيبهم إياه، وطلبهم أن يسقط عليهم كسفاً من السماء؛ تكذيباً له، وأخذهم بالعذاب وفي كل ما ذكر آيات من آيات الله ودلائل على تمام قدرته وعزته ورحمته.

ثم ختم الله الكلام عن الأنبياء ورسالاتهم بالثناء على أفضل كتبه عز وجل، وآخرها نزولاً: القرآن الكريم وأنه نزل من عند الله عز وجل، من أصح طريق، على قلب سيد الخلق، وبأفصح لسان ﴿وَأَنزَلْنَاهُ لِنزِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٣﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٤﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١١٥﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١١٦﴾﴾.

٨- شهادة الكتب السابقة بصحة القرآن الكريم، وعلم علماء بني إسرائيل بذلك وشهادتهم به، وبيان قيام الحجة على العرب بكونه بلسانهم، إذ لو كان أعجمياً ما آمنوا به بحجة أنه أعجمي، وبيان عتو المشركين وإجرامهم، وأنهم لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم، الذي يستعجلونه، فيأتيهم بغتة، فلا يمكن إنظارهم، ولا أغنى عنهم ما كانوا يمتعون. وبيان أنه عز وجل ما أهلك من قرية إلا ولها منذرون؛ ذكرى وما كان عز وجل ظالماً لهم.

٩- حفظ القرآن الكريم من الشياطين: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿١١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ هُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

١٠- نبيه ﷺ أن يدعو مع الله إلهاً آخر- وحاشاه عن ذلك- وهو نهي له ولأمته وأمره بإنذار عشيرته الأقربين، وخفض جناحه للمؤمنين، والبراءة من عمل من عصاه، والتوكل على العزيز الرحيم، الذي يراه حين يقوم وتقلبه في الساجدين.

١١- بيان أن الشياطين إنما تنزل على كل أفاك أئيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون

وَأَن الشَّعْرَاءِ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، لَكُونَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَيَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿١١﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ﴿١٢﴾ .

١٢ - التهديد والوعيد للظالمين ﴿١١﴾ وَسَيَعْلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿١٢﴾ .

\* \* \*

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَمَ ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ ﴿لَعَلَّكَ بَدِخٌ نَّفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٣﴾  
 إِنَّ نَسْفًا نُنَزِّلُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ٤ ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ  
 مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مِمَّا كَانُوا بِهِ  
 يَسْتَهْزِئُونَ ٦ ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَاهٍ أَنْبَثْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً  
 وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ٨ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٩﴾ .

قوله تعالى: ﴿طَسَمَ ١﴾، سبق الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في مطلع سورة البقرة، وبيان أنها حروف من حروف الهجاء لا معنى لها في حد ذاتها، لكن لها مغزى وحكمة، وهي التحدي وبيان إعجاز القرآن الكريم.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢﴾، أي: هذه آيات القرآن البين الواضح في نفسه، المبين صدق الرسول ﷺ والمرسلين قبله عليهم السلام، والمبين للهدى من الضلال، والحق من الباطل، والحلال من الحرام، ولأهل السعادة من أهل الشقاء، وغير ذلك. وأشار إلى آيات الكتاب بإشارة البعيد ﴿تِلْكَ﴾، تعظيماً لها. والخطاب: لكل من يصلح له.

و«ال» في ﴿الْكِتَابِ﴾ للعهد، أي: الكتاب المعهود المعلوم، أفضل كتب الله تعالى وأعظمها، وأعظم الكتب على الإطلاق.

وسمي القرآن بـ«الكتاب»؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي بأيدي الملائكة؛ كما قال تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُكْرَمَةٍ ١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ [عبس: ١٣-١٦]؛ كما أنه مكتوب في المصاحف بأيدي المؤمنين.

﴿لَعَلَّكَ﴾، «لعل» هنا للإشفاق، أي: لعلك يا محمد.

﴿بَدِخٌ نَّفْسِكَ﴾، أي: قاتلها ومهلكها غمًا، أي: أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة وحرزًا وأسفًا؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذَهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَدِخٌ نَّفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِدَا الْحَدِيثِ آسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾، في محل جر بحرف جر محذوف، أي: من عدم إيمانهم، أو لعدم إيمانهم، واستمرارهم على الكفر.  
وفي هذا تسلية له ﷺ، أي: أشفق على نفسك فلا تهلكها، لعدم إيمان هؤلاء الكفار، ولا تحزن عليهم، فالهداية بيد الله تعالى، وما عليك إلا البلاغ، وقد بلغت.  
قال ذو الرمة<sup>(١)</sup>:

ألا أيهذا الباخع الوجد نفسه لشيء نحتته عن يديه المقادر

﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بتسكين النون الثانية، وتخفيف الزاي: «نُزِّلْ»، وقرأ الباقون بفتح النون الثانية، وتشديد الزاي: ﴿نُزِّلْ﴾.  
أي: إن نشأ نزل على هؤلاء الكفار ﴿مِنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾، أي: علامة فيها تهديدهم بالعذاب عاجلاً، تهديداً محسوساً؛ ولهذا قال:

﴿فَطَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ﴾، أي: فغطت أعناقهم، أي: رقابهم ﴿لَهَا خَضَعِينَ﴾، أي: ذليلين منقادين إلى الإيمان اضطراراً وقهراً، لا اختياراً.

أي: لو شئنا لأنزلنا عليهم من السماء آية تضطرهم إلى الإيمان، ولكننا لا نشاء ذلك؛ ليكون الإيمان اختيارياً؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

ولأن الإيمان عند رؤية العذاب لا ينفع؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ﴾، أي: وما يأتي الكفار المكذبين ﴿مِنَ ذِكْرٍ﴾، «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: وما يأتيهم من أي ذكر.  
و«الذكر»: القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ

(١) انظر: «ديوانه» (ص ٢٤٩)، «أساس البلاغة» للزمخشري (ص ٣١).

إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ [الحجر: ٦].

لأنه تذكير للخلق بربهم وأسمائه وصفاته ووحدانيته وعظمته وما يجب له، وتذكير بالأحكام والأدلة والمواعظ والعبر، وغير ذلك، وذكر وشرف له ﷺ ولقومه؛ كما قال تعالى: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ [ص: ١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ لَسْتَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿مِنَ الرَّحْمَنِ﴾، «من»: لابتداء الغاية، أو بيانية، أي: منزل من عند الرحمن، ومن كلامه عز وجل، وفيه إشارة إلى أن إنزال هذا الذكر رحمة منه عز وجل بعباده، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿مُحَدَّثٍ﴾ صفة لـ ﴿ذِكْرٍ﴾، أي: ذكر حديث النزول من عنده عز وجل.  
﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: إلا كانوا باستمرار عن هذا الذكر معرضين بقلوبهم وأبدانهم؛ كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا أَصْتَمَوْهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٣١﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٢-٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا سَمْعُوهَا هَذَا الْقُرْآنُ وَالْعَوَافِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦].

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾، الفاء: تعليلية، و«قد» حرف تحقيق، أي: كذبوا بما جاءهم من الذكر والحق.

﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، والسين: حرف استقبال، و«ما»: موصولة، أي: فسوف يأتيهم ويظهر لهم صدق أخبار الذي كانوا به يستهزئون، أي: يسخرون ويكذبون، من الوعيد في القرآن الكريم، وعلى لسان الرسول ﷺ، ويحق عليهم، ويقع بهم، ومن الوعد بنصرة الرسول ﷺ وما جاء به من الحق.

وهذا دأب أعداء الرسل عليهم الصلاة والسلام: التكذيب والاستهزاء بهم؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِّقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المؤمنون: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿يَحْسِرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يس: ٣٠].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ﴾، الهمزة: للاستفهام الإنكاري، والواو عاطفة، وقدمت الهمزة على الواو؛ لأن الاستفهام له الصدارة، أي: أو لم ينظروا إلى الأرض، ويتأملوا ويفتكروا فيها؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿قُلِ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا﴾، «كم» خبرية دالة على الكثرة، أي: أنبتنا كثيرًا فيها، ﴿مِنْ كُلِّ رَوْحٍ كَرِيمٍ﴾، أي: من كل صنف ونوع من أصناف وأنواع النباتات والثمار. ﴿كَرِيمٍ﴾، نفيس حسن نافع؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلْنَا فِيهَا رَوْحَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [الرعد: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٢﴾ كُتِبَ لَهُم مَّا عَمِلُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ ﴿٥٣﴾﴾ [طه: ٥٣-٥٤].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾، أي: إن في إخراج النباتات الكثيرة من الأرض بأصنافها المتعددة وأنواعها المختلفة، وحسنها ومنافعها، ﴿لَآيَاتٍ﴾، اللام: للتوكيد، وأفرد «آية» لإرادة الجنس، أي: لدلالة عظيمة على كمال قدرة الله تعالى وعظمته ووحدانيته، وقدرته التامة على إحياء الموتى بعد موتهم؛ كما أحيا الأرض بعد موتها.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: وما كان أكثر الكفار وأكثر الخلق مؤمنين، بل هم مصرون على الكفر مع بيان الآيات، وقيام الحجة عليهم بالأدلة والبراهين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾، الخطاب للنبي ﷺ، أو: لكل من يصلح له. ﴿أَلَهُوَ الْعَزِيزُ﴾، اللام: للتوكيد، و«العزیز» من أسماء الله عز وجل، أي: ذو العزة التامة بأقسامها الثلاثة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

ومن عزته عز وجل أنه ينصر رسله وأتباعهم المؤمنين وينجيهم، وينتقم من

أعدائه المكذبين والكافرين ويهلكهم.

﴿الرَّحِيمُ﴾، اسم من أسمائه عز وجل، يدل على إثبات صفة الرحمة الواسعة له عز وجل؛ رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يرحم بها عباده؛ رحمة خاصة، ورحمة عامة؛ فهو ذو الرحمة التي وسعت كل شيء، يتوب على من تاب وأناب إليه، ولا يعاجل من عصاه بالعقوبة؛ قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الكهف: ٥٨].

### الفوائد والأحكام:

- ١- إثبات إعجاز القرآن، والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿طَسَمَ﴾.
- ٢- تعظيم آيات القرآن الكريم، والتنويه به وتشريفه؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾.
- ٣- أن «الكتاب» إذا أطلق، فالمراد به: القرآن الكريم، أعظم الكتب على الإطلاق، وأفضل كتب الله عز وجل.
- ٤- امتداح الله عز وجل لكتابه العزيز بوصفه بالبيان والوضوح في نفسه، وتبيينه الحق من الباطل، والهدى من الضلال، والحلال من الحرام، وتبيين صدق من جاء به، إلى غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿الْمُبِينِ﴾.
- ٥- عناية الله تعالى بالنبي ﷺ، ودفاعه عنه، وحفظه له، وتسليته له فلا تذهب نفسه حسرات وحرزاً على عدم إيمان كفار قومه؛ فليس عليه إلا البلاغ، وقد بلغ البلاغ المبين، وهداية القلوب بيد رب العالمين؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.
- ٦- حرصه ﷺ على هداية قومه، وشدة ما يعانیه من المشقة والحزن وضيق الصدر بسبب عدم إيمانهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعَّمْنَا أَنْكَ يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠].

٧- ينبغي للدعاة إلى الله والمربين والموجهين- بعد بذل جهدهم- ألا تذهب أنفسهم حسراتٍ وغماً وحزناً، على عدم قبول الناس للحق؛ لأن من اغتم لأجل ذلك انشغل بغيره عن نفسه، وربما صار همه ولاء الناس، فأفسد عليه هذا عبادته ونيته.

٨- قدرة الله تعالى التامة على إنزال آية من السماء تلجئ هؤلاء الكفار للإيمان، وتخضعهم، لو شاء عز وجل ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝٤﴾.

٩- إثبات المشيئة لله تعالى؛ وهي الإرادة الكونية، وأن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

١٠- إثبات العلو لله تعالى، فله عز وجل علو الذات وعلو الصفات على جميع خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ ۝٤﴾، والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

١١- تهديد هؤلاء المكذبين بإنزال آية تخضعهم وتضطربهم إلى الإيمان.

١٢- أن الله عز وجل شاء وأراد بحكمته أن يكون الإيمان اختياراً لا اضطراراً؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝٤﴾.

١٣- إعراض الكفار عن كل ما يأتيهم من ذكر من الرحمن حديث النزول؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥﴾.

١٤- إثبات اسم الله تعالى: «الرحمن»، وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل، ذاتية وفعلية، ومن رحمته عز وجل بعباده إنزال الكتاب عليهم، وإرسال الذكر إليهم.

١٥- تكذيب الكفار بما جاءهم من الحق، والوعيد والتهديد لهم؛ بأنه سوف يأتيهم ويظهر لهم صدق الذي كانوا به يستهزئون من القرآن وكلام الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦﴾.

١٦- الإنكار على هؤلاء الكفار عدم النظر والتأمل في إحياء الأرض بعد موتها بالنباتات الكثيرة ذات الأصناف والأنواع المختلفة؛ وذات الحسن والبهجة والمنافع العظيمة؛ ليستدلوا بذلك على وحدانية الله عز وجل وقدرته التامة على بعث الناس بعد موتهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧﴾.

١٧- أن في إحياء الأرض بعد موتها بالنباتات الكثيرة المختلفة الأصناف والحسن والمنافع ونحو ذلك؛ دلالة عظيمة على وحدانية الله عز وجل، وتمام قدرته على البعث؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ﴾.

١٨- عدم إيمان كثير من الناس، مع قيام الحجة عليهم بالأدلة والحجج والبراهين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ۖ﴾.

١٩- لا ينبغي الاغترار بما عليه أكثر الخلق؛ فأكثرهم غير مؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۚ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ۝﴾ [سبأ: ١٣].

٢٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بنبية ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ ۖ﴾.

٢١- إثبات اسم الله تعالى: «العزیز»، وما يدل عليه من صفة العزة التامة له عز وجل، ونصرته عز وجل لرسله وأوليائه، وإنجائهم، وانتقامه من أعدائه المكذبين الكافرين وإهلاكهم؛ لقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ ۖ﴾.

٢٢- إثبات اسم الله تعالى: «الرحيم»، وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل، ذاتية وفعلية، ومن رحمته سبحانه توبته على من تاب وأناب إليه، وعدم معاجلته من عصاه بالعقوبة، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿الرَّحِيمُ ۖ﴾.

٢٣- في اقتران اسميه عز وجل: «العزیز» و«الرحيم»، وصفتي العزة والرحمة في حقه زيادة كمال إلى كمال.



قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۗ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٧﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَبْسُطُنِي لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٩﴾ قَالَ كَلَّا فَإِذْ مَا هَمَّ بِتَأْيِيدِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿٢٠﴾ فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿٢٣﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْآتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ فَعَلْتَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٥﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٦﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٧﴾﴾.

حذر عز وجل نبيه ﷺ من إهلاك نفسه، لعدم إيمان كثير من المشركين من قومه، وإعراضهم عن الذكر وتكذيبهم، وأنكر عز وجل عليهم، ووبخهم على عدم نظرهم في الآيات الدالة على عظمة الله تعالى ووحدانته، وقدرته التامة على بعث الناس بعد موتهم، وتوعدهم وهددهم، ثم أتبع ذلك بذكر قصص الأنبياء وما لقوا من أمهم من التكذيب والأذى؛ ومن ثم إنجاء الرسل وأتباعهم، وإهلاك المكذبين، تهديدًا للمشركين، وتسلية له ﷺ.

وقد ذكر الله عز وجل هذه القصص مبسوطه في سورة الأعراف وسورة هود؛ كما ذكرها في عدد من السور.

وبدأ هنا بذكر قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وقد بسطها في سورة طه وسورة القصص؛ كما أعادها وثناها في القرآن أكثر من غيرها؛ لما فيها من الحكم والمواعظ والعبر العظيمة، ولا غرو في هذا، فكتاب موسى «التوراة» أفضل الكتب بعد القرآن الكريم، وشريعته أعظم الشرائع بعد شريعة الإسلام، وهو عليه السلام أفضل الرسل بعد محمد وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

قوله: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾، أي: واذكر يا محمد حين نادى ربك موسى عليه السلام من جانب الطور الأيمن، ودعاه وكلمه وناجاه، وأرسله واصطفاه؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [مريم: ٥٢].

﴿أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، «أن» تفسيرية، فالجملة تفسير وبيان لقوله: ﴿وَإِذْ

نَادَى﴿، أي: اذهب إلى القوم الظالمين، الذين تجاوزوا الحد في الظلم بالشرك والكفر والمعاصي، والاعتداء على عباد الله وظلمهم، وظلم أنفسهم، حتى صار الظلم سجية وصفة ثابتة لهم، وفي وصفهم بالظالمين تهيئة لموسى عليه السلام للاستعداد لهم ولمجادلتهم.

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾، بدل من قوله: ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، أي: قوم فرعون ملك مصر في عهد موسى عليه السلام، الذي ادعى الربوبية والإلهية، وعبد قومه لغير الله، فاستخف بهم فأطاعوه.

﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾، «ألا» أداة عرض وتحضيض، وفيها معنى التعجب، أي: قائلًا لهم: ألا يتقون؟ أي: ألا يتقون الله، ويخشون عذابه، فيتركوا ما هم عليه من الظلم؟ وقيل: الهمزة للاستفهام، و«ألا» نافية.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿رَبِّ﴾، أي: يا رب، ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «أخاف»، أي: أخاف تكذيبهم لي، فلا يصدقوا أني رسول من عندك إليهم.

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾، قرأ يعقوب بنصب القاف: «وَيَضِيقُ»، «وَلَا يَنْطَلِقُ»، وقرأ الباقون برفعها: ﴿وَيَضِيقُ﴾، ﴿وَلَا يَنْطَلِقُ﴾.

أي: ويضيق صدري بسبب تكذيبهم لي، وكوني وحدي، ﴿وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾؛ لأنه كان في لسانه عليه السلام لثغة وعقدة؛ ولهذا قال في دعائه: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ ﴿٥٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٦١﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي ﴿٧٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٨٨﴾ [طه: ٢٥-٢٨].

﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾، أي: فابعث إلى هارون أخي معي بالرسالة، أي: أرسله معي؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ ﴿١٦١﴾ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٦٢﴾ [القصص: ٣٤]، ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ ﴿١٦٣﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿١٦٤﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ﴿١٦٥﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿١٦٦﴾ كَيْ نَسَبِحَكَ كَثِيرًا ﴿١٦٧﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿١٦٨﴾ [طه: ٢٨-٣٤].

وقد أجاب الله دعوته، وأعطاه سؤله، قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾

يَكْمُوسَى ﴿٣٦﴾ [طه: ٣٦]، إلى قوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾﴾ [طه: ٤٢-٤٣].

ولهذا قالوا: إن أعظم الناس نفعًا لأخيه وشفاعة له موسى مع أخيه هارون عليهما السلام؛ حيث سأل الله أن يجعل أخاه هارون نبيًا ورسولًا معه، ووزيرًا ومعينًا له، فأجاب الله دعوته، وآتاه ما سأل.

﴿وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾، أي: ولهم علي ذنب في قتلي الرجل القبطي؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٥﴾﴾ [القصص: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ﴿١٥﴾﴾ [القصص: ١٥].

فعد قتله لهذا القبطي ذنبًا؛ ولهذا قال: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴿١٦﴾﴾ [القصص: ١٥-١٦].

﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾، الفاء عاطفة، أو رابطة لجواب شرط مقدر، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «أخاف»، أي: فأخاف قتلهم إياي قبل تبليغ الرسالة إليهم.

﴿قَالَ ﴿١٤﴾﴾، أي: قال الله عز وجل له: ﴿كَلَّا ﴿١٤﴾﴾، كلمة إبطال ونفي، أي: لا يقتلونك، أو لا تخف أن يقتلوك؛ فإنهم لا يتمكنون من ذلك، قال تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيٰتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص: ٣٥].

ولهذا لم يتمكن فرعون من قتل موسى عليه السلام مع منابذته لفرعون غاية المنابذة، وتسفيه رأيه، وتضليله وقومه.

﴿فَأَذْهَبَا﴾، الخطاب لموسى وهارون ﴿بِآيٰتِنَا﴾، الباء: للمصاحبة، أي: مصاحبين لآياتنا ودلائلنا وحججنا الشرعية بالوحي، والكونية كالعصا واليد؛ الدالة على وحدانية الله تعالى، وعلى صدقكما وصحة ما أرسلتنا به.

﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾، أي: إنا معكم معية خاصة بالكلاءة والحفظ والنصر والتأييد والتوفيق، ﴿مُسْتَمِعُونَ﴾، أي: مستمعون لقولكما، وقول فرعون وقومه لكما، و﴿مُسْتَمِعُونَ﴾ أبلغ من «سامعون»؛ لما فيه من الدلالة على العناية بهما؛ ولهذا قالوا؛ كما في الآية الأخرى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ قال عز وجل: ﴿لَا نَخَافُ أَنْتِنَا مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٥، ٤٦].

﴿فَاتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١٦، أي: أنا وأخي رسولا رب العالمين، أي: كل منا رسول إليك من رب العالمين؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي﴾ ٤٤ ﴿أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ ٤٣ ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ لَنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٢-٤٤].

وقوله: ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ لإشعار فرعون من أول وهلة أن الربوبية ليست له، بل هي لله تعالى وحده.

﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ١٧، «أن»: تفسيرية، فالجملة تفسير وبيان لقوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أي: أرسلنا إليك: أن ترسل معنا بني إسرائيل.

ويجوز أن تكون «أن» مصدرية، وهي والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر محذوف، والتقدير: بأن أرسل معنا بني إسرائيل، أي: أطلقهم من أسرك وقبضتك وقهرك وتعذيبك؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا نُعَذِّبُهُمْ﴾ [طه: ٤٧].

﴿قَالَ﴾، أي: قال فرعون معرضاً عن دعوة موسى وهارون له وطلبها منه إرسال بني إسرائيل: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا﴾، الاستفهام: للتقرير أو للتقريع، أي: ألم ننعم عليك بتربيتك في منازلنا ﴿وَلِيدًا﴾؟ أي: حين كنت وليداً في مهدك.

﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾، أي: أقمت ومكثت فينا وعلى فراشنا من عمرك مدة من السنين أنعمنا عليك فيها.

﴿وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾، الفعلة: المرة الواحدة من الفعل، وأبهم هذه الفعلة؛ للتعظيم، وأضافها إليه للتقرير، أي: قابلت إحساننا إليك، وإنعامنا عليك،

بفعلتك العظيمة التي لم يفعلها سواك؛ بأن قتلت منا رجلاً ظلمًا.

﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، الجملة في محل نصب على الحال، أي: والحال أنك من الكافرين بنا، الجاحدين المنكرين لنعمتنا عليك.

والمعنى: أبعده هذه النعمة عليك؛ بتربيتك فينا وليدًا، ولبثك فينا من عمرك سنين، وبعد قتلك رجلاً منا- تأتي وتدعي أنك رسول رب العالمين، وتنكر ربوبيتي؟! وكان الأليق بك أن تأتي خاضعًا لنا، معترفًا بإفضالنا عليك، معتذرًا عن خطئك علينا.

﴿قَالَ﴾، موسى عليه السلام: ﴿فَعَلْتُمْهَا إِذَا﴾، «إِذْنٌ» حرف جواب لا عمل له.

﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾، الواو: حالية، أي: والحال أني من الضالين، أي: من الجاهلين، أي: قبل أن ينعم الله علي بالرسالة والنبوة والوحي، وأعرف طريق الحق والهدى والرشاد؛ كما قال تعالى لنينا ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧]، أي: لم تهتد إلى هذا الشرع القويم.

وهذا اعتراف من موسى عليه السلام بأن ذلك حصل منه على وجه الضلال والجهل والخطأ، ولهذا قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦].

﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ﴾، الفاء: عاطفة في الموضعين، أي: فهربت منكم، وخرجت من مصر إلى مدين، ﴿لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾، «لما» ظرف بمعنى: «حين»، متضمن معنى الشرط.

أي: حين خفتكم، أي: حين خفت منكم أن تقتلونني، والخطاب لفرعون وملئه الذين ائتمروا على قتل موسى عليه السلام؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [٢١] فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٣﴾ [القصص: ٢٠-٢٢].

﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾، أي: فأعطاني ربي الحكم والعلم والنبوة.

﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، أي: وجعلني قدرًا وشرعًا من المرسلين، الذين يبلغون رسالاته إلى الناس، وأرسلني إليك، أي: وليس لك أن تعترض وترد رسالتي إليك

بمجرد أنه وقع القتل مني ضللاً وجهاً قبل أن يرزقني ربي الحكم والرسالة.  
 ولم يقل: وجعلني رسولاً؛ لبيان أنه ليس بدعاً من الرسل.  
 ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، الواو عاطفة، و«تلك»  
 إشارة إلى مقالة فرعون ماناً على موسى: ﴿أَلَمْ نُزَيِّكْ فِيْنَا وَلِيدًا وَلَبِثتَّ فِيْنَا مِنْ عُمْرِكَ  
 سِنِينَ﴾.

وأشار إليها بإشارة البعيد تحقيراً لها في مقابل ما لحق بني إسرائيل منه من الأذى؛  
 ولهذا قال: ﴿تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾، أي: تُدَلِّ بها علي، وتذكرني بها:

﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، «أن» والفعل «عبدت» في تأويل مصدر في محل رفع  
 عطف بيان للمبتدأ «تلك»، أي: تعبيدك بني إسرائيل، أو هو بدل من الهاء في «تمنّها»،  
 أو في محل جرياء أو لام محذوفة، أي: بأن عبدت بني إسرائيل.

أي: جعلتهم عبيداً لك بإذلالهم وقتل أبنائهم واستحياء نسائهم، وهو سبب إلقاء  
 أمي إياي في البحر؛ للسلامة من شرِّك حتى قدر الله وصولي إلى بيتك، فكيف تعتبر  
 تربيتك لي والحال هذه نعمة تُدَلِّ بها علي؟! وقدَّر بعضهم همزة استفهام تفيد التوبيخ،  
 أي: أتلك نعمة... أي: ليست بنعمة.

قال ابن كثير<sup>(١)</sup>: «أي: وما أحسنت إلي وربيتني مقابل ما أسأت إلى بني إسرائيل،  
 فجعلتهم عبيداً وخدمًا تصرفهم في أعمالك، ومشاق رعيتك، أفيفي إحسانك إلى رجل  
 واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم؟ أي: ليس ما ذكرته شيئاً بالنسبة إلى ما فعلته بهم».

### الفوائد والأحكام:

١- تذكير النبي ﷺ وأمه بقصة موسى عليه السلام، وما جرى له مع فرعون  
 وقومه، وما لقي منهم من التكذيب والأذى، وإنجاء الله تعالى لموسى وقومه، وإهلاك  
 فرعون وقومه، وفي ذلك تسلية له ﷺ تجاه من كذبه وكفر به من قومه، ووعيد وتهديد  
 لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ الآيات.

٢- إثبات نداء الله عز وجل، وتكليمه موسى عليه السلام؛ وإثبات نبوته

(١) في «تفسيره» ١٤٧/٦.

- ورسالته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾﴾.
- ٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾، وقوله: ﴿رَبِّ﴾.
- ٤- أن الله عز وجل أرسل موسى إلى فرعون وقومه؛ كما أرسله إلى بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١٢﴾﴾.
- ٥- بلوغ فرعون وقومه الغاية في الظلم؛ لوصف الله عز وجل لهم بـ ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، ولا أشد ظلماً من دعوى الربوبية والألوهية، والكفر والشرك بالله، وعدم تقواه.
- ٦- أمره عز وجل موسى عليه السلام بالعرض على فرعون وقومه، وحضها على التقوى، واستمالتها إلى ذلك بالقول اللين؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٤].
- ٧- تخوف موسى عليه السلام أن يكذبه فرعون وقومه؛ لما عرف عنهم من التمرد والعنوة والعناد؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٣﴾﴾.
- ٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لموسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ﴾، وقوله: ﴿فَوَهَبْ لِي رَبِّي﴾.
- ٩- شكواه عليه السلام إلى ربه؛ خشية أن يضيق صدره بسبب تكذيبهم له وكونه وحده؛ لقوله: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾.
- ١٠- شكواه عليه السلام إلى ربه عدم انطلاق لسانه؛ لما فيه من لثغة أو عقدة؛ لقوله: ﴿وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾.
- ١١- أن شكوى الحال إنما تكون إلى الله تعالى، فهو الذي إليه المشتكى ويرفع البلوى.
- ١٢- سؤاله عليه السلام ربه أن يرسل إلى هارون أخيه؛ ليكون معه وزيراً ومعيناً؛ لقوله: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَارُونَ﴾.
- ١٣- اعترافه عليه السلام بما حصل منه من ذنب في قتل القبطي، وخوفه من قوم

- فرعون أن يقتلوه بذلك القتل؛ لقوله: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ ﴿١٤﴾.
- ١٤- جواز الخوف الطبيعي؛ لقول موسى عليه السلام: ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾.
- ١٥- تكفله عز وجل لموسى عليه السلام بحفظه، وطمأنته إياه بعدم تمكنهم من قتله؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّا﴾.
- ١٦- استجابة الله تعالى لموسى، وإرساله إلى هارون، كما قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٣٦]، وإثبات نبوة هارون عليه السلام ورسالته؛ لأمر الله عز وجل له وللموسى بالذهاب بآياته إلى فرعون وقومه؛ لقوله تعالى: ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾.
- ١٧- إثبات معيته عز وجل الخاصة لموسى وهارون؛ معية الحفظ والعناية والنصر والتأييد والتوفيق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾.
- ١٨- إثبات صفة السمع والاستماع لله عز وجل، واستماعه عز وجل لما يقوله موسى وهارون لفرعون وقومه، وما يقال لهما؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾.
- ١٩- تعظيم الله عز وجل لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا﴾ بضمير الجمع؛ لأنه سبحانه هو العظيم، ذو العظمة التامة.
- ٢٠- أمره عز وجل بإتيان فرعون، وإبلاغه أنهما رسولا رب العالمين، أرسلهما إليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٦﴾.
- ٢١- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.
- ٢٢- أن مما أرسل به موسى وهارون إلى فرعون مع دعوته وتذكيره؛ مطالبته بإرسال بني إسرائيل، وإطلاقهم من أسره وقبضته وقهره وتعذيبه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ﴿١٧﴾.
- ٢٣- عناية الله تعالى ببني إسرائيل، وتخليصهم من إزدلال فرعون وتعبيده إياهم.
- ٢٤- إعراض فرعون عن دعوة موسى وهارون، وسؤالهما إياه بني إسرائيل، إلى تقرير موسى للإدلال عليه بتربيته له وليدًا، وإقامته فيهم سنين من عمره، وقتله القبطي، وكفره نعمته؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾.

- ٢٥- أن موسى عليه السلام تربى في بيت فرعون حين كان وليدًا، ولبث فيهم من عمره سنين؛ لهذا لم ينكر موسى عليه السلام على فرعون قوله.
- ٢٦- فضيلة موسى عليه السلام وصدقه؛ لاعترافه على نفسه بقتل القبطي، واعتذاره أنه إنما فعل تلك الفعلة عن ضلال وجهل، قبل أن ينعم الله عليه بالنبوة والرسالة، ويعرف طريق الهدى والرشاد؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَعَلَّهَا إِذَا وَاَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٦﴾﴾.
- ٢٧- عدم جواز القتل بغير حق، وأن من ارتكبه فهو من الضالين.
- ٢٨- فرار موسى عليه السلام بعد قتله القبطي، وخروجه من مصر إلى مدين خوفًا من فرعون وقومه أن يقتلوه؛ لقوله: ﴿فَقَرَّرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾.
- ٢٩- منة الله تعالى على موسى بعد فراره من قوم فرعون، وخروجه من مصر إلى مدين؛ بالحكم والنبوة والرسالة؛ لقوله: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.
- ٣٠- أن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، وما كان في الله تلفه كان على الله خلفه، فموسى عليه السلام لما خرج من مصر خوفًا من فرعون وقومه، عوضه ربه خيرًا من ذلك؛ فوهب له حكمًا وجعله من المرسلين؛ ليعود إليها نبيًا رسولًا إلى فرعون وقومه وإلى بني إسرائيل.
- ٣١- تحقير ما من به فرعون على موسى عليه السلام، من تربيته له وليدًا، ولبثه فيهم من عمره سنين، وأن ذلك لا يعد نعمة في مقابل تعبيده لبني إسرائيل وإذلاله إياهم؛ لقوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٣١﴾﴾.
- ٣٢- إذلال فرعون لبني إسرائيل وجعلهم عبيدًا له ولقومه يسومونهم سوء العذاب؛ يقتلون أبناءهم، ويستحيون نساءهم.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لِمَنِ اتَّخَذَتْ إِبِلَهَا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوْلَوْ جِثَّتْ بِشِقْوِ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَاتِّبِعْهُ إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَالْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأُعِثِّ فِي الْمَدَائِنِ خَبِيرِينَ ﴿٣٦﴾ يَا تُوَكُّ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾:

قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾، أي: لما قال له موسى وهارون عليها السلام: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾؛ إنكاراً وجحوداً لربوبية الله تعالى ظمناً وعلواً، أي: ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري؟! أي: أنه لا رب ولا إله للعالمين غيري؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ﴿٢١﴾﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

ومع جرأته على الله تعالى وتمرده وطغيانه، فهو يعلم بيقين صحة وصدق ما دعاه إليه موسى؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، أي: رب العالمين هو رب السموات والأرض وما بينهما، أي: خالق السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات، ومالك ذلك كله، والمتصرف فيه ومدبره، فالجميع عبيده خاضعون له. ﴿إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾، أي: فآمنوا وأيقنوا به وحده، واليقين: التصديق الجازم.

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ﴾، أي: قال فرعون لمن حوله من ملئه وجنوده متعجباً، ومتهكماً ومستهزئاً، ومكذباً لموسى: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾، أي: ألا تستمعون وتعجبون مما يقول هذا في زعمه أن رب العالمين رب السموات والأرض، وأن لكم رباً وإلهاً غيري؟! وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤].

﴿قَالَ﴾، أي: قال لهم موسى مؤكداً- في تحد صارخ لفرعون وملئه- عموم ربوبية الله تعالى لجميع الخلق: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾، أي: هو عز وجل رب العالمين، رب السموات والأرض وما بينهما، ربكم ورب آبائكم الأولين، رغم أنوفكم، هو خالقكم ومالككم والمتصرف فيكم، سواء أيقنتم أم تعجبتم وكذبتهم.

﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، «إن» واللام: للتوكيد. وقصد بقوله: ﴿رَسُولَكُمْ﴾- مع تكذيبه برسالته- السخرية والتهكم به، بقرينة قوله: ﴿لَمَجْنُونٌ﴾، أي: مصاب بمس من الجنون، يهذي بها لا يدري في دعواه أن ثم رباً وإلهاً غيري، وهذا ديدن المكذبين، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢].

وقوله: ﴿رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ﴾ دون أن يقول: «رسولنا الذي أرسل إلينا» علو وتكبر منه، وزيادة في التهكم.

﴿قَالَ﴾ موسى مؤكداً تأكيداً تاماً عموم ربوبية الله تعالى لجميع الخلق: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، أي: رب مشرق الشمس والقمر والنجوم وسائر الكواكب ومغربها، ورب ما بينهما من جميع المخلوقات، أي: خالق ذلك كله، ومالكة، والمتصرف فيه، فانتقل عليه السلام في إثبات عموم ربوبية الله تعالى من تأكيد إلى آخر، وكما قال تعالى في سورة طه: ﴿رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ وَهُوَ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، أي: إن كنتم ذوي عقول تهديكم إلى الحق، وإلى معرفة عموم ربوبية الله عز وجل لجميع الخلق، أي: فآمنوا به وحده.

وفي هذا إيحاء وتنبية إلى أن فرعون وملاه هم الذين لا يعقلون، وأن الذي رموا به موسى من الجنون هو داؤهم، وكما قيل: رممني بدائها وانسلت.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٨﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٠﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣١﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٢﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأُعْثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٣﴾ يَا تُؤَكُّوفُ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٣٤﴾.

قوله: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٦﴾﴾:

لما غلب فرعون، وأسقط في يده، وقامت عليه الحجة بالبيان والعقل؛ عدل إلى التهديد والوعيد لموسى، باستعمال جاهه وقوته وسلطانه، معتقداً أن ذلك نافع له، ونافذ في موسى عليه السلام، وهذا مسلك العاجزين عن رد الحجة بالحجة والبرهان، يعدلون إلى التهديد بالقوة والسلطان.

﴿قَالَ﴾، أي: قال فرعون متهدداً ومتوعداً موسى عليه السلام: ﴿لَئِنِ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي﴾، اللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن اتخذت إلهاً غيري، أي: جعلت وعبدت معبوداً غيري.

﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾، اللام: واقعة في جواب القسم، أي: لأجعلنك من جملة المسجونين على الدوام، ولم يقل: «لأسجننك»؛ زيادة في تهديد موسى، بأن هناك سجناء، وأنه قادر على سجن الناس.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾، الهمزة للاستفهام، وهو مشوب بالإنكار والاستغراب، أي: أتتوعدني بالسجن وتردد دعوتي ولو أتيتك ﴿بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾؟ أي: ببرهان بين قاطع واضح مظهر أني رسول الله، ودال على صحة وصدق ما جئت به. كما قال في سورة الأعراف: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٠٥].

﴿قَالَ﴾ فرعون متحدياً لموسى: ﴿فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، أي: فأت بهذا الشيء المبين إن كنت من الصادقين فيما تقول، وما أظنك صادقاً.

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ﴾، أي: فألقى موسى عصاه من يده على الأرض.

﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾، الفاء عاطفة في الموضعين، و«إذا» في الموضعين هي

الفجائية، و«الثعبان»: الحية، ونكر للتعظيم والتهويل، أي: فإذا هي حية ضخمة طويلة؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه: ٢٠].

﴿مُبِينٌ﴾، أي: بين ظاهر واضح لكل أحد، لا لبس فيه ولا تخيل.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾، أي: أخرجها من جيب قميصه.

﴿فَإِذَا هِيَ﴾، أي: فإذا هي فجأة ﴿بَيضَاءُ﴾، أي: تتلألأ بياضًا ونورًا مخالفًا لون

جلده، من غير برص؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿تَخْرُجُ بَيضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ﴾ [طه: ٢٢].

﴿لِلنَّظِيرِينَ﴾، أي: لكل ناظر.

﴿قَالَ﴾، أي: قال فرعون مكذبًا ومعارضًا للحق ومن جاء به، ومعانداً ﴿لِلْمَلَأِ

حَوْلَهُ﴾، أي: لجنوده ومرؤوسيه وجلسائه: ﴿إِنَّ هَذَا﴾، يعني موسى عليه السلام

﴿لَسِحْرٍ عَلِيمٌ﴾، اللام للتوكيد، أي: عليم بالسحر، بارع فيه، فروج عليهم فرعون أن

هذا من قبيل السحر، لا من قبيل الآيات والمعجزات؛ ليصددهم عن التأمل فيها

والتفكير، كما قال في سورة الأعراف: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ

عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ [الأعراف: ١٠٩].

أي: أنهم لما قال لهم فرعون ذلك، قالوه وأعادوه بلفظه للموافقة التامة له.

﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل

نصب مفعول لـ «يريد»، أي: يريد إخراجكم من أرضكم، أي: أن قصده التوصل إلى

إخراجكم من أرضكم ﴿لِسِحْرِهِ﴾، الباء للسببية، أي: بسبب ما يموه به من سحره على

قلوبكم وقلوب الناس؛ ليكثر أتباعه وأعوانه، فيغلبكم على أرضكم، ويخرجكم منها.

ولم يقل: يريد أن يخرجني، أو: أن يخرجنا؛ ترفعًا وتعظيمًا أن يبدو أمام موسى

بمظهر الضعيف بل قال: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ﴾.

وقد عمد في قوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ إلى تهيجهم وتحريضهم

على تكذيب موسى ومخالفته؛ بإثارة حمية الأوطان في نفوسهم؛ لأن حب الأوطان

مركوز في الفطر، حتى قيل: إنه من الإيمان. وقد وقف المصطفى عليه السلام على

الحزورة مخاطبًا مكة قائلًا: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا  
أني أخرجت منك ما خرجت»<sup>(١)</sup>.

قال الشاعر:

ولي وطن آليت ألا أبيعـه      ولا أرى غيري له الدهر مالكا  
عمرت به شرخ الشباب منعمًا      بصحبة قوم أصبحوا في ظلالكا  
وحبب أوطان الرجال إليهم      مآرب قضاها الشباب هنالكا  
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم      عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا  
فقد ألفتـه النفس حتى كأنه      لها جسد إن بان غودر هالكا<sup>(٢)</sup>

وقال الآخر:

بلادي وإن جارت علي عزيزة      وأهلي وإن ضنوا علي كرام<sup>(٣)</sup>  
وقال الآخر:

بلادي هواها في لساني وفي دمي      يمجدها قلبي ويدعو لها فمي  
ولا خير فيمن لا يحب بلاده      ولا في حليف الحب إن لم يقيم  
ومن تئوه دار فيجحد فضلها      يكن حيوانًا فوقه كل أعجم  
ألم تر أن الطير إن جاء عشه      فأواه في أكنافه يترنم  
وليس من الأوطان من لم يكن لها      فداء وإن أمسى إليهن ينتمي  
على أنها للناس كالشمس لم تنزل      تضيء لهم طرًا وكم فيهم عمي  
ومن يظلم الأوطان أو ينس حقها      تجئه فنون الحادثات بأظلم

(١) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٩٢٥، وابن ماجه في المناسك ٣١٠٨: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه،

وقال الترمذي: «حديث غريب صحيح».

(٢) الأبيات لابن الرومي. انظر: «ديوانه» (١٨٢٦/٥).

(٣) هذا البيت بدون نسبة. انظر: «تفسير المراغي» (٤٢/٢٨)، «البلاغة الواضحة» (ص ٨٧).

وما يرفع الأوطان إلا رجاها وهل يترقى الناس إلا بسلم؟  
«ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذم»<sup>(١)</sup>

﴿فَمَآذَا تَأْمُرُونَ﴾، الفاء عاطفة، و«ماذا»: اسم استفهام، أو: «ما» اسم استفهام، و«ذا» اسم موصول، أي: فما الذي تأمرون به؟ أشيروا عليّ، ماذا أصنع به؟  
﴿قَالُوا﴾، أي: قال الملاء لفرعون لما استشارهم ماذا يأمرونه أن يصنع بموسى؟  
﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾، أي: أخره وأخاه، أي: أجل البت في أمرهما.  
﴿وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ﴾، المدائن: جمع مدينة، أي: وأرسل في مدائن مملكتك وأقاليمها ﴿حَٰشِرِينَ﴾ جامعين، أي: جنودًا يجمعون السحرة؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الآية: ١١١]  
﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾ جواب الأمر: «ابعث»، أي: يأتوك بكل سحار متخصص بالسحر، ممارس له.

﴿عَلِيمٍ﴾، أي: عليم بالسحر، ماهر به متقن له؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف:  
﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [الآية: ١١٢].  
والمعنى: أجله وأخاه، واجمع السحرة الممارسين للسحر، الماهرين به؛ لكي يغالبوا موسى، ويأتوا بمثل ما جاء به من السحر، فتغلبه أنت، وتكون لك النصره والتأييد.  
**الفوائد والأحكام:**

١- إنكار فرعون ربوبية الله تعالى للعالمين، زعمًا منه أنه لا رب غيره، ولا إله سواه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾<sup>(٢)</sup>، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ﴾<sup>(٣)</sup> [طه: ٤٩].

٢- إثبات ربوبية الله تعالى للعالمين، وأنه رب السموات والأرض وما بينهما؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) هذه الآيات لمصطفى صادق الرافعي، والبيت الأخير مضمن فيها من شعر زهير. انظر: «ديوان الرافعي» (ص ٢٣).

٣- أنه إنما يقر بربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق وإلهيته أهل اليقين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾.

٤- تعجيب فرعون لمن حوله من قول موسى لما سأله: وما رب العالمين؟ ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾، وتهكمه واستهزأه به بقوله لمن حوله: ﴿أَلَا تَسْتَعْمُونَ﴾، أي: ألا تستمعون إلى ما يقول هذا في زعمه أن له ربًّا وإلهًا غيري؟

٥- تأكيد موسى عليه السلام عموم ربوبية الله تعالى لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾.

٦- سخرية فرعون من موسى، ورميه له بالجنون؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، وهذا ديدن المكذبين للرسول عليهم السلام.

٧- تأكيد موسى عليه السلام مرة ثانية عموم ربوبية الله تعالى لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

٨- أنه إنما يهتدي إلى الحق، ويعرف عموم ربوبية الله تعالى لجميع الخلق؛ ذوو العقول الذين ينتفعون بعقولهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

٩- أن فرعون وملاه أحق بوصف الجنون وعدم العقل؛ لعدم إيمانهم بربوبية الله تعالى وإلهيته لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، فمفهوم هذا: أن من لم يؤمن بذلك فليس بعاقل.

١٠- لجوء فرعون لما غلب، وأسقط في يده، وانقطعت حجته؛ إلى تهديد موسى بأخذه بالقوة، وتوعده بالسجن؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَئِنْ آتَيْتَ الْهَارَ عَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾، وهذه حيلة العاجز.

١١- إنكار موسى على فرعون توعده له بالسجن، ورد دعوته مع ما جاء به من الحجة والبيان والبرهان القاطع على أنه رسول الله، وعلى صحة ما جاء به وصدقه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْلَوْ جِئْتِكَ بِسَيِّئٍ مُّبِينٍ﴾.

١٢- مبادرة فرعون- لخبث نيته وسوء طويته- إلى التشكيك بما جاء به موسى من

الآيات والمعجزات قبل أن يُظهرها له؛ لقوله: ﴿فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿٣١﴾﴾، وقوله في الآية الأخرى: ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ حِجَّتَ بِبَيٰٓةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف: ١٠٦]، وكأنه يقول: وما إخالك من الصادقين.

١٣- أن من أعظم الآيات والمعجزات الكونية التي أجراها الله على يد موسى عليه السلام: انقلاب عصاه حية عظيمة، وإدخاله يده في جيبه فتخرج بيضاء تتلألأ لكل ناظر؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنّٰظِرِيْنَ ﴿٣٤﴾﴾.

١٤- اتهام فرعون لموسى عليه السلام بالسحر، وأنه علیم به، بارع فيه؛ ليصد الناس عن التأمل فيما جاء به من الآيات والمعجزات؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَآئِكَةِ إِنَّ هٰذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾.

١٥- إثارة فرعون في ملته وقومه حمية الديار والأوطان، بزعمه أن موسى يريد بما جاء به إخراجهم من أرضهم وأوطانهم، بالتمويه على قلوب الناس بذلك؛ ليكثر أتباعه، وتكون له الغلبة عليهم، فيخرجهم من أوطانهم؛ لقوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ﴾.

١٦- استشارة فرعون ملاءه: ماذا يأمرونه أن يفعل في موسى؟ لقوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾.

١٧- إشارتهم عليه بتأجيل البت في أمر موسى وأخيه، وجمع السحرة المهرة من جميع مدائن مملكته؛ ليغالبه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَلْعَتْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَا تُوَكَّ بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾.

١٨- كثرة السحرة، ورواج السحر في عهد موسى عليه السلام؛ ولهذا آناه الله من الآيات والمعجزات ما هو من جنس ذلك؛ لإبطاله.

قال الله تعالى: ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّآ نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَيِّنَ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنِّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرِبَيْنَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّبِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّبِ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَأَمْسِرُ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَأْذَنَ لَكَ إِنَّهُ لَكَبِيرُكَ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطِعَنَّ أَيَّدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَنظُمُ أَنْ يَفْعَرَ لَنَا رَبُّنَا حَطَلِينَا أَلَّا نَكُنَّا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّآ نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَيِّنَ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنِّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرِبَيْنَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّبِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّبِ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾﴾

ذكر الله عز وجل هذه المناظرة بين موسى عليه السلام والسحرة في سورة الأعراف، وفي سورة طه، وفي هذه السورة.

قوله: ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾﴾، أي: فجمع السحرة بأمر فرعون من مدائن مصر وأقاليمها كلها، وكانوا جمعاً كثيراً، وجمعاً غفيراً.

﴿لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، أي: لوقت يوم معلوم، وهو يوم زيتهم وعيدهم ضحى؛ كما حدد موسى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْتَةِ وَأَنَّ يُحْشَرَ النَّاسَ ضُحًى ﴿٥١﴾﴾ [طه: ٥٩].

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾﴾، «هل» للاستفهام، ومعناه الأمر بالاجتماع وطلب الإسراع فيه، أي: وقيل للناس كلهم: اجتمعوا في ذلك اليوم الموعود.

﴿لَعَلَّآ نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ﴾، أي: رجاء أن نتبع السحرة، أو: لأجل أن نتبع السحرة.

﴿إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾، «هم»: ضمير فصل للتوكيد والحصر، لا محل له من الإعراب، ولم يقولوا: لعلنا نتبع الحق، بل لم يقولوا: لعلنا نتبع الغالب.

وفي هذا تبين منهم لعدم اتباع موسى وإن غلب، وفيه وفي قولهم: ﴿إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ إشارة إلى ثقتهم العمياء بغلبة السحرة؛ فكأنهم يقولون: اجتمعوا لننظر غلبة السحرة فتتبعهم؛ إذ لو وفقوا للحق لقالوا: لعلنا نتبع المحق منهم ونعرف الصواب.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ لفرعون، أي: وصلوا إليه، واجتمعوا لديه.

﴿قَالُوا لِفِرْعَوْنَ﴾ غرورا منهم وتعاليا: ﴿أَيْنَ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾؛

الهمزة للاستفهام، و«إن» حرف توكيد ونصب، واللام للابتداء والتوكيد، و«أجرا»: اسم «إن» منصوب، وفي سورة الأعراف: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأعراف: ١١٣] دون همزة الاستفهام.

والمعنى: أتجعل لنا أجرا وجزاء إن كنا نحن الغالبين بسحرنا لما جاء به موسى؟

﴿قَالَ نَعَمْ﴾، أي: قال فرعون: ﴿نَعَمْ﴾، و«نعم» حرف جواب، أي: نعم، لكم

أجر وجزاء وثواب، ﴿وَأَنْتُمْ إِذَا لِمَنْ الْمُقَرَّبِينَ﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿وَأَنْتُمْ لِمَنْ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٤]، بحذف «إذن»، واللام في قوله: ﴿لِمَنْ الْمُقَرَّبِينَ﴾ للتوكيد.

والمعنى: وإنكم لمن المقربين عندي إذا غلبتموه. فوعدهم بالأجر، وتقريبهم عنده، وجعلهم من جلسائه؛ تشجيعا لهم؛ ليزداد نشاطهم، ويذلوا جهدهم في معارضة ما جاء به موسى.

﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ ﴿١١٣﴾﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿قَالُوا يَمْوَسِي

إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْرَهُبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف: ١١٥-١١٦]، وفي

سورة طه: ﴿قَالُوا يَمْوَسِي إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقَى﴾ [طه:

٦٥-٦٦].

أي: قال موسى للسحرة: ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ﴾، «ما» موصولة تفيد العموم،

أي: ألقوا كل الذي تريدون إلقاءه، وكل ما في جعبتكم، والأمر للإذن لهم مع التحدي؛

لجزمه ببطلان كل ما جاؤوا به لمعارضة الحق.

﴿فَأَلْقُوا جِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ﴾، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿فَإِذَا جِبَالُهُمْ وَعَصِيَّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ [طه: ٦٦]. والحبال: جمع حبل، والعصي: جمع عصا، وهذه الحبال والعصي يلقونها ليوهموا الناس بسحرهم أنها حيات وثعابين، حتى موسى عليه السلام أوجس منها خيفة، لما رآها تقبل إليه؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جِبَالُهُمْ وَعَصِيَّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ [طه: ٦٦-٦٨].

﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾، الباء: للقسام، أي: نقسم بعزة فرعون، أي: بقوته وقهره، ﴿إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾، اللام: للتوكيد.

﴿فَأَلْفَى مُوسَى عَصَاهُ﴾ بأمر الله تعالى له، ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾، قرأ حفص بسكون اللام وتخفيف القاف: ﴿تَلْقَفُ﴾، وقرأ الباقون بفتح اللام وتشديد القاف: «تَلْقَفُ»، أي: تبتلع بسرعة وتأخذ وتحتطف.

﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾، «ما» موصولة، أي: كل الذي يأفكونه، و«الإفك»: الكذب، أي: كل الذي يعملونه من الكذب والتزوير، والتمويه على الناس، والتخيل لهم، أي: كل ما ألقوه من الحبال والعصي؛ لأنها كلها إفك وكذب، وزور وباطل، لا يقاوم الحق، ولا يثبت أمامه؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ ﴿٦٦﴾ [طه: ٦٦-٦٩]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْرَبُوهُمْ وَجَاءَ وَسِحْرٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ \* وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٦٨﴾ فَوَقَّعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَعَلْبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأعراف: ١١٦-١١٩].

﴿فَأَلْفَى السَّحْرَةَ سَجْدِينَ﴾، لربهم، لما رأوا هذه الآية العظيمة، والمعجزة الباهرة؛ لتيقنهم- وهم أعلم الناس بالسحر- أن ما جاء به موسى ليس بسحر، وإنما هو من الآيات والمعجزات الكونية التي يؤيد الله بها رسله وأنبياءه عليهم السلام.

وفي قوله: ﴿فَأَلْفَى السَّحْرَةَ سَجْدِينَ﴾، ولم يقل: فسجد السحرة، إشارة إلى قوة

اندفاعهم إلى السجود، وسرعة مبادرتهم إليه، كأنهم ألقوا إلقاء بدون اختيار.

﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٨﴾﴾، أي: صدقنا به، وانقدنا له ظاهرًا وباطنًا، بقلوبنا وألسنتنا وجوارحنا، وهو الله عز وجل، وبهذا أبطلوا ربوبية فرعون، كما يزعم بقوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]. وآمنوا برب موسى وهارون، وصدقوا برسالتها.

فكان إيمانهم - في هذا المجمع العظيم - قاصمة الظهر لفرعون وملئه، وحجة دامغة، وبرهانًا قاطعًا على صدق موسى وصحة ما جاء به.

جمعهم فرعون وجاء بهم؛ ليغالب بهم موسى، ويبطل بهم الحق، فإذا هم يؤمنون وينتصر بهم الحق، كانوا في أول النهار يقسمون بعزة فرعون: إنا لنحن الغالبون، وفي آخره سجدًا مؤمنين برب العالمين، رب موسى وهارون.

جمع الناس كلهم؛ ليشهدوا غلبته وغلبة سحرته لموسى وما جاء به، فإذا هم يشهدون بطلان أمره، وغلبة موسى وصدقته، وصحة ما جاء به.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنَّا لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرٌ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَأَصْلَبْنَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١١﴾﴾ قَالُوا لَا ضَيْرٌ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الشعراء: ٤٩-٥١].

لما آمن السحرة - وهم الذين جاء بهم فرعون لينتصر بهم ويغالب موسى - أسقط في يد فرعون، وخرج من صوابه، فأرعد وأزبد، وتهدد وتوعد، فقال:

﴿ءَامَنَّا لَهُ﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿ءَامَنَّا بِهِ﴾ [الآية: ١٢٣]، أي: آمنتم لموسى وصدقتموه فيما جاء به، وانقدتم له. والاستفهام: للإنكار والتوبيخ.

﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾، «أن» والفعل «أذن» في تأويل مصدر في محل جر مضاف إلى قبل، أي: قبل إذني لكم، وكأنهم عبيده أو عبيد أبيه؛ لأنه قد قهرهم واستذلهم بقولته وسلطانه وظلمه وغشمه.

﴿إِنَّهُ﴾، يعني موسى عليه السلام ﴿لَكَبِيرٌ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾، اللام: للتوكيد، أي: إن موسى هو كبيركم أيها السحرة الذي علمكم السحر.

فيا سبحان الله! بالأمس يجمع السحرة ويشجعهم ليغالبا موسى، ويفتخر بهم ويتنصر، واليوم لما آمنوا بموسى وما جاء به من الحق نكص وقال: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكَ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾!

﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، الفاء: عاطفة، واللام: لام القسم، لقسم مقدر، أي: فوالله لسوف تعلمون. وهذا وعيد منه وتهديد لهم.

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ عطف بيان على جملة ﴿تَعْلَمُونَ﴾.

﴿مَنْ خَلَفَ﴾ متخالفة؛ بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى؛ كما في حد الحرابة، أو العكس، و«التقطيع»: المبالغة في القطع، وكونه حتماً بلا هوادة.

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، «الصلب»: أن يربط المصلوب على جذع نخلة أو خشبة قائماً ممدود اليدين حياً ويترك حتى يموت، أو يقتل ثم يصلب؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١].

والتصليب: المبالغة في الصلب بحيث يكون حتماً وبلا هوادة.

فتوعدهم بأعظم العقوبات وأشدّها، وهي تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وصلبهم؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمِنْتُكُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرَجُوا مِنْهَا ءَاهِلًا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأعراف: ١٢٣-١٢٤].

وقال تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ ءَأَمِنْتُكُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكَ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ ءِئِنَّا ءَأَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧١﴾﴾ [طه: ٧١].

﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ﴾، الضير: الضر، أي: لا ضرر علينا، أي: لا يضرنا وعيدك، ولا نبالي به، افعل ما تريد.

وهذا من أعظم التحدي لفرعون أعتى أهل الأرض؛ وذلك لقوة إيمانهم، كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿فَأَفْضُ مَا أَنْتَ قَاصٍ﴾ [طه: ٧٣]، ولهذا قالوا هنا:

﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾، تعليل لنفي الضر، أي: لأننا إلى ربنا منقلبون، أي:

راجعون فيجازينا أعظم الجزاء؛ وهذا كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا نَتَّقِمُ مِمَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِعَايَتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الآية: ١٢٥-١٢٦].

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتَنَا﴾، «أن» والفعل «يغفر» في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ «نطمع»، أي: إنا نرجو أن يتجاوز لنا ربنا عن ذنوبنا وسيئاتنا ويسترها؛ من الكفر والسحر وغير ذلك؛ كما قال تعالى في سورة طه: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾﴾ [طه: ٧٢-٧٣].

وهذا هو المقصود من قولهم: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾.

﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، «أن» للسببية، أي: بسبب أن كنا أول المؤمنين من قومنا القبط، فلم يبالوا بفرعون ولا بوعيده وتهديده؛ لأن مرجعهم إلى الله تعالى، وما عنده خير وأبقى، وطمعاً أن يغفر لهم ذنوبهم وسيئاتهم على سبقهم قومهم للإيمان؛ ولهذا قالوا: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه: ٧٤-٧٦].

وهكذا الإيمان إذا خالطت بشاشته القلب، قال ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»<sup>(١)</sup>.

### الفوائد والأحكام:

١ - جمع السحرة كلهم لوقت معلوم - هو يوم الزينة - لمناظرة موسى عليه السلام

(١) أخرجه البخاري في الإبان ١٦، ومسلم في الإبان ٤٣، والنسائي في الإبان وشرائعه ٤٩٨٧، والترمذي في الإبان ٢٦٢٤، وابن ماجه في الفتن ٤٠٣٣؛ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

ومغالبتها؛ لقوله تعالى: ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾﴾.

٢- جمع الناس كلهم ليشهدوا تلك المناظرة، ويشاهدوا غلبة السحرة لموسى؛  
لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّآ نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمْ  
الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

٣- أن هدف فرعون وأعوانه بالدعوة إلى هذا الجمع الكبير وهذه المناظرة: إبطال  
ما جاء به موسى، وإظهار غلبة السحرة، وأتباعهم، وليس لمعرفة الحق والصواب؛  
لقولهم: ﴿لَعَلَّآ نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

٤- اغترار السحرة بادئ الأمر بما معهم من السحر، واعتقادهم أن الغلبة لهم؛  
لطلبهم الأجر من فرعون على ذلك؛ لقولهم: ﴿أَيَّنْ لَنَا لِأَجْرٍ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾﴾.  
٥- وعده لهم بالأجر، وتقريبهم عنده، حفزاً لهم؛ ليدلوا قصارى جهدهم في  
ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

٦- أمر موسى عليه السلام لهم بدءاً بإلقاء ما هم ملقون من السحر؛ ثقة بأن ما  
معه من الحق سيبطل كيدهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُّلقُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

٧- إلقاءهم حبالهم وعصيهم، وإقسامهم بعزة فرعون أن الغلبة لهم؛ غروراً منهم؛  
لقوله تعالى: ﴿فَأَلْقُوا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

٨- إلقاءه عليه السلام عصاه فإذا هي تبتلع كل ما اصطنعوه وموهوا به على الناس  
من السحر العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَلْفَى مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

٩- مبادرة السحرة إلى السجود لربهم تعظيماً وخضوعاً له؛ لما رأوا هذه الآية  
العظيمة، والمعجزة الباهرة، الدالة على صدق موسى وصحة ما جاء به، وإعلانهم أمام  
الملائكة، وهذا الجمع العظيم إيمانهم برب العالمين، رب موسى وهارون؛ لقوله تعالى:  
﴿فَأَلْفَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

١٠- قدرة الله تعالى التامة على قلب القلوب؛ فهؤلاء أصبحوا كفاراً سحرة،  
وأمسوا أنقياء وشهداء بررة.

١١- أن الحق يعرف بضده، فهؤلاء السحرة لمعرفتهم بالسحر وضروبه، عرفوا

أن ما جاء به موسى عليه السلام من الآيات ليس بسحر، وكما قيل:

..... وبضدها تتبين الأشياء (١)

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق، وربوبيته الخاصة لموسى وهارون

وأوليائه المؤمنين؛ لقول السحرة: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٨﴾﴾ وقولهم: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ وقولهم: ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا﴾ [طه: ٧٣].

١٣- غضب فرعون وسخطه الشديد على السحرة بسبب إيمانهم، وإنكاره ذلك عليهم؛ لقوله: ﴿ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾.

١٤- شدة تسلط فرعون على قومه، وقهره لهم، وتعييدهم له بالقوة؛ لقوله: ﴿ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ فحجر عليهم حتى في معتقدتهم.

١٥- خروج فرعون من صوابه وعقله لما سجد السحرة لربهم رب العالمين وآمنوا به؛ لقوله: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكَ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾، وهذا لا يقوله عاقل، كيف يكون كبيرهم موسى وهم سحرتهم، جمعهم؛ ليغالب بهم موسى، وموسى عليه السلام لا يعرفهم، ولم يلتق بهم قبل هذا؟!!

١٦- شدة جبروت فرعون؛ لتوعده وتهديده إياهم بأغلظ العقوبات، بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وتصليبهم جميعاً؛ لقوله: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَأَلْصِقَبَّكُمْ أُجْمَعِينَ﴾.

١٧- عدم مبالاة السحرة بوعيده وتهديده؛ لإيمانهم بالبعث، ويقينهم بأنهم راجعون إلى الله، وبِعظيم ما عنده لهم من أجر الإيمان والشهادة، وطمعهم بمغفرته خطاياهم، وبأن فرعون إن قتلهم إنما يقضي هذه الحياة الدنيا الفانية؛ لقولهم: ﴿قَالُوا لَا صَبِيرٌ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٩﴾﴾ إِنَّا نَظْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ

(١) هذا شطربيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» ١/ ٢١ والبيت بتمامه:

ونذيمهم وبهم عرفنا فضله وبضدها تتبين الأشياء

ومعنى «ونذيمهم»، أي: ونعييهم.

وانظر: «شرح ديوان المتنبي» (١/ ٢١٤)، «الحجاسة المغربية» (١/ ٤٧٣).

الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾، وقولهم: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيْتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿٧٢﴾ [طه: ٧٢].

١٨- أن الحذر قد يؤتى من مأمنه؛ ففرعون كان معتمداً على سحرته في مغالبتها لموسى، آمناً منهم مطمئناً إليهم، فإذا هم يؤمنون، ويسقط في يده.

١٩- أن مرد الخلائق ومنقلبهم إلى الله تعالى؛ إليه إياهم، وعليه حسابهم.

٢٠- أن الإيثار إذا خالطت بشاشته القلب هان في سبيله كل شيء، فهؤلاء السحرة لما آمنوا أعلنوها صريحة، ولم يبالوا بفرعون مع شدة بطشه وظلمه، بل قالوا: ﴿لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيْتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿٧٢﴾ [طه: ٧٢].

٢١- إثبات صفة المغفرة لله تعالى، وأنه لا يغفر الذنوب إلا الله؛ لقول السحرة: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتَنَا﴾.

٢٢- ينبغي للمؤمن إحسان الظن بربه، والتعلق به، ورجاء مغفرته ورحمته، مع إحسان العمل؛ لقول السحرة: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتَنَا﴾، وهذا يدل على رجائهم بالله.

٢٣- أن السبق إلى الإيمان من أسباب المغفرة، وأن هؤلاء السحرة هم أول المؤمنين من قوم فرعون «القبط»؛ لقولهم: ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢٤- حكمة الله تعالى ومشيبته النافذة ورحمته وتوفيقه لمن أراد هدايته، فقد كان هؤلاء السحرة في أول النهار يقسمون بعزة فرعون، وفي آخره سجدوا مؤمنين برب العالمين.

٢٥- فضل المبادرة إلى الإيمان والأعمال الصالحة؛ لأنها سبب لمغفرة الذنوب، وستر العيوب.

قال الله تعالى: ﴿ \* وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِلَيْكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَقْنَا نَمِرَ الْآخِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَجْمَعْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ \*.

قوله تعالى: ﴿ \* وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِلَيْكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ \*.

قوله: ﴿ \* وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٰ ﴾، قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر: «أن أسر» بهمزة وصل، فعل أمر من «سرى»، وبكسر نون «أن» لالتقاء الساكنين، وقرأ الباقون بهمزة القطع: ﴿ أَنْ أَسْرِ ﴾، و«أن»: تفسيرية، أو مصدرية، والمصدر المؤول ﴿ أَنْ أَسْرِ ﴾ في محل جر بحرف جر محذوف، أي: بأن أسر، أو في محل نصب مفعول لـ «أوحينا».

أي: وأوحينا إلى موسى وأمرناه أن سر ليلاً ببني إسرائيل من أرض مصر؛ لإخفاء أمرهم، وذلك لما أراد الله تخليصهم من قهر فرعون، وإهلاكه وقومه.  
والمراد بالعبودية في قوله: «عبادي»: العبودية الخاصة بالمؤمنين.

﴿إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ﴾، أي: إن فرعون وجنوده سيتبعونكم، ويسيرون على إثركم؛ طلباً لكم؛ للانتقام منكم وعقابكم.

وفي هذا ما يشبه التعليل لكون السير أول الليل، وفيه ما يوحي بالحث على الإسراع في السير؛ خوفاً من الطلب؛ كما قال تعالى في سورة طه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٰ فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾

فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ [طه: ٧٧-٧٨].

وقال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الدخان: ٢٣].

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾؛ ليجمعوا له الجيش؛ ليخرج بهم في

طلب بني إسرائيل ويتبعهم ويوقع بهم، لما أخبر بسيرهم.

وقد جعل هؤلاء الحاشرين كالفرّاعة، فبالأمس بعثهم ليجمعوا له السحرة

ليُغالب بهم ما جاء به موسى من الحق ويبطله، ثم جمع الناس ليشهدوا غلبته وسحرته،

فخاب ظنه، وبطل سعيه.

واليوم يرسلهم ليجمعوا له الجيش؛ ليخرج بهم في أثر بني إسرائيل، فيكون ذلك

سبباً في هلاكه وجنوده.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥١﴾﴾، أي: وقال لهؤلاء الحاشرين، أو لجنوده، أو لهما

معاً: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ يعني موسى وبني إسرائيل، ﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾، اللام: للتوكيد، أي: إن

هؤلاء لطائفة حقيرة ضعيفة.

﴿قَلِيلُونَ﴾، أي: قليل عددهم. وهذا من باب الإغراء، والتشجيع للخروج

طلبهم؛ لأنهم ضعيفون حقيرون من حيث الكيفية، وقليلون من حيث الكمية.

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ﴾، اللام في قوله: ﴿لَغَائِطُونَ﴾ لام الابتداء للتوكيد، و«غائطون»:

جمع «غائظ»، والغياط: أشد الغضب، قال تعالى: ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ

قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩].

أي: فاعلون ما يغيظنا بين وقت وآخر، وفي خروجهم من مصر، فلا بد من

التخلص منهم.

﴿وَإِنَّا لَجَبِيحٌ حَذِرُونَ ﴿٥١﴾﴾، قرأ حمزة والكسائي وعاصم وابن ذكوان عن عبدالله

بن عامر بألف بعد الحاء: ﴿حَذِرُونَ﴾: جمع «حاذر» اسم فاعل، وقرأ الباقون بحذف

الألف: «حَذِرُونَ»، جمع «حَذِرٍ» على وزن «فَعِلٍ» صيغة مبالغة.

أي: وإنا لجميع متيقظون مستعدون للحوادث، فطنون مما عسى أن يكون من

سبب العواقب، وهكذا يجب أن نكون على حذر كل وقت من هؤلاء، فهم أعداء

للجميع، والمصلحة مشتركة.

﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ﴾، أي: فأخرجنا فرعون وقومه بأمرنا الكوني، وقدرتنا التامة، بسبب كفرهم وعتوهم وعنادهم وتكذيبهم موسى عليه السلام وما جاء به من الآيات البينات.

﴿مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ﴾، أي: من بساتين مصر، وجناتها الفائقة، وعيونها المتدفقة على ضفاف النيل..

﴿وَكُنُوزٍ﴾، أي: خزائن أموال كثيرة من الذهب والفضة.

﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾، أي: إقامة في منازل حسان تعجب الناظرين، في مجتمع طيب حسن كثير الخير والنعم.

﴿كَذَلِكَ﴾، أي: إخراجنا كذلك كما وصفنا.

﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، أي: وأورثنا هذه الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم بني إسرائيل بعد إغراق فرعون وقومه؛ كما قال تعالى في سورة الدخان: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ ﴿٥٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٦﴾ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ ﴿٥٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الدخان: ٢٥-٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٥﴾ وَنُكَلِّمُهُم بِاللُّغَةِ الَّتِي كَانُوا يُخَوِّفُونَ فِيهَا ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥-٦].

ولا منافاة بين قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ﴿٥٨﴾، وبين قوله ﷺ في الغنائم: «ولم تحل لأحد قبلي»<sup>(١)</sup>؛ لأن هذا توريث قدري لم يحصل بحرب، وإنما

أهلك الله فرعون وقومه، فبقيت ديارهم لبني إسرائيل، ولا يسمى هذا غنيمة شرعاً. وقد قيل: إن بني إسرائيل لم يرجعوا إلى مصر بعد خروجهم منها، وعليه يكون المعنى: أورشناهم جنات وعيوناً وكنوزاً ومقاماً كريماً مثل ذلك في بلاد الشام.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ ٥٢ ﴿فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ ٥٣ ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ ٥٤ ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ ٥٥ ﴿وَأَرْزَلْنَا تَمَّ الْأَخْرِينَ﴾ ٥٦ ﴿وَأَبْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ٥٧ ﴿ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ﴾ ٥٨ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ٥٩ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ٦٠.

قوله: ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ﴾، أي: فأتبع فرعون وجنوده بني إسرائيل، وساروا في أثرهم، ولحقوهم، ﴿مُشْرِقِينَ﴾؛ حال، أي: وقت شروق الشمس وطلوعها، متجهين إلى المشرق جهة البحر.

﴿فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانَ﴾، أي: رأى كل فريق منهم الآخر، والمراد: جمع موسى، وجمع فرعون.

﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى﴾، أي: بنو إسرائيل: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾، اللام: للتوكيد، أي: سيدركنا فرعون وجنوده، ويلحق بنا، وذلك أنه انتهى بهم السير إلى سيف البحر الأحمر «بحر القلزم»، فصار البحر أمامهم، وفرعون وجنوده من ورائهم؛ ولهذا قالوا شاكين لموسى ومتخوفين: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ بالتأكيد.

﴿قَالَ﴾؛ موسى بلسان المتوكل على ربه تمام التوكل، الواثق كل الثقة بمعيته له وهدايته ونصره، مثبتاً أصحابه ومطمئناً لهم: ﴿كَلَّا﴾، حرف ردع وزجر، ومفادها هنا: النفي، أي: إنكم لن تُدركوا.

﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، تعليل لقوله: ﴿كَلَّا﴾، أي: لأن معي ربي بمعيته الخاصة، بالنصر والتأييد والتوفيق، ﴿سَيَهْدِينِ﴾، أي: سيدلني إلى ما فيه نجاتي ونجاتكم، ويحفظني وإياكم، والسين للتحقيق والقرب.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾؛ «أن» تفسيرية، أو مصدرية،

أي: بأن اضرب.

﴿فَأَنفَلَقَ﴾، أي: فاضربه، فانفلق، أي: انفرق اثني عشر طريقاً على عدد أسباط بني إسرائيل.

﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ﴾؛ الفرق بكسر الفاء وسكون الراء: الجزء المفروق منه، أي: فكان كل جزء وقطعة من البحر.

﴿كَالطُّورِ الْعَظِيمِ﴾، أي: كالجبل العظيم؛ لكبره وارتفاعه، ولعمق البحر، أي: وصار ما بين هذه الطرق من المياه كالأطواد، أي: كالجبال اليابسة، وصار كل ما بين كل فريقين كالفجج بين الجبلين يابساً.

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة طه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسِرِّ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ [طه: ٧٧].

﴿وَأَزَلَّفْنَا﴾، أي: قربنا وأدنيننا، ﴿ثُمَّ﴾ هناك مكان انفلاق البحر، ﴿الْآخِرِينَ﴾؛ فرعون وقومه، أي: قربنا فرعون وجنوده إلى مكان انفلاق البحر.

﴿وَأَجْمَعْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾، أي: وأنجينا موسى من الغرق والذين معه أجمعين، فلم يغرق منهم أحد.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾، أي: ثم بعد إنجاء موسى ومن معه وخروجهم من البحر سالمين أجمعين أغرقنا الآخرين؛ وهم فرعون وقومه، بعد أن اكتملوا في البحر داخلين، ارتطم عليهم البحر، فلم ينج منهم أحد من الغرق؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَتْرَكُ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾، أي: في فلق البحر، وإنجاء موسى ومن معه من المؤمنين، وإغراق فرعون ومن معه من الكفار المكذبين بإطباقه عليهم.

﴿لآيَةٍ﴾؛ اللام: للتوكيد، أي: لدلالة على تمام قدرته تعالى وعظمته ووحدانيته، وصدق موسى عليه السلام، وصحة ما جاء به، وبطلان ما عليه فرعون وقومه، وعظة وعبرة للمعتبرين، فيها تحذير للمكذبين، وبشارة للمؤمنين.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: وما كان أكثر الناس والخلق مؤمنين، بل

أكثرهم كفار ضلال، مع قيام الحجة عليهم، وبيان المحجة لهم.  
﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٦٨)، اللام: للتوكيد، أي: وإن ربك يا محمد  
هو العزيز الرحيم، فبعزته أهلك فرعون ومن معه، وبرحمته أنجى موسى ومن معه.

### الفوائد والأحكام:

١- وحي الله عز وجل إلى موسى عليه السلام- بعد أن طال مقامه بمصر، وأقام  
على فرعون وملئه الحجج والبراهين على وحدانية الله تعالى، ولم ينبج ذلك فيهم-  
بالخروج ببني إسرائيل من مصر؛ إرهاباً لإهلاك فرعون وقومه؛ لقوله تعالى:  
﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾.

٢- إثبات عبودية المؤمنين الخاصة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بِعِبَادِي﴾.

٣- إعلام الله عز وجل لموسى وإخباره بأن فرعون سيتبعهم بجنوده؛ لقوله تعالى:  
﴿إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾، وفي هذا حث لهم على الإسراع.

٤- حشر فرعون جميع جنوده؛ ليتبع بهم موسى وبني إسرائيل وينتقم منهم؛ لقوله  
تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ (٥٢).

٥- تحقير فرعون لبني إسرائيل، وتقليله لهم؛ لقوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ  
قَلِيلُونَ﴾ (٥٣).

٦- إغاظه بني إسرائيل لفرعون من وقت لآخر، وفي خروجهم من مصر وشدة  
غضبه عليهم؛ لقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ لَنَا لَعَّاطُونَ﴾ (٥٤).

٧- امتداح فرعون لنفسه وجنوده وملئه بالخذر، وتحريضهم عليه، وإيضاؤهم به؛  
لقوله: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ خَذِرُونَ﴾ (٥٥) ولم ينفعه ذلك.

٨- إخراج فرعون وجنوده مما هم فيه في مصر من جنات وعيون وكنوز ومقام  
كريم، وتوريث ذلك بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا هُمْ مِّنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ  
وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ (٥٨) وكذلك وأورثناها بني إسرائيل (٥٩).

٩- عقوبة الله تعالى للطاغين بإزالة النعم عنهم، أو إزالتهم عنها؛ لقوله تعالى:  
﴿فَأَخْرَجْنَا هُمْ مِّنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (٥٧).

- ١٠- أن العقوبة بعد التنعيم أشد وقعًا، وأعظم ألمًا؛ لذكره عز وجل ما كان فيه فرعون وقومه من النعيم قبل أخذهم.
- ١١- اتباع فرعون وجنوده بني إسرائيل عند شروق الشمس، أو باتجاه جهة المشرق؛ للإيقاع بهم والانتقام منهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ ﴿١٦﴾.
- ١٢- تحوُّف أصحاب موسى لما تراءى الفريقان أن يدرِكهم فرعون وجنوده؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ ﴿١٦﴾.
- ١٣- قوة توكل موسى عليه السلام على ربه، وتماث ثقته به وبمعيته له وهدايته ونصره، وطمأنته أصحابه، ونفيه بشدة أن يدرِكهم فرعون وجنوده؛ لقوله: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.
- ١٤- إثبات معية الله تعالى الخاصة، وربوبيته الخاصة لموسى عليه السلام، وهدايته له؛ لقوله: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.
- ١٥- وحيه عز وجل إلى موسى عليه السلام أن اضرب بعصاك البحر؛ لينفلق بقدرة الله تعالى طريقًا يابسًا لبني إسرائيل، كل فرق كالجبل العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿١٦﴾.
- ١٦- عظم قدرة الله تعالى في فلق البحر، وجعله في وسطه طرقًا يابسة.
- ١٧- عظم ما أعطاه الله لموسى من المعجزات؛ منها: فلق البحر.
- ١٨- إثبات الأسباب؛ فإن الله عز وجل قادر على فلق البحر دون أن يضربه موسى بعصاه.
- ١٩- تقريب فرعون وجنوده إلى مكان انفلاق البحر تمهيدًا لإغراقهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَرْزَلْنَا ثَمَّ الْأَخْرِينَ﴾ ﴿١٦﴾.
- ٢٠- إنجاء الله عز وجل موسى ومن معه جميعًا من الغرق؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١٦﴾.
- ٢١- إغراق فرعون وجنوده ومن معه، فلم ينبج منهم أحد؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ﴾ ﴿١٦﴾.

٢٢- أن في فلق البحر وإنجائه عز وجل موسى ومن معه من المؤمنين، ومن ثم إطباقه وإغراق فرعون وجنوده ومن معه من الكافرين؛ دلالة على عظيم قدرة الله تعالى ووحدانيته، وعلى صدق موسى وصحة ما جاء به، وبطلان ما عليه فرعون وقومه، وعظة وعبرة للمعتبرين، فيها تحذير للمكذبين، وبشارة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾.

٢٣- أن أكثر الخلق كفار ضلال غير مؤمنين ولا مهتدين، حكمة بالغة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ فلا يغتر بذلك.

٢٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبينا ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإضافة اسم «الرب» إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾.

٢٥- إثبات اسمي الله عز وجل: «العزیز» و«الرحيم»، وصفتي العزة والرحمة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

٢٦- أنه عز وجل بعزته أغرق فرعون وجنوده، وبرحمته أنجى موسى وقومه.

٢٧- باقتران اسميه عز وجل «العزیز» و«الرحيم» وصفتي العزة والرحمة في حقه عز وجل كمال إلى كمال.



قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ۖ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَافِيَةً ۖ قَالُوا هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۖ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ ۖ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ۖ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۖ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ۖ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۖ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۖ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۖ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۖ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ۖ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ ۖ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ۖ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ۖ وَأَغْفِرْ لِأَيِّئِ نَفْسٍ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ۖ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۖ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۖ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۖ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ۖ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَافِيَةً ۖ قَالُوا هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۖ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ ۖ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ۖ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۖ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ۖ﴾:

سبق التماس الحكمة في تقديم ذكر قصة موسى عليه السلام مع فرعون في هذه السورة، وقد أتبعها هنا بذكر قصة إبراهيم عليه السلام، وقدمت هنا على قصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام على خلاف المعتاد في ذكر قصصهم في القرآن، قيل: لشدة الشبه بين قوم إبراهيم وبين مشركي العرب في عبادة الأصنام، وفي تمسكهم بضلال آبائهم، وفي أن قوم إبراهيم لم يسلط عليهم من عذاب الدنيا مثل ما سلط على أقوام الأنبياء المذكورين، فأشبهوا قريباً في إمهالهم.

قوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾، أي: واتل يا محمد على أمتك وعلى الناس، ﴿نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾، أي: نبأ عبده ونبيه ورسوله وخليله إبراهيم عليه السلام، والنبأ: الخبر الهام. أي: اقرأ عليهم خبره الهام جداً؛ لما تضمنه من المناظرة في التوحيد والجزاء؛ ليقنقوا به في التوحيد لله تعالى وحده لا شريك له، والبراءة من الشرك وأهله؛ كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ مِنْكُمْ﴾

وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿المتحنة: ٤﴾.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾، أي: حين قال لأبيه آزر وقومه، منكرًا عليهم منذ صغره عبادة الأصنام.

والضمير في ﴿وَقَوْمِهِ﴾ يحتمل أن يعود إلى إبراهيم؛ لأنه المتحدّث عنه، ويمكن عوده على أبيه، أي: وقوم أبيه؛ كما في قوله: ﴿إِنِّي أَرَأَيْتَكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾؛ «ما»: اسم استفهام: للإنكار والتعجب؛ كما قال تعالى في سورة الصافات: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الآية: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢].

﴿قَالُوا﴾؛ متباهين متبجحين بعبادتهم، ﴿تَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ «أصنام» جمع: صنم، وهو ما نحت وعبد من دون الله، وقد يطلق على كل ما عبد من دون الله من شجر أو حجر أو غير ذلك.

﴿فَنَظَلُّ﴾ أي فندوم ونستمر في كثير من أوقاتنا، ﴿لَهَا عَاكِفِينَ﴾، أي: مقيمين على عبادتها ودعائها.

وفي هذا ابتهاج منهم وافتخار بهذا الفعل الذميمة، فافتخروا بعبادتها، وبدوامهم على ذلك.

﴿قَالَ﴾؛ إبراهيم عليه السلام مبيّنًا لهم عدم استحقاقها للعبادة: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٦﴾﴾، الاستفهام: للإنكار والنفي، أي: هل يسمعون دعاءكم حين تدعونهم؟ وهل يستجيبون لكم لو سمعوا؟

أي: إنهم لا يستطيعون هذا ولا هذا؛ كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ﴾؛ أو: عاطفة في الموضعين، أي: أو ينفعونكم بجلب الخير لكم ودفع الشر عنكم؟ أي: إنهم لا يملكون شيئًا من ذلك.

﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾، أي: أو يضرّونكم؟ أي: إنهم لا يملكون جلب الضرّ لكم، ولا

دفعه عنكم.

ويحتمل أن المعنى: أو ينفعونكم إن عبدتموهم، أو يضررونكم إن لم تعبدوهم؟ ولم يقل: أو يضررونكم؛ مراعاة للفواصل.

﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (٧٦)، أي: أقروا أنهم لا يسمعونهم حين يدعون، ولا ينفعونهم ولا يضررون، وإنما عبدوهم لأنهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون، أي: وجدنا آباءنا كذلك يعبدون هذه الأصنام، فنحن نعبدها اتباعاً وتقليداً لهم، واقتداءً بفعلهم؛ كما قال تعالى عن مشركي قريش: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٢٢) وكذلك مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرِيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ (٢٣) [الزخرف: ٢٢-٢٣].

﴿قَالَ﴾؛ إبراهيم عليه السلام: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ﴾، الهمزة للاستفهام، أي: أبصرتم ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾، «ما» موصولة، أي: الذي كنتم تعبدونه من الأصنام. ﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ﴾؛ قبلكم، وأجدادكم وإن علوا. ﴿فَاتَّهَمُوا﴾، أي: معبوداتكم. وأطلق عليهم ضمير العقلاء هنا وقبلة حسب زعمهم: أن هذه المعبودات تنفع وتضر.

﴿عَدُوِّي﴾، «عدو» يطلق على المفرد وعلى الجمع، أي: فإنهم أعداء لي، أبغضهم، وأكشف عوارهم، وأبين أنهم لا يستحقون العبادة، وأحذر من عبادتهم، وأتبرأ منهم، وأتحداهم أن يخلصوا إليّ بشيء من الضرر؛ كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [المتحنة: ٤]. وقال عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ [الأنعام: ٨١].

وكما قال نوح عليه السلام: ﴿فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرِكُمْ عَلَيْكُمْ عُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ (٧١) [يونس: ٧١]، وقال هود عليه السلام: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ

اللَّهُ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ [هود: ٥٤-٥٦].

﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾، «إلا» أداة استثناء، وهو منقطع، أي: لكن رب العالمين ليس بعدولي، بل هو وليُّ لي، وهو معبودي؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦١﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٦٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨]؛ يعني: لا إله إلا الله.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾.

هذا بيان من إبراهيم عليه السلام أنه لا يستحق العبادة والإلهية إلا رب العالمين؛ لاختصاصه بصفات الربوبية، أي: استدلال بوحدانيته عز وجل بالربوبية على وحدانيته في الألوهية، وثناء عليه عز وجل وامتداح له بتلك الصفات.

قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾، «الذي» اسم موصول مبني، وهو وما عطف عليه من الموصولات في محل نصب صفات لرب العالمين، وهي صفات كاشفة، أي: لا أعبد إلا الذي خلقني ويهدين، ومن صفته هذه الصفات الدالة على كمال ربوبيته، واستحقاقه وحده الأفراد بالعبودية والإلهية.

أي: الذي أوجدني وأنشأني، ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾، أي: فهو يهديني، أي: يدلني ويرشدني إلى الحق، ويوفقني إليه وفيه، وإلى ما قدر لي، والذي خلق الخلائق كلهم، وقدر لهم أقداراً، وهدى كل مخلوق لما قدر له؛ كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ٣].  
وحذفت الياء من الأفعال مراعاة للفواصل.

﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾.

أي: المتكفل بطعامي وشرابي، عليه رزقي ورزق جميع الخلائق؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ

اللَّهُ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: ٦].  
﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨﴾﴾، أي: وإذا أصابني مرض فهو وحده الذي يشفيني ويعافيني.

وأسند المرض إلى نفسه - وإن كان بقدر الله وقضائه - تأدباً مع الله تعالى؛ كما قال ﷺ: «والخير كله بيدك، والشر ليس إليك»<sup>(١)</sup>.

﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾، أي: والذي يميتني ويميت جميع الخلائق، ثم يحيينا، أي: بيده الموت والحياة، لا يقدر على ذلك أحد سواه.

﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ﴾، أي: أرجو وآمل ﴿أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾؛ لأنه لا يغفر الخطايا والذنوب إلا هو؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

و«أن» والفعل «يغفر» في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، أي: بأن يغفر لي.

أي: أطمع أن يتجاوز لي عن خطيئتي ويسترها ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾، يوم القيامة، يوم يحاسب الخلائق ويدانون بأعمالهم خيرا وشرها.

وقوله: ﴿خَطِيئَتِي﴾، أي: ذنبي، قيل: المراد به قوله عليه السلام: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصفات: ٨٩]، وقوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ وَكَبُرَهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وقوله عن سارة لما سأله فرعون مصر عنها: «إنها أختي»<sup>(٢)</sup>، وذلك مخافة أن يقتله لو قال: إنها زوجتي؛ لأنه قد طمع فيها، ولكن حفظها الله منه، ورد كيده عنها.  
ويجوز أن يكون المراد بقوله: «خطيئتي» الجنس، أي: خطاياي.

(١) سبق تخرجه.

(٢) روي هذا عن مجاهد، أخرجه الطبري ١٧/٥١٣، وابن أبي حاتم ٨/٢٧٨٠.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَعْفِرْ لِأَيِّئِ اللَّهِ، كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾:

لما بين إخلاصه العبادة لرب العالمين المختص بصفات الربوبية كلها، الموجبة إفراده بالألوهية، أتبع ذلك بالدعاء لنفسه في الدنيا والآخرة، وسؤال المغفرة لأبيه.

قوله: ﴿رَبِّ هَبْ﴾، أي: يا رب أعطني وامنحني ﴿حُكْمًا﴾، أي: علمًا وفهمًا وحكمة أحكم بها بين الناس.

﴿وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ﴾، أي: واجعلني ألحق بال صالحين وأكون منهم، في الدنيا والآخرة، من الأنبياء والمرسلين، المخلصين لك، المتبعين لشرعك، المصلحين للناس؛ كما قال ﷺ: «اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بال صالحين، غير خزايا ولا مفتونين»<sup>(١)</sup>.

وكما قال ﷺ عند الاحتضار: «الرفيق الأعلى» قالها ثلاثاً<sup>(٢)</sup>.

﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾، أي: ذكرًا جميلًا وثناء حسنًا في الدنيا فيمن يأتون بعدي إلى يوم القيامة أذكر به، ويقتدى بي في الخير، ويشنى علي به. والذكر الحسن للمرء بعد الموت محصلة لما قدم في حياته، واستمرار لثوابه، وقد أحسن القائل:

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثًا حسنًا لمن وعى<sup>(٣)</sup>

وقال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة

أو طعنة بيدي حران مجهزة

وضربة ذات فرع تقذف الزبدا

بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٢٤ من حديث عبدالله الزرقي، عن أبيه رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي ٤٤٣٧، ومسلم في السلام، فضائل الصحابة ٢٤٤٤، والترمذي في الدعوات ٣٤٩٦؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) البيت لابن دريد. انظر: «العقد الفريد» (١/ ١٩٤)، «زهر الأكم في الأمثال والحكم» (١/ ٣٣٥).

حتى يقال إذا مروا على جدثي أرشده الله من غاز وقد رشد<sup>(١)</sup>

وقال الآخر:

قد مات ناس وما ماتت مآثرهم ومات قوم وهم في الناس أحياء<sup>(٢)</sup>  
وقد استجاب الله دعاءه؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٧٨﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ  
إِبْرَاهِيمَ ﴿١٧٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الصفات: ١٠٨ - ١١٠]، وقال تعالى:  
﴿وَأَتَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٢].  
وقال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾  
[العنكبوت: ٢٧].

وأمرنا نبينا ﷺ أن نقول في التشهد: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد؛ كما  
صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم؛ إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد؛  
كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم؛ إنك حميد مجيد»<sup>(٣)</sup>.  
﴿وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾، أي: واجعلني في الآخرة من ورثة جنة النعيم،  
أي: من الذين تورثهم جنة النعيم.

فاستجاب الله دعاءه ورفع منزلته في جنات النعيم.  
﴿وَأَعْفِرْ لِي﴾، أي: واغفر لأبي ذنوبه وما كان عليه من الشرك والكفر، ﴿إِنَّهُ كَانَ  
مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٥١﴾﴾ تعليل لطلب المغفرة له، أي: لأنه كان من الضالين المشركين.  
وهذا كقوله عليه السلام في سورة إبراهيم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ  
وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [الآية: ٤١].  
وهذا الدعاء من إبراهيم بسبب وعده لأبيه بقوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ

(١) انظر: «المعجم الكبير» للطبراني (١٣ / ١٧٩)، «حلة الأولياء» (١ / ١١٩)، «دلائل النبوة» للبيهقي (٤ / ٣٥٨).

(٢) انظر: «مجانى الأدب في حدائق العرب» (١ / ٢٩).

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٧٠، ومسلم في الصلاة ٤٠٦، وأبو داود في الصلاة ٩٧٦،  
والنسائي في السهو ١٢٨٨، والترمذي في الصلاة ٤٨٣؛ من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه.

كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ [مریم: ٤٧]، وقوله: ﴿لَا سَتْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمَلُكَ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [المتحنة: ٤].

وقد ترك إبراهيم عليه السلام الدعاء لأبيه، ورجع عنه لما تبين له عداوته لله، وموته على الكفر؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَسْتَعْفَارًا إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتَاءَهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ ١٧، أي: أجزني من الخزي والفضيحة، واستر علي يوم القيامة، يوم يبعث الخلائق كلهم للحساب والجزاء.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «يلقى إبراهيم أباه، فيقول: يا رب، إنك وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون. فيقول الله: إني حرمت الجنة على الكافرين» (١).

وفي رواية: «يلقى إبراهيم أباه يوم القيامة، وعلى وجه أزر قرة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون، فأبي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين. ثم يقال: يا إبراهيم، ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطح (٢)، فيؤخذ بقوائمه، فيلقى في النار» (٣).

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ﴾، «يوم»: بدل من قوله: ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾.

أي: يوم لا ينفع مال مهما كثر، فلو افتدى بملء الأرض ذهبًا ومثله معه ما تقبل منه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَا هُمْ عَادَابُ آلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦].

﴿وَلَا بَنُونَ﴾، «لا»: زائدة من حيث الإعراب مؤكدة للنفي من حيث المعنى.

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الشعراء ٤٧٦٩.

(٢) الذبيخ: الذكر من الضباع؛ كأنه مسخ آزر إلى صورة ذبيخ متلطح بعذرتة، فيلقى في النار كذلك.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، قوله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ ٣٣٥٠.

أي: ولا ينفع بنون مهما كثروا، فلا يملكون لو الدهم نفعًا، ولا يدفعون عنه ضرًا. ﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨٨)، «إلا»: أداة استثناء، أي: إلا من أتى الله، أي: وافاه ولقيه بقلب مؤمن مخلص العبادة لله تعالى وحده، سليم من جميع أمراض القلوب، من الشرك والشك، والنفاق والرياء، والشح والكبر، وحب الدنيا، وحب الرياسة، وغير ذلك.

ومن الغل والحقد، والحسد والعداوة والضغينة على عباد الله، يجب لهم ما يجب لنفسه، وينصح لهم؛ كما قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يجب لأخيه ما يجب لنفسه»<sup>(١)</sup>. وكما قال جرير بن عبد الله رضي الله عنه: «بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم»<sup>(٢)</sup>.

قال ابن القيم: «والقلب السليم: هو الذي سلم من الشرك والغل، والحقد والحسد، والشح والكبر، وحب الدنيا والرياسة، فسلم من كل آفة تبعده من الله، وسلم من كل شبهة تعارض خبره، ومن كل شهوة تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطع عن الله، فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا، وفي جنة في البرزخ، وفي جنة يوم المعاد، ولا تتم له سلامته مطلقًا حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهوى يناقض التجريد والإخلاص. وهذه الخمسة حجب عن الله، وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة، تتضمن أفرادًا لا تنحصر»<sup>(٣)</sup>.

وسلامة القلب ليست بالأمر السهل، بل هي بعيدة المنال، إلا على من وفقه الله؛ لأنها تحتاج إلى مجاهدة عظيمة، فإن الإنسان قد يستطيع أن يقوم الليل، ويصوم النهار، ويبذل النفس والمال، والغالي والرخيص، ويهون عليه ذلك، لكن قد لا يستطيع علاج

(١) أخرجه البخاري في الإيوان ١٣، ومسلم في الإيوان ٤٥، والنسائي في الإيوان وشرائعه ٥٠١٦، والترمذي في صفة القيامة ٢٠١٥، وابن ماجه في المقدمة من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيوان ٥٧، ومسلم في الإيوان ٥٦، والنسائي في البيعة ٤١٥٧، والترمذي في البر والصلة ١٩٢٥.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٣/٣٢٧.

قلبه إلا بجهد جهيد؛ ولهذا قال بعض السلف: «ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص»<sup>(١)</sup>. وهو معنى قول سفيان الثوري: «ما عاجلت شيئاً أشد علي من نيتي؛ لأنها تنقلب علي»<sup>(٢)</sup>.

وقال عبدالله بن أبي مُليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه»<sup>(٣)</sup>.

وقال رجل لحذيفة رضي الله عنه: إني أخاف أن أكون منافقاً. فقال: «لو كنت منافقاً ما خفت أن تكون منافقاً، إن المنافق قد أمن النفاق»<sup>(٤)</sup>.

وقال بعضهم: «ما خلا جسد من حسد، لكن اللئيم بيديه والكريم يخفيه»<sup>(٥)</sup>.

وقيل للحسن: «يحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك إخوة يوسف»<sup>(٦)</sup>.

### الفوائد والأحكام:

١- أمر الله عز وجل للنبي صلى الله عليه أن يتلو على أمته نبأ إبراهيم عليه السلام وخبره الهام في إخلاص التوحيد لله تعالى، والبراءة من الشرك وأهله؛ ليقتدوا ويتأسوا به في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الآيات].

٢- فضيلة إبراهيم عليه السلام، حيث جعله الله قدوة وإماماً في الدين، وأسوة في إخلاص التوحيد، واجتناب الشرك والبراءة منه وأهله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَا يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، وحكى عز وجل عن إبراهيم قوله: ﴿وَأَجُنَّبُنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

٣- إنكاره عليه السلام على أبيه وقومه ما هم عليه من عبادة الأصنام؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾.

(١) انظر: «القول المفيد على كتاب التوحيد» لابن عثيمين (١/٦٦).

(٢) انظر: «جامع العلوم والحكم» (١/٧٠).

(٣) ذكره البخاري في الإبان، خوف المؤمن أن يجبط عمله وهو لا يشعر، «فتح الباري» ١/١٠٩.

(٤) انظر: «قوت القلوب في معاملة المحبوب» لأبي طالب المكي (٢/٢٢٩) «إحياء علوم الدين» (١/١٢٣).

(٥) انظر: «أمراض القلوب وشفائها» لابن تيمية (ص ٢١).

(٦) انظر: «أمراض القلوب وشفائها» (ص ٢١)، «بدائع الفوائد» (٢/٢٣٦).

٤- تباهيهم بما هم عليه من عبادة الأصنام، وافتخارهم بملازمتهم العكوف عليها، جهلاً منهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَعْبُدُوا أَصْنَامًا فَنُظِلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ ﴿٧٦﴾ .

٥- بيانه عليه السلام لهم أن معبوداتهم لا تستحق العبادة؛ فهي لا تسمع ولا تجيب، ولا تنفع ولا تضر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٧﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ .

٦- إقرارهم واعترافهم بأنها لا تسمع ولا تجيب، ولا تنفع ولا تضر، وأنهم إنما عبدوها اقتداءً بأبائهم، وتقليدًا لهم على جهل وضلال؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٧٩﴾ .

٧- بيانه عليه السلام عداوة معبوداتهم له، وبراءته منها، وبغضه لها، وكشفه عوارها، وتحذيره من عبادتها، وتحديه لها أن تخلص إليه بسوء؛ لقوله عليه السلام: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٨٠﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي﴾ .

٨- إثبات ربوبيته تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٨٢﴾ .

٩- إثبات ولاية الله تعالى الخاصة لإبراهيم عليه السلام؛ لمفهوم قوله: ﴿فَأَنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ ، أي: فهو وليُّ لي؛ كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ وَلِيَّيَ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٨٤﴾ [الأعراف: ١٩٦].

١٠- بيانه عليه السلام أنه لا يستحق العبادة إلا رب العالمين وحده، المختص بصفات الربوبية؛ من الخلق والهداية، والرزق والشفاء، والإمامة والإحياء، ومغفرة الخطايا والذنوب وسترها؛ لقوله عليه السلام: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٨٦﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٧﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨٨﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٩﴾﴾ ، وفي هذا استدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية.

١١- ثناء إبراهيم عليه السلام على ربه بصفات الربوبية التامة، وامتداحه بها، وإثباتها له.

- ١٢- أدب إبراهيم عليه السلام مع ربه، في إسناده المرض إلى نفسه، مع أن ذلك كله بقضاء الله وقدره؛ لقوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ ﴿٨٠﴾.
- ١٣- أن الأنبياء عليهم السلام ليسوا معصومين من الأخطاء والصغائر، لكنهم لا يقرون عليها وسرعان ما يتوبون منها؛ لقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ ﴿٨٢﴾.
- ١٤- إثبات يوم الدين، وما فيه من الحساب والجزاء ومجازاة الخلق بأعمالهم؛ لقوله: ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾.
- ١٥- سؤاله عليه السلام ربه أن يهب له ﴿حُكْمًا﴾، أي: علمًا وفهيمًا وحكمة، وأن يلحقه بال صالحين من الأنبياء والمرسلين في الدنيا والآخرة؛ لقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ ﴿٨٣﴾.
- ١٦- أن سؤال الله العلم والفهم والحكمة والصلاح في الدين من أفضل المطالب؛ لأنه مطلب الأنبياء والرسل عليهم السلام.
- ١٧- سؤاله عليه السلام ربه أن يجعل له في الدنيا ذكرًا حسنًا فيمن يأتون بعده إلى يوم القيامة؛ لقوله: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿٨٤﴾.
- ١٨- سؤاله عليه السلام ربه أن يورثه في الآخرة جنة النعيم، التي هي أعظم وأغلى المطالب، وأرفع وأعلى المراتب؛ لقوله: ﴿وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ ﴿٨٥﴾.
- ١٩- إثبات الجنة، وأنها معدة لأهلها.
- ٢٠- سؤاله عليه السلام المغفرة لأبيه لما هو عليه من الضلال والشرك، وذلك قبل أن يتبين له أنه عدو لله بموته على الكفر؛ لقوله: ﴿وَأَغْفِرْ لَأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ ﴿٨٦﴾.
- ٢١- عظم حق الأب، لهذا خص إبراهيم أباه بالدعاء له دون غيره.
- ٢٢- أن الشرك من أعظم الضلال؛ كما أنه من أعظم الظلم.
- ٢٣- سؤاله عليه السلام الستر وعدم الفضيحة يوم بعث الخلائق؛ لقوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿٨٧﴾.
- ٢٤- أن في ذلك اليوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من وافى الله ولقيه بقلب مؤمن،

مخلص العبادة لله تعالى وحده، سليم من جميع أمراض القلوب من الشرك والشك والنفاق، والغل والحقد والحسد، وغير ذلك؛ لقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

قال ابن القيم<sup>(١)</sup>: «ولا تتم سلامة القلب حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهوى نفس يناقض التجرد من شهوات الدنيا، وهذه الخمسة حجب عن الله تعالى، لا بد للمسلم من التخلص منها، بالاستعانة بالله عز وجل».

٢٥- فضيلة القلب السليم، والإغراء بالحرص على سلامة القلب.

عن سفيان بن دينار قال: «قلت لأبي بشر: أخبرني عن أعمال من كان قبلنا، قال: كانوا يعملون يسيرًا، ويؤجرون كثيرًا. قال سفيان: ولم ذاك؟ قال أبو بشر: لسلامة صدورهم»<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن رجب<sup>(٣)</sup>: «أفضل الأعمال: سلامة الصدر من أنواع الشحناء كلها، وأفضلها السلامة من شحناء الأهواء والبدع التي تقتضي الطعن على سلف الأمة، وبغضهم والحقد عليهم، واعتقاد تكفيرهم، أو تبديعهم وتضليلهم، ثم يلي ذلك سلامة القلب من الشحناء لعموم المسلمين، وإرادة الخير لهم، ونصيحتهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه».

ومن أهم أسباب سلامة القلب ما يلي:

أولاً: الإقبال على الله تعالى والتعلق به وحده والإخلاص له، ودعاؤه والتضرع إليه وسؤاله الهداية وانسراح الصدر، وسلامة القلب؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ، يَمْشِرْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ، يُجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

ثانياً: إفشاء السلام؛ قال ﷺ: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى

(١) في «الداء والدواء» ص ١٥٢.

(٢) انظر: «الزهد لهناد بن السري ٦/ ٢٠٠».

(٣) في «لطائف المعارف» ص ١٣٩.

تحابوا، أولاً أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟! أفشوا السلام بينكم»<sup>(١)</sup>.  
 ثالثاً: محبة الخير للمسلمين، قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب  
 لنفسه»<sup>(١)</sup>.

رابعاً: التماس الأعذار، وإقالة العثرات، والتغاضي والتغافل عن الزلات.  
 خامساً: حسن الظن بالآخرين، وحمل ما يصدر منهم على أحسن المحامل، كما جاء  
 في الأثر: «لا تحملن كلمة من أخيك على محمل السوء وأنت تجد لها في الخير محملاً»<sup>(١)</sup>.  
 ٢٦- حاجة الأنبياء عليهم السلام وافتقارهم إلى الله تعالى وسؤاله، وغيرهم من  
 الخلق أحوج إلى سؤاله عز وجل من باب أولى.

\* \* \*

(١) سبق تخرجه.

قال الله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٥﴾ وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿١٦﴾ وَقِيلَ لَهُمْ آيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿١٧﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴿١٨﴾ فَكَبِكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿١٩﴾ وَجُنُودُ إبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٢١﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لِنُبَدِّلُ مِثْلَ مُبِينٍ ﴿٢٢﴾ إِذْ نَسُوْبِكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ وَمَا أَصَلْنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٢٤﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٢٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٥﴾ وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿١٦﴾ وَقِيلَ لَهُمْ آيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿١٧﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴿١٨﴾ فَكَبِكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿١٩﴾ وَجُنُودُ إبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٢٠﴾:

قوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾، أي: قربت وأدريت يوم القيامة.

﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين اتقوا الله، واتقوا سخطه وعذابه، بفعل أوامره واجتناب نواهيه - تكريماً لهم - كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾ [التكوير: ١٣].

﴿وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ﴾، أي: أظهرت وكشفت ﴿لِلْغَاوِينَ﴾، أي: لأهل الغي والشرك والكفر والضلال، تخويفاً وترهيباً لهم.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾، أي: وقيل لأهل الغي والكفر والشرك: ﴿آيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿١٧﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، الاستفهام: للتقريع والتوبيخ، أي: قيل لهم تقريعاً وتوبيخاً: أين الذي كنتم تعبدونه غير الله من الأصنام والأوثان والأنداد، وتعتقدون فيهم النفع ودفع الضرر؟ ﴿هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ﴾، فيدفعون عنكم عذاب النار، ﴿أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾، أي: أو هل ينتصرون بأنفسهم فيدفعون عنها الأذى والضرر والعذاب، والاستفهام: للنفي، أي: لا هذا ولا هذا، فلا هم ينصرونكم ولا ينتصرون لأنفسهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴿١٨﴾ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلَ اللَّهِ مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨-٩٩].

وقال تعالى: ﴿\* أَحْسَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْوَجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمْ

أَيُّومَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٦٦﴾ [الصفات: ٢٢-٢٦].

﴿فَكُجِبُوا فِيهَا﴾، أي: كبروا على وجوههم بعضهم على بعض فيها، أي: طرحوا وألقي بعضهم على بعض، وجمعوا في الجحيم.

﴿هُمْ﴾، أي: المعبودون من دون الله، ﴿وَالْغَاوُونَ﴾، أي: العابدون لها، ﴿وَجُنُودَ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾، أي: أتباعه في الغواية والضلال والدعوة إلى ذلك، من الإنس والجن.

﴿قَالُوا﴾، أي: قال الغاوون من المشركين وجنود إبليس أجمعين لمعبوداتهم من دون الله، ﴿وَهُمْ فِيهَا﴾، أي: وهم في الجحيم ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾، أي: يتجادلون ويتنازعون: العابد والمعبود، التابع والمتبوع، نادمين متحسرين حين رأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب.

﴿تَأَلَّه﴾، التاء: للقسم، جيء بها دون الواو؛ لأنها تختص بالقسم في شيء متعجب منه، ﴿إِنْ كُنَّا لِنِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، جواب القسم، و«إن» مخففة من الثقيلة مهملّة، واللام: للتوكيد، أي: إن كنا لفي ضلال يبيّن واضح.

﴿إِذْ نُسَوِّكُمْ﴾، أي: حين نسويكم، ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أي: نجعلكم مثله في العبادة والمحبة والتعظيم، والخوف والرجاء، وندعوكم كما ندعوه. فتبين لهم حينئذٍ ضلالهم البين، وجهلهم، وظلمهم غاية الظلم، وأقروا باستحقاقهم ما هم فيه من العذاب، وعدل الله تعالى فيهم.

وقولهم: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، يدل على إقرارهم بربوبيته عز وجل، وأنهم لم يسووا معبوداتهم به في الربوبية، وهو حجة عليهم؛ لأن من لازم توحيد الربوبية: الإقرار بتوحيد الألوهية.

﴿وَمَا أَضَلَّنَا﴾، أي: وما أضلنا عن طريق الهدى والحق والرشاد ﴿إِلَّا الْمَجْرُمُونَ﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: إلا السادة والكبراء في الإجرام والكفر والضلال من شياطين الإنس والجن، فاغتررنا بهم وأطعناهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً

يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٥١﴾ [القصص: ٤١].

وقال ﷺ لما قال له حذيفة رضي الله عنه في حديثه الطويل: وهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال ﷺ: «نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها»<sup>(١)</sup>.

﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ ﴿٥٣﴾، أي: فما لنا حينئذٍ من شافعين فيشفعون لنا لينقذونا من النار؛ كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَعَمَلٌ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣].

و«من»: للتأكيد، أي: فما لنا من أي شافعين؛ وذلك لأن من شرط الشفاعة إذن الله للشافع، ورضاه عن المشفوع له، وهؤلاء كفرة غير مرضيين عند الله. و«الشافع» في الأصل: من يتوسط للغير لجلب منفعة أو دفع مضرة.

﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ ﴿٥٤﴾ معطوف على ما قبله، و«لا»: مؤكدة، و«صديق»: نكرة في سياق النفي فتعم، أي: ولا لنا من أي صديق قريب مشفق يهتم بأمرنا ويواسينا؛ كما هي الحال في الدنيا، قال تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

قال بعضهم: وفي جمع ﴿شَافِعِينَ﴾ وإفراد ﴿صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ إشارة إلى قلة الصديق الحميم؛ كما هو الواقع، قال الشاعر:

ولقد فحصت بني الزمان فلم أجد      خلاً وفيًا للمكارم أصطفي  
فعلمت أن المستحيل ثلاثة      الأغول والعنقاء والخل الوفي<sup>(٢)</sup>

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٥﴾، «لو» حرف تمنٍّ، أي: ليت لنا ﴿كَرَّةً﴾، أي: رجعة إلى الدنيا، و«الكرة»: مرة من «الكر» وهو الرجوع.

ولم يقولوا: «ليت لنا كرة» صراحة، بل قالوا: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾، وهذا تمنٍّ فيه شيء من اللين واللطف والعرض، وذلك لما هم فيه من الخوف والذل، وقد صرحوا

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٠٦، ومسلم في الإمارة ١٨٤٧، وأبو داود في الفتن والملاحم ٤٢٤٤، من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

(٢) البيتان بدون نسبة. انظر: «الهدية الهادية» ص ٥٩.

بالتمني في سورة الأنعام؛ بقولهم: ﴿يَلَيِّنَا نُرْدُ وَلَا نُكَدِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ [الآية: ٢٧]. وذلك بحسب اختلاف الأحوال والمواقف.

﴿فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ الفاء: للسببية، و«نكون»: منصوب على التمني بأن مضمرة بعد الفاء، أي: فنكون من المصدقين المنقادين، أي: لو رجعنا إلى الدنيا لآمنا، وهم كاذبون؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾، أي: إن في محاجة إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه وإقامته الحجج على وحدانية الله تعالى، ووجوب إخلاص العبادة له، وبطلان الشرك، والتحذير منه، والبراءة منه ومن أهله ومن معبوداتهم، والبشارة بالجنة للمتقين، والتهديد بالجحيم للغاوين.

﴿لَايَةٌ﴾، أي: لدلالة واضحة جلية على وجوب توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، وعظة وعبرة للمعتبرين؛ فيها بشارة للمتقين، وتحذير للغاوين.

﴿وَمَا كَانَتْ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، أي: وما كان أكثر قوم إبراهيم، ولا أكثر الخلق مؤمنين، بل أكثرهم ضلال كافرون، مع وضوح الأدلة وقيام الحجة عليهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾؛ فبعزته عز وجل ورحمته جازى الخلائق بأعمالهم، فأزلفت الجنة للمتقين، وبرزت الجحيم للغاوين.

### الفوائد والأحكام:

١- إثبات وجود الجنة وتقريبها للمتقين؛ إكراماً لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ

لِلْمُتَّقِينَ﴾.

٢- الترغيب بتقوى الله تعالى؛ بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

٣- أن من إكرام الضيف تقرب الضيافة إليه؛ كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام في إكرامه لضيوفه: ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ [الذاريات: ٢٧]، وليس من إكرام الضيف - بل من إهانتة - أن يوضع الطعام في إناء؛ ليأتي الضيوف كل واحد يغترف لنفسه كما يفعل أدعياء المدينة الحديثة بزعم الاقتصاد في الطعام.

٤- إثبات وجود النار، وإبرازها للغاوين من أهل الشرك والكفر والمعاصي إرهاباً

- وتخويفاً لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ ﴿١١﴾.
- ٥- التحذير من الغواية بالشرك والكفر والمعاصي.
- ٦- تقديم الترغيب بالجنة على الترهيب بالنار؛ لأن رحمة الله تعالى تسبق غضبه.
- ٧- تقرير المشركين الغاوين وتوبيخهم في عبادتهم من دون الله ما لا ينصرهم، ولا ينتصر لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿١٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمُ أَوْ يَنْصُرُونَ﴾ ﴿١٣﴾.
- ٨- جمع المشركين الغاوين ومعبوداتهم، وطرح بعضهم على بعض في النار، هم وجنود إبليس وأتباعه أجمعون من الإنس والجن؛ إغاظه لهم، ونكاية بهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَبِّكُوا فِيهَا هُمُ وَالْغَاوُونَ﴾ ﴿١٤﴾ وَجُنُودِ إبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ ﴿١٥﴾.
- ٩- تخاصم أهل النار ومعبوداتهم فيها؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿١٦﴾ الآية؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ ﴿١٦﴾ [ص: ٦٤].
- ١٠- إقرار المشركين واعترافهم بضلالتهم المبين، في تسويتهم معبوداتهم برب العالمين، وندمهم وتحسرهم على ذلك، حيث لا ينفع الندم؛ لقولهم: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لِنِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿١٧﴾ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٨﴾.
- ١١- أن الشرك أعظم الضلال وأبينه؛ لما فيه من جعل الأنداد لله، وتسويتهم مع الله الذي لا يماثله شيء، وصرف حقه تعالى لهم.
- ١٢- إقرار المشركين بتوحيد الربوبية؛ لقولهم: ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ولم ينفعهم ذلك؛ لأنهم لم يقروا في الحياة بلازمه، وهو توحيد الألوهية، وإنما أقروا بذلك لما كبكبا في النار، وليس ذلك بنافعهم.
- ١٣- أن سبب ضلال كثير من الناس: اتباعهم دعاة الضلال من السادة والكبراء المجرمين؛ لقولهم: ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿١٩﴾، مما يوجب الحذر منهم.
- ١٤- انتفاء الشفاعة عن أهل النار، فما لهم من شافعين يشفعون لهم برفع العذاب أو تخفيفه، ولا صديق حميم يواسيهم؛ لقولهم: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ ﴿٢١﴾.
- ١٥- شدة ندمهم وتمنيهم الرجوع ليستدرکوا ويؤمنوا؛ لقولهم: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً

فَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾، وهيئات لهم ذلك، مع أنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه كما ذكر الله عز وجل.

١٦- أن في محاجة إبراهيم لأبيه وقومه، وإقامته الحجج على وحدانية الله تعالى في ربوبيته وإلهيته، وبطلان ما هم عليه من الشرك في عبادة الله تعالى - دلالة واضحة على وجوب توحيد الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له، وعظة وعبرة للمعتبرين، فيها بشارة للمتقين، ونذارة للغاوين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾.

١٧- أن أكثر الخلق غير مؤمنين، مع بيان الآيات والأدلة والبراهين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ التُّذْرُ﴾ [القمر: ٥].

١٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبينا ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾.

١٩- إثبات اسمي الله عز وجل: «العزیز» و«الرحیم» وصفتي العزة التامة، والرحمة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

٢٠- أنه عز وجل بعزته ورحمته جازى الخلائق بأعمالهم، فأزلفت الجنة للمتقين وأدخلوا فيها، وبرزت الجحيم للغاوين، فككبوا فيها هم ومعبوداتهم وجنود إبليس أجمعون.

٢١- في اقتران العزة والرحمة في حقه عز وجل كمال إلى كمال.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١١٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٠﴾ \* قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَزْدَلُونَ ﴿١٢١﴾ قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٢٥﴾ قَالُوا لَيْن لَمْ تَنْتَه يَنْبُوحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١٢٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنْ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١٢٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴿١٢٩﴾ ثُمَّ أَخْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٢﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١١٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٠﴾:

ذكر الله تعالى قصة موسى عليه السلام، وقدمها لما فيها من الآيات والعبر والعظات، والحكم العظيمة، ثم أتبعها بذكر قصة إبراهيم عليه السلام ومحاجته لأبيه وقومه؛ لما فيها من إقامة الدلائل والحجج على وحدانية الله عز وجل، في ربوبيته وإلهيته، وعلى بطلان الشرك، وتقليد الآباء على جهل وضلال، ثم أتبع ذلك بقصة نوح أول الرسل، وقصص الأنبياء بعده: هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام.

ونوح هو أول الرسل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣].

وفي حديث الشفاعة: «ولكن اتوا نوحًا؛ فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض»<sup>(١)</sup>.  
قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٥﴾»، أي: كذبوا نبيهم نوحًا عليه السلام، فصاروا بتكذيبهم له مكذبين لجميع الرسل بعده؛ لأن من كذب رسولاً كمن كذب جميع الرسل؛ لأن دعوتهم واحدة، وهي الدعوة إلى توحيد الله، والنهي عن الشرك،

(١) سبق تخريجه.

والدعوة لكل خير، والتحذير من كل شر.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾، أي: حين قال لهم أخوهم نوح، أي: أخوهم نسباً؛ لأنه منهم؛ كما هو حال كثير من الرسل؛ لكي يطمئنوا إليه وينقادوا له.

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، «ألا» أداة عرض وتحضيض، أي: ألا تتقون الله، بفعل ما يأمركم به من توحيده وعبادته، وترك ما ينهاكم عنه مما أنتم عليه من الشرك، وغير ذلك.

وفي قوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ما لا يخفى من التلطف في الخطاب؛ لاستمالة قلوبهم إلى الحق.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

تعليل لقوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، وقدم المتعلق «لكم» للدلالة على الاختصاص، أي: إني لكم خاصة رسول من عند الله، فاشكروه وتلقوا رسالته بالقبول.

﴿أَمِينٌ﴾، أي: أمين على ما بعثني به إليكم، أبلغكم رسالة ربي، لا أزيد فيها ولا أنقص منها؛ كما قال موسى عليه السلام: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٠٥]، وكما قال عز وجل في وصف رسله: ﴿الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكُنُوا بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾، تأكيد لقوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، أي: فاتقوا الله بترك ما نهاكم عنه والخوف من عذابه، ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما أمركم به.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾.

لما ذكر السبب الموجب لطاعته - وهو أنه رسول لهم خاصة من عند الله، أمين على ما بعثه الله به - أتبع ذلك بذكر انتفاء المانع؛ فقال:

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾، أي: وما أسألكم على إبلاغكم رسالة ربي إليكم ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾، «من»: مؤكدة لعموم النفي، أي: من أي أجر دنيوي مقابل ذلك، فتستثقلون ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّعْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠، القلم: ٤٦].

﴿إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، «إن»: نافية بمعنى: «ما»، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما أجري وجزائي وثوابي - على تبليغكم رسالة ربي - إلا على رب العالمين،

أحتسب ذلك وأدخره عنده، وأرجو به منه الثواب الجزيل.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ١١٣، كرر؛ لزيادة التأكيد، بعد أن بين الموجب لذلك، وذكر انتفاء المانع منه، ويين لهم صدقه وأمانته ونصحه، فهو أشبه بالتأسيس.

قوله تعالى: ﴿\* قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ﴾ ١١٣ قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾:

قوله: ﴿\* قَالُوا﴾، أي: قال كبراء المكذبين من قوم نوح وساداتهم.

﴿أَنْتُمْ لَكُمْ﴾، الاستفهام: للإنكار والنفي، أي: لا يمكن أن نؤمن لك ونصدقك وننقاد لك.

﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ﴾، قرأ يعقوب: «وَأَتْبَاعُكَ» بقطع الهمزة، وإسكان التاء مخففة، وضم العين، وألف قبلها، على الجمع.

وقرأ الباقون بوصل الهمزة، وتشديد التاء مفتوحة، وفتح العين، من غير ألف:

﴿وَاتَّبَعَكَ﴾.

والجملة حالية، أي: كيف نؤمن لك، ونصدقك فيما جئت به وننقاد لك، والحال أنه قد اتبعك، أو أن أتباعك هم الأردلون؟ أي: أراذل الناس وأنقصهم وسفلتهم وسقطهم. يصمون بذلك من آمن من الفقراء والضعفاء منهم؛ كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿وَمَا نَرَبُّكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧].

أي: أنؤمن لك ونتبعك ونتساوى مع هؤلاء الأراذل؟! وهذا كما يدل على شدة تكبرهم يدل على عدم صدقهم في تحري الحق، وأنه لا قيمة له عندهم، إذ كيف يعدلون عنه، ويأنفون من اتباع نوح؛ لمجرد أن الفقراء والضعفاء اتبعوه؟!.

وما علم هؤلاء المتجبرون المتكبرون أن الذين بادروا إلى تصديق نوح، والإيمان بما جاء به، وأمثالهم من اتباع الرسل هم الأكرمون، وأن من ردوا دعوة الرسل وكذبوهم هم الأردلون، ولكن كما قيل: رمتني بدائها وانسلت.

﴿قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، «ما» في قوله: ﴿بِمَا كَانُوا﴾ موصولة،

أو مصدرية، أي: وما علمي بالذي كانوا يعملونه، أو بعملهم، في الماضي والحاضر والمستقبل، في الظاهر والباطن.

كما قال ﷺ حين سئل عن أولاد الكفار: «الله أعلم بما كانوا عاملين»<sup>(١)</sup>.

أي: إن ما هم عليه من عمل ليس عليّ أمر التمحيص فيه، والبحث عنه، ما عليّ إلا قبول ظاهرهم، والله يتولى أعمالهم وسرائرهم.

وأيضاً أي شيء يلحقني بعملهم وإن كانوا هم الأردلين في زعمكم فلا يضرني ذلك ولا تبعة عليّ منه؛ ولهذا قال:

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾، «إن»: نافية بمعنى: «ما»، أي: ما حسابهم على أعمالهم إلا على ربي يجازيهم عليها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٥٦﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦]، وليس عليّ من حسابهم شيء، وإنما عليّ البلاغ؛ كما قال تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴿٥٢﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ [الرعد: ٤٠].

﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أي: لو تعلمون حقيقة أنه ليس عليّ تمحيص أعمالهم، ولا تبعة عليّ فيما يعملون، وأن حسابهم على الله، أي: لَمَا قَلْتُمْ: ﴿أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَالُونَ﴾، والمراد: اعلّموا ذلك.

كما قال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله عز وجل»<sup>(٢)</sup>.

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، كأنهم لكبرهم وتجبرهم طلبوا منه أن يطرد من آمن به من الفقراء والضعفاء؛ ليتبعوه، وهذا فحوى قولهم: ﴿أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَالُونَ﴾، فأبى عليهم ذلك وقال: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣٨٤، ومسلم في القدر ٢٦٥٨، وأبو داود في السنة ٤٧١٤، والنسائي في

الجنائز ١٩٤٩، والترمذي في القدر ٢١٣٨؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٤٦، ومسلم في الإيمان ٢١، وأبو داود في الجهاد ٢٦٤٠، والنسائي في

الجهاد ٣٠٩٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٠٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٢٧؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لأن هؤلاء يستحقون على سبقهم التحية والإكرام؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَطَرَدَهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام: ٥٤].

﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾﴾، «إن»: نافية، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما أنا إلا نذير، أي: محذر ومخوف، ﴿مُبِينٌ﴾، أي: بين واضح.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَنْصُوحًا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١٦﴾﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١٧﴾ فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجَّيْتِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَسْحُورِ ﴿١٩﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾

قوله: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَنْصُوحًا﴾، اللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن لم تنته يا نوح عن دعوتك إيانا إلى دينك وترك أهلتنا.

﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾، جملة جواب القسم، واللام: واقعة في جواب القسم، أي: لتكونن من المقتولين رجماً بالحجارة، أي: لنرجمنك بالحجارة فنقتلك شرقتة.

ولم يقولوا: لنرجمنك، بل قالوا: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾، مبالغة في التخويف، أي: أنت لست أول من يرجم، بل هناك من رجم قبلك.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١٧﴾ فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجَّيْتِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾﴾

بعد أن طال مكث نوح عليه السلام فيهم، يدعوهم إلى الله تعالى بشتى الوسائل، وينوع لهم في أساليب الدعوة، ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، مجتمعين وفرداً، وكلما كرر عليهم الدعوة، وطال عليهم الأمد، ازدادوا إصراراً على كفرهم وتكذيباً واستكباراً، دعا عليهم فاستجاب الله دعوته.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذِبُونَ﴾، قال نوح عليه السلام بعد أن أيس كل اليأس من إيمان قومه بعد طول لبثه فيهم يدعوهم إلى الله: ﴿رَبِّ﴾، أي: يا رب، ﴿إِنَّ قَوْمِي كَذِبُونَ﴾، في هذا ما يشعر بتحسره وحزنه عليهم.

﴿فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾، الفتح: الحكم، و«فتحا» مفعول مطلق، أي: فاحكم بيني وبينهم حكماً، أي: أهلكهم واستأصلهم؛ كما قال في سورة نوح: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٣٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِجْرًا كَقَارًا ﴿٣٧﴾﴾.

وكما قال في سورة القمر: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١١﴾ ففَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١٢﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فُدِرَ ﴿١٣﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ دُسْرٍ ﴿١٤﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ أي: وأنقذني وخلصني ومن معي من المؤمنين من العذاب، ومن هؤلاء القوم الكافرين.

وهذا يدل على أن مراده بقوله: ﴿فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾، أي: أهلكهم واستأصلهم.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾، من المؤمنين وهم قليل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

﴿فِي الْفُلِّ﴾، أي: في السفينة التي صنعها نوح عليه السلام بأمر الله عز وجل له؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا﴾ [هود: ٣٧].

﴿الْمَشْحُونُ﴾، المملوء بالناس والدواب والمتاع من كل زوجين اثنين؛ كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾، أي: ثم أغرقنا بعد إنجاء نوح عليه السلام ومن معه في الفلك ﴿الْبَاقِينَ﴾، وهم جميع قومه عدا من كان معه في السفينة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾، أي: في دعوة نوح عليه السلام قومه، وتكذيبهم له، مع طول لبثه فيهم، ومن ثم دعاؤه عليهم، وسؤاله النجاة له ولمن معه من المؤمنين، واستجابة الله دعوته، وإنجائه ومن معه، وإغراق المكذبين.

﴿لَايَةً﴾ اللام: للتوكيد، أي: لدلالة على عظمة الله تعالى وتما قدرته، وعلى صدق نوح عليه السلام وجميع رسل الله تعالى، وصحة ما بعثهم الله به، وبطلان ما عليه المكذبون لهم، وعظة وعبرة لمن يعتبر.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: وما كان أكثر قوم نوح، ولا أكثر الخلق مؤمنين، بل أكثرهم كفار ضالون.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، أي: ذو العزة التامة، والرحمة الواسعة، فبعزته أغرق بالطوفان المكذبين، وبرحمته نصر أوليائه، ونجى نوحًا ومن معه من المؤمنين.

### الفوائد والأحكام:

- ١- إثبات رسالة نوح عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾.
- ٢- تكذيب قوم نوح له عليه السلام مع طول لبثه فيهم يدعوهم إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾.
- ٣- أن من كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾، ومعلوم أن نوحًا عليه السلام هو أول رسول إلى أهل الأرض؛ وذلك لأن دين الرسل كلهم واحد، وهو الدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك، فمن كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع الرسل.
- ٤- أن نوحًا عليه السلام من قومه، ونسب فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾.
- ٥- حثه عليه السلام قومه على تقوى الله تعالى بعبادته وحده، وترك ما هم عليه من الشرك؛ لقوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾.
- ٦- بيانه لهم أنه رسول لهم خاصة، أمين على ما بعثه الله به إليهم؛ لقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ

رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧﴾، وفي هذا جواز وصف الإنسان نفسه بالأمانة ونحو ذلك، إذا كان على سبيل الإخبار الصادق، ولمصلحة، لا الافتخار، كما قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»<sup>(١)</sup>، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لو أعلم أحدًا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه»<sup>(٢)</sup>.

٧- تأكيده أمرهم بتقوى الله، وحثهم على طاعته؛ لقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾.  
 ٨- نفيه أن يسألهم أجرًا دنيويًا مقابل تبليغه إياهم رسالة ربه؛ لقوله: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، لئلا يعتبروا ذلك غرمًا، فيمتنعون من الإيمان بسبب هذا الأجر والغرم.

٩- إخلاصه عليه السلام وبيانه أن أجره في تبليغ رسالة ربه على الله تعالى؛ لقوله: ﴿إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وهكذا جميع الرسل يحتسبون أجرهم في ذلك على الله، لا على غيره.

١٠- وجوب إخلاص العمل لله تعالى طلبًا لثوابه، وابتغاء مرضاته.

١١- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

١٢- تأكيده ثالثة أمرهم بتقوى الله وطاعته، بعد أن بين لهم السبب الموجب لذلك، وانتفاء المانع؛ لقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾.

١٣- امتناعهم من الإيمان، ونفيهم أن يؤمنوا لعله واهية باطلة؛ وهي أنه قد اتبعه الأردلون، يعنون: الفقراء والضعفاء؛ لقولهم: ﴿أَنْتُمْ لَكُمْ وَأَتَّبَعَكُمُ الْأَرْدَلُونَ﴾.

١٤- عتو قوم نوح وتجبرهم وتكبرهم عن قبول الحق، وعلى فقرائهم وضعفائهم.

١٥- مبادرة الفقراء والضعفاء إلى الإيمان بالرسول واتباعهم، وتأخر ذوي الأموال والمناصب والجاه، بل وامتناع كثير منهم عن الإيمان، حكمة بالغة.

(١) سبق تحريجه.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، القراء من أصحاب رسول الله ﷺ ٥٠٠٢، ومسلم في فضائل الصحابة، فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله عنها ٢٤٦٣.

١٦- بيان نوح عليه السلام أنه ليس عليه التمحيص في أعمال من آمن به واتبعه، وإنما عليه قبول الإيمان الظاهر منهم، والله يتولى السرائر؛ لقوله: ﴿وَمَا عَلَّمِي مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

١٧- أن حساب الخلائق على الله تعالى إليه إياهم، وعليه حسابهم، وليس على الرسل إلا البلاغ؛ لقوله: ﴿إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾.

١٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنوح عليه السلام؛ لقوله: ﴿رَبِّي﴾.

١٩- الإشارة إلى جهل قومه، وعدم علمهم؛ لقوله: ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾.

٢٠- نفيه عليه السلام أن يطرد المؤمنين؛ لأجل هؤلاء المتجبرين المتكبرين من قومه؛ لقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢١- وجوب التواضع للمؤمنين، وتقريبهم وموالاتهم ومحبتهم، وعدم سماع القالة فيهم.

٢٢- بيانه عليه السلام أنها هو نذير محذر من عذاب الله تعالى، بين النذارة؛ لقوله: ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

٢٣- تهديدهم له إن لم ينته عن دعوتهم بالرجم والقتل؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَنْزُحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾.

وهذه طريقة المكذبين المستكبرين من أعداء الرسل وغيرهم من دعاة الحق، إذا أيسوا من إبطال الحق، لجؤوا إلى التهديد بالقوة.

٢٤- يأسه عليه السلام كل اليأس من إيمانهم بعد طول لبثه فيهم، ودعاؤه عليهم بالهلاك والاستئصال؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَأَنْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا وَنَجْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

٢٥- سؤاله ربه النجاة له ولمن معه من المؤمنين؛ لقوله: ﴿وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢٦- استجابة الله عز وجل له، وإنجاؤه ومن معه من المؤمنين في السفينة، وإغراق الباقين المكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَسْحُورِ ﴿١١٩﴾﴾.

أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٠٦﴾ .

٢٧- نصره الله تعالى لرسله وأوليائه ولو بعد حين، وإهلاك أعدائهم.

٢٨- أن في دعوة نوح عليه السلام لقومه وتكذيبهم له مع طول لبثه فيهم، ومن ثم دعاؤه عليهم، وسؤاله النجاة له ولمن معه من المؤمنين، واستجابته عز وجل له، وإنجاؤه ومن معه في السفينة، وإغراق المكذبين- دلالة عظيمة على تمام قدرة الله تعالى، ونصرته لرسله وأوليائه، وإهلاك أعدائه، وفي ذلك تسلية له ﷺ وتهديد للمكذبين له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ .

٢٩- أن أكثر قوم نوح، وأكثر الخلق غير مؤمنين، مع ظهور الحق، وقيام الحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٠٧﴾ .

٣٠- إثبات ربوبية الله الخاصة لنبينا ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإضافة

اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ .

٣١- إثبات اسمي الله عز وجل: «العزیز» و«الرحیم»، وصفتي العزة والرحمة،

وأنه سبحانه بعزته أغرق المكذبين من قوم نوح، وبرحمته أنجى نوحًا ومن معه من

المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٠٨﴾ .

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ ﴿١٣٢﴾ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٣٣﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٣٤﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣٥﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٦﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ﴿١٣٧﴾ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٣٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٣٩﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٤٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٤١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمُونَ ﴿١٤٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٤٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٤٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أُوَعِّظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٤٦﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٤٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٤٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكَاهُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٠﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ ﴿١٣٢﴾ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٣٣﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٣٤﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣٥﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٦﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ﴿١٣٧﴾ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٣٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٣٩﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٤٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٤١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمُونَ ﴿١٤٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٤٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٤٥﴾:

ذكر الله تعالى قصة نوح وقومه، ثم أتبعها بذكر قصة هود وقومه؛ لأن زمانهم كان بعد قوم نوح، وقد جعلهم الله خلفاء من بعد قوم نوح؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف: ٦٩].

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣١﴾﴾، لتكذيبهم نبيهم هوداً عليه السلام، وكانت منازلهم في الأحقاف جنوب الجزيرة، وهي جبال الرمل قريباً من حضر موت، متاخمة لليمن، وقد أعطاهم الله من القوة، وكبر الأجسام، وشدة الخلق والبطش ما لم يكن لغيرهم، فاغتروا بقوتهم وبأسهم، وكذبوا هوداً عليه السلام، وأصروا على عبادة الأوثان، فسلط الله عليهم الريح، ألطف مخلوقاته، فجعلها أعتى شيء عليهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخَلِّقْ مِثْلَهَا فِي الْعَالَمِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر: ٦-٨].

﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ ﴿١٣٢﴾ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٣٣﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٣٤﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴿١٣٥﴾﴾

وَأَطِيعُونَ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴿١٢٦﴾

سبق الكلام على نظير هذه الآيات في قصة نوح عليه السلام.

قوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾، الاستفهام للإنكار والتقريع والتوبيخ، والريع: الطريق والمدخل والفتح بين الجبال، وقيل: الشرف والمكان المرتفع.

﴿آيَةً﴾، أي: علامة ومعلماً وبناء مشهوراً، دلالة على قوتكم وقدرتكم.

﴿تَعْبَثُونَ﴾، أي: تبنون ذلك عبثاً، وهواً ولعباً، واستعراضاً للقوة، وإظهاراً لها، وتضييعاً للزمان، وإتباعاً للأبدان، بلا حاجة، ومن غير فائدة، ولا مصلحة.

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾، بروجاً مشيدة، وقصوراً رفيعة، وحصوناً منيعة، ومصانع كثيرة، ومخازن كبيرة للمياه تحت الأرض.

﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾، أي: لكي تقيموا فيها أبداً، وليس ذلك بحاصل لكم، بل زائل عنكم، كما زال عن من كان قبلكم.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه لما رأى ما أحدث المسلمون في الغوطة من البنين ونصب الشجر، قام في مسجدهم، فنادى: «يا أهل دمشق»، فاجتمعوا إليه، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «ألا تستحيون؟ ألا تستحيون؟ تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تدركون، قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون، ويبنون فيوثقون، ويأملون فيطيلون، فأصبح أملهم غروراً، وأصبح جمعهم بوراً، وأصبحت مساكنهم قبوراً، ألا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً وركاباً، من يشتري مني ميراث عاد بدرهمين؟!» (١).

﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ﴾، البطش: الأخذ بشدة قتلاً وضرباً، وأخذاً للأموال، وغير ذلك، ﴿جَبَّارِينَ﴾ حال، والجبار: الشديد في البغي والظلم بغير رأفة.

والمعنى: وتبطشون ببطش جبارين بشدة وبغي وظلم من غير رأفة.

فاغترتوا بها أعطاهم من القوة؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٣٧٩٩/٩، وذكره ابن كثير ١٦٢/٦ - ١٦٣.

وَكَاوُوا بِعَايِلَتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ [فصلت: ١٥].

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، بترك ما أنتم عليه من عبادة غير الله، وتكذيب الحق، والعبث والانشغال بما لا ينفعكم، والظلم والجبروت، ﴿وَأَطِيعُوا﴾، فيما أمركم به.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمُونَ ﴿١٦﴾﴾، تأكيد للأمر بتقوى الله، مع التذكير بنعم الله، ﴿بِمَا﴾، «ما»: موصولة، أي: اتقوا الذي أعطاكم وزودكم بالذي تعلمونه، وبما لا يجهل ولا ينكر؛ من النعم العظيمة، والآلاء الجسيمة، التي لا تحصى؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤، والنحل: ١٨].

﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٧﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٨﴾﴾، الجملة بدل من جملة: ﴿أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمُونَ﴾ وتفصيل لها، وكرر الفعل «أمدكم» للتوكيد وزيادة الاهتمام بذلك الإمداد.

﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ﴾، أي: أعطاكم وزودكم بأنعام كثيرة؛ من إبل وبقر وغنم، وغير ذلك من بهيمة الأنعام، ﴿وَبَنِينَ﴾، أي: وأمدكم بـ«بنين» كثير، يخدمونكم، وبهم عزكم وفخركم، وهم زينة الحياة الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

وخص البنين؛ لأنهم هم وأبناؤهم وإن نزلوا يكونون عصابة وقبيلة دون أولاد البنات، فهم من غيرهم؛ قال الفرزدق (١):

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأبعاد

وقدم الأنعام وآخر «بنين» لمراعاة الفاصلة.

﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٩﴾﴾ أي: وبساتين وعيون تنبع من الأرض وتجري.

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٠﴾﴾، الجملة: تعليل لإنكاره عليهم عدم تقواهم، ولأمره إياهم بالتقوى.

أي: إني أخاف وأشفق أن ينزل بكم عذاب يوم عظيم في الدنيا، أو عذاب يوم

(١) انظر: «ديوانه» (ص ٢١٧).

القيامة الذي لا أعظم ولا أشد ولا أكبر منه، بسبب كفركم وبطشكم وتجبركم وتكبركم، فدعاهم أولاً بالترغيب، ثم بالترهيب، فما نفعهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكَهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾:

قوله: ﴿قَالُوا﴾، أي: قالوا معاندين للحق، مكذبين لهود عليه السلام، مؤيسين له من قبول ما يدعوهم إليه: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾، أي: يستوي عندنا ﴿أَوَعَضْتَ﴾، أي: أخوفت وحذرت ﴿أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾، أي: أم لم تكن من المخوفين والمحذرين.  
أي: إننا لن نترك عبادة آلهتنا، ولن نؤمن لك لمجرد قولك؛ كما قالوا في الآية الأخرى في سورة هود: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣].

وكما قال تعالى عن كفار هذه الأمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

وهذا غاية العتو والقسوة والشقاء؛ أن تبلغ الحال إلى أن تصير مواعظ الله التي تذيب الجبال الصم الصلاب، وتتصدع لها أفئدة أولي الأبواب، وجودها كعدمها على حد سواء، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ [المائدة: ٤١].

﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾، قرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب والكسائي بفتح الخاء وإسكان اللام: «خُلُقٌ»، وقرأ الباقر بضمها: ﴿خُلُقٌ﴾.  
والجملة: تعليل لقولهم: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾، و«إن»: نافية بمعنى: «ما»، و«إلا»: أداة حصر، وخلق الأولين: عادتهم ودينهم.  
أي: إن هذا الإمداد والنعمة، وتغير الأحوال وتقلبها، من شدة إلى رخاء، ومن فقر إلى

غنى، أو العكس، ما هي إلا عادات الأولين؛ من الآباء والأجداد، وأحوال جرت عليهم، وتجري علينا مثلهم، ولا بعث ولا حساب ولا عذاب، فلم نخوفنا؟ كما قال المشركون الدهريون: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجنّة: ٢٤].

ويحتمل أن المعنى: ما هذا الذي جئنا به إلا أخلاق الأولين، وافتراءاتهم وكذبهم وأساطيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءآخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤-٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَادَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤].

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [٣٧٨]، الباء: للتوكيد، أي: وما نحن بمعذبين أبدًا، وهذا إنكار منهم للبعث والحساب والجزاء على الأعمال، أو اغترار بما هم فيه من النعم في الدنيا، وأنه إن كان ثمة بعث، على سبيل الفرض، فلن نعذب، بل سننعم؛ كما هي حالنا في الدنيا. ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، أي: فأصروا واستمروا على تكذيب هود عليه السلام فيما دعاهم إليه، وفيما خوفهم منه.

﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾، الفاء: عاطفة، أي: فاستأصلناهم ودمرناهم بريح صرصر عاتية؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ حَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة: ٦-٨]، وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ مَحْسُوتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت: ١٦].

وقال تعالى: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٢﴾ نُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَلِكُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحاف: ٢٤-٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَةَ ﴿١١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرِّيمِ ﴿١٢﴾﴾ [الذاريات: ٤١-٤٢].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾، أي: إن في قصة هود عليه السلام مع قومه عاد، ودعوته إياهم إلى

تقوى الله وطاعته، وإنكاره ما هم عليه من عبادة غير الله، والبطش والجبروت، وغير ذلك، وتذكيرهم بنعم الله، وتحذيرهم من عذابه، وعنادهم، وإنكارهم البعث والعذاب، وتكذيبهم، ومن ثم إهلاكهم وتدميرهم.

﴿لَايَةً﴾، أي: لعظة وعبرة للمعتبرين، ودلالة على عظمة الله تعالى وتمام قدرته، وعلى صدق هود وصحة ما جاء به، وبطلان ما عليه قومه من الشرك والبطش والجبروت، وتسلية له ﷺ وتهديد للمكذبين له.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: وما كان أكثر قوم هود، ولا أكثر الخلق مؤمنين، بل أكثرهم كافرون ضالون مع بيان الأدلة، وقيام الحجة عليهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٧)، فبعزته عز وجل ورحمته نصر هوداً ومن اتبعه، وأهلك المكذبين من قومه.

### الفوائد والأحكام:

- ١- تكذيب عاد جميع المرسلين بتكذيبهم هود عليه السلام؛ لأن دين الرسل واحد، فمن كذب رسولاً فقد كذب جميع الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٢٣).
- ٢- إثبات رسالة هود عليه السلام إلى قومه عاد خاصة، وأنه ذو نسب فيهم، وأمين على ما بعثه الله به إليهم، وإنكاره عليهم ما هم عليه من عبادة غير الله، وأمره لهم بتقوى الله وطاعته، وترك ما هم عليه من الشرك ومخالفة أمر الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١٢٤) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٢٥) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١٢٦).
- ٣- نفيه عليه السلام أنه يسألهم أجراً على تبليغهم رسالة ربه فيستثقلوا ذلك، وأن أجره كغيره من المرسلين على رب العالمين؛ لقوله: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمُونِ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٢٧).

- ٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.
- ٥- إنكاره عليه السلام عليهم اشتغالهم عبثاً ببناء المعالم على الطرق، مما لا فائدة فيه، ولا حاجة بهم إليه؛ استعراضاً لقوتهم وقدرتهم واتخاذهم المصانع والقصور؛ كأنهم يخلدون؛ لقوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ (١٢٨) ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ

تَخَذُونَ ﴿١٢٦﴾ .

٦- إنكاره عليهم اغترارهم بما هم عليه من القوة والشدة في الخلق، وبطشهم وجبروتهم؛ لقوله: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ .

٧- تأكيده لهم الأمر بتقوى الله تعالى؛ لقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٦﴾﴾ .

٨- تذكيرهم بنعم الله تعالى الكثيرة عليهم مما لا يحفى عليهم؛ من الأنعام والبنين والعيون وغير ذلك؛ ليتقوه؛ لقوله: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمُونَ ﴿١٢٦﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٢٦﴾ وَجَعَلَتْ وَعْيُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ .

٩- إن الإمداد بالنعم والأرزاق كله من الله عز وجل؛ مما يستوجب شكره وتقواه وطاعته، وذكر تلك النعم، والتذكير بها، وشكرها، وعدم كفرها.

١٠- شفقتة عليه السلام وخوفه عليهم إن أصروا على ما هم عليه من الشرك والبطش والجبروت من عذاب يوم عظيم في الدنيا أو الآخرة؛ لقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ .

١١- جمعه عليه السلام لهم بين الترغيب والترهيب، ولكن ذلك لم ينجع فيهم. وهكذا ينبغي أن يجمع في الدعوة إلى الله بين الترغيب والترهيب.

١٢- شدة عتو عاد، وإصرارهم على ما هم عليه من الكفر، ورفضهم وعظ هود لهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ .

١٣- جهلهم ومكابرتهم، وظنهم الباطل: أن ما هم فيه من النعم، وتقلب الأحوال، وانتقالها من شدة إلى رخاء، ومن رخاء إلى شدة، إنها ذلك عادة الأولين من الآباء والأجداد، فتجري عليهم كما جرت على الأولين قبلهم. وفي هذا جمع بين كفر نعمة الله تعالى، والأمن من عقابه لهم بزوالها؛ لقولهم: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأُولِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ .

١٤- إنكارهم البعث والحساب والجزاء على الأعمال، واغترارهم أنه إن كان ثمة بعث فسيُعمون كحالهم في الدنيا، ولن يعذبوا؛ لقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ .

١٥- إصرارهم واستمرارهم على تكذيب هود عليه السلام، وإهلاكهم واستئصالهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكَهُمْ﴾ .

١٦- إثبات الأسباب، وأن سبب إهلاك قوم هود هو تكذيبهم له عليه السلام.  
 ١٧- أن في قصة هود عليه السلام مع قومه عاد ودعوته لهم وما جرى بينه وبينهم، وإصرارهم على ما هم عليه من الشرك والبطش والعناد، وتكذيب هود، ومن ثم إهلاكهم وتدميرهم عظةً وعبرة- دلالةً على عظمة الله وتمام قدرته ونصرته لرسله وأوليائه، والانتقام من أعدائه وإهلاكهم، وفيها وعد له ﷺ وللمؤمنين، ووعد وتهديد للكافرين.

١٨- أن أكثر عاد، وأكثر الخلق غير مؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾.

١٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبينا ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾.

٢٠- إثبات اسمي الله عز وجل: «العزیز» و«الرحیم»، وصفتي «العزة» و«الرحمة» له عز وجل، وأنه سبحانه بعزته ورحمته ينصر أوليائه، ويهلك أعداءهم؛ ولهذا نصر نبيه هودًا وأهلك عادًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ﴿١٤٢﴾ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٣﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٤﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٤٥﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٦﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَلَنْتُمْ بِهِ آمِنِينَ ﴿١٤٧﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٨﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٩﴾ وَتَنجِحُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٥٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٥١﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥٢﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٣﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ ﴿١٥٤﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٥﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٦﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥٧﴾ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٥٨﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾.

أتبع عز وجل قصة عاد ونيهم هود عليه السلام بقصة ثمود ونيهم صالح عليه السلام؛ لأنهم بعد عاد في الزمن؛ كما قال لهم نبيهم صالح عليه السلام: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَوَوَّكُنَا فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنجِحُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف: ٧٤].

ولأنهم أيضًا كلهم في جزيرة العرب؛ فعاد في جنوبها بالأحقاف، وثمود في شمالها في «العُلا» قرب تبوك، مساكنهم الحجر المعروفة الآن بـ«مدائن صالح».

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾، سبق الكلام على نظير هذه الآيات في قصة نوح عليه السلام. قوله تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَلَنْتُمْ بِهِ آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنجِحُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

قوله: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَلَنْتُمْ بِهِ﴾، الاستفهام للإنكار والنفي، والتحذير، والتفريع والتوبيخ، أي: أنظنون أنكم ستتركون ﴿فِي مَا هَلَنْتُمْ﴾، أي: في بلادكم، وفيما أنتم فيه

من النعم، سدّى، لا تؤمرون ولا تنهون، ولا تبدل هذه النعم ولا تغير، ولا تفارقكم، ولا تفارقونها، أي: لا تظنوا ذلك، فدوام الحال من المحال؛ كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

﴿ءَامِنِينَ﴾، حال، بدأ بالامتنان بنعمة الأمن؛ لأنها من أعظم النعم، ولا يتذوق طعم النعم الأخرى إلا بها؛ ولهذا امتن الله بها على قريش، فقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَعَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣-٤].  
وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

وقال ﷺ: «من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافي في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذاقيرها»<sup>(١)</sup>.

وليت من يغترون بنباح الكلاب من حساد هذه البلاد على ما هي فيه من نعمة الأمن يعون هذا المعنى، ويعلمون أن بلادهم مستهدفة من جميع أعداء الإسلام من الرافضة الصفويين واليهود والنصارى والكفرة الملحدين والمنافقين، وغيرهم.  
﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾، أي: بساتين مليئة بالأشجار والثمار، وعيون نابعة بذاتها بالمياه العذبة تجري من غير كلفة.

﴿وَرُزُوعٍ﴾، تثمر أنواع الحبوب التي هي من أهم الأغذية.  
﴿وَنَخْلٍ طَلَعَهَا هَضِيمٌ﴾، أي: ثمرها يانع لين نضيج، مهضوم، من أطيب الثمار.  
﴿وَتَنْجُوتٍ مِنْ الْجِبَالِ يُّوتًا فَرِهِينَ﴾، قرأ حمزة وعاصم وابن عامر بألف بعد الفاء: ﴿فَرِهِينَ﴾.

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٤٦، وابن ماجه في الزهد ٤١٤١؛ من حديث سلمة بن عبيدالله بن محسن الخطمي، عن أبيه رضي الله عنه.

وقرأ الباكون بغير ألف: «فَرِهَيْنَ»، أي: ماهرين بنحتها حاذقين عارفين، متقنين لها، أشرين بطرين؛ كما قال هود لقومه: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٢٩].

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٥٠﴾﴾، تأكيد للأمر بتقوى الله وطاعته شكراً له بعد أن ذكروهم بنعمه.

﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾﴾، الإسراف: مجاوزة الحد، أي: ولا تطيعوا أمر المسرفين بالشرك، المتمادين في الكفر والمعاصي.

﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾، صفة للمسرفين، وهي صفة كاشفة، أي: الذين وصفهم ودأبهم وديندهم الإفساد في الأرض بالشرك والكفر والمعاصي.

كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، تأكيد لشدة إفسادهم في الأرض؛ لأن الصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها.

وبين قوله: ﴿يُفْسِدُونَ﴾ وقوله: ﴿يُصْلِحُونَ﴾، طباق.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾.

قوله: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾، «إنها»: أداة حصر، أي: ما أنت إلا من المسحورين، أي: من المسحورين، المغلوب على عقولهم بكثرة السحر، فأنت تهذي بما لا معنى له، وبها لا تدري.

﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: ما أنت إلا بشر مثلنا، فكيف

أوحى إليك دوننا؟! كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿أَلَمْ لَقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ ﴿١٥﴾ سَيَعْمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَابِ الْأَشْرِ ﴿١٦﴾﴾ [القمر: ٢٥-٢٦].

﴿فَأَتِ بِآيَةٍ﴾ تدل على صحة ما جئت به وقصدتهم بهذا التحدي؛ ولهذا قالوا:

﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ بأنك مرسل إلينا.

وكون الرسل من البشر لا بد منه؛ ليمكنوا من تبليغ رسالات الله إلى بني جنسهم، وليس ذلك بقادح في رسالتهم؛ ولهذا قالت الرسل لأممهم: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١].

﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ﴾، أي: قال لهم صالح: هذه ناقة هي لكم آية؛ كما قال في سورة الأعراف: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ [الآية: ٧٣]، وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ [الآية: ٦٤].

﴿لَهَا شَرِبٌ﴾، أي: ترد ماءكم وتشربه يوماً، وتشربون من لبنها في ذلك اليوم.

﴿وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾، تردون فيه الماء وتشربونه أنتم، وفي ذلك ابتلاء وامتحان لهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿١٧﴾ وَيَنْهَهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قَسَمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرِبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿١٨﴾﴾ [القمر: ٢٧-٢٨].

﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾، أي: ولا تصيبيها بعقر أو غيره.

﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ﴾، الفاء: للسببية، أي: فيأخذكم بسبب ذلك عذاب

يوم عظيم في الدنيا، وفي هذا وعيد وتهديد وتحذير لهم.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾، أي: قتلوها؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَعَقَرُوهَا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَالِحُ أَنْتُمْ بِمَا تَعْدُونَ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الآية: ٧٧]، وقال تعالى في سورة هود: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرِ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [الآية: ٦٥].

﴿فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ ﴿١٥٧﴾ على قتلها لما ينتظروهم من العذاب الذي تُوعدوا به،

وما فاتهم من شرب لبنها.

﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ الذي توعدهم به هود عليه السلام بقوله: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدْغَيْرُ مَكْدُوبٍ﴾ [هود: ٦٥].

وهي صيحة عظيمة أرجفت بهم، وصعقتهم، وقطعت قلوبهم في أجوافهم، فهلكوا عن آخرهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [١١] وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿[الحجر: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٣، ٤٤].

وقال تعالى: ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: ١١-١٥].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾، أي: في قصة ثمود مع نبيهم صالح عليه السلام، ودعوته لهم إلى تقوى الله تعالى وطاعته، وتذكيره إياهم بنعم الله تعالى عليهم، ونهيهم عن طاعة المفسدين. واتهامهم إياه بالسحر، ومطالبتهم له عنادًا منهم أن يأتيهم بآية، وإرسال الناقة لهم آية، وتكذيبهم له وعقر الناقة، ومن ثم أخذهم بالعذاب وإهلاكهم.

﴿لَايَةً﴾، أي: لعظة وعبرة للمعتبرين، ودلالة على صدق صالح عليه السلام وصحة ما جاء به، وعلى تمام قدرة الله تعالى ونصره لرسله وأوليائه، وانتقامه من المكذبين لهم وإهلاكهم، وفي هذا وعد للمؤمنين ووعد للكافرين.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: وما كان أكثر ثمود، ولا أكثر الخلق مؤمنين، بل أكثرهم كفار مكذبون ضالون، مع وضوح الحق وقيام الحجة عليهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [١٦]، فبعزته عز وجل ورحمته أنجى صالحًا والذين آمنوا معه، وأهلك المكذبين له بالصيحة؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا

صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ  
الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٦٧﴾

[هود: ٦٦-٦٧].

### الفوائد والأحكام:

- ١- تكذيب ثمود جميع الرسل؛ لتكذيبهم صالح عليه السلام؛ لقوله تعالى:  
﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٦﴾﴾.
- ٢- إثبات رسالة صالح عليه السلام إلى قومه ثمود خاصة، وأنه ذو نسب فيهم، أمين  
على ما بعثه به إليهم، وإنكاره عليهم ما هم عليه من الشرك، وأمرهم بتقوى الله وطاعته؛  
لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٦٧﴾﴾.
- ٣- أنه عليه السلام لم يسأل قومه ثمود أجرًا على إبلاغهم رسالة ربه، وإنما أجره-  
كغيره من المرسلين- على رب العالمين؛ لقوله: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا  
عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾.
- ٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾.
- ٥- تذكير قومه بنعم الله تعالى العظيمة عليهم، وتخويفهم وتحذيرهم من زوالها، أو  
زوالهم عنها؛ لقوله: ﴿أَتَتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا ءَامِنِينَ ﴿٦٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٦٧﴾  
وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿٦٨﴾ وَتَنَحُّونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿٦٩﴾﴾.
- ٦- أن نعمة الأمن من أعظم النعم؛ لهذا قدمها في الذكر على غيرها من النعم، ولا  
يعرف قدرها تمامًا إلا من فقدها.
- ٧- وجوب شكر النعم، ومن أهمها: نعمة الأمن في الأوطان، والصحة في  
الأبدان، والرزق، وقبل ذلك كله نعمة الإسلام.
- ٨- أن طلع النخل وثمرها من أطيب الثمار وأنفعها؛ لأن الله امتدحه فقال:  
﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾؛ ولهذا سأل ﷺ أصحابه عن الشجرة التي تشبه

المسلم، فقال لهم: «هي النخلة»<sup>(١)</sup>.

٩- منة الله على ثمود بما أعطاهم من القوة والقدرة والمهارة في نحت البيوت من الجبال وإتقانها؛ وبطهرهم وأشهرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَنْجِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرَهِينَ﴾<sup>(١١٩)</sup>، وقوله تعالى في سورة الحجر: ﴿وَكَانُوا يَنْجِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾<sup>(٨٢)</sup> [الحجر: ٨٢].

١٠- تأكيد الأمر لهم بتقوى الله وطاعته، شكرًا لله تعالى بعد تذكيرهم بنعمه؛ لقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾<sup>(١٥٠)</sup>.

١١- نهيهم عن طاعة أمر المسرفين، الذين دأبهم الإفساد في الأرض، بلا إصلاح؛ لقوله: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾<sup>(١٥١)</sup> الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ<sup>(١٥٢)</sup>.

١٢- نصح صالح عليه السلام لقومه، فأمرهم بتقوى الله وطاعته، وحذرهم من طاعة المسرفين المفسدين، وهذا شأن جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام؛ كما قال ﷺ: «إنه لم يكن نبي قبلي، إلا كان حقًا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم»<sup>(٢)</sup>.

١٣- مكابرة ثمود وعنادهم، واتهامهم صالحًا عليه السلام بأنه مسحور، قد غلب السحر على عقله، يهذي بما لا يدري؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ﴾، وهذا شأن المكذبين للرسول.

١٤- قدحهم في رسالته، وتكذيبهم إياه بعله أنه بشر مثلهم، وليس بملك، فكيف يوحى إليه دونهم؟! لقولهم: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾، وقد ردت الرسل عليهم السلام على هذا بقولهم: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾<sup>(١١)</sup> [إبراهيم: ١١].

١٥- اقتراحهم وطلبهم منه إتيانهم بآية تدل على صدقه؛ لقولهم: ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ

(١) أخرجه البخاري في العلم ١٣١، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١١، والترمذي في الأمثال ٢٨٦٧؛ من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٤٤)، والنسائي في البيعة (٤١٩١)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٦).

كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿٩٧﴾

١٦- إخراج الله لهم الناقة آية ودلالة بينة على صدقه عليه السلام، وابتلاؤهم بأن يكون لها شرب ولهم شرب يوم معلوم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٩٨﴾﴾

١٧- تحذيره إياهم من أن يمسوها بسوء أو يتعرضوا لها بأذى، في بدنها أو شربها، فيصيهم عذاب عظيم؛ لقوله: ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾

١٨- مخالفتهم وتكذيبهم له، وإقدامهم على عقرها وقتلها وأخذهم بالعذاب وإهلاكهم بسبب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبِرْ حُوتًا نَدِيمِينَ ﴿١٠٠﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴿١٠١﴾﴾

١٩- أن في قصة صالح عليه السلام وقومه ثمود، ودعوته لهم، وما جرى بينه وبينهم، وتكذيبهم إياه، وعقرهم الناقة، وإهلاكهم - عبرة وعظة، ودلالة على صدق صالح، وصحة ما جاء به، وعلى تمام قدرة الله تعالى ونصرته لرسله وأوليائه، وإهلاك أعدائهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ﴾، وفي هذا تهديد للمكذبين للنبي ﷺ وتسلية له.

٢٠- أن أكثر ثمود وأكثر الخلق غير مؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

٢١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ، وتشريفه بخطابه عز وجل، وإضافة اسمه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ ﴿١٠٣﴾﴾

٢٢- إثبات اسمي الله عز وجل: «العزیز» و«الرحیم»، وصفتي العزة التامة، والرحمة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٢﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١١٣﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١٤﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١١٥﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٦﴾ أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٧﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١١٨﴾ قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهَ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١١٩﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٢٠﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ فَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٢﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٢٣﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢٦﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٢﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١١٣﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١٤﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١١٥﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٦﴾﴾:

قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٢﴾﴾، «لوط»: هو لوط بن هارون بن أزر، وهو ابن أخ إبراهيم الخليل عليه السلام، بعثه الله في حياة إبراهيم، وقومه كانوا يسكنون «سدوم» التي قلبها الله عليهم بسبب كفرهم وارتكابهم فاحشة اللواط، التي ما سبقهم بها أحد من العالمين.

وقد سبق الكلام على نظير هذه الآيات في قصة نوح عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٧﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١١٨﴾ قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهَ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١١٩﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٢٠﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ فَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٢﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٢٣﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢٦﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾:

قوله: ﴿أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ﴾، الاستفهام للإنكار والتقريع والتوبيخ، أي: كيف تأتون الذكران، أي: الذكور فيعلو الذكر منكم الذكر، وترتكبون الفاحشة العظيمة فاحشة اللواط، التي هي أعظم الفواحش؛ لمخالفتها للفطرة؟!!

﴿مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، أي: شاذين ومخالفين في هذه الفعلة القبيحة الشنيعة جميع العالمين، حتى العجماء! فإنه لا يوجد في الحيوانات كلها أن الذكر منها يعلو الذكر؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الآية: ٨٠]، وقال في سورة العنكبوت: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الآية: ٢٨].

ويحتمل أن المعنى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، أي: من الناس.

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ اللام في قوله: ﴿لَكُمْ﴾: للإباحة، أو التعليل، أي: وتتركون نكاح الذي خلق لكم ربكم من أزواجكم من النساء اللاتي أباحهن الله لكم بعقد الزوجية الصحيح.

وفي قوله: ﴿مِّنَ أَزْوَاجِكُمْ﴾ إشارة إلى أن الله هياً الزوجة للرجل يتمتع بها كما يشاء إلا ما حرم الله من الدبر، كما قال تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [الأعلى: ٥]، ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٥، ٦، المارج: ٢٩، ٣٠].

وبين قوله: ﴿أَتَأْتُونَ﴾، و﴿تَذَرُونَ﴾ طباق إيجاب.

﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [١٦٦]، «بل» للإضراب الانتقالي. و«العادي»: من تجاوز الحق إلى الباطل، والحلال إلى الحرام، أي: بل أنتم قوم معتدون، متجاوزون ما أباح الله لكم من الحلال إلى الحرام، وفيه انتقال من مقام الموعدة والاستدلال إلى مقام الذم؛ تغليظاً للإنكار عليهم.

وفي قوله: ﴿قَوْمٌ عَادُونَ﴾ دون أن يقول: «بل أنتم عادون» إشارة إلى أن هذا العدوان قد صار سجية فيهم، وعادة لهم.

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَا لَئِيْلُوتَ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [١٦٧]، اللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن لم تنته يا لوط عن دعوتنا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإنكار ما نحن عليه من الشرك وارتكاب الفاحشة والمعاصي.

﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾، جملة جواب القسم، واللام: واقعة في جواب القسم،

أي: لتكونن من المخرجين من البلاد المنفيين المطرودين عنها، أي: لنفيناك ونخرجناك من بين أظهرنا ومن بلدنا؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢].

وفي قولهم: ﴿مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ دون أن يقولوا: ﴿لنخرجناك﴾ زيادة في التهديد بأن لنا سلطاناً وقوة، وقد أخرجنا غيرك، وستكون أنت من جملة المخرجين.

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ﴾، أي: لما أنتم عليه من الكفر وفعل الفاحشة.

﴿مِنَ الْقَالِينَ﴾، أي: من المبغضين له بغضاً شديداً، الناهين عنه، المحذرين منه، البريئين منه، ومن يعمله.

وفي هذا تحذُّ لهم؛ أي: أني أبغض عملكم هذا، وأتبرأ منه، مهما كانت التبعة، ولا يهمني إن أخرجتموني.

﴿رَبِّ نَجْحِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾، أي: يا رب نجني وخلصني وأهلي من الذي يعملونه أو من عملهم، أي: من عملهم وعقوبته.

﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾، الفاء: عاطفة، أي: فاستجبنا له، فنجيناه وأهله أجمعين، أي: كلهم، بأمرنا له بالإسراء بهم؛ كما قال تعالى في سورة الحجر: ﴿فَأَسْرِبْ أَيُّهَا الْكَافِرُ الْكَافِرُ كَذِبٌ أَفَمَنْ أَتَى عَلَى الْآيَةِ وَقَالَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الحجر: ٦٥].

﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾، «إلا»: أداة استثناء، و«عجوزاً»: منصوب على الاستثناء.

﴿فِي الْغَابِرِينَ﴾، أي: في الباقيين في العذاب، وهي امرأته؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الآية: ٨٣]، وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أُمَّرَأَتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [الآية: ٨١]، وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ قَدَرْنَا لَهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الآية: ٦٠].

وكانت امرأة سوء كافرة تدل قومه على أضيافه، وتخونه؛ كما قال تعالى في سورة التحريم: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا أُمَّرَأَتٍ نُوحٍ وَأُمَّرَأَتٍ لُّوطٍ كَانَتَا تَحْتَ

عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ  
ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١٦٠﴾ [الآية: ١٦٠].

﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٦٢﴾﴾، أي: ثم بعد أن أنجينا لوطاً وأهله المؤمنين بخروجهم  
من قرية قومهم، ﴿دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ﴾، أي: أهلكنا الآخرين، وهم قومه الكافرين.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾، من السماء من الحجارة بعد قلب ديارهم وجعل عاليها  
سافلها؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا  
حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنصُودٍ ﴿٨٢﴾ مَسُومَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [هود: ٨٢-٨٣]، وقال تعالى:  
﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر: ٧٤].

﴿فَسَاءَ﴾، أي: فيس وقبح ﴿مَطَرُ الْمُنذِرِينَ﴾، مطرهم الذي أمطروه بعد الإنذار  
لهم، وهي الحجارة.

وقوله: ﴿مَطَرُ الْمُنذِرِينَ﴾ دون أن يقول: مطرهم؛ لبيان أنهم قد أُنذروا وحذروا  
وقامت عليهم الحجة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾، أي: في إرسال لوط إلى قومه، ودعوته إياهم إلى تقوى الله وطاعته  
وعبادته وحده، وإنكاره ما هم عليه من الشرك وفعل الفاحشة، وتكذيبهم وتوعدهم  
إياه بالإخراج، وسؤاله ربه نجاته وأهله من فعلهم وعقوبتهم، واستجابته عز وجل له،  
وإنجائه وأهله المؤمنين وتدمير وإهلاك الكافرين.

﴿لَايَةٌ﴾، أي: للدلالة على صدق لوط وصحة ما جاء به، وعلى كمال قدرة الله  
تعالى، حيث أنجى لوطاً وأهله المؤمنين، وأهلك قومه المكذبين الكافرين، وفي ذلك  
عظة وعبرة للمعتبرين، ووعد وتهديد للمعاندين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ  
الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾  
وَبِالْآيَاتِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨].

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، أي: وما كان أكثر قوم لوط مؤمنين، بل أكثرهم  
كافرون؛ إذ لم يؤمن به إلا أهله، عدا امرأته؛ كما أن أكثر الخلق غير مؤمنين.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٧٥)، فبعزته عز وجل ورحمته أنجى لوطاً وأهله المؤمنين، وأهلك قومه الكافرين.

### الفوائد والأحكام:

١- تكذيب قوم لوط له عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧٥)، ومن كذب رسولا فقد كذب جميع الرسل.

٢- إثبات رسالة لوط إلى قومه خاصة، وإنكاره عليهم ما هم عليه من عبادة غير الله، وارتكاب الفاحشة، وبيان أمانته على ما بعثه الله به إليهم، وأمرهم بتقوى الله وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١٧٦) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٧٦) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١٧٦).

٣- أنه عليه السلام كغيره من الرسل لم يسأل قومه أجراً على تبليغهم رسالة ربه، وإنما أجره على رب العالمين؛ لقوله: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٧٦).

٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وقوله: ﴿رَبُّكُمْ﴾.

٥- إنكاره على قومه إتيانهم الذكران، وارتكابهم فاحشة اللواط؛ وأنه ما سبقهم بها أحد من العالمين؛ لقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (١٧٥).

٦- إنكاره عليهم رغبتهم عما خلق الله لهم من الزوجات الحلال إلى المحرم شرعاً، والشاذ فطرة؛ لقوله: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ﴾.

٧- أن منهج التشريع الرباني إذا حظر شيئاً وحرمه أباح ما يغني عنه؛ ولهذا لما أنكر لوط عليه السلام على قومه إتيان الذكران، بين لهم ما يغني عنه من الحلال، وهو ما خلق الله لهم من الأزواج.

٨- تغليظه عليه السلام الإنكار عليهم، وذمهم بتجاوزهم الحلال إلى الحرام، وكون ذلك سجية لهم؛ لقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾، وفي هذا دلالة على أن من تجاوز الحلال إلى الحرام فهو عادٍ ظالم.

٩- شدة عتوهم وعنادهم، فبدل أن يجيبوا دعوته هددوه وتوعدوه بالإخراج من بلده إن لم يكف عن دعوتهم، وترك الإنكار عليهم؛ لقولهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾.

١٠- أن منهج المكذبين للرسول ولدعاة الحق واحد، فإذا عجزوا عن معارضة الحق بالحجة لجؤوا إلى التهديد بالقوة؛ بالإخراج أو القتل ونحو ذلك: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

١١- إعلانه عليه السلام بغضه الشديد لعملهم، ونهيه عنه، وتحذيره منه وتحديه لهم في ذلك؛ لقوله: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾.

١٢- يجب على كل مؤمن أن يبغض هذا العمل؛ لأن الله شدد في تحريمه وغلظ عقوبته، وأبغضه رسله عليهم السلام.

١٣- سؤاله ربه نجاته وأهله من عمل قومه وعقوبته؛ لقوله: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه لوط عليه السلام؛ لقوله: ﴿رَبِّ﴾.

١٥- استجابة الله تعالى لدعاء لوط، وإنجائه وأهله من العذاب إلا امرأته؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَائِبِينَ ﴿١٨﴾﴾. وهذا يتضمن إثبات علمه عز وجل وقدرته ورحمته.

١٦- أن القرب من الرسل والصالحين نسباً أو مصاهرة مع الكفر والبعد عن الله، لا يغني صاحبه شيئاً، فهذه امرأة لوط هلكت مع من هلك.

١٧- تدمير المكذبين من قومه وإهلاكهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

١٨- أن تدمير قوم لوط وإهلاكهم كان بإمطارهم حجارة من السماء بعد قلب ديارهم، وجعل عليها سافلها، وبئس المطر الذي أمطروه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٨﴾﴾. وقد استدل أهل العلم بالآية على أن حد اللوطي هو القتل.

١٩- أنهم قد أنذروا وحذوا وقامت الحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿الْمُنْذَرِينَ﴾.

٢٠- أن في رسالة لوط عليه السلام إلى قومه ودعوته لهم إلى عبادة الله تعالى وحده، وإنكاره ما هم عليه من الشرك، وارتكاب الفاحشة والمعاصي، وما جرى بينه وبينهم، وتكذيبهم وتهديدهم له، وإنجائه وأهله المؤمنين وتدمير الكافرين - دلالة على صدقه، وصحة ما جاء به، وعلى تمام قدرة الله تعالى، وعظمة وعبرة للمعتبرين، وتهديداً للمعاندين، وتحذيراً من ارتكاب عملهم الشنيع.

٢١- أن أكثر قوم لوط غير مؤمنين، بل ما آمن معه إلا بعض أهله؛ كما أن أكثر الخلق عامة غير مؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾.

٢٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبينا محمد ﷺ، وتشريفه بخطاب الله عز وجل له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله: ﴿رَبِّكَ﴾.

٢٣- إثبات اسمي الله عز وجل: «العزیز» و«الرحیم»، وصفتي العزة التامة، والرحمة الواسعة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

٢٤- أنه عز وجل بعزته أهلك المكذبين الكافرين من قوم لوط، ويهلك أمثالهم، وبرحمته أنجاه وأهله المؤمنين، وينجي غيرهم من المؤمنين.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ \* أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَةَ الْأُولَى ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾:

قوله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾﴾ الآيات؛ قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير بلام مفتوحة من غير ألف وصل، ولا همزة بعدها، وبفتح تاء التانيث في الوصل: «لَيْكَةَ»، وقرأ الباقون بألف وصل مع إسكان اللام وهمزة مفتوحة بعدها وخفض تاء التانيث: ﴿الْأَيْكَةَ﴾.

والأَيْكَةُ: الشجرة، أو الشجر الملتف؛ كالغيضة.

وأصحاب الأَيْكَةَ: هم أهل «مدين» قوم شعيب عليه السلام، وكان شعيب عليه السلام منهم نسباً، وإنما لم يقل هنا: «أخوهم شعيب» - والله أعلم - قيل: لأنهم نسبوا إلى عبادة الأَيْكَةَ، ولهذا نسبة إليهم في سورة الأعراف وهود والعنكبوت، فقال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥، هود: ٨٤، العنكبوت: ٣٦]، كما وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان، ونهاهم عن الإفساد في الأرض كما في قصة مدين، سواء بسواء، فدل ذلك على أنهم أمة واحدة، واختار هذا ابن كثير<sup>(١)</sup>.

(١) في «تفسيره» (١٦٨/٦).

وقال بعض المفسرين: إن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، وإنما أمتان، وإن شعبيًا أرسل إليهما جميعًا، واستدل من قال هذا بأنه لم يقل أخوهم، وقالها في قصة «مدين»، كما استدل من قال: إنها أمتان باختلاف عذابهما، فمدين أخذوا بالصيحة، وأصحاب الأيكة أخذوا بعذاب يوم الظلمة. واختار هذا ابن عثيمين<sup>(١)</sup>؛ وقد سبق الكلام على نظير هذه الآيات في الكلام على قصة نوح عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿\* أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾\*.

بعد أن أنكر عليهم عدم تقوى الله، وما هم عليه من الشرك وعبادة غير الله، وأمرهم بتقوى الله وطاعته، أمرهم بإيفاء الكيل والوزن بالعدل، ونهاهم عن نقصهما، وبخس الناس حقوقهم، وعن الإفساد في الأرض؛ لأن تخسير الكيل وبخس الوزن، وقطع الطريق كان ظاهرًا مشتهرًا فيهم.

قوله: ﴿\* أَوْفُوا الْكَيْلَ\*﴾، أي: أتموا الكيل إذا كلتم للناس، وأكملوه.

﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ\*﴾، تأكيد لما قبله، و«المخسرين»: جمع «مخسر»، وهو فاعل الخسارة لغيره، أي: المنقص، أي: ولا تكونوا من المطففين في الكيل، المخسرين المنقصين للناس.

﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص وخلف بكسر القاف: ﴿بِالْقِسْطَاسِ\*﴾، وقرأ الباقون بضمها: «بِالْقِسْطَاسِ»، أي: بالميزان العدل السوي.

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ\*﴾، أي: ولا تنقصوا الناس شيئًا من حقوقهم وأموالهم.

﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ\*﴾، أي: ولا تسعوا في الأرض مفسدين بقطع الطريق، بالقتل وأخذ الأموال والصد عن سبيل الله؛ كما قال في سورة الأعراف: ﴿وَلَا

(١) في «تفسير القرآن الكريم» سورة الشعراء (ص ٢٧٤).

تَعْبُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ  
وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴿١٨٦﴾ [الآية: ١٨٦].

﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالجِئَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾، أي: والخلق الأولين؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ  
أَضَلَّ مِنْكُمْ جِئلاً كَثِيراً﴾ [يس: ٦٢]، أي: خلقاً كثيراً.

وهذا تأكيد للأمر بتقوى الله، مع تذكيرهم بأنه سبحانه الذي خلقهم وخلق من  
قبلهم من الأمم، وذلك موجب لتقواه عليهم وشكره، وهذا كقول موسى عليه  
السلام: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِن  
نُظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنْتَ مِنَ  
الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ  
كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ  
رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾:

قوله: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾، الله أكبر،  
إنها السنن، شابهوا بهذا جواب ثمود لنيهم صالح بقولهم: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ  
الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾  
[الشعراء: ١٥٣-١٥٤].

أي: وما أنت يا شعيب إلا من المسحورين، وما أنت إلا بشر مثلنا، فما الذي  
فضلك بالرسالة دوننا، وقد سبق الكلام على الآيتين.

﴿وَإِن نُّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، الواو عاطفة، و«إن» مخففة من الثقيلة مهمله،  
واللام: للتوكيد، أي: وإن ظنك لمن الكاذبين في زعمك أنك مرسل إلينا.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾، قرأ حفص بكسر الكاف وفتح السين:  
﴿كِسْفًا﴾، وقرأ الباقر بسكون السين: «كِسْفًا»، أي: أسقط علينا قطعاً من العذاب  
من السماء تهلكنا، وتستأصلنا. وهذا أشد من قول قوم صالح: ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ﴾

﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ﴾، في زعمك أنك رسول الله إلينا، وهذا تأكيد لتكذيبهم، ومكابرة وعناد منهم، وجهل وغرور؛ كما قال كفار قريش: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ بَحْثَةٌ مِّنْ مَّخِيلٍ وَعَنْبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٢]، وكما قالوا: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢]، وكما قالوا: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦].

﴿قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٣٨﴾﴾، أي: ربي أعلم بعملكم، أو بالذي تعملونه، فيجازيكم عليه بما تستحقون في الدنيا والآخرة.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، أي: فأصروا واستمروا على تكذيبه.

﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ﴾، الفاء: عاطفة، أي: فأصابهم وأهلكهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلتهم ووجدوا تحتها بردًا، بعد حر شديد أصابهم، فلما اجتمعوا أحرقتهم بنارها، ورجفت بهم الأرض؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الآية: ٩١]، وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الآية: ٣٧].

وجاءتهم صيحة عظيمة من السماء أسكتتهم؛ كما قال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا لُجَيْنًا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الآية: ٩٤].

وهذا جنس ما سألوا من إسقاط كسف من السماء عليهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، اجتمع عليهم فيه حر النار وإحراقها، والرجفة، والصيحة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾، أي: في قصة شعيب وأصحاب الأيكة، وإنكاره عليهم ما هم عليه من الشرك؛ وتطفيف الكيل والوزن، وتخسير الناس وبخسهم أشياءهم، والإفساد

في الأرض، ودعوته إياهم إلى تقوى الله وطاعته، وتكذيبهم إياه، وأخذهم بعذاب يوم  
الظلة العظيم.

﴿لَايَةٌ﴾، أي: لدلالة على صدق شعيب عليه السلام، وصحة ما جاء به، وعلى  
كمال قدرة الله تعالى في إهلاك المكذبين، والانتصار لرسله وأوليائه، وفي ذلك عظة  
وعبرة للمعتبرين، ووعيد للمعاندين.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: وما كان أكثر قوم شعيب ولا أكثر الخلق  
مؤمنين.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، فبعزته أهلك أصحاب الأيكة بالعذاب العظيم،  
وبرحمته انتصر لشعيب ونجاه ومن معه من المؤمنين.

### الفوائد والأحكام:

١- تكذيب أصحاب الأيكة المرسلين بتكذيبهم نبياً شعيباً عليه السلام؛ لقوله  
تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾.

٢- إثبات رسالة شعيب عليه السلام، وأن الله أرسله إلى أصحاب الأيكة، وهم  
أهل مدين، فدعاهم إلى تقوى الله وترك ما هم عليه من عبادة غير الله، وبيّن لهم أمانته  
على ما أرسله الله به إليهم، وأمرهم بتقوى الله وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ  
شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿٧٧﴾ إني لكم رسول أمين ﴿٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٧٩﴾﴾.

٣- بيانه عليه السلام لقومه أنه لا يسألهم أجراً مقابل تبليغهم رسالة ربه، وإنما  
أجره على رب العالمين؛ كغيره من الرسل؛ لقوله: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ  
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

٥- أمره عليه السلام لقومه بالوفاء بالكيل والوزن بالعدل، ونهيهم عن نقصهما،  
وبخس الناس حقوقهم؛ لقوله: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿٨٨﴾ وَزِنُوا  
بِالْقِسْطِ أَسْطِاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿٨٩﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾.

٦- نهيهم إياهم عن الإفساد في الأرض بقطع الطريق والصد عن سبيل الله؛ لقوله:

﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

٧- تأكيده أمرهم بتقوى الله، مع تذكيرهم بأنه خلقهم وخلق من قبلهم من الأمم، استدلالاً بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية؛ لقوله: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْحِيلَةَ الْأُولَى﴾.

٨- شدة عتوهم وعنادهم واتهامهم شعبياً عليه السلام بأنه مسحور، قد غلب السحر على عقله، فلا يدري ما يقول؛ لقولهم: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ﴾.

٩- قدحهم في رسالته، وتكذيبهم إياه؛ لأنه بشر مثلهم، فكيف خص بالرسالة دونهم؟! لقولهم: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نُنْظِنُكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

١٠- شدة تكذيبهم ومكابرتهم وجهلهم؛ لسؤالهم العذاب بقولهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

١١- تفويضه عليه السلام أمر العلم بأعمالهم، وما يستحقون عليها من عقاب في الدنيا والآخرة إلى ربه؛ لقوله: ﴿رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

١٢- إثبات ربوبية الله الخاصة لنبيه شعيب عليه السلام؛ لقوله: ﴿رَبِّي﴾.

١٣- إثبات علم الله تعالى بجميع أعمال العباد؛ لقوله: ﴿رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

١٤- إصرار قوم شعيب على تكذيبه، واستمرارهم على ذلك، وأخذهم بعذاب يوم الظلة؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾.

١٥- شدة عذاب ذلك اليوم وعظمه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، اجتمع عليهم فيه حر النار التي أحرقتهم، ورجفة الأرض بهم، والصيحة التي أسكتتهم.

١٦- أن في قصة شعيب عليه السلام وقومه، ودعوته إياهم إلى توحيد الله تعالى وتقواه، وإنكاره ما هم عليه من الشرك، ونقص الكيل والوزن، وتخسير الناس وبخسهم أشياءهم، والإفساد في الأرض، وأمرهم بتقوى الله وطاعته، وتكذيبهم إياه، وأخذهم بعذاب يوم الظلة - دلالة على صدق شعيب وصحة ما جاء به، وعلى تمام قدرة الله تعالى، وعظة وعبرة للمعتبرين، ووعيداً وتهديداً للمعاندين؛ لقوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾.

١٧- أن أكثر قوم شعيب، وأكثر الخلق غير مؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾.

١٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبينا محمد ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

١٩- إثبات اسمي الله تعالى: «العزیز»، و«الرحیم»، وصفتي العزة التامة، والرحمة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

٢٠- أنه عز وجل بعزته أهلک الکفار المکذبین من قوم شعيب، ويهلك غيرهم من الکافرين، وبرحمته انتصر لشعيب والذين آمنوا معه، ومنتصر لغيرهم من أوليائه من رسله وأتباعهم المؤمنین.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١١٤﴾ بِلسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١١٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١١٦﴾ أُولَئِكَ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١١٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٩﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٢١﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿١٢٣﴾ أَفَعَذَابُنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٢٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿١٢٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٢٦﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴿١٢٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَوْمٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿١٢٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٢٩﴾ وَمَا نَنْزِلُ بِهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ ﴿١٣٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْرُوُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١١٤﴾ بِلسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١١٥﴾﴾:

ذكر الله عز وجل قصص عدد من الأنبياء، وما جرى بينهم وبين أقوامهم، وتكذيب كثير من أولئك الأقوام لرسولهم، وإنجاء الله تعالى لرسوله، وإهلاك المكذبين، ثم ختم عز وجل بامتداح القرآن الذي ختمت الرسالات به، والشأن عليه، والتنويه به؛ كما افتتح هذه السور بذلك.

قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾﴾، الواو: استثنائية، وضمير الهاء يعود إلى القرآن الذي أنزله الله على عبده ورسوله نبينا محمد ﷺ، فهو عود إلى ما افتتحت به السورة من التنويه في قوله تعالى: ﴿طَسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾، بكون القرآن الآية العظمى، وذم المشركين المعرضين عنه، المكذبين به، ووعيدهم وتهديدهم في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٦﴾ فَقَدَّ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾﴾.

لتختتم السورة بإطناب التنويه بالقرآن؛ كما ابتدأت بإجمال التنويه به، والتنويه على أنه أعظم آية اختارها الله أن تكون معجزة أفضل المرسلين، وتأكيد الوعيد والتهديد للمكذبين به في ختام السورة لما سبق في أولها.

أي: وإنه، أي: القرآن العظيم الذي هو أفضل كتب الله تعالى المهيمن على جميع الكتب قبله.

﴿لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، اللام: للتوكيد، وفي إضافته إلى رب العالمين تعظيم له. وإشارة إلى أنه من مقتضى ربوبيته للعالمين تنزيله هذا الكتاب عليهم، كما أن فيه إشارة إلى أنه تشريع عام على العالمين.

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾، قرأ يعقوب وابن عامر وحزمة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم بتشديد الزاي ونصب «الروح الأمين»: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ». وقرأ الباقون بتخفيف الزاي، ورفعها: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾.

أي: نزل بهذا القرآن من عند الله عز وجل ﴿الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾، «الروح»: جبريل عليه السلام أفضل الملائكة وأشدهم وأقواهم؛ كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥]، وقال تعالى: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠]. و﴿الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ صفة لجبريل؛ لأن الله آمنه على وحيه؛ كما قال تعالى: ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢١].

﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾، أي: على قلبك يا محمد؛ لتعيه وتحفظه، ويثبت ويرسخ، وهذا من تمام عنايته عز وجل بالقرآن، وبحفظه ﷺ له. كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [البقرة: ٩٧].

فإسناد نزوله أصح الأسانيد: أوحاه الله عز وجل إلى جبريل عليه السلام، وأوحاه جبريل وبلغه إلى النبي ﷺ.

﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تكون من المنذرين، أي: من الرسل المنذرين للناس من عذاب الله، المحذرين منه.

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾، الباء: للملابسة، و«اللسان»: اللغة، أي: بلسان العرب ولغتهم. ﴿مُبِينٍ﴾، أي: بين واضح الدلالة على المعاني أتم الوضوح، مفصح عنها أتم الإفصاح؛ لأن لغة العرب أفصح اللغات وأوسعها؛ كما قال حافظ إبراهيم على لسان

اللغة العربية<sup>(١)</sup>:

وسعتُ كتاب الله لفظاً وغاية  
وما ضقت عن آي به وعظات  
فكيف أضيقت اليوم عن وصف آلة  
وتنسيق أسماء لمخترعات

فجمع هذا القرآن العظيم الفضائل كلها؛ فهو أفضل الكتب، نزل به أفضل الملائكة، على أفضل الرسل، بأفضل الألسنة وأفصحها وأوسعها، وهو اللسان العربي المبين، على أفضل الأمم، خير أمة أخرجت للناس.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١١٦﴾ أَوْلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١١٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٩﴾:

قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١١٦﴾﴾، الواو: عاطفة، وضمير الهاء يعود إلى القرآن، واللام: للتوكيد، و«زبر الأولين»: كتبهم.

والمعنى: وإنه، أي: القرآن؛ يعني: ذكره والتنويه به، لموجود في كتب الرسل الأولين؛ كالتوراة والإنجيل وغيرهما، أخذ الله الميثاق على النبيين ليؤمنن به، وبشروا به أمهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَتَنْصُرْتَهُ قَالَ أَقْرَبْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَبْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ [آل عمران: ٨١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ [الصف: ٦].

﴿أَوْلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ﴾، قرأ ابن عامر: «تكن» بالتاء على التانيث، و«آية» بالرفع فاعل، وقرأ الباقون بالياء على التذكير ﴿يَكُن﴾ ونصب ﴿آيَةٌ﴾ خبراً لـ ﴿يَكُن﴾. والاستفهام للإنكار والتقريع والتوبيخ. والمعنى: أولم يكن لهؤلاء المشركين المكذبين للقرآن وللنبي ﷺ ﴿آيَةٌ﴾، أي: علامة ودلالة على صحة القرآن، وأنه تنزيل

(١) انظر: «ديوانه» (ص ٦٦).

من رب العالمين، وعلى صدق نبوتك؟

﴿أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَوُا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع اسم «يكن»، أي: أولم يكن لهم آية علم بني إسرائيل به؟ أي: العدول المنصفون منهم؛ كعبد الله بن سلام رضي الله عنه، وورقة بن نوفل، وغيرهما؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾، جمع «أعجم»، وهم الذين لا يتكلمون العربية ولا يفهمونها، ولا يقرؤون بها.

﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ﴾، أي: فقرأه الرسول المرسل به على هؤلاء الأعجمين.

﴿مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾؛ لعدم فهمهم له.

والمراد: أن هؤلاء المشركين؛ لشدة كفرهم وعنادهم، وتكذيبهم لهذا القرآن مع بيانه وفصاحته، لا يؤمنون به؛ كحال الأعجمين الذين لا يفهمونه بسبب عجمتهم؛ كما قال تعالى عنهم في الآية الأخرى: ﴿\* وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَمَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٦٧﴾﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

وفي الآية تذكير لهؤلاء المكذبين بنعمة الله؛ أن جاء هذا القرآن باللسان العربي المبين على لسان أفصح الخلق، ولكنهم لم يعرفوا قدر هذه النعمة.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٨﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٦٩﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٧٠﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٧١﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٧٤﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ إِلَّا لَهَا

مُنذِرُونَ ﴿٣٨﴾ ذِكْرِي وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣٩﴾: ﴿٣٨﴾

قوله: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾، أي: كذلك سلكناه الكفر والتكذيب والعدا، أي: أدخلناه في قلوب المجرمين، فتوارثوه جيلاً بعد جيل، فصاروا وصفاً وسمة لهم.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، أي: لا يؤمنون بما جاء من الحق على السنة الرسل.

﴿حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾، أي: إلى غاية أن يروا العذاب، فيؤمنوا حيث لا ينفع الإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا حَيْثُ قُلٌ أَنْتَظِرُونَ إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللّعنةُ وَلَهُمُ سَوْءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥٢].

﴿فِيآتِيهِمْ بَعَثَةٌ﴾، أي: فيأتيهم العذاب فجأة، وعلى حين غفلة.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، الجملة حالية، أي: وهم غافلون لا يشعرون بإتيان العذاب، ولا يحسون به؛ ليكون أبلغ في عقوبتهم، والنكال بهم، كما قال ﷻ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»<sup>(١)</sup>.

﴿فَيَقُولُوا﴾ حين رؤيتهم العذاب: ﴿هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾، الاستفهام بمعنى: التحسر والتمني وطلب المحال، أي: هل نحن ممهلون مؤخرون؟ أي: يتمنون ويطلبون حين يشاهدوا العذاب أن لو أنظروا وأمهلوا؛ ليؤمنوا ويعملوا صالحاً بعد فوات الأوان؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ مَّحِبِّ دَعْوَتِكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أُولَئِكَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ [إبراهيم: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِءِ مُشْرِكِينَ ﴿٤٦﴾﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللّٰهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي

(١) سبق تخريجه.

عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ [غافر: ٨٤-٨٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمِنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس: ٩٠].

﴿أَفِعْذَابِنَا﴾، الاستفهام للإنكار والتهديد والتوبيخ، أي: أفعذابنا الأليم الشديد العظيم ﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾، إنكاراً له، وتكديباً به، واستبعاداً له.

كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قَطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَتَّعْنَهُمْ سِنِينَ﴾، الهمة للاستفهام، أي: أخبرني إن أنظرناهم وأمهلناهم سنين طويلة، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾، أي: ثم جاءهم الذي كانوا يوعدونه من العذاب.

﴿مَا آغَىٰ عَنْهُمْ﴾، «ما»: اسم استفهام يفيد النفي، ويجوز كونها نافية. والأول أولى؛ لأنه أبلغ، ﴿مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ﴾ «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: أي شيء يغني عنهم، أي: يدفع عنهم الذي كانوا يمتعون به أو تمتيعهم بالنعمة سنين، أي: لا يغني ذلك عنهم شيئاً؛ لا في دفع العذاب عنهم، ولا في رفعه، ولا في تخفيفه؛ كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَحَّبٍ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل: ١١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بأنعم أهل

النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا، والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال له، يا ابن آدم، هل رأيت بؤساً قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا، والله يا رب، ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط»<sup>(١)</sup>.

قال ابن كثير<sup>(٢)</sup>: «أي: ما كأن شيء كان؛ ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتمثل بهذا البيت:

كأنك لم تُوتر من الدهر ليلة إذا أنت أدركت الذي كنت تطلب

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾، «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: وما أهلكنا ودمرنا أي قرية من القرى، وأي أمة من الأمم المكذبة.

﴿إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: إلا بعد الإنذار لهم والإعذار إليهم، بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب، وقيام الحجة عليهم عدلاً منا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى ﴿وَمَا كَانَتْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

﴿ذِكْرِي﴾، مفعول لأجله، أي: الإنذار، أو المنذرون، لأجل الذكرى، أي: تذكيراً وموعظة لهم.

﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، فنهلك القرى قبل إنذارهم، وقبل إقامة الحجة عليهم، وما كنا ظالمين في إهلاكهم بعد إنذارهم بسبب كفرهم وعصيانهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيْطَانُ ﴿٣١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعُزُولُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

(١) أخرجه مسلم في صفة القيامة ٢٨٠٧، والترمذي في الزهد ٤٣٢١، وأحمد ٣٢٠٣، ٢٣٥.

(٢) في «تفسيره» ١٧٥/٦. وانظر: «سيرة عمر» لابن الجوزي (ص ١٣٥)، «سمط اللآلي في شرح أمالي القاضي»

(١/٨٤٢)، «شرح ديوان الحماسة» للبربري (١/٦٩)، «التذكرة الحمدونية» (٧/٨٣)، «خزانة الأدب»

(٣/٣٠). والشطر الأول في أكثر هذه المصادر: «كأنك لم تسبق»، وفي بعضها: «كأنك لم تنصب...» وليس

فيها: «توتر».

لما امتدح عز وجل القرآن وبيّن كماله وجلالته، بيّن حفظه له وقت نزوله وبعد نزوله، من شياطين الجن والإنس، فقال:

﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿١١٩﴾﴾، أي: وما تنزلت بالقرآن الشياطين، بل هو محفوظ منهم وقت نزوله، وبعد نزوله؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١﴾﴾ [الحجر: ٩].

﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾، أي: ليسوا أهلاً له، ولا يصلح لهم، ولا يليق أبداً أن ينزلوا به؛ لأنه الداعي إلى كل خير، وهم دعاة لكل شر، فيبینه وبين الشياطين أعظم المنافاة، وأشد النفرة.

﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ التنازل به، وما يمكنهم ذلك.

﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿١٢١﴾﴾، الجملة تعليل لما قبلها، أي: إنهم عن استماع القرآن من السماء، وعن سماع الملائكة الأعلى ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾، اللام: للتوكيد، أي: لمحبوبون ممنوعون، مرجومون بالشهب؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَازِبَاتٍ لِّلنَّظِيرِينَ ﴿١٢٢﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٢٣﴾ إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ وَشِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٢٤﴾﴾ [الحجر: ١٦-١٨].

وقال تعالى: ﴿وَحَفِظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَاِ الْأَعْلَىٰ وَوَقَدْ فُؤِنَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطَفَ الْحُطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ، وَشِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات: ٧-١٠].

وقالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَا مُلَائِكًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿١٢﴾﴾ [الجن: ٨-٩].

### الفوائد والأحكام:

١- تعظيم القرآن الكريم والتنويه بشأنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ

الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

٢- أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَ

لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٠﴾، وقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٢١﴾ عَلَى قَلْبِكَ ﴿١٢٢﴾﴾. ٣- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٠﴾﴾، والتنزيل والإنزال يكون من أعلى.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع لخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٠﴾﴾. ٥- أن الذي نزل بالقرآن من عند الله عز وجل هو الروح الأمين «جبريل عليه السلام»، أفضل الملائكة وأقواهم وأشدهم خلقاً، نزل به على قلب النبي ﷺ، وبلغه إياه، وأوحاه إليه؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٢١﴾ عَلَى قَلْبِكَ ﴿١٢٢﴾﴾. ٦- فضيلة جبريل عليه السلام؛ لأن الله وصفه بـ«الأمين»، وجعله أميناً على وحيه.

٧- أن الحكمة من إنزال القرآن على قلب النبي ﷺ: بعثه وإرساله به لإنذار الخلق من عذاب الله وعقابه؛ لقوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٢٣﴾﴾. ومن لازم ذلك تبليغهم ما أرسل به من التكليف؛ ليمثلوا ذلك فينجوا مما حذروا منه من العذاب، وتحصل لهم البشرى بالثواب.

٨- تشريف اللغة العربية بإنزال القرآن بها، والتنويه بها؛ لأنها أفصح اللغات وأبينها وأوسعها؛ لقوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٢٤﴾﴾. ٩- شهادة الكتب السابقة بصدق القرآن؛ لما فيها من أخذ الميثاق على النبيين بالإيمان بالرسول ﷺ والقرآن المصدق لما معهم، ومن البشارة بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

١٠- الإنكار على المشركين، وتقريعهم على تكذيبهم الرسول ﷺ والقرآن، مع علم بني إسرائيل وشهادة المنصفين منهم بصدقه؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَأْتِيَهِمُ الْعِلْمُ لَمَّا قَالَ الْمَلَائِكَةُ لَعَلَّكُم بَشَرٌ لَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِآيَاتِنَا كَذِبًا مُّبِينًا ﴿١٢٦﴾﴾. ١١- فضيلة العلم وأهله الصادقين العاملين به؛ لأن الله جعل علم علماء بني إسرائيل بالقرآن آية ودلالة على صدقه، كما جعل العلماء شهداء على وحدانيته، قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۗ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ ﴿١٢٧﴾﴾.

١١- فضيلة العلم وأهله الصادقين العاملين به؛ لأن الله جعل علم علماء بني إسرائيل بالقرآن آية ودلالة على صدقه، كما جعل العلماء شهداء على وحدانيته، قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۗ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ ﴿١٢٧﴾﴾.

الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ [آل عمران: ١٨].

١٢- شدة كفر المشركين وعنادهم وتكذيبهم للقرآن، وبعدهم عن الإيمان به، وأنهم في ذلك كحال ما لو أنزل القرآن على بعض الأعجمين الذين لا يفهمون العربية فإنهم لا يؤمنون به؛ لعدم فهمهم له؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾.

١٣- تذكيرهم بنعمة الله تعالى بمجيء القرآن الكريم باللسان العربي المبين، وعلى لسان أفصح الخلق، مما ييسر عليه فهمه؛ بخلاف الأعجمين؛ فإنهم لا يستطيعون فهمه. ١٤- أن نعمة الله تعالى على العرب في إنزال القرآن بلغتهم أعظم من غيرهم، والواجب عليهم في تصديقه والانقياد له وتعليمه والدعوة إليه أكثر من غيرهم.

١٥- إدخاله عز وجل الكفر والتكذيب والعناد قدرًا في قلوب المجرمين؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

١٦- إثبات القدر، وأن الله عز وجل قدر مقادير كل شيء؛ من الكفر والإيمان وغير ذلك.

١٧- شدة كفرهم وعتوهم، وعدم إيمانهم إلا بعد رؤية العذاب الأليم، وفوات أوان الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢١﴾﴾.

١٨- أن الإيمان بعد رؤية العذاب لا ينفع صاحبه؛ لأنه إيمان اضطرار، لا اختيار. ١٩- أن العذاب يأتي بغتة وفجأة دون أن يشعر به المعذبون؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٢﴾﴾، وذلك أبلغ في عقوبتهم والنكال بهم.

٢٠- تمنيهم الإنظار والإمهال وتأخير العذاب عنهم؛ ليؤمنوا ويعملوا صالحًا، بعد فوات الأوان؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٣﴾﴾، وهم كاذبون في ذلك، فلو أنظروا لما آمنوا وعملوا صالحًا؛ كما أخبر الله عنهم.

٢١- تفرغهم والإنكار عليهم في استعجالهم العذاب؛ إنكارًا له، وتكذيبًا به، واستبعادًا له؛ لقوله تعالى: ﴿أَفِعْدَابًا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

٢٢- أنهم لو أنظروا وأمهلوا ومتعوا في الأرض سنين طويلة، ثم جاءهم ما توعدوا به من العذاب لم يغن عنهم ما متعوا به، ولم يدفع عنهم عذاب الله؛ لقوله تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ  
مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

٢٣- كمال عدل الله عز وجل، وإقامته الحجة على المكذبين قبل تعذيبهم وإهلاكهم،  
بإرسال الرسل والنذر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

٢٤- أن إرسال الرسل والنذر للتذكير والموعظة، والتحذير من العذاب؛ لقوله  
تعالى: ﴿ذِكْرَىٰ﴾.

٢٥- انتفاء الظلم عن الله عز وجل كلية؛ لكمال عدله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا  
ظَالِمِينَ﴾؛ ولهذا لا يعذب أحداً إلا بعد الإعذار إليه وإنذاره.

٢٦- حفظ الله عز وجل للقرآن وقت نزوله وبعد نزوله من شياطين الجن  
والإنس، وأنه ما ينبغي لهم ولا يليق بهم ولا يناسبهم. والحيلولة بينهم وبين استماع  
القرآن وخبر السماء، ومنعهم برميهم بالشهب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ  
الشَّيَاطِينُ ﴿٢٩﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٣٠﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْرُولُونَ ﴿٣١﴾﴾.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٣٨﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٩﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤٠﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٤١﴾ الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٢﴾ وَتَقْلَبُكَ فِي السَّجِدِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤٤﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيْطَانُ ﴿٤٥﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٤٦﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٥٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَذِكْرٍ كَبِيرٍ ﴿٥١﴾ وَأَنْتَصِرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٣٨﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٩﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤٠﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٤١﴾ الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٢﴾ وَتَقْلَبُكَ فِي السَّجِدِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤٤﴾﴾:

قوله: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾، أي: فلا تعبد مع الله معبودًا آخر، وهذا نهي له ﷺ ولأمته.

﴿فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ الفاء: للسببية، أي: فتكون - إن دعوت مع الله إلهًا آخر - من المعذبين؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦].

وهذا النهي له ﷺ، والتحذير من العذاب؛ تأكيد على نهي أمته عن الشرك، وتحذير لها منه، ووعد للمشركين.

أما هو ﷺ وسائر الأنبياء عليهم السلام فإنهم معصومون عن الخطأ في التبليغ مطلقًا، ومعصومون عن الوقوع في الكبائر أيضًا، وقد غفر له ﷺ ما تقدم من ذنبه وما تأخر؛ كما قال تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

عن عائشة رضي الله عنها؛ أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل حتى تنفطر قدماه،

فقلت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا؟!» (١).

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٣١)، أي: وحذر وخوف من عذاب الله ﴿عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، أي: الأذنين إليك، أي: الأقرب منهم فالأقرب، فكل من كان منهم أقرب فحقه في الإنذار والدعوة أعظم.

وأمره عز وجل بإنذار الأقربين خاصة؛ لأنهم أولى، وحقهم أعظم، ولثلا يظن ظان أن قربتهم له ﷺ تخلصهم من عذاب الله تعالى.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «لما أنزل الله عز وجل: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٣١) أتى النبي ﷺ الصفا فصعد عليه، ثم نادى: «يا صباحاه!» فاجتمع إليه بين رجل يجيء إليه، وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ: «يا بني فهر، يا بني لؤي، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟» قالوا: نعم. قال: «فإني نذير لكن بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا، وأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (١) (٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٣١) قام رسول الله ﷺ على الصفا، فقال: «يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبدالمطلب، يا بني عبدالمطلب، لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم» (٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٣١) قال: «يا معشر قريش»، أو كلمة نحوها، «اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبدالمطلب، لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفية عمة رسول الله ﷺ، لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد ﷺ، سليني من مالي ما شئت، لا

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٣٧، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٨٢٠.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الشعراء ٤٧٧٠، ومسلم في الإيمان ٢٠٨، وأحمد ٣٠٧/١.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان ٢٠٥، والنسائي في الوصايا ٣٦٤٨، والترمذي في الزهد ٢٣١٠، وأحمد ١٨٧/٦.

أغني عنك من الله شيئاً»<sup>(١)</sup>.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾<sup>(٢)</sup> دعا رسول الله ﷺ قريشاً، فاجتمعوا، فعمّ وخص، فقال: «يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة، أنقذي نفسك من النار؛ فإني لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أن لكم رحماً سألها ببلالها»<sup>(٣)</sup>.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يا بني عبد مناف اشتروا أنفسكم من الله، يا بني عبد المطلب اشتروا أنفسكم من الله، يا أم الزبير بن العوام عمّة رسول الله، يا فاطمة بنت محمد، اشترى أنفسكما من الله؛ لا أملك لكما من الله شيئاً، سلاني من مالي ما شئتما»<sup>(٤)</sup>.

وعن قبيصة بن مخارق، وزهير بن عمرو رضي الله عنهما، قالا: لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾<sup>(٥)</sup> انطلق رسول الله ﷺ إلى روضة من جبل فعلا أعلاها حجراً، ثم نادى: «يا بني عبد مناف، إني نذير، إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو، فانطلق يربأ أهله، فخشى أن يسبقوه، فجعل يهتف: يا صباحاه!»<sup>(٥)</sup>.

وهذا لا ينافي دعوته وإنذاره لجميع الناس؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾، أي: ألن جانبك، وتواضع، ﴿لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: للذي اتبعك منهم.

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الشعراء ٤٧٧١.

(٢) أي: سألها.

(٣) أخرجه مسلم في الإبان ٢٠٤ والنسائي في الوصايا ٣٦٤٤، والترمذي في تفسير سورة الشعراء ٣١٨٥، وأحمد ٣٦٠/٢.

(٤) أخرجه البخاري في المناقب ٣٥٢٧، وأحمد ٤٤٨/٢، ٤٤٩.

(٥) أخرجه مسلم في الإبان ٢٠٧، وأحمد ٦٠/٥.

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾، الفاء: عاطفة، أي: فإن عصاك عشيرتك وغيرهم ممن أنذرتهم ودعوتهم ولم يطيعوك.

﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾، «ما» مصدرية أو موصولة، أي: فقل لهم: إني بريء من عملكم، أو من الذي تعملونه من الشرك والمعاصي.

ولم يقل: فقل إني بريء منكم؛ لأن معصيتهم لا تمنع من الاستمرار على نصحتهم ووعظهم، ومن صلتهم لأجل الرحم؛ ولهذا قال ﷺ في الحديث السابق: «وإن منكم رجلاً سألها ببلاها»؛ كما لا تمنع من خفض الجناح لهم ولين الجانب إن كانوا مؤمنين.

قال السعدي<sup>(١)</sup>: «فهل يليق بمؤمن بالله ورسوله، ويدعي اتباعه والافتداء به، أن يكون كلاً على المسلمين، شرس الأخلاق، شديد الشكيمة، غليظ القلب، فظ القول، فظيعة، وإن رأى منهم معصية أو سوء أدب هجرهم ومقتهم وأبغضهم، لا لين عنده، ولا أدب لديه، ولا توفيق؟»

قد حصل من هذه المعاملة من المفاسد، وتعطل من المصالح ما حصل، ومع ذلك تجده محتقراً لمن اتصف بصفات الرسول الكريم، وقد رماه بالنفاق والمداهنة، وذكر نفسه ورفعها، وأعجب بعمله، فهل يعد هذا إلا من جهله، وتزيين الشيطان وخدعه له؟»

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾<sup>(١٧)</sup>، قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر: «فَتَوَكَّلْ» بالفاء، وقرأ الباقون بالواو: ﴿وَتَوَكَّلْ﴾.

أي: اعتمد وفوض في جميع أمورك، ﴿عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾<sup>(١٧)</sup>، أي: على ذي العزة التامة، وذي الرحمة الواسعة ربك عز وجل؛ فإنه ناصرك ومؤيدك، وحافظك وموفقك ومسددك.

﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾<sup>(١٨)</sup>، أي: حين تقوم تصلي الليل وحدك.

﴿وَتَقَلُّبِكَ﴾، أي: ويرى قلبك، أي: انتقالك من حال إلى حال في الصلاة ﴿فِي

السَّجِدِينَ﴾، أي: في جمع المصلين، أي: يراك حين تقوم تصلي الليل وحدك، وحين تصلي في الجمع.

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥٥٢/٥ - ٥٥٣.

كما يراك في جميع مقاماتك وتقلباتك، وهو معتن بك وحافظك؛ كما قال تعالى:  
﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

وإنما خص مقام الصلاة لشرفها وفضلها، وحثاً على الخضوع والخشوع فيها،  
واستحضار قربه عز وجل من العبد فيها.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [٣٠]، تعليل لما قبله، والضمير المنفصل «هو» للتوكيد.

أي: السميع المجيب للدعاء ذو السمع الذي وسع جميع الأقوال والأصوات، وذو  
العلم الذي وسع كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

فهو عز وجل السميع لدعاء عباده، ولجميع الأقوال والأصوات، العليم بأحوال  
عباده، وجميع الحركات والسكنات؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ  
مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْرُبُ  
عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ  
إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ [٣٣] تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ [٣٤]  
يُلْفُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ [٣٥] وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ [٣٦] أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي  
كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ [٣٧] وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ [٣٨] إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا  
الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا أَلَيْسَ  
مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ [٣٩]؟

مناسبة هذا- والله أعلم- أن المشركين اتهموا النبي ﷺ بأنه كاهن، أو شاعر،  
ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَبَّ الْمُنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، وكما  
قال تعالى ردّاً عليهم: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا نُؤْمِنُونَ﴾ [٤١] وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ﴾ [٤٢].  
[الحاقة: ٤١، ٤٢].

قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ [٣٣]، الاستفهام للإخبار والتشويق،  
والخطاب لمن زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ﷺ أتاه به ربي من الجن، أو أنه  
قول شاعر، أو كاهن، ونحو ذلك.

أي: هل أخبركم الخبر اليقين، على من تنزل الشيطان؟

﴿تَنْزَلُ عَلَيَّ كُلِّ آفَاكٍ﴾، أي: على كل كذاب كثير الإفك والكذب، وقول الزور والباطل، ﴿أَشِيرٍ﴾، كثير الإثم والفسوق والفجور؛ كالكهان والسحرة والمشعوذين ونحوهم، ممن هم إخوان الشياطين وأشباههم، والطيور على أشباهها تقع.

﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾، أي: يلقي الشياطين ما يسترقونه من السمع من السماء من كلمة من علم الغيب بعد أن يزيدوا معها مئة كذبة إلى أوليائهم من الكهان من الإنس، فيحدثون بها، فيصدقهم الناس في كل ما قالوه بسبب صدق تلك الكلمة التي سمعت من السماء.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَذِبُونَ﴾، أي: أكثر ما يلقونه كذب، وإنما يُصدِّقون بسبب تلك الكلمة، فيختلط الحق بالباطل.

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: سألت أناس النبي ﷺ عن الكهان، فقال: «إنهم ليسوا بشيء»، قالوا: يا رسول الله، فإنهم يحدثون بالشيء يكون حقاً؟ فقال النبي ﷺ: «تلك من الحق يخطفها الجنى، فيقرقها في أذن وليه، كقرقرة الدجاجة، فيخلطون معها أكثر من مئة كذبة»<sup>(١)</sup>.

وفي لفظ عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «إن الملائكة تتحدث في العنان- والعنان الغمام- بالأمر يكون في الأرض، فتسمع الشياطين الكلمة، فتقرها في أذن الكاهن؛ كما تقرّ القارورة، فيزيدون معها مئة كذبة»<sup>(٢)</sup>.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا ﴿فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ قالوا للذي قال: ﴿الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ فيسمعها مسترق السمع- ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض، ووصف سفيان بكفه فحرفها، وبدد بين أصابعه- فيسمع الكلمة فيلقياها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها،

(١) أخرجه البخاري في التوحيد، قراءة الفاجر والمنافق ٧٥٦١، ومسلم في السلام ٢٢٢٨.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق، صفة إبليس وجنوده، باب ذكر الملائكة ٣٢٨٨.

وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مئة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمع من السماء»<sup>(١)</sup>.

﴿وَالشُّعْرَاءُ﴾، الكفار ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾، أي: يتبعهم في شعرهم الضالون من الإنس والجن، فيقولون به ويروونه عنهم.

والغواية: الضلالة الشديدة عن طريق الهدى. ووصف الأتباع بالغواية يقتضي وصف المتبوعين بها من باب أولى. ففيه ذم لهم جميعاً.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾، الاستفهام: للتقرير، والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، أي: ألم تشاهد وتعلم وتسمع؛ ﴿أَنَّهُمْ﴾؛ لشدة ضلالهم وغوايتهم ﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾، أي: في كل واد من أودية الكلام وموضوعاته، وفي كل غرض من أغراض الشعر وفنونه الباطلة، من اللهو واللغو والسب والهجاء والمدح تزلفاً بالكذب، وغير ذلك.

﴿يَهِيمُونَ﴾، يمشون، ويخوضون بالباطل، ويمجازون الحد مدحاً وقدحاً. ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup>، «ما»: موصولة، أي: يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم، ولا يستطيعونها؛ كما يبالغون في المدح لأنفسهم، أو لغيرهم، بما يخالف الواقع، ويقذعون بالسب والهجاء للآخرين بما ليس فيهم، وربما ذموا من كانوا يمدحونه، ومدحوا من كانوا يذمونهم تبعاً لأهوائهم ومصالحهم؛ ولهذا قيل: «أصدق الشعر أكذبه»، وعلى هذا يحمل قوله ﷺ: «لأن يمتلي جوف الرجل قبيحاً خير له من أن يمتلي شعراً»<sup>(٢)</sup>.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، «إلا»: أداة استثناء، و«الذين»: اسم موصول مبني في محل نصب على الاستثناء من «الشعراء»، أي: إلا الذين آمنوا بقلوبهم وأستتهم، وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم.

﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾، في كلامهم وشعرهم، وكان شعرهم لهذا الغرض، أي:

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة سبأ ٤٨٠٠، وابن ماجه في المقدمة ١٩٤.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ٦١٥٥، ومسلم في الشعر ٢٢٥٧، وأبو داود في الأدب ٥٠٠٩، والترمذي في الأدب ٢٨٥١؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لإقامة ذكر الله؛ في الدعوة إلى الله تعالى والثناء عليه، وتحبيب الناس في الخير ومحاسن الأخلاق والآداب ونحو ذلك، وتحذيرهم من ضد ذلك.

﴿وَأَنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾؛ الجملة معطوفة على «ذكروا»، و«ما»: مصدرية، أي: من بعد ظلمهم.

أي: وانتصروا في شعرهم لدين الله ولأنفسهم وللمؤمنين؛ بالرد على المشركين من بعد ما ظلموهم بالسب والشتم والهجاء والمحرابة لهم بالقول والفعل وأنواع الأذى.

كما قال ﷺ لحسان رضي الله عنه: «اهجهم - أو هاجهم - وجبريل معك»<sup>(١)</sup>. وعن عائشة رضي الله عنها؛ أن رسول الله ﷺ قال: «اهجوا قريشاً؛ فإنه أشد عليها من رشق النبل».

وقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: «إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله».

وقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هجاهم حسان فشفى واشتفى»<sup>(٢)</sup>. وعن عبدالرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه؛ أنه قال للنبي ﷺ: إن الله عز وجل قد أنزل في الشعر ما أنزل، فقال: «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده، لكان ما ترمونهم به نضح النبل»<sup>(٣)</sup>.

فالشعراء المذمومون: ما كان شعرهم مذموماً لأغراض سيئة تتنافى مع أحكام الشريعة وآداب الإسلام.

والشعراء المحمودون: ما كان شعرهم محموداً لأغراض حميدة من الدعوة إلى الإسلام، والمنافحة عن الرسول ﷺ، وعن دين الله، والحث على مكارم الأخلاق والآداب.

وقد كان الشعر في عهد النبوة من أعظم وأهم وسائل الدعوة إلى الله والدفاع عن

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق، ذكر الملائكة ٣٢١٣، ومسلم في فضائل الصحابة وفضائل حسان بن ثابت ٢٤٨٦؛ من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم ٢٤٩٠، والترمذي في الأدب ٢٨٤٦.

(٣) أخرجه أحمد ٣٨٧/٦.

الإسلام، وكان شعر حسان وعبدالله بن رواحة وكعب بن مالك وغيرهم رضي الله عنهم أشد على المشركين من وقع النبل.

وناهيك بقول حسان رضي الله عنه، ينافح عن الرسول ﷺ، ويرد على أبي سفيان في هجائه للنبي ﷺ<sup>(١)</sup>:

فأنت مجوّف نخب هواء	ألا أبلغ أبا سفيان عني
وعبد الدار سادتها الإماء	وإن سيوفنا تركتك عبداً
تعفيها الروامس والسماء	كأن سبيئة من بيت رأس
وعند الله في ذاك الجزاء	هجوت محمداً فأجبت عنه
فخير كما لشركما الفداء	أتهجوه ولست له بكفاء
أمين الله شيمته الوفاء	هجوت مباركاً برّاً حنيفاً
ويمدحه وينصره سواء	فمن يهجو رسول الله منكم
لعرض محمد منكم وقاء	فإن أبي ووالده وعرضي
وبحري لا تكدره الدلاء	لساني صارم لا عيب فيه

وبقول عبدالله بن رواحة رضي الله عنه:

على البرية فضلاً ما له غير	يا هاشم الخير إن الله فضلكم
فراصة خالفتهم في الذي نظروا	إني تفرست فيك الخير أعرفه
في حل أمرك ما ردوا ولا نصروا	ولو سألت أو استنصرت بعضهم
يوم الحساب فقد أزرى به الكثر	أنت النبي ومن يحرم شفاعته
تثبت موسى ونصراً كالذي نُصروا <sup>(٢)</sup>	فثبت الله ما آتاك من حسن

(١) انظر: «ديوان حسان» (ص ١)، «البداية والنهاية» (٤/ ٣١٠).

(٢) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١/ ٢٣٤)، «أحاديث الشعر» لعبد الغني المقدسي (ص ١٠٨).

ويقول كعب بن مالك رضي الله عنه مناقضاً لقول ضرار بن الخطاب بن مرداس من بني محارب، ينافح عن قتلى بدر من المشركين:

عجبت لفخر الأوس والحين دائر  
عليهم غداً والدهر فيه بصائر  
وفخر بني النجار أن كان معشر  
أصيبوا ببدر كلهم ثم صابر<sup>(١)</sup>  
قال كعب رضي الله عنه:  
عجبت لأمر الله والله قادر  
قضى الله بدرًا أن تلاقي معشرًا  
وقد حشدوا واستنفروا من يليهم  
وسارت إلينا لا تحاول غيرنا  
وفينا رسول الله والأوس حوله  
وجمع بني النجار تحت لوائه  
فلما لقيناهم وكل مجاهد  
شهدنا بأن الله لا رب غيره  
وقد عربت بيض خفاف كأنها  
بهن أبدنا جمعهم فتبددوا  
فكب أبو جهل صريعًا لوجهه  
وشيبة والتميمي غادرن في الوغى  
فأمسوا وقود النار في مستقرها  
تلظى عليهم وهي قد شب حميها  
بزبر الحديد والحجارة ساجر  
له معقل منهم عزيز وناصر  
يمسون في الماذي والنقع ثائر  
لأصحابه مستبسل النفس صابر  
وأن رسول الله بالحق ظاهر  
مقابس يزيها لعينيك شاهر  
وكان يلاقي الحين من هو فاجر  
وعتبه قد غادرنه وهو عائر  
وما منهم إلا بذى العرش كافر  
وكل كفور في جهنم صائر  
بزبر الحديد والحجارة ساجر

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» (١٣/٢)، «البداية والنهاية» (٣/٣٤١).

وكان رسول الله قد قال: أقبلوا فولوا وقالوا: إنما أنت ساحر

لأمر أراد الله أن يهلكوا به وليس لأمر حَمَّه الله زاجر (١)

ولهذا لما قدم الأعشى ليعلمن إسلامه قابله - فيما قيل - بعض المشركين أو اليهود والمنافقين، وعرضوا عليه مئة ناقة ليعود ليسلم بعد سنة - أي: من قَبْلِ - فأخذها ورجع، وسقط من ناقته في رجوعه على رقبته فمات.

﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، تهديد شديد ووعد أكيد للظالمين، والسين للاستقبال، ﴿أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾، أي: أي مرجع يرجعون إليه بعد الموت، وأي مصير يصيرون إليه، أي: أن مصيرهم بثس المصير، إلى النار وبئس القرار.

والظلم: وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان، وأظلم الظلم: الشرك؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وهو نوعان: ظلم للنفس بالكفر والمعاصي، وظلم للغير بالاعتداء عليهم بدمائهم وأعراضهم وأموالهم، وهو أيضًا ظلم للنفس.

وقد توافرت النصوص من الكتاب والسنة على الوعد للظالمين، والتحذير من الظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ [النساء: ١٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢].

وقال ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة» (٢).

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل؛ أنه قال: «إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا» (٣).

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» (١٤/٢)، «البداية والنهاية» (٣/٣٣٥).

(٢) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٤٧، ومسلم في البر ٣٥٧٩، والترمذي في البر ٢٠٣٠، وأحمد ٩٢/٢، ١٠٥، ١٠٦، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه مسلم أيضًا ٣٥٧٨، وأحمد ٣/٣٢٣، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم ٣٥٧٧؛ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

## الفوائد والأحكام:

١- نهي الله له ﷺ عن دعوة غير الله، وتحذيره من العذاب، وفيه تأكيد لنهي أمته عن ذلك، وتحذيرهم من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ ﴿١٣﴾، وحاشاه ﷺ من ذلك؛ لأنه معصوم من الوقوع في الكبائر، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

٢- أمره بإنذار عشيرته الأقربين، وتحذيرهم من عذاب الله تعالى؛ لعظم حقهم، وكونهم أولى من غيرهم، ولئلا يُظن أن قربتهم منه ﷺ تغني عنهم من الله شيئاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ﴿١٤﴾.

٣- تشریفه ﷺ بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿عَشِيرَتِكَ﴾، وغيره من المواضع في الآيات.

٤- أن الأقربين أولى بالمعروف، وبالإنذار والدعوة وغير ذلك، الأقرب منهم فالأقرب.

٥- أمره عز وجل له ﷺ بخفض جناحه للمؤمنين، ولين جانبه لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٥﴾.

وهكذا كان ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿١٦﴾ [التوبة: ١٢٨].

ولنا فيه ﷺ أسوة وقدوة، توجب علينا خفض الجناح ولين الجانب فيما بيننا.

٦- أن الإيثار إنما يتحقق باتباعه ﷺ.

٧- البراءة من عمل من عصى وخالف أمر الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَاكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٧﴾.

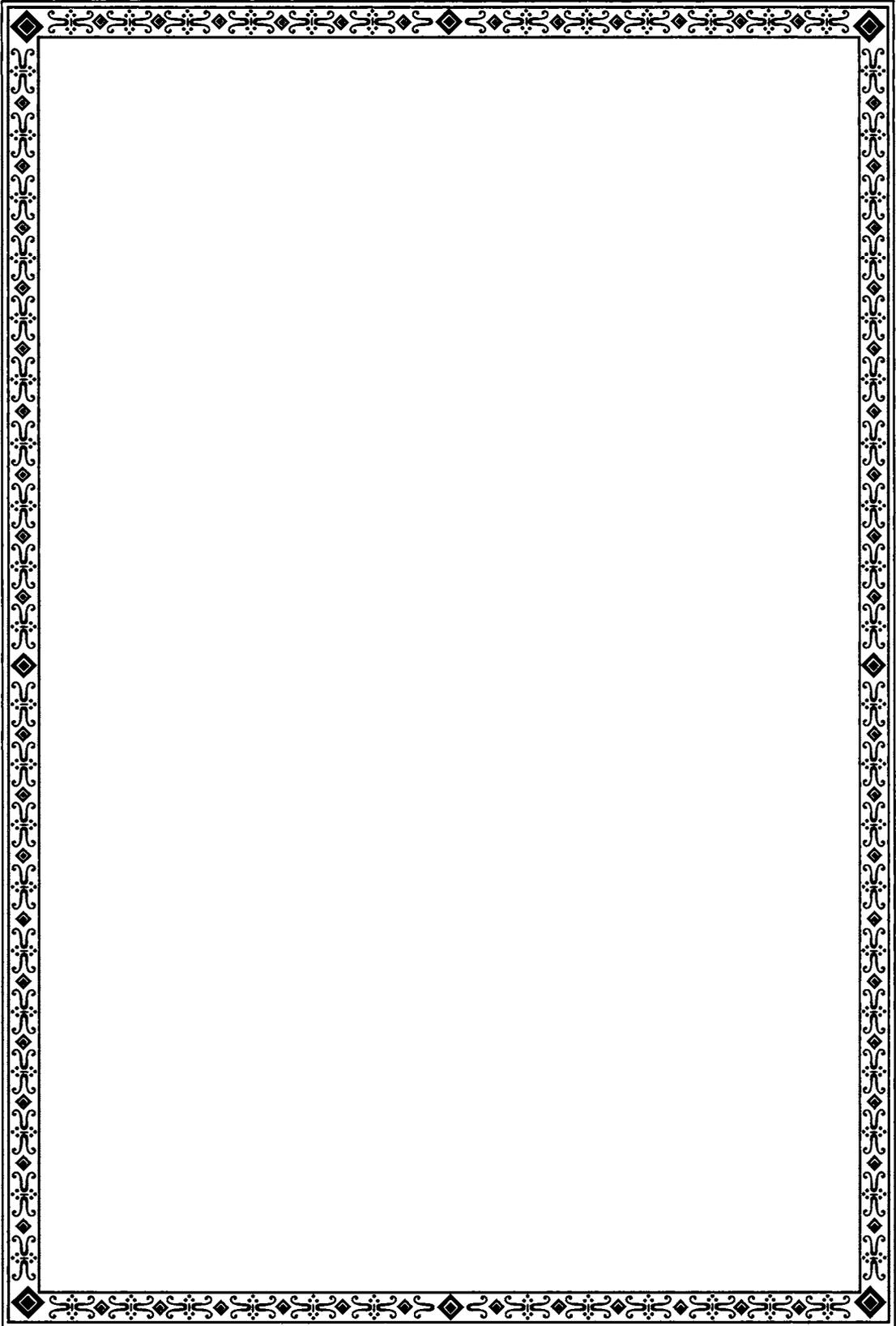
٨- أنه ﷺ لا يملك هداية أقاربه ولا غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَاكَ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَا كُنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

٩- أن المعصية لا تمنع من الاستمرار على نصح العاصي ووعظه، ولا تمنع من

- صلته لأجل الرحم، ولا من خفض الجناح له إذا كان مؤمناً.
- ١٠- وجوب التوكل على الله عز وجل، وتفويض الأمور كلها إليه؛ مع تمام الثقة به في جلب النفع ودفع الضر؛ لقوله تعالى له ﷻ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾، ولنا به أسوة وقدوة.
- ١١- إثبات اسمي الله تعالى: «العزیز» و«الرحیم»، وصفتي العزة التامة، والرحمة الواسعة له عز وجل.
- ١٢- إثبات رؤية الله عز وجل له ﷻ حين يقوم في صلاته، وفي قلبه في الساجدين، وفي جميع أحواله؛ كما يرى سبحانه جميع الخلق، لا تخفى عليه منهم خافية.
- ١٣- تثبيت الله عز وجل للنبي ﷺ، وتقوية قلبه، وطمأنته وتسليته له، وإظهار عنايته به وحفظه له؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ الَّذِي يَرِنَا حِينَ تَقُومُ ﴿١٧٨﴾ وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّجِدِينَ ﴿١٧٩﴾.
- ١٤- شرف الصلاة وفضلها، والترغيب في الخضوع والخشوع فيها؛ لأن الله خصها بقوله: ﴿الَّذِي يَرِنَا حِينَ تَقُومُ﴾ ﴿١٧٨﴾ وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّجِدِينَ ﴿١٧٩﴾.
- ١٥- إثبات اسمي الله عز وجل: «السميع» و«العليم»، وصفتي السمع والعلم الواسعتين لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿١٨٠﴾.
- ١٦- أن الشياطين إنما تنزل على كل أفاك أثيم؛ من الكهان والسحرة والمشعوذين، ونحوهم؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ ﴿١٨١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿١٨٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرُهُمْ كَذِبُونَ ﴿١٨٣﴾.
- ١٧- كذب الكهان والسحرة ونحوهم في كل ما يدعونه من علم الغيب، وإنما تلقي إليهم الشياطين الكلمة يسترقونها من السماء، فيكذبون معها مئة كذبة؛ لقوله تعالى: ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرُهُمْ كَذِبُونَ﴾ ﴿١٨٣﴾.
- ١٨- ذم الشعراء الذين هم أبواق بشعرهم للغواية والضلال والكفر والفسوق والفجور؛ لقوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ ﴿١٨٤﴾، وإذا كان الأتباع غاوين، فالمتبوعون أشد غواية وأعظم.

- ١٩- تقرير شدة ضلالتهم وغوايتهم بكونهم في كل وادٍ من أودية الشعر وفنونه الباطلة يخوضون؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٣٣٥﴾﴾.
- ٢٠- مخالفة أفعالهم لأقوالهم، وشدة كذبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٣٦﴾﴾.
- ٢١- استثناء الشعراء المؤمنين الذاكرين الله كثيراً، المنتصرين ممن ظلمهم، من الشعراء المذمومين، وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾.
- ٢٢- الانتصار ممن ظلم المسلمين بهجائه وسبه لهم، كما قال تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوِّءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ [النساء: ١٤٨]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].
- ٢٣- لا بد من الجمع بين إيمان القلب واللسان، وعمل الأعمال الصالحات بالجوارح.
- ٢٤- أن العمل لا يقبل إلا إذا كان صالحاً، خالصاً لله تعالى، موافقاً لشرعه.
- ٢٥- الترغيب في الإيمان، والعمل الصالح، وذكر الله تعالى كثيراً.
- ٢٦- جواز الانتصار من الظالم بالشعر والقول باللسان، أو باللسان، وقد يندب ذلك أو يجب، إذا كان في سبيل الدفاع عن الحق، ونصرة الإسلام.
- ٢٧- التهديد الشديد، والوعيد الأكيد، للذين ظلموا بالشرك والكفر، والاعتداء على العباد، بسوء المنقلب والمصير؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾.

# تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّمْلِ



## المقدمة

## أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة النمل» وهو أشهر أسماؤها؛ لقوله تعالى فيها: ﴿حَقَّ إِذَا  
 اتَّوَا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمَلَةٌ يَتَأْتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ، وَهُمْ لَا  
 يَشْعُرُونَ﴾ [الآية: ١٨].

وتسمى أيضًا «سورة الهدى»، لقوله تعالى فيها: ﴿وَتَقَدَّ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى  
 الْهُدَى هُدًى أَمْ كَانُ مِنَ الْغَايِبِينَ﴾ [الآية: ٢٠].

كما تسمى: «سورة سليمان»؛ لأن ما ذكر فيها مفصلاً من ملك سليمان لم يذكر مثله  
 في غيرها.

## ب- مكان نزولها:

مكة.

## ج- موضوعاتها:

١- افتتحت هذه السورة بقوله تعالى: ﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾

هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢- ثم ثنت بالثناء على المؤمنين بجمعهم بين الإيمان والعمل الصالح من إقامة  
 الصلاة وإيتاء الزكاة، وإيقانهم بالآخرة.

٣- ذم الذين لا يؤمنون بالآخرة وتهديدهم ووعيدهم بسوء العذاب والخسران في  
 الآخرة.

٤- إثبات أنه ﷺ يُلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى حَقًّا: ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ

حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾.

٥- ذكر قصة وحيه عز وجل لموسى عليه السلام وما أيد به من الآيات،  
 وتكذيب فرعون وقومه لما جاءهم به من الآيات، وزعمهم أنها سحر مبین،  
 وجحودهم لها مع استيقان أنفسهم لها ظلماً منهم وعلوا، وذكر عاقبتهم السيئة  
 بإهلاكهم بسبب فسادهم.

٦- ذكر ما أمتن الله به على داود وسليمان من العلم وحمدهما الله على ما فضلها به

على كثير من عباده المؤمنين ووارثة سليمان لعلم داود، وتعليمه منطق الطير، وإيتائه من كل شيء، وحشر جنوده له من الجن والإنس والطير، وذكر ما كان بينه وبين النملة، وما كان بينه وبين الهدهد، وما كان بينه وبين ملكة سبأ، وعظم ما أعطاه الله من العلم والملك والخير والفضل.

٧- ذكر إرساله عز وجل إلى ثمود أخاهم صالحًا ودعوته إياهم إلى عبادة الله وحده، وانقسامهم إلى فريقين فريق آمنوا به، وفريق كذبوه، وتطيروا به. وذكر ما جرى بينه وبينهم، ومحاولتهم المكر به وقتله، ومكر الله عز وجل بهم، وإهلاكهم، وإنجائهم ومن معه من المؤمنين.

٨- ذكر تكذيب قوم لوط عليه السلام له وإنكاره عليهم فعل الفاحشة، وهي إتيان الرجال شهوة من دون النساء، وجهلهم ومحاولتهم إخراجه وآله من قريتهم؛ لأنهم أناس يتطهرون، وإنجائه وأهله إلا امرأته وإهلاكها وقومه بمطر الحجارة.

٩- حمدا لله والسلام على عباده ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا

يُشْرِكُونَ﴾.

١٠- إثبات وتقرير ربوبية الله تعالى والاستدلال بذلك على وحدانيته في الألوهية، فلا رب غيره ولا إله سواه؛ خلق السموات والأرض، وأنزل من السماء ماء، وأخرج به النبات والحدائق، وجعل الأرض قراراً، وجعل خلالها أنهاراً، وجعل لها رواسياً، وجعل بين البحرين حاجزاً، يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، ويستخلف عباده في الأرض، ويهديهم في ظلمات البر والبحر، ويرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته، وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده، ويرزق عباده من الأرض والسماء، ويختص بعلم الغيب فلا يعلمه أحد سواه: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (٦٥)

بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾.

١١- إنكار المشركين للبعث بعد الموت، وأمرهم بالسير في الأرض والنظر والتأمل كيف كان عاقبة المجرمين، وتسليته ﷺ، فلا يكن في ضيق من مكرهم واستعجالهم العذاب؛ استبعاداً له وتكذيباً به. وتهديدهم بقربه.

١٢- بيان عظيم فضله عز وجل على الناس، وعلمه بما تكن صدورهم وما

يعلنون، وإحصائه كل غائبة في السماء والأرض في كتاب مبين.  
١٣- قصص القرآن الكريم على بني إسرائيل أكثر الذين هم فيه يختلفون، وكونه هدى ورحمة للمؤمنين.

١٤- تسليته ﷺ وتقوية قلبه وطمأنته، بوعد عزم وجل بالقضاء بين العباد بحكمه العدل ومحاسبتهم، وأمره بالتوكل عليه، وأنه على الحق المبين، وبيان أن الهداية ليست إليه، فلا يسمع الصم، ولا يهدي العمي، ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

١٥- إثبات خروج الدابة عند وقوع القول على المكذبين وغلغلق باب التوبة، تسم الناس وتكلمهم: ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

١٦- التذكير بقدرة الله تعالى ونعمته بجعل الليل مظلمًا؛ ليسكنوا فيه والنهار مبصرًا مضيئًا؛ ليعملوا فيه.

١٧- ذكر علامات الساعة وأحوال القيامة من النفخ في الصور، وفرع من في السموات والأرض، وتسير الجبال ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَرَجَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوِّهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ وَرَى الْجِبَالِ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

١٨- عظم فضل الله تعالى بمجازاة من جاء بالحسنة بخير منها، وتأمينهم من فرج يوم القيامة، وتمام عدله بمجازاة من جاء بالسيئة بما كانوا يعملون.

١٩- بيان مهمته ﷺ وما أمره الله تعالى به، وهو عبادة الله تعالى وحده الذي حرم مكة، وله كل شيء، وأن يكون من المسلمين، وأن يقرأ القرآن على الناس، ويتبعه، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فما هو ﷺ إلا من المنذرين.

٢٠- ختم السورة بأمره ﷺ بحمد الله تعالى، والتهديد للمكذبين. ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ وَأَيُّنَّهِ فَنَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
 ﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ① هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ② الَّذِينَ  
 يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ③ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ  
 بِالْآخِرَةِ رَبَّنَا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ④ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي  
 الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسْرُونَ ⑤ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ⑥﴾.

قوله: ﴿طَسَّ﴾؛ سبق الكلام على الحروف المقطعة أوائل السور، في مطلع سورة البقرة.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾؛ كقوله تعالى في سورة الحجر: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ①﴾ [الحجر: ١].

أي: هذه الآيات ﴿آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾؛ وأشار إليها بإشارة البعيد: «تلك» تعظيماً لها؛ فهي أعظم ما أنزل الله تعالى من الآيات، وأعلاها قدرًا، وأفضلها وأرفعها شأنًا، وأوسعها دلالة على الخير، وتحذيرًا من الشر، وأعد لها أحكامًا، وأصحها أخبارًا.

﴿وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾، أي: بين واضح لمن تدبره وتفكر فيه أنه من عند الله، ومبين للحق من الباطل، والهدى من الضلال، والرشد من الغي؛ في العقائد والأعمال، والأخلاق والآداب، وغير ذلك.

﴿هُدًى وَبُشْرَى﴾؛ حالان، ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، اللام: للتخصيص، أي: حال كونه هدى وبشرى للمؤمنين خاصة؛ لأنهم هم الذين يؤمنون به ويتبعونه، ويصدقون ما وعدوا به من الجزاء، فيهديهم إلى الصراط المستقيم، ويبشرهم بالسعادة في الدنيا والآخرة، والفوز بجنات النعيم.

﴿الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ③﴾؛ «الذين»: نعت للمؤمنين، أي: الذين من صفتهم إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيقان بالآخرة.

أي: يقيمون الصلاة إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وخشوعها وسننها، ويعطون الزكاة المفروضة لمستحقيها- وهم الأصناف الثمانية- من غير منٍّ ولا أذى.

﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ﴾؛ أي: بالدار الآخرة، والبعث بعد الموت، والحساب والجزاء، ﴿هُمَّ﴾

يُوقُونَ ﴿ ضمير الفصل: للتوكيد، أي: يصدقون تصديقًا جازمًا، يحملهم على العمل لتلك الدار.

وخص بالذكر هذه الصفات الثلاث: وهي إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيمان بالآخرة؛ لأن الصلاة والزكاة أعظم العبادات بعد الشهادتين، والإيمان بالآخرة من أعظم ما يحفز على العمل؛ ولهذا يُقرن كثيرًا في القرآن الكريم بين الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر.

ويؤخذ من الآية: أنه ليس بهدى للكافرين؛ لأنهم لم يتبعوه، وليس بشرى لهم، بل فيه نذارة وتحذير لهم؛ ولهذا قال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾، أي: الذين لا يصدقون بالدار الآخرة بقلوبهم، ولا يقرون بها بألسنتهم، ولا يعملون لها بجوارحهم، بل يكذبون بها، وبالبعث والحساب، والجزاء على الأعمال.

﴿زَيْنًا لَهُمْ أَعْمَلُهُمْ﴾، أي: حسنًا لهم قدرًا وكونًا أعمالهم السيئة؛ من الشرك والكفر والمعاصي بسبب عدم إيمانهم، وهذه من أعظم المصائب: أن يزين للإنسان الباطل، فيرى أنه على حق؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ مَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَأَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨].

وقد أحسن القائل:

يقضى على المرء في أيام محتته حتى يرى حسنًا ما ليس بالحسن (١)

﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾، أي: فهم في ضلالهم وتيههم وعماهم عن طريق الحق يترددون متحيرين؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَقَلْنَا أَفْعِدْتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ﴾، أي: لهم خاصة، ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾، أي: أسوأ العذاب وأشدّه وأعظمه في الدنيا والآخرة.

(١) البيت ينسب للأمير يحيى بن علي باشا الإحسائي. انظر: «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» (٤/٤٧٥، ٤٧٦). وانظر: «أبيات سارت بها الركبان» ص ٤.

﴿وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْآخَسُونَ﴾، أي: الذين لا نصيب لهم في الآخرة. وأكد الخسران وحصرهم فيه بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»، وبصيغة التفضيل «الأخسرون»، أي: وهم في الآخرة هم الأخسرون خاصة، الذين خسروا أشد الخسران، وأعظمه وأبينه، فخسروا أنفسهم وأهلهم وأموالهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَيْرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٥].

﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ﴾ اللام للتوكيد، أي: وإنك يا محمد لتلقى القرآن، أي: تلقنه وينزل عليك، ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾، أي: من عند ذي الحكم التام والحكمة البالغة، وذي العلم الواسع وهو الله عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء: ١٦٦].

ولم يقل: من لدني، ولا من عندي، تعظيماً لنفسه، وتوخيماً بتمام حكمه، وبالغ حكمته، وواسع علمه، وتشريفاً للقرآن الكريم؛ لما احتوى عليه من فنون الحكمة والعلم، ومراعاة مصالح العباد التي لا يعلمها إلا خالقهم، والصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأحكام.

### الفوائد والأحكام:

- ١- إثبات إعجاز القرآن والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿طَسَّ﴾.
- ٢- تعظيم آيات القرآن العظيم، والتنويه به، وتشريفه؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾.
- ٣- امتداح الله عز وجل للقرآن وكتابه الكريم بكونه بيناً بنفسه، ومبيناً الحق من الباطل، ومبيناً صدق من جاء به، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾.
- ٤- إثبات قيام الحجة بالقرآن الكريم على الخلق؛ لما فيه من بيان الحق أتم بيان، والدعوة إليه، بشتى الوسائل، والتحذير من الشر كله، والنهي عنه.
- ٥- أن القرآن الكريم هدى وبشرى للمؤمنين خاصة؛ لأنهم هم الذين يأخذون به ويتبعونه، ويصدقون بموعوده؛ لقوله تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾، بخلاف

غير المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشَفَافٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مریم: ٩٧].

٦- ثناء الله عز وجل على المؤمنين بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيقان بالآخرة، وأن هذه الصفات من أعظم وأخص صفاتهم؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [٣].

٧- عظم أمر الصلاة والزكاة، والإيمان بالدار الآخرة؛ لأن الله خصها بالذكر.  
٨- أن الأعمال من الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [٣] الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ، وفي هذا رد على المرجئة الذين ينفون أن تكون الأعمال من الإيمان.

٩- عقوبة الذين لا يؤمنون بالآخرة، ويكذبون بالبعث والجزاء على الأعمال؛ باستحسانهم ما هم عليه من الضلال والعمى عن الحق، والتردد والحيرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [١]، والجزاء من جنس العمل.

١٠- إثبات الدار الآخرة، ووجوب الإيمان بها، وما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال؛ وذلك ركن من أركان الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ الآية، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾، وقوله: ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾.

١١- إثبات القدر، وأن الله قدر مقادير كل شيء، وأن من كتب الله عليهم الضلال فلا سبيل لهم إلى السعادة؛ لقوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾. وفي هذا رد على القدرية الذين يقولون: إن أفعال العباد ليست مخلوقة لله.

١٢- الرد على الجبرية في زعمهم أن الإنسان مجبور على فعله؛ لقوله تعالى: ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾، فأضاف الأعمال إليهم.

١٣- الوعيد والتهديد للمكذبين بالآخرة بأسوأ العذاب وأشده، والخسران في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ

الْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾

- ١٤- تثبيت النبي ﷺ وتقوية قلبه وطمأنته، وتعظيم القرآن، ومن أنزله بحكمه وحكمته وعلمه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَلَقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٥﴾
- ١٥- إثبات رسالته ﷺ، وإنزال القرآن عليه، وتشريفه بخطاب الله تعالى له.
- ١٦- إثبات أن القرآن كلام الله تعالى، تلقاه ﷺ من ربه الحكيم العليم.
- ١٧- إثبات كمال حكم الله عز وجل، وبالغ حكمته، وواسع علمه.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِيهِ إِنِّي آنستُ نارا سعاتيكم منها بخبر أو آتيكم  
 بِشهابٍ قبيسٍ لعلكم تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فلما جاءها نوري أن بُورك من في النار ومن حولها  
 وسُبْحانَ الله رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْوَسَّىٰ إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقَىٰ عَصَاكَ فَلَمَّا  
 رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوَسَّىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾  
 إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْجُجْ  
 بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا فٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ  
 آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا  
 وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

امتدح عز وجل القرآن الكريم وكتابه المبين، وعظمه ببيان نزوله من لدن حكيم  
 عليم، ثم دلل على ذلك بذكر ما اشتمل عليه من أخبار الأنبياء السابقين وأممهم، ومن  
 دلائل عظمته في آياته في الكون، وبدء الخلق وإعادته، وما فيه من القصص والهداية،  
 والأخبار اللاحقة من خروج الدابة، ووقوع العذاب، وعلامات الساعة والقيامة، وغير  
 ذلك.

قوله: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِيهِ إِنِّي آنستُ نارا﴾، أي: اذكر حين قال موسى لأهله،  
 أي: لزوجته، والزوجة تكنى بالأهل؛ كما قال ﷺ: «وما علمت على أهلي إلا خيرا»<sup>(١)</sup>.  
 قيل: كان معه زوجه وابنان صغيران.

﴿إِنِّي آنستُ نارا﴾، أي: أبصرت ورأيت نارا من بعيد. وكان في طريق عودته من  
 مدين - بعد مكثه فيها عدة سنين - إلى مصر، وقبيل اصطفائه بالرسالة، وتكليم الله  
 تعالى ومناجاته له، وبعثه إلى فرعون وملئه بالآيات العظيمة، والمعجزات الباهرة.

﴿سعاتيكم منها بخبر﴾؛ السين: للاستقبال، أي: سأذهب إليها وآتيكم منها، أي:  
 من أهلها، ﴿بِخبر﴾ عن الطريق إلى مصر، وكان قد ضل الطريق.

﴿أو آتيكم بِشهابٍ قبيسٍ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وعاصم ويعقوب بالتنوين:  
 ﴿بِشهابٍ﴾، وقرأ الباقون بغير تنوين على الإضافة: «بِشهابٍ».

و«أو» عاطفة، بمعنى: الواو، أي: وآتيكم بشهاب قبيس، أي: بشعلة نار في رأس

(١) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٣٧، ومسلم في التوبة ٢٧٧٠؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

فتيلة أو عود، ونحو ذلك، تشعلون بها ناركم، ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾، أي: لأجل أن تصطلوا بها، أي: تستدفئوا بها من البرد.

قال ابن كثير<sup>(١)</sup>: «وكان كما قال، فإنه رجع منها بخبر عظيم، واقتبس منها نوراً عظيماً؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾».

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾، أي: فلما أتى موسى النار التي آنسها وأبصرها من بعد.

﴿نُودِيَ﴾، المنادي هو الله عز وجل؛ كما قال تعالى في سورة مريم: ﴿وَنَدَيْتُهُ مِنْ جَانِبِ

الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَّقْتَهُ حَيًّا ۝٥٢﴾ [الآية: ٥٢].

﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ «أن» تفسيرية، أي: أن الله عز وجل بارك من في النار ومن حولها، أي: جعل هذا المكان مباركاً مقدساً طاهراً، ومن بركته أن جعله الله محلاً لتكليم موسى وإرساله.

قيل: ﴿بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾ أي: موسى، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: الملائكة، وقيل: العكس، وقيل: ﴿بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾: موسى، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: البلاد التي حولها، لأن بلاد الشام مباركة، أو ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: أهل موسى عليه السلام.

وعن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، وحجابه النور، أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»<sup>(٢)</sup>، وفي رواية: «فقرأ أبو عبيدة: ﴿نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾»<sup>(٣)</sup>.

﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أي: تنزيهاً لله تعالى رب العالمين عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين، وعن أن يظن به شيء من ذلك، وإثبات لكماله في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته.

(١) في «تفسيره» ٦ / ١٩٠.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ١٧٩، وأحمد ٤ / ٤٠٥.

(٣) أخرجه أحمد ٤ / ٤٠١.

﴿يَمُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ﴾؛ الضمير في قوله: «إنه» ضمير الشأن، وهذا إعلام منه عز وجل لموسى وإخبار له أن الذي يناجيه ويخاطبه هو الله، المستحق للعبادة وحده لا شريك له؛ كما قال تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

﴿الْعَزِيزُ﴾؛ ذو العزة التامة، الذي قهر كل شيء، وأذعنت له جميع المخلوقات.  
﴿الْحَكِيمُ﴾؛ ذو الحكم التام، وذو الحكمة البالغة، في خلقه وأمره وشرعه، في أقواله وأفعاله.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾؛ الواو: عاطفة، أي: وألق عصاك من يدك، أي: ضعها على الأرض. وذلك ليُبين له عز وجل كمال عزته وقدرته، وتمام حكمه وحكمته؛ ولتكون آية ومعجزة يؤيده بها، تدل على صدقه. وجواب الأمر محذوف، أي: فألقها.

﴿فَلَمَّا رَأَاهَا﴾؛ الفاء: عاطفة، أي: فحين رآها وشاهدها.  
﴿تَهَتَّرُ﴾؛ تتحرك وتضطرب في خفة وسرعة ﴿كَأَنَّهُا جَانٌّ﴾، أي: كأنها حية حقيقية؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَأَلْقَاهَا فِإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه: ٢٠].  
والجان: نوع من الحيات، أسرعها حركة، وأكثرها اضطرابًا.

ويقال: هو ذكر الحيات، وفي الحديث أنه ﷺ: «نهى عن قتل جنان البيوت»<sup>(١)</sup>.  
﴿وَلَّى مُدْبِرًا﴾؛ ذعر وخاف وفر هاربًا لما رآها تهتز كأنها حية، على مقتضى الطباع البشرية، ﴿وَلَوْ يَعْقُبُ﴾، أي: ولم يرجع، ولم يلتفت من شدة فرقه.

﴿يَمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾، أي: قال الله له: ﴿يَمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ وفي هذا طمأنة له؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ﴾ [القصص: ٣١].  
﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ تعليل لما قبله، أي: إني لا يخاف عندي المرسلون، لحفظي لهم وعنايتي بهم، وعصمتي إياهم من كل سوء.

وفي هذا بشارة لموسى بأن الله سيصطفيه للرسالة والنبوة.  
﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾؛ الاستثناء: منقطع، و«إلا» بمعنى:

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠١٧، ومسلم في السلام ٢٢٣٣؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

«لكن»، أي: من ظلم بالشرك والكفر والمعاصي.

﴿ثُمَّ بَدَّلَ حَسَنًا بَعْدَ سَوْءٍ﴾، أي: ثم استبدل حسناً بعد سوء، أي: فعل وأتى حسناً بعد سوء؛ بأن تاب من الشرك وآمن، واستقام على طاعة الله تعالى.

﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: ذو مغفرة واسعة، أغفر ما وقع منه من الظلم، وأستر عليه وأتجاوز عن عقوبته، وذو رحمة واسعة، أشمله بواسع رحمتي التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي.

كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ ﴿٨٢﴾ [طه: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿١١٠﴾ [النساء: ١١٠].

وقيل: الاستثناء متصل، وفيه تعريض بقتله القبطي، وقوله: ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حَسَنًا بَعْدَ سَوْءٍ﴾؛ بأن تاب بعد قتله؛ كما قال موسى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٦﴾ [القصص: ١٦].

وفي هذا تذكير له بتوبة الله تعالى عليه، وأن ما وقع منه من هذا الظلم لا يمنع من أن يكون من المرسلين، لتوبته ومغفرة الله تعالى له وذلك لثلاث يستبعد في نفسه أن يكون من المرسلين وقد وقع منه ذلك الظلم.

﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾؛ هذه آية أخرى، ودليل باهر على تمام قدرة الله تعالى، ومعجزة أخرى دالة على صدق موسى عليه السلام؛ كما قال تعالى في سورة طه: ﴿وَأَضْمَمَ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ ؕ آيَةٌ أُخْرَىٰ﴾ ﴿٢٣﴾ لِرَبِّكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَىٰ ﴿٢٢﴾ [طه: ٢٢-٢٣]، أي: وأدخل يدك في جيب درعك.

وهي: فتحة القميص وطوقه الذي يدخل منها الرأس.

﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ﴾ «تخرج» مجزوم، جواب الأمر: «أَدْخِلْ»؛ ولم يقل: وأخرجها؛ لأنها لا يمكن إبقاؤها داخل الجيب وتعطيل الانتفاع بها، أي: تخرج يدك حال كونها بيضاء، مغايرة للون الجسم.

﴿مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾، أي: من غير برص، ولا عيب.

﴿فِي تَسْعِ ءَايَاتٍ﴾، أي: هاتان الآيتان: انقلاب عصاك حية، وإدخال يدك في

جيبك وخروجها بيضاء من غير سوء، في جملة تسع آيات أيدناك بها.  
كما قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الآية: ١٠١]، وهي: العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والقحط، وانفلاق البحر. وقيل غير ذلك.

وقد جمعها الفيروزبادي في بيت ذكره في مادة «تسع» في القاموس؛ وهو:  
عصا، سَنَةٌ، بحر، جراد، وَقَمَلٌ يد، ودم، بعد الضفادع، طوفانُ  
﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾، أي: أرسلناك بها، أو اذهب بها إلى فرعون وقومه.  
﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾، أي: خارجين عن طاعة الله، بشرهم وعتوهم وعلوهم  
على عباد الله، واستكبارهم في الأرض بغير الحق، وإنكارهم ربوبية الله تعالى وإلهيته،  
واعتقادهم ربوبية فرعون وإلهيته.

فذهب موسى عليه السلام بهذه الآيات إلى فرعون وقومه، وأراهم إياها، ودعاهم  
إلى الله تعالى؛ ولهذا قال:

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾، أي: ظاهرة بينة واضحة وضوح الشمس في  
وسط النهار، دالة على صدق موسى وصحة ما جاء به.

﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، أي: قالوا مكابرة وعنادًا: هذا سحر بين ظاهر.  
كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾  
[الأعراف: ١٣٢].

وكما قال غيرهم؛ قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ  
مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢].

﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾، أي: وكفروا وكذبوا بها، وأنكروها ظاهرًا.  
﴿وَأَسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾، الجملة: حالية، أي: وقد استيقنتها أنفسهم، والسين والتاء  
للمبالغة، أي: أيقنت وصدقت بها أنفسهم باطنًا، تصديقًا جازمًا أنها حق من عند الله.  
وأضاف الاستيقان إلى الأنفس؛ لأنه أبلغ من لو قيل: واستيقنتوها.

﴿ظُلْمًا﴾؛ مصدر في موضع الحال، أي: ظالمين، أو مفعول لأجله، أي: لظلمهم  
والظلم: الاعتداء، أي: ظلماً منهم؛ لجحودهم الآيات وردّها، مكابرة وعنادًا؛ كما قال

تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْمُونَ﴾ [الأعراف: ٩].  
 وأصل الظلم: النقص، ووضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان، فظلموا  
 أنفسهم وغيرهم برد الحق وتكذيبه وتكذيب من جاء به.  
 ﴿وَعُلُوًّا﴾؛ معطوف على ﴿ظُلْمًا﴾، والعلو: التكبر، أي: وتكبراً عن الانقياد  
 للحق، وعلى الخلق، والتقدير: وجحدوا بها ظلماً وعلوًّا، وجملة «واستيقنتها أنفسهم»  
 اعتراض؛ للتشنيع عليهم في جحدهم بها مع أن أنفسهم استيقنتها.  
 ﴿فَانظُرْ﴾، أي: فانظر يا محمد، ويا أيها الناظر، أي: انظر نظر اعتبار، وأبصر  
 وتأمل ﴿كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾، أي: كيف كان سوء عاقبة المفسدين ونهايتهم؛  
 أن دمرهم الله وأهلكهم بالغرق، وأورث ديارهم المستضعفين من عباده.  
 وفي هذا تحذير وتهديد للمكذبين للنبي ﷺ، ولآيات القرآن والكتاب المبين.

### الفوائد والأحكام:

١- تذكير النبي ﷺ وأُمَّته ببداية بعثة موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه، وما  
 أعطاه الله تعالى من الآيات والمعجزات، وتكذيبهم له؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ  
 إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا سَاءَتِ كُفْرُهَا بِخَيْرٍ أَوْ آتَاكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾ الآيات.  
 ٢- حسن خلق موسى عليه السلام في تعامله مع أهله ومراجعته إياهم فيما يهمهم  
 جميعاً.

٣- أن زوجة الرجل من أهله، فعلى هذا يدخل في أهل بيته ﷺ أزواجه، وفي هذا  
 رد على الرافضة- أخزاهم الله- الذين ينفون ذلك؛ ليقعوا في أزواجه ﷺ، ويتهموا  
 عائشة رضي الله عنها.

٤- في قول موسى عليه السلام: ﴿سَاءَتِ كُفْرُهَا بِخَيْرٍ﴾ دلالة على أنه عليه السلام  
 قد ضل الطريق في مسيره؛ كما ذكر ذلك المفسرون؛ كما أن في قوله: ﴿أَوْ آتَاكُمْ بِشِهَابٍ  
 قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ ما يدل على أن ذلك كان في ليلة باردة.

٥- جواز اتخاذ الأسباب الواقية من البرد ونحوه.

٦- مناداة الله تعالى لما أتى موسى النار: أنه عز وجل بارك من في النار ومن حولها؛  
 لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

٧- تنزيه الله تعالى عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين، لقوله تعالى: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

٨- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.  
٩- مناداة الله تعالى لموسى عليه السلام، وبيانه له أن الذي يخاطبه هو الله المستحق للعبادة وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿يَمُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

١٠- إثبات الكلام لله تعالى وتكليمه لموسى، وأنه عز وجل يتكلم بصوت يسمع، وليس كلامه معنى قائماً بالنفس، كما يقول أهل البدع الذين ينفون عن الله صفة الكلام.  
١١- إثبات ألوهيته عز وجل وحده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

١٢- إثبات اسميه عز وجل: «العزیز» و«الحكيم»، وصفة العزة والقوة، والحكم التام، والحكمة البالغة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

١٣- أمره عز وجل لموسى بإلقاء عصاه، وانقلابها حية، آية من آيات الله تعالى الدالة على تمام قدرته، ومعجزة موسى دالة على صدقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ الآية.

١٤- خوف موسى عليه السلام وفراره هارباً بلا رجعة لما رآها تهتز كأنها حية؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَلَّى مُدَبِّرًا وَلَهُ يَعْقِبُ﴾؛ وهذا من مقتضى طبائع البشر.

١٥- طمأنة الله عز وجل له وتأمينه له؛ لقوله تعالى: ﴿يَلْمُوسَىٰ لَا يَخَفُ﴾.  
١٦- أن المرسلين لا يخافون لديه عز وجل؛ لحفظه لهم، وعنايته بهم، وعصمته لهم من كل سوء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيْ الْمُرْسَلِينَ﴾.

١٧- في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيْ الْمُرْسَلِينَ﴾ بشارة لموسى عليه السلام باصطفائه تعالى له للرسالة.

١٨- أن الحسنات يذهبن السيئات، فمن ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء- بأن تاب وأناب إلى الله تعالى- فإن الله يغفر له ويرحمه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وفي هذا دلالة على عظيم فضله عز وجل، ومغفرته ورحمته، وبشارة للتائبين.

١٩- إثبات صفتي المغفرة والرحمة الواسعتين لله عز وجل.

٢٠- أمره عز وجل لموسى عليه السلام بإدخال يده في جيبه تخرج بيضاء من غير برص ولا عيب، آية أخرى من آيات الله تعالى الدالة على كمال قدرته عز وجل، ومعجزة دالة على صدق موسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَةً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾.

٢١- الاحتراز في الكلام مما يوهم؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾.

٢٢- إرساله عز وجل موسى بهاتين الآيتين وغيرهما من الآيات التسع إلى فرعون وقومه لدعوتهم إلى توحيد الله تعالى، وترك ما هم عليه من الفسق والخروج عن طاعة الله تعالى، بالشرك والعتو والعلو على عباد الله، والاستكبار في الأرض بغير الحق، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا فٰسِقِينَ﴾.

٢٣- شدة عنادهم؛ لوصفهم ما جاءهم به موسى من الآيات البينات بالسحر المبين؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (١٣).

٢٤- كفرهم بآيات الله ظاهراً، مع استيقان صدقها وصحتها في أنفسهم باطناً؛ ظلماً منهم، وتكبراً عن الحق، وعلى الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾.

٢٥- ذم الظلم والعلو، ووجوب الحذر منهما؛ لما فيها من الاعتداء ورد الحق والتكبر على الخلق.

٢٦- الحث على النظر والتأمل في سوء عاقبة المفسدين بالشرك والظلم والعلو في الأرض، وغير ذلك كفرعون وقومه، وما حل بهم من الهلاك بالغرق وغيره؛ لأخذ العبرة والعظة، وفي هذا تحذير وتهديد للمكذبين للنبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.



قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْخَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرَّثَ سُلَيْمَانَ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحَشَرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمَلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمُ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانَ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾:

بعدما ذكر بعثة موسى عليه السلام، وإرساله إلى فرعون، وما أعطاه الله من الآيات والمعجزات، أتبع ذلك بذكر ما أعطاه لداود وسليمان من العلم والنبوة والملك.

قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾؛ نكر «علمًا» للتعظيم، أي: والله لقد أعطينا داود وسليمان علمًا عظيمًا كثيرًا، وهو علم النبوة والرسالة والحكمة.

وفي هذا تنويه بمنته عز وجل على داود وسليمان بما آتاهما من العلم الواسع، والحكم والحكمة؛ كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨-٧٩].

﴿وَقَالَ الْخَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي: وقال اعترافًا بنعمة الله تعالى عليهما، وشكرًا له عليها:

﴿الْخَمْدُ لِلَّهِ﴾ وحده، ﴿الَّذِي فَضَّلَنَا﴾؛ بالنبوة والعلم والحكمة.

﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ بجعلنا من خواص المؤمنين وأفضلهم؛ وهم الأنبياء والرسل عليهم السلام.

﴿وَوَرَّثَ سُلَيْمَانَ دَاوُدَ﴾ الآية: امتدح الله داود وسليمان مشتركين بذكر ما آتاهما من العلم، وبثنائهما على الله تعالى وشكرهما، ثم ذكر ما خص به سليمان من عظيم العلم والحكمة والملك والفضل.

أي: وخلف سليمان أباه داود في النبوة والعلم والملك، وليس في وراثته المال؛ لأن

داود له أولاد كثيرون، فلو كان المراد وراثته المال لم يخص سليمان وحده من دونهم. وأيضًا: فإن الأنبياء لا تورث أموالهم؛ كما قال ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث؛ ما تركنا صدقة»<sup>(١)</sup>.

﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، أي: وقال سليمان مخبرًا بما وهبه الله له، وما خصه به من الملك التام والتمكين العظيم على سبيل الشكر لله، وكمال الاعتراف بنعمه، والتحدث بها: ﴿عُلِّمْنَا﴾، أي: علمنا الله عز وجل.

﴿مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾، أي: فهم كلامها وقولها، ومعرفة أصواتها ولغتها؛ ولهذا راجع عليه السلام الهدهد وراجعه، وفهم قول النملة للنمل، وهذا مما خصه الله به، ولم يكن لأحد غيره.

﴿وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ من النعم، وأسباب الملك، ومن السلطة والقهر، وتسخير الإنس والجن والطيور والرياح، وغير ذلك، مما لم يؤت لغيره؛ كما قال: ﴿رَبِّ أَغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيْطَانَ كُلَّ بَتَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴿٣٧﴾ وَعَآخِرِينَ مُقَرَّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ [ص: ٣٥-٣٩].

﴿إِنَّ هَذَا﴾؛ الإشارة لما علمه الله إياه من منطق الطير، ولما آتاه من كل شيء.

﴿لَهُوَ الْفَضْلُ﴾؛ اللام: للتوكيد، و«الفضل»: الزيادة من الخير والنعم.

﴿الْمُيِّنُ﴾؛ البين الواضح، الظاهر الجلي لله تعالى علينا.

﴿وَحَشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ﴾، أي: جمعوا له، ﴿مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ﴾.

قيل: وركب سليمان فيهم في أبهة وعظمة، يليه الإنس، ثم الجن بعدهم، والطيور فوق رأسه تظله بأجنحتها.

﴿فَهَرَّ يُوزَعُونَ﴾، أي: يجبس ويرد أولهم على آخرهم، حتى يجتمعوا ويتنظموا، ثم

يساقون، ولا يتقدم أحد عن منزلته؛ لتظهر عظمة الجيش.

(١) سبق تخرجه.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا﴾، أي: حتى إذا أتى سليمان وجنوده، ﴿عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾؛ قد يراد به الجنس؛ لأن للنمل شقوقاً ومسالك هي بالنسبة لها كالأودية للسالكين من الناس. ويجوز أن يكون المراد به مكاناً مشتهراً بهذا الاسم؛ كما يقال: وادي السباع، ونحو ذلك.

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ جواب «إذا»، أي: قالت منبهة لرفقتها وبني جنسها بعد أن أدركت قرب وصول سليمان وجنوده إليهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾، أي: ادخلوا بيوتكم لا يهلكنكم سليمان وجنوده. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: وهم لا يشعرون ولا يعلمون بذلك. وهذا اعتذار منها لسليمان وجنوده.

وفي هذا آية من آيات الله تعالى وبديع صنعه في النمل، التي عظم الله شأنها بقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ الآية؛ فإن هذه النملة ألهمها الله استفتاح خطابها بالنداء الذي يسمعه ويفهمه من خاطبته، وأدركت خطورة مرور جيش سليمان وجنوده، فحذرت النمل أن تصيبهم معرفة الجيش، وعرفت اختصاص كل طائفة منهم بمسكن، واعتذرت عن سليمان وجنوده بقولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وقد ضمنت كلامها هذا نداء وتنبها؛ بقولها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ﴾، وأمراً وإرشاداً بقولها: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾، وتحذيراً بقولها: ﴿لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾، وتعديراً بقولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ فسبحان العليم الحكيم الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى!

قال ابن القيم: «ومن عجيب هدايتها: أنها تعرف ربها بأنه فوق سمواته على عرشه، واستدل بما روي أن سليمان عليه السلام خرج يستسقي، فإذا هو بنملة مستلقية على ظهرها، رافعة قوائمها إلى السماء، وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك، ولا غنى بنا عن سقياك، وإلا تسقنا تهلكنا. فقال: ارجعوا فقد أسقيتم بدعوة غيركم»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» ٨٣، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٢٨٥٨/٩، عن زيد العمي، عن أبي الصديق الباجي، وذكره ابن كثير ١٥١٤/٦، وانظر: «بدائع التفسير» ٣/٣٣٥-٣٣٦.

وقد صارت هذه المقالة: «سقيتم أو كفيتم بدعوة غيركم» مثلاً.  
وقد ذكر من عجائب ما ألهمه الله تعالى هذه المخلوقات الصغيرة «النمل»: أنها  
تخزن في الصيف طعام الشتاء؛ لتعذر جمعه في الشتاء، وإذا أصابه بلل من مطر وغيره،  
أخرجته ونشرته على ظهر الأرض، فإذا يبس أدخلته؛ لثلا ينبت ويتلف.  
وأنها تشم الطعام من مكان بعيد، وتدرك بالشم ما لا يدركه غيرها بالبصر  
والسمع، لو أخذت غصن كزبرة يابس فأدنيته إلى أنفك لم تشم له رائحة، فإذا وضعت  
على الأرض أقبل النمل من مكان بعيد إليه فحملته.  
تأتي للسنبلة فشمها، فإن وجدتها حنطة قطعها ومزقتها وحملتها، وإن وجدتها  
شعيراً تركتها.

إذا لم تستطع الواحدة منهن حمل ما وجدته من طعام استنجدت بأخواتها، فجئن  
سرباً كالحيط الأسود فحملنه جميعاً، تجتهد كل واحدة منهن في العمل للمصلحة  
العامّة، غير مختلصة شيئاً لنفسها.

ليس هن قيادة واحدة كالنحل، لكن هن رائد لطلب الرزق، فإن وجده أخبرهن  
وتعاون على حمله، إلى غير ذلك مما قيل من عجائب النمل<sup>(١)</sup>؛ مما يدل على عظمة الخالق  
الذي أعطى كل شيء خلقه، ثم هدى.

﴿فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾، أي: سمع قولها وفهمه، ﴿فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾، أي: ضحك مبتسماً؛ إعجاباً منه بنصحها وتحذيرها لبني جنسها، وحسن تعبيرها، واعتذارها عنهم بقولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. وهكذا كان ضحك الأنبياء عليهم السلام: التبسم. وفي الحديث: «ما ضحك رسول الله ﷺ إلا تبسماً»<sup>(٢)</sup>.

لأن القهقهة تدل على خفة العقل وسوء الأدب.  
﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾؛ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به ثانٍ لـ «أوزعني»، أي: يا رب أوزعني، أي: وفقني وألهمني شكر

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٣٣ - ٣٣٧.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب ٢٦٤٢؛ من حديث عبدالله بن الحارث بن جَزْرِ رضي الله عنه، وقال: «صحيح غريب».

نعمتك الدينية والدنيوية.

﴿الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾، أي: التي أنعمتها عليّ وعلى والديّ من الهداية للإسلام، والتوفيق للإيمان، وغير ذلك.

والنعمة على الوالدين نعمة على الولد.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا﴾ معطوف على قوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾، أي: وأوزعني ووفقني وأهمني أن ﴿أَعْمَلَ صَالِحًا﴾، أي: أن أعمل عملاً صالحاً، خالصاً لوجهك، موافقاً لشرعك، ﴿تَرْضَاهُ﴾ عني وتحبه، وتقبله مني.

﴿وَأَدْخَلَنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾، أي: وأدخلني برحمتك - لا بعلمي - الجنة في جملة عبادك الصالحين.

### الفوائد والأحكام:

١- امتنان الله عز وجل على داود وسليمان بما آتاهما من العلم والنبوة والرسالة، وبيان فضله تعالى عليهما في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾.

٢- فضيلة داود وسليمان عليهما السلام؛ لعظم ما آتاهما الله عز وجل من العلم، وثنائهما على الله عز وجل، وشكرهما على تفضيله إياهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٣- أن من توفيق الله تعالى العبد وعنوان سعاده: أن يكون شاكرًا للربه، معترفًا له بجميع نعمه الدينية والدنيوية؛ ولهذا قال بعض السلف: توفيق الله للحمد على النعمة أفضل من النعمة ذاتها.

٤- فضيلة العلم وأهله العاملين به بالذليل له.

٥- أن الحمد المطلق التام لله عز وجل وحده.

٦- أن الشكر يكون بالقول، كما يكون بالقلب والعمل.

٧- أن الفضل والنعم من الله يؤتي ذلك من يشاء؛ لقول داود وسليمان: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وقول سليمان: ﴿عُلِّمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾، وقوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾.

٨- يجب على العبد أن يحمد الله ويشكره على نعمه وفضله عليه.  
 ٩- جواز أن يذكر الإنسان مرتبته في العلم، ويذكر نعمة الله عليه في ذلك وفي غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.  
 وقول سليمان: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ عُلْمًا مِّنَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُمِينُ﴾، وقوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾، إذا كان ذلك من باب الشكر لله تعالى، والتحدث بنعمته، أو تحذير الناس من الاغترار بمن ليست له أهلية العلم، أو غير ذلك، وقد قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» (١).

١٠- إثبات عبودية المؤمنين لله تعالى عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وقوله: ﴿فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾.

١١- وراثه سليمان العلم والنبوة والملك عن داود عليهما السلام، وإضافة سليمان علم أبيه داود إلى علمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾.

١٢- تنويه سليمان عليه السلام بتعليم الله إياه منق الطير، وإيتائه من كل شيء، واعترافه بفضل الله تعالى البين الظاهر عليه؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ عُلْمًا مِّنَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُمِينُ﴾.

١٣- أن الطير تنطق، ونطقها مفهوم ومعلوم فيما بينها، ولمن علمه الله إياه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ، وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

١٤- عظمة جيش سليمان عليه السلام، وقوته، وكثرة جنوده من الجن والإنس والطير، وجمعه لهم، ومسيره بهم في أبهة وعظمة، بانتظام وانضباط واثتار بأمره، لا يتقدم أحد عن منزلته؛ لقوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (١٧).

١٥- نداء النملة وأمرها للنمل وإرشادها لهم عند إتيان سليمان وجنوده على

(١) أخرجه الترمذي في التفسير ٣١٤٨؛ من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

واديهم بدخول مساكنهم حتى لا يحطمنهم الجيش، وهذا من عظيم قدرة الله تعالى، وتسخيره النمل لسليمان، إكراماً له وكرامة؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾.

١٦ - إضافة المكان إلى ساكنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذِ النَّمْلُ﴾.

١٧ - اعتذار النملة لسليمان وجنوده؛ لقولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

١٨ - تمام قدرة الله تعالى في جعل هذه النملة المخلوق الصغير تنطق بهذه الفصاحة والذكاء والنصح والتحذير والتعذير وغير ذلك.

١٩ - عدم جواز قتل النمل؛ لقولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: أنهم لو شعروا بها ما قتلوها، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «قرصت نبياً من الأنبياء نملة، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح؟ فهلا نملة واحدة؟»<sup>(١)</sup>.

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن النبي ﷺ نهى عن قتل أربع من الدواب: النملة، والنحلة، والهدهد، والصرد»<sup>(٢)</sup>.

لكن ما كان منها مؤذياً فإنه يقتل؛ كغيره من المؤذيات.

٢٠ - سماع سليمان عليه السلام لقولها، وفهمه له، وتبسمه ضاحكاً إعجاباً بقولها ونصحها وتحذيرها واعتذارها وحسن تعبيرها؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾.

٢١ - جواز التبسم والضحك عند وجود سببه.

٢٢ - في مقالة النمل وسماع سليمان وفهمه لها آية من آيات الله تعالى، ودلالة على تمام قدرته وبديع صنعه في مخلوقاته، وعظيم إفضاله على سليمان عليه السلام.

٢٣ - اعتراف سليمان عليه السلام بنعمة الله تعالى، وعدم اغتراره بذلك، ودعاؤه

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠١٩، ومسلم في السلام، قتل الحيات وغيرها، النهي عن قتل النمل ٣٢٤١، وأبو داود في الأدب ٥٢٦٦، وابن ماجه في الصيد ٣٢٢٥.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب قتل الذر ٥٢٦٧، وابن ماجه في الصيد، ما ينهى عن قتله ٣٢٢٤.

ربه أن يلهمه شكر نعمته التي أنعمها عليه وعلى والديه، وأن يعمل صالحًا يرضى به عز وجل ويحبه ويتقبله منه، وأن يدخله الجنة في جملة عباده الصالحين؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾.

- ٢٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لسليمان عليه السلام؛ لقوله: ﴿رَبِّ﴾.  
 ٢٥- أن التوفيق بيد الله عز وجل؛ لقوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾.  
 ٢٦- حاجة الأنبياء كغيرهم الى توفيق الله، وسؤال الله تعالى ذلك، وفي هذا رد على القدرية الذين يرون استقلال الإنسان بعمله، وعدم حاجته إلى عون الله وتوفيقه.  
 ٢٧- أن النعمة على الوالدين نعمة على الولد، وأن النعم كلها من الله عز وجل وحده.

٢٨- أن العمل إنما يقبل إذا كان صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه، مرضيًا عنده عز وجل.

٢٩- الرد على الجبرية في زعمهم أن العبد مجبر على فعله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا﴾، فأضاف العمل إلى نفسه واختياره.

٣٠- إثبات صفة الرحمة لله عز وجل، وأن من أعظم رحمته الجنة؛ كما قال تعالى في الحديث القدسي مخاطبًا لها: «أنت الجنة، رحمتي، أرحم بك من أشياء»<sup>(١)</sup>.

٣١- أنه لا أحد ينال مقصوده ويدخل الجنة، إلا برحمة الله تعالى، وفي الحديث: «لا يدخل أحدًا منكم عمله الجنة»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»<sup>(٢)</sup>.

- ٣٢- جواز التوسل بصفات الله تعالى؛ لقوله: ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾.  
 ٣٣- أن العبودية الخاصة لله تعالى أشرف المقامات، وأن منزلة الصالحين من

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٥٠، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٤٦؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تحريجه.

أعظم المنازل عند الله تعالى في الدنيا والآخرة.

٣٤- ينبغي سؤال الله عز وجل التوفيق لشكر نعمة الله تعالى، والعمل الصالح

الذي يرضي الله عز وجل، والدخول برحمته وجنته في عباده الصالحين.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿١٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي إِسْلَاطِنٌ مُّبِينٌ ﴿١١﴾ فَمَكَكَ عَيْرٌ بَعِيدٌ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴿١٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿١٤﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿١٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي إِسْلَاطِنٌ مُّبِينٌ ﴿١١﴾﴾: قوله: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾، أي: أجال نظره وبصره فيها، أو مشى بينها؛ ليعلم الحاضر منها والغائب، ويُنظّمها.

وهذا يدل على حزمه وعزمه، وتوليه بنفسه تدبير مملكته، وإشرافه التام على جنوده، وهكذا يجب على كل من تولى أمرًا من أمور المسلمين، صغيرًا كان أو كبيرًا. ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ﴾؛ الهدهد: نوع من الطير، فوق رأسه قزعة سوداء، أسود البرائن، أصفر الأجنان، يقتات الحبوب والدود.

قال ابن القيم: «وهذا الهدهد من أهدى الحيوان وأبصره بمواضع الماء تحت الأرض، لا يراه غيره»<sup>(١)</sup>.

وقد روي عن عكرمة، قال: سئل ابن عباس: كيف تفقد سليمان الهدهد بين الطير؟ قال: «إن سليمان نزل منزلاً، فلم يدر ما بعد الماء، وكان الهدهد مهندسًا، فأراد أن يسأله عنه ففقدته. قلت: وكيف يكون مهندسًا، والصبي يضع له الحباله فيغيبها فيصيده؟ قال: إذا جاء القدر حال دون البصر»<sup>(٢)</sup>.

وصحيح والله: أنه إذا جاء القدر عمي البصر.

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٣٨.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٩/ ٢٨٥٩، وانظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ١٩٥.

و«ما» في قوله: ﴿مَا لِي لَا أَرَى الْهَدَىٰ﴾: اسم استفهام، أي: أين الهدى؟ ولماذا لا أراه؟ هل هناك مانع منعي من رؤيته؟ وذكر هذا الاحتمال أولاً تقدماً لحسن الظن، ثم قال:

﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾؛ «أم»: هي المنقطة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أكان من الغائبين بدون إذني؟ وهذه معصية توجب عقابه، ولهذا توعد به بقوله:

﴿لَأَعَذِّبَنَّكَ وَعَذَابًا شَدِيدًا﴾؛ اللام: في المواضع الثلاثة: لام القسم لقسم مقدر، والنون في المواضع الثلاثة للتوكيد، أي: والله لأعذبه تعذيباً شديداً؛ لتغيبه بدون علمي وإذني، ومعصيته لي.

﴿أَوْ لَا أَدْبَحْنَهُ﴾؛ «أو» في الموضعين عاطفة، وتفيد معنى التقسيم، والتنويع، أي: إما هذا، أو هذا، والمعنى: لأذبحه بقطع الحلقوم والمريء من عند رقبتك، وهذا يدل على شدة غضبه وتغيظه على الهدى.

﴿أَوْ لِيَأْتِيَنَّيَ﴾؛ قرأ ابن كثير بنونين الأولى مفتوحة مشددة، والثانية مكسورة مخففة: «لِيَأْتِيَنَّيَ»، وقرأ الباقون بنون واحدة مكسورة مشددة: «لِيَأْتِيَنَّيَ».

أي: أو ليأتيني ﴿بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، أي: بحجة بيّنة وبرهان واضح، وعذر بيّن ظاهر، يُبرر سبب تغيبه، فينجو من العقاب.

وهذا يدل على ورع سليمان عليه السلام؛ إذ لم يقسم على مجرد عقوبته مطلقاً؛ لاحتمال كونه معذوراً؛ كما يدل على التزام جميع جنوده من الطير وغيرها بطاعته، وعدم الخروج عن أمره، وعدم تغيب أحد منها إلا بعلمه وإذنه، ووجوب طاعتها له طاعة خاصة؛ لتسخير الله إياها له.

قوله تعالى: ﴿فَمَكَكَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴿٢٠﴾ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢١﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّجَلُونَ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٣﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ

الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٦٧﴾:

قوله: ﴿فَمَكَتْ عَيْرَ بَعِيدٍ﴾؛ قرأ عاصم وروح بفتح الكاف: ﴿فَمَكَتْ﴾، وقرأ الباقون بضمها: «فَمَكَّتْ».

أي: فمكت الهدهد بعد تفقد سليمان للطير وسؤاله عنه، أي: لبث زمناً يسيراً غير طويل، ثم جاء، وهذا يدل على هيبة جنوده منه، وشدة ائتمارهم بأمره، واهتمامهم بأعمالهم. ﴿فَقَالَ﴾ لسليمان مبادراً ببيان سبب غيابه بخطابٍ مهيجٍ على الإصغاء إليه والقبول: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾، أي: اطلعت وأحطت علماً وخبراً بالذي لم تحط به، أو بشيء لم تحط به، ولم تطلع عليه؛ كقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٨].

﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنْتًا يَاقِينٍ﴾؛ قرأ أبو عمرو والبزي بفتح الهمزة من غير تنوين: «سَبَأً»، وقرأ الباقون بالخفض والتنوين: ﴿سَبَإٍ﴾. أي: من قبيلة سبأ وحير ملوك اليمن، ومن ديارهم «مأرب» على ثلاثة أميال من صنعاء.

﴿بِنْتًا﴾؛ النبا: الخبر الهام الخطير، أي: بخبر هام، له شأن عظيم، تتطلع النفوس إلى معرفته، ﴿يَاقِينٍ﴾، أي: حق وصدق وجزم، لا شك فيه ولا ريب. ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمَلِكُهُمْ﴾؛ تفسير للنبا، ونكر «امرأة» ولم يقل: ملكة، للتعجب من كون ملكتهم امرأة، وهي: بلقيس بنت شراحيل.

﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾، أي: وأعطيت من كل شيء من المقومات، مما يحتاج إليه الملك المتمكن من الجنود والسلاح والعتاد والقلاع والحصون، ومن النعم والمتاع والخيرات؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِهُمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدًا طَيِّبَةً وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥].

﴿وَلَهَا عَرْشٌ﴾؛ وهو سرير ملكها وكرسيها الذي تجلس عليه.

﴿عَظِيمٌ﴾، أي: هائل مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر واللآلئ؛ من الياقوت والزبرجد وغير ذلك.

﴿وَجَدْتُمَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؛ حذف أداة العطف من هذه الجملة، وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها؛ إيداناً بأنها هي المقصودة، وما قبلها توطئة؛ لأن فيها الإخبار بما هم عليه من عبادة الشمس والشرك بالله؛ مما يوجب دعوتهم إلى الله، وقتالهم إن لم يؤمنوا<sup>(١)</sup>، أي: وجدتها وقومها مشركين بالله، يسجدون للشمس ويعبدونها من دون الله.

قيل: كان عرشها في قصر عظيم محكم رفيع البناء، وكان فيه ثلاثمائة وستون طاقة من شرقه، ومثلها من غربه، قد وضع بناؤه على أن تدخله الشمس كل يوم من طاقة، وتغرب من مقابلتها، فيسجدون لها صباحاً ومساءً<sup>(٢)</sup>.

﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَعْمَلَهُمْ﴾، أي: وحسن لهم الشيطان أعمالهم السيئة التي هم عليها؛ من عبادة الشمس والشرك بالله، وغير ذلك، فأوأ أنهم على الحق.

﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾، أي: عن الطريق المستقيم.  
﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾؛ للسجود لله وسلوك طريق الحق؛ لأنهم يرون أن ما هم عليه من الضلال هو الهدى.

وهذه مصيبة أعظم من مصيبة ضلالهم؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨].  
وكما قيل:

يقضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن<sup>(٣)</sup>

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾؛ قرأ أبو جعفر والكسائي ورويس بتخفيف اللام: «أَلَّا»، وقرأ الباقر بتشديدها: ﴿أَلَّا﴾، ومعناها: الحث والتضيض، أي: هلا يسجدوا لله، أو التعليل، أي: زين لهم الشيطان أعمالهم فصدتهم عن السبيل لئلا يسجدوا لله. والمراد: إنكار سجودهم لغير الله، وأمرهم بالسجود لله وحده.

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/٣٣٨.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/١٩٧.

(٣) انظر: «روح المعاني» (١/١٥٦).

وهذه الآية من مواضع السجود في القرآن، فيها الأمر بالسجود، والذم لتاركه. ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْحَبَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: يخرج ويظهر المخبوء في السموات والأرض؛ مما ينزل من السماء من المطر والأرزاق والأقذار وغير ذلك. وما يُخرج من الأرض من الماء والنباتات والمعادن، والأموات يوم المعاد، وغير ذلك، ويعلم سبحانه كل خبيثة في السماء والأرض.

قال ابن القيم: «وفي ذكر الهدهد هذا الشأن من أفعال الرب تعالى بخصوصه؛ إشعار بها خصه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الأرض»<sup>(١)</sup>.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾؛ قرأ الكسائي وحفص بالخطاب: ﴿مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، وقرأ الباقون بالغيب: ﴿مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

أي: يعلم الذي تسرون وتضمرون، والذي تظهرون وتبدون من الأقوال والأفعال؛ كما قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠].  
﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

بعدما بين تفرده عز وجل بالربوبية بقوله: ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْحَبَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، أتبع ذلك بذكر تفرده بالألوهية، فقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى.

﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾؛ الذي هو أعظم المخلوقات وأكبرها وأوسعها، وسقفها وأعلاها وأجملها، و«ال» للعهد الذهني، أي: العرش المعهود في الأذهان؛ والخلق العظيم، بخلاف عرش بلقيس؛ ولهذا قال: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ بالتنكير، وإذا كان عز وجل رب العرش الذي هو أعظم المخلوقات وأكبرها وأوسعها وأعلاها، فربوبيته لما دونه من باب أولى.

### الفوائد والأحكام:

١ - حزم سليمان عليه السلام في ملكه؛ لتفقدته لجنوده بنفسه، وإشرافه على تدبير

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٣٨، وانظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ١٩٨.

وتنظيم أمور رعيته وأحوال مملكته وتنظيمها، وهكذا يجب على كل من يتولى أمرًا من أمور المسلمين صغيرها وكبيرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ الآية.

٢- تسخير الطير له عليه السلام، وتبوؤ الهدهد مكانة بينها، وفقدانه له لما تفقدها؛ لقوله: ﴿مَا لِي لَأَأْرَى أَلْهَدُّهُدَ﴾ الآية.

٣- تقديمه عليه السلام حسن الظن بالهدهد لما فقده؛ لقوله: ﴿مَا لِي لَأَأْرَى أَلْهَدُّهُدَ﴾، وذلك من وجهين؛ الأول: أنه قدم هذه الجملة على قوله: ﴿أَمَرَ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾، الثاني: أن هذه المقالة فيها شيء من الاعتذار عن الهدهد؛ لاحتمال أنه لم يقع عليه بصره لمانع منعه من رؤيته، ونحو ذلك.

٤- توعده الهدهد وتهديده إياه بالعذاب الشديد أو القتل، ما لم يأت بعذر يبرر غيابه؛ لقوله عليه السلام: ﴿لَأَعَذِّبَنَّهٗ، عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهٗ أَوْ لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (١١).

٥- ورعه عليه السلام؛ حيث لم يقسم على مجرد عقوبته مطلقًا؛ لاحتمال كونه معذورًا.

٦- التزام جميع جنوده من الطير وغيرها بطاعته، وعدم الخروج عن أمره، وعدم تغيب أحد منها إلا بعلمه وإذنه، ووجوب ذلك عليهم له عليه السلام، وإلا لما جاز معاقبة الهدهد على تغيبه.

٧- مجيء الهدهد بعد زمن يسير من تواعد سليمان له، ومبادرته بذكر سبب تغيبه بخطاب مهيج على الإصغاء إليه والقبول منه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ مَحْضُ بِهِ﴾ الآية.

٨- شدة هيبه جنود سليمان له، واثمارهم بأمره واهتمامهم بأعمالهم؛ لقوله: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾، فمع عذر الهدهد في غيابه لم يقدر على التخلف زمنًا كثيرًا.

٩- أن سليمان عليه السلام وإن أعطي ملكًا عظيمًا لم يعطه أحد فهو لا يحيط بكل شيء ولا يخرج عن قوله عز وجل في وصف الإنسان: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (٢٨).

[النساء: ٢٨]، وغيره من باب أولى.

ولهذا فهو عليه السلام لم يعلم بأخبار سبأ وملكتهم وملكها العظيم، وما هي عليه هي وقومها من عبادة الشمس والشرك بالله؛ لأنه لم يعترض على قول الهدهد: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ الآية.

١٠- قوة هذا الهدهد في مخاطبة سليمان ذي الملك العظيم بقوله: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾؛ وذلك لأنه محق، وهذا كما قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣]، وقد تلطف كل منهما في مقالته فلم يقل الهدد لسليمان: إنك جاهل لا تدري، ولم يقل ذلك إبراهيم لأبيه.

١١- أن الأصل في مخاطبة المفرد أن تكون بضمير الأفراد، وحسب حاله، مهما علت مرتبته في المجتمع؛ ملكًا كان أو وزيرًا أو أميرًا أو عالمًا، ولا يلزم أن تكون بضمير التعظيم والجمع؛ نحو: جئتكم وأتيتكم، ونحو ذلك، ولم يكن هذا معهودًا في مخاطبة النبي ﷺ ولا في مخاطبة الصحابة له، ولا عند سلف الأمة.

١٢- إخبار الهدهد سليمان عن مجيئه من سبأ بنباً يقين، فيه ما يثير العجب، وهو أن امرأة تملكهم، وأوتيت من كل شيء، ولها عرش عظيم، وفيه ما يجب إنكاره عليهم، وهو كونهم مشركين يعبدون الشمس من دون الله؛ مما يوجب دعوتهم إلى الله، وقتالهم إن لم يسلموا؛ لقوله: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنْتًا يَاقِينٍ﴾ [٢٢] ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمَلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [٢٣] وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية.

١٣- تأكيد الهدهد صدق خبره وأهميته بقوله: ﴿بِنْتًا يَاقِينٍ﴾، وقوله: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمَلِكُهُمْ﴾.

١٤- أن ولاية الأمور الكبرى في المسلمين لا يجوز أن تكون في النساء؛ لهذا تعجب الهدهد من كون امرأة تملك سبأ؛ لقوله: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمَلِكُهُمْ﴾، وقد قال نبينا ﷺ: «لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»<sup>(١)</sup>.

وهذا لا ينافي أن تتولى المرأة مناصب قيادية بين النساء في الأعمال التي لا يقوم بها

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤٢٥)، والنسائي في آداب القضاة (٥٣٨٨)، والترمذي في الفتن (٢٢٦٢)، من حديث أبي بكر رضي الله عنه.

سواهن، كالتعليم، والتطبيب الخاص بالنساء، ونحو ذلك.

١٥- عظم ملك ملكة سبأ، وعظم عرشها؛ لقوله: ﴿وَأَوْتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾.

١٦- أن الهدف المقصود من كل ما ذكره الهدهد لسليمان: هو بيان ما كانت عليه ملكة سبأ وقومها من عبادة الشمس والشرك بالله؛ لقوله: ﴿وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية، بحذف حرف العطف، فدل على أن كل ما قبل هذا توطئة له.

١٧- تحريم السجود للشمس وغيرها من المخلوقات من دون الله؛ لأن ذلك أعظم الشرك بالله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧].

١٨- أن الخلق كلهم مفطورون على التوحيد، وإنكار الشرك؛ لأن الهدهد أنكر عليهم شركهم، مع أنه ليس من العقلاء وصدق الله العظيم: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

وبهذا صار المشركون بالله هم شر البرية وأضل من الأنعام كما ذكر الله عز وجل.

١٩- إثبات الاختيار للإنسان والرد على الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، وهذا بمحض اختيارهم.

٢٠- تحسين الشيطان لهؤلاء المشركين وأمثالهم أعمالهم، وصدده لهم عن الصراط المستقيم؛ مما يوجب الحذر منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾.

٢١- أن سبيل الله وصراطه واحد؛ لقوله: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾.

٢٢- أن من زين له الشيطان عمله الباطل، وما هو عليه من الضلال، فرأى أنه على حق وهدى، فالغالب أنه لا يهتدي إلى الحق؛ لانطماس بصيرته؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

٢٣- إنكار الهدهد عليهم عدم السجود لله تعالى؛ لقوله: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ الآية.

قال ابن كثير<sup>(١)</sup>: «ولما كان الهدهد داعياً إلى الخير وعبادة الله وحده والسجود له، نهي عن قتله، وذكر الحديث: «نهى النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب: النملة، والنحلة، والهدهد، والصرد»<sup>(٢)</sup>.

٢٤- وجوب عبادة الله تعالى والسجود له وحده، الذي يخرج كل مخلوق في السموات والأرض، ذي العلم الواسع، والذي لا معبود بحق سواه، رب العرش العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٥٠﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٥١﴾﴾.

٢٥- سعة علم الله تعالى، وعلمه بالسر والعلانية، مما يوجب مراقبته عز وجل.

٢٦- أنه لا يجوز السجود والتعبد لغير الله؛ لأنه لا معبود بحق إلا الله، وهو رب العرش العظيم، ورب جميع المخلوقات.

٢٧- إثبات ربوبية الله تعالى للعرش العظيم، وربوبيته لما دونه من المخلوقات أولى؛ لقوله: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

٢٨- الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، فمن لازم إفراد الله عز وجل بالربوبية: إفراده بالألوهية وحده لا شريك له.

٢٩- إثبات العرش، وأنه أعظم المخلوقات.

\* \* \*

(١) في «تفسيره» ١٩٦/٦.

(٢) أخرجه أحمد ١/٣٣٢، ٣٤٧؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بإسناد صحيح. وأخرجه أبو داود في الصيد، باب قتل الذر ٥٢٦٧، وابن ماجه في الصيد، ما ينهى عن قتله ٣٢٢٣، وأخرجه أيضًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ٣٢٢٤.

قال الله تعالى: ﴿\* قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأُتُوْنِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوْا قُوَّةٍ وَأُولُوْا بِأَسْسٍ شَدِيْدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا آذَنًا وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾\*.

قوله تعالى: ﴿\* قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأُتُوْنِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾\*:

قوله: ﴿\* قَالَ﴾، أي: قال سليمان للهدهد: ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ﴾؛ السين: حرف استقبال، وتفيد التحقيق، والهمزة للاستفهام، أي: ستأمل أصدقت فيما أخبرت به عن سبأ ومملكتهم، وما هم عليه من السجود للشمس من دون الله. ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾؛ «أم» هي المتصلة، معادلة لهمزة الاستفهام، أي: أم كنت من الكاذبين في مقالتك؛ لتخلص من الوعيد والعقوبة؟

ولم يقل: أم كذبت تطفأً معه، كما في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿سَلَّمَ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الذاريات: ٢٥]، ولم يقل: أنكركم، وذلك من باب التلطف معهم. ﴿أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا﴾، أي: فكتب سليمان إلى بلقيس وقومها كتاباً، وأعطاه للهدهد وقال له: اذهب بكتابي هذا. وهذا يحتمل أنه من جملة اختباره له، ويحتمل أنه صدقه، وهو الأظهر.

﴿فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ﴾، أي: إلى بلقيس وقومها، ﴿ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ﴾، أي: تنحَّ عنهم قريباً، واستأخر عنهم غير بعيد، وتابعهم.

﴿فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾؛ «ماذا»: اسم استفهام، أو «ما»: اسم استفهام، و«ذا»: اسم موصول.

والمعنى: فانظر وتأمل واسمع ماذا يردون به من الجواب، من قبول أو رفض.  
﴿قَالَتَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا﴾، أي: فلما ذهب فألقاه إليهم، ﴿قَالَتَ﴾ بلقيس مخاطبة كبراء مملكتها وأشرفها وأمرائها ووزراءها:  
﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾، أي: عظيم، جليل القدر، أخذت ذلك - والله أعلم - من ختم سليمان عليه، ومن كون الطائر أتى به وألقاه إليها، ومما تضمنه مما أفصحت عنه بقولها: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣١﴾ أَلَّا تَعْلَمُوْا عَلَيَّ وَآتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

فقد افتتح بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»، وقد قيل: إنه لم يكتب أحد: «بسم الله الرحمن الرحيم» قبل سليمان، وأيضًا فقد كان غاية الإيجاز والبلاغة والفصاحة وقوة الأسلوب، وشدة التهديد والوعيد.  
﴿أَلَّا تَعْلَمُوْا عَلَيَّ﴾؛ «أن» تفسيرية، و«لا» ناهية، أي: لا تتكبروا علي ولا تتجبروا، ولا تمتنعوا من الانقياد لما دعوتكم إليه.

ويجوز كون «أن» مصدرية، و«لا» نافية، أي: أطلب ألا تعلوا علي، أو هو ألا تعلو علي، ﴿وَآتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، أي: منقادين، مستسلمين لله تعالى بالتوحيد، متبرئين من الشرك.  
قوله تعالى: ﴿قَالَتَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُوْنَ ﴿٣٢﴾﴾ قَالَوْا نَحْنُ أَوْلُوْا قُوَّةً وَأَوْلُوْا بِأَيِّ شَيْءٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ قَالَتَ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوْا قَرْيَةً أَفْسَدُوْهَا وَجَعَلُوْا أَعْزَةَ أَهْلِهَا أَدِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُوْنَ ﴿٣٤﴾﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

قوله: ﴿قَالَتَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾، أي: قالت لأشرف قومها بعد أن أخبرتهم بكتاب سليمان ومضمونه، وفهمت ما فيه من روح التحدي والتهديد، وأحست بخطورة الأمر: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾، أي: أشيروا علي في شأني ماذا أفعل؟ فإن الأمر خطير جد خطير.

﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُوْنَ﴾، أي: ما كنت قاضية ومستبدة بأمر وفاصلة به، وعازمة عليه، ﴿حَتَّى تَشْهَدُوْنَ﴾، أي: حتى تحضرون وأستشركم. وهذا يدل على حزمها ورجحان عقلها وحكمتها؛ لأنه ما ندم من استشار،

والمستشير يجمع إلى رأيه خلاصة آراء الآخرين، فيصل إلى أفضل النتائج، أو يعذر على الأقل، وقد أحسن القائل:

شاور سواك إذا نابتك نائبة      يوماً وإن كنت من أهل المشورات  
فالعين تنظر منها ما دنا ونأى      ولا ترى نفسها إلا بمراة<sup>(١)</sup>  
وقال الآخر:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن      برأي نصيح أو نصيحة حازم  
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة      فإن القوافي قوة للقوادم<sup>(٢)</sup>  
وقال حافظ إبراهيم في القصيدة العمرية<sup>(٣)</sup>:

يا رافعاً راية الشورى وحارسها      جزاك ربك خيراً عن محبيها  
رأي الجماعة لا تشقى البلاد به      رغم الخلاف ورأي الفرد يشقيها  
﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسِيسٍ شَدِيدٍ﴾، أي: قالوا لها إجابة على قولها:  
﴿أَقْتُونِي فِي أَمْرِي﴾: ﴿نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً﴾، أي: ذوو وأصحاب قوة وبأس شديد في  
الحرب، أي: بعددنا وعدتنا وشجاعتنا ومستعدون للقتال، ويلحظ من قولهم هذا  
اغترارهم بقوتهم وبأسهم، وتعريضهم للأخذ بأصعب الأمور وهو المجابهة والقتال،  
والذي لو حصل كان فيه دمارهم.  
قال المتنبي<sup>(٤)</sup>:

الرأي قبل شجاعة الشجعان      هو أول وهي المحل الثاني  
وقال عمرو بن معديكرب أو امرؤ القيس<sup>(٥)</sup>:

(١) البيتان للأرجاني. انظر: «ديوانه» (ص ٢٤٦).

(٢) البيتان لبشار بن برد. انظر: «ديوانه» (٤/١٧٣).

(٣) انظر: «ديوانه» (ص ٩١).

(٤) انظر: «ديوانه» (ص ١٣٩) بترقيم المكتبة الشاملة.

(٥) انظر: «ديوان عمرو بن معديكرب» (ص ١٢)، «ديوان امرئ القيس» (ص ١٤٩)، والأكثر على أن  
البيتين لعمر بن معديكرب. انظر: «العقد الفريد» (١/٨٦)، «الحجاسه البصرية» (١/١٨)، «الذخائر

الحرب أول ما تكون فُتِيَّةٌ      تبدو بزيتها لكل جهول  
حتى إذا حميت وشب ضرامها      عادت عجوزاً غير ذات خليل

ولكن من توفيق الله أنهم لم يستقروا على هذا الأمر؛ ولهذا قالوا لها:  
﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾، أي: والأمر مفوض إليك، وهذا من أدبهم معها، ردوا الأمر  
إليها، وهي التي استشارتهم.

﴿فَأَنْظِرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾؛ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، أي: فتأملي وتدبري  
ماذا تأمرين به؟ أو ما الذي تأمرين به؟ فنحن ممثلون لأمرك، جاهزون لتنفيذ ما تريه.  
وذلك لثقتهم بحزمها وحكمتها ورجحان عقلها.

﴿قَالَتْ﴾ لهم مبينة سوء مغبة القتال: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾، أي: إذا  
دخلوها عنوة وغلبة، ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ بالقتل والأسر، والنهب والسلب، وإهلاك الحرث  
والنسل، وتخريب البلاد، وإخافة العباد، وغير ذلك.

﴿وَجَعَلُوا أَعْرََّةَ أَهْلِهَا﴾، أي: وجعلوا أشراف أهلها وساداتهم ورؤساءهم  
﴿أَذِلَّةً﴾، أي: ذليلين صاغرين بقهرهم لهم، واسترقاقهم وأسرهم، وغير ذلك.

﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾؛ تأكيد لما وصفت من حال الملوك إذا دخلوا القرى عنوة،  
وتقرير له، بأن ذلك عادتهم المستمرة.

وقيل: إن هذا استئناف من كلام الله تعالى تصديقاً لقولها، وتقريراً له.

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾؛ عظيمة، مصانعة واحتياطاً وخدعة لهم.

﴿فَتَأْظِرُّهُ﴾، أي: فمتأملة ومدبرة، أو فمنتظرة ومرتقبة.

﴿بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ «ما»: استفهامية، أي: بأي شيء يرجعون، أي: بم يعود  
المرسلون من عنده؟ وماذا يكون جوابه؟ وهل يقبل هذه الهدية، ويعدل إلى المصالحة  
والمهادنة والمسائلة، أو يرد الهدية، ويستمر على رأيه، ويعزم على قتالنا؟ وهنا نرى رأينا.  
أي: أنه إن كان عنده طمع فإنه يقبل الهدية؛ لأنها غنيمة حاضرة باردة، وإن كان لا يريد

دنيا وإنما يريد أمرًا آخر، وهو دعوتنا إلى دينه، فلن يقبل الهدية؛ وهذا ما أراده فعلاً بقوله: ﴿أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

قال قتادة: «رحمها الله، إن كانت لعاقلة في إسلامها وشركها، قد علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس»<sup>(١)</sup>.

قال ابن كثير<sup>(٢)</sup>: «قال ابن عباس وغير واحد: إن قبل الهدية فهو ملك فقائلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه».

### الفوائد والأحكام:

١- حكمة سليمان عليه السلام، وتأنيه، وثبته في الأمور، والتزامه العدل، وتقديمه لحسن الظن؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾<sup>(٣)</sup>.

٢- وجوب الثبوت في الأمور، وفي قبول الأخبار وتصديقها.

٣- إرساله الهدهد بكتاب منه إلى سبأ يدعوهم فيه إلى الانقياد له، والدخول في الإسلام، يلقيه إليهم، ثم يتنحى عنهم قليلاً ويتابعهم، فينظر بماذا يردون؛ لقوله: ﴿أَذْهَبَ بِكُنْيَتِي هَذَا فَالْقَهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾<sup>(٤)</sup>.

٤- تمام قدرة الله تعالى في جعله هذا الهدهد- وهو في الأصل حيوان لا يعقل- يفهم ما يوجه إليه من الأمر والنهي والاختبار والوعيد، وغير ذلك تسخيراً لسليمان عليه السلام.

٥- إخبارها أشراف قومها ورجال دولتها، بأنه ألقى إليها كتاب كريم، أي: عظيم جليل القدر، وإفصاحها عن مرسله، وعن مضمون هذا الكتاب؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢٩﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

٦- استحباب بداءة الكتب والرسائل بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»؛ تبركاً باسم الله وتيمناً.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٢٨٧٩/٩.

(٢) في «تفسيره» ٢٠٠/٦.

- ٧- حسن الإيجاز، وأن خير الكلام ما قل ودل.
- ٨- إثبات اسمين من أسماء الله تعالى، وهما: «الرحمن» و«الرحيم»، وصفة الرحمة الواسعة لله تعالى؛ رحمة ذاتية، ورحمة فعلية؛ عامة وخاصة.
- ٩- تحذير سليمان عليه السلام لهم من العلو والتكبر عليه، وعدم الانقياد لطاعته؛ لقوله: ﴿أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ﴾.
- ١٠- أمره لهم بالدخول بالإسلام، والإتيان إليه مستسلمين منقادين؛ لقوله: ﴿وَأَنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾، وهذا مشعر بقوته في مملكته وصرامته بالحق.
- ١١- حكمة بلقيس ورجحان عقلها، وحزمها؛ لاستشارتها أشرف قومها ورجال دولتها: ماذا تفعل؟ لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾.
- ١٢- أهمية الشورى في صلاح أحوال الأمم والدول والمجتمعات كبيرها وصغيرها؛ ولهذا أمر الله تعالى بها رسولنا ﷺ، فقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وامتدح بها المؤمنين؛ فقال تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].
- وقال ﷺ في غزوة الحديبية: «أشيروا علي أيها الناس» (١).
- ١٣- نفيها أن تكون مستبدة وفاصلة بأمر حتى يحضر الملاء من رجال دولتها، وتستشيرهم؛ لمعرفة أن الاستبداد في الأمور وتحكيم رأي الفرد فيها سبب للفشل؛ لقولها: ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾.
- ١٤- اغترار ملئها ورجال دولتها بقوتهم وبأسهم الشديد، وميلهم إلى المجابهة والقتال؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسِيسٍ شَدِيدٍ﴾.
- ١٥- قناعتهم بقوة رأيها وتفويضهم الأمر أخيراً إليها لتنظر ماذا تفعل، وإعلانهم جاهزيتهم لامثال أمرها وتنفيذه؛ لقولهم: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾، وهذا من توفيق الله لهم.
- ١٦- بيانها لهم - بعقلها الراجح ودهائها وحكمتها، ونظرها في العواقب - سوء مغبة القتال، وما يحصل عند دخول الملوك وجيوشهم القرى عنوة من الفساد والخراب

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٦٧٩؛ من حديث المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم.

وإذلال أعزة أهلها.

ومفهوم هذا: أنها لا ترى رأيهم؛ لأنه غير سديد وهو كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا آذِنَةً﴾.

وفي هذا دلالة على أنه لا يلزم المستشار أن يأخذ بقول المستشار إذا لم يره صواباً.

١٧- تأكيد مقالها بقولها: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، أي: أن هذا فعل الملوك وسيرتهم

إذا دخلوا القرى، ويجوز كون هذا استثناءً من كلام الله تعالى تصديقاً لقولها.

١٨- اختيارها طريق التأي والاختبار والمصانعة والمهادنة والمصالحة؛ بإرسالها

هدية عظيمة لسليمان، لعل وعسى أن يقبلها ويسالم، وانتظارها وترقبها بم يرجع المرسلون من عنده، لترى رأيها بعد ذلك؛ لقولها: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ

بِمَ رَجَعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ وهذا يدل على جواز الاختبار لاستظهار الحق بالقرائن.

١٩- معرفتها بثاقب عقلها أن للهدية أثرها على القلوب، وأنها تسل السخيمة؛

كما قال ﷺ: «تهادوا؛ فإن الهدية تذهب وحر الصدر»<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

(١) أخرجه الترمذي في الولاء والهبة ٢١٣٠؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ قَالَ أُمِدُّونِي بِمَالٍ فَمَا آتَيْنِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيُّ مَنِ الْيَمِينِ أَنَا يَا أَيْتِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَيْبِي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسَأَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أُمِدُّونِي بِمَالٍ فَمَا آتَيْنِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ﴾؛ الفاء: عاطفة، أي: فلما جاء رسولها بالهدية سليمان، أي: أتى بها سليمان.

﴿قَالَ﴾، أي: قال سليمان منكرًا عليهم، ومتغيظًا لعدم إجابتهم لقوله: ﴿أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿أُمِدُّونِي بِمَالٍ﴾؛ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ والتعجب، أي: كيف تزودوني بمال، تصانعونني به؛ لا تترككم على شرككم وملككم؟

﴿فَمَا آتَيْنِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ﴾؛ الفاء: تعليلية، و«ما»: موصولة، أي: فالذي أعطاني الله من النبوة والحكمة، والملك والمال وغير ذلك خير من الذي أعطاكم من الدنيا والمال، فليس هديتكم عندي أي موقع ولا وزن ولا قيمة، ولهذا قال:

﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾، «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل أنتم بهديتكم

تسرون وتفخرون وتعظم عندكم؛ لحاجتكم إلى المال، وللعكم به، ونظرتكم الدنيوية المادية القاصرة، أي: تفرحون إذا أهدي إليكم.

ويحتمل أن المعنى: تفرحون إذا أهديتكم، وترون أن لكم فضلاً على المهدي إليه. والأول أظهر، ولا مانع من حملها على المعنيين. ومفاد هذا: أنني لا أفرح بالهدية، ولا تهنئي، ولكنكم أنتم الذين تفرحون بها. وقدم المسند «أنتم» على الخبر «تفرحون»؛ لإفادة القصر.

﴿أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾، أي: قال سليمان لرسول بلقيس: ﴿أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾، أي: ارجع إلى الذين أرسلوك بهديتهم، وبهذا الخبر العظيم: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾؛ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، واللام في الموضعين: لام القسم لقسم مقدر، والنون فيها للتوكيد، أي: فوالله لنأتينهم بجنود لا طاقة لهم بمقاومتها وقتالها.

﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا﴾؛ الواو: عاطفة، أي: ووالله لنخرجهم ﴿مِّنْهَا﴾، أي: من بلدتهم ومدينتهم «مأرب»، ﴿أَذَلَّةٌ﴾؛ حال، أي: ذليلين، ﴿وَهُمْ صَغُرُونَ﴾؛ الجملة: حالية، أي: وهم مهانون مدحورون.

وفي هذا استصغار لهم من الناحية العسكرية، بعد استصغاره لهم من الناحية المالية بقوله: ﴿فَمَا أَتَيْنَهُ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عَفْوَيتُّ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَنِّي كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾:

قوله: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ﴾، أي: قال سليمان للملأ الذين سخرهم الله له من الإنس والجن.

﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾، أي: بسرير ملكها الذي تجلس عليه. ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾؛ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر مضاف

إلى «قبل»، و«مسلمين»: حال، أي: قبل إتيانهم مستسلمين لله بالتوحيد، منقادين له بالطاعة، والخلوص من الشرك، وعرف أنهم سيأتوه مسلمين - والله أعلم - إما أن الله تعالى أوحى إليه بذلك، أو أنه عرف ذلك بالقرائن؛ لأنه توعدهم وهددهم بقوله: ﴿أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ﴾ الآية، فعرف أنهم إذا سمعوا ذلك لا بد أن ينقادوا ويستسلموا.

قال ابن كثير<sup>(١)</sup>: «فلما رجعت إليها رسلها بهديتها، وبما قال سليمان سمعت وأطاعت هي وقومها، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة معظمة لسليمان، ناوية متابعته على الإسلام، ولما تحقق سليمان عليه السلام قدومهم عليه ووفودهم إليه فرح بذلك وسره».

قال بعضهم: إنما طلب الإتيان بعرشها قبل إتيانهم مسلمين؛ ليجعل ذلك حجة له عليها في نبوته، وليربها بذلك قدرة الله تعالى وعظيم شأنه.

وقال بعضهم: إنما طلبه؛ ليختبر عقلها إذا رأته، وهل تثبته أم تنكره؟  
وقيل: لأجل أن يتصرف فيه قبل أن يسلموا فتكون أموالهم محترمة. وفي هذا نظر من وجهين:

الأول: أنها بمجرد مغادرتها إياه مسلمة قد أحرزت ما لها قبل أن تصل إلى سليمان.  
والثاني: أن سليمان في غنى عن عرشها بما آتاه الله مما لم يعط لأحد سواه، ولا يحسن أن يظن به هذه الظن.

﴿قَالَ عِفْرِيْتُ مِّنَ الْجِنِّ﴾، أي: مارد قوي شديد من الجن:  
﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾؛ «أن» والفعل «تقوم» في تأويل مصدر في محل جر مضاف إلى «قبل»، أي: أنا آتيك بعرشها قبل قيامك من مقامك، أي: من مجلسك، والمراد: أنا آتيك به بسرعة.

قيل: وكان يجلس للحكومات والقضاء بين الناس من أول النهار إلى زوال الشمس، بما يتراوح بين ثلث النهار إلى أقل من نصفه عادة.

﴿وَأِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ﴾ اللام: للتوكيد، أي: وإني على هذا العرش لقوي على حمله،

(١) في «تفسيره» ٦/٢٠١.

﴿أَمِينٌ﴾؛ على ما فيه من الجواهر، وغير ذلك.

﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾؛ وهو رجل أعطاه الله علمًا من الكتاب المنزل، ويعرف بما أعطاه من الإيمان والعلم ما يكون أقرب إلى الإجابة، وليس المراد بالكتاب: «التوراة».

﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾، أي: قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى شيء، أي: بأسرع من طرفة العين، وطرفة العين أقل شيء، وفي الحديث: «فلا تكلني إلى نفسي، طرفة عين»<sup>(١)</sup>.

قال الشاعر:

ما بين طرفة عين وانتباهتها      يبدل الله من حال إلى حال<sup>(٢)</sup>

قال ابن زيد: «فلم يشعر سليمان إلا وعرشها يحمل بين يديه»<sup>(٣)</sup>.

﴿فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ﴾، أي: فلما رأى سليمان عرشها حاضرًا لديه، مستقرًّا عنده ﴿قَالَ﴾؛ شكرًا لله تعالى واعترافًا بعظيم نعمه عليه:

﴿هَذَا﴾، أي: هذا التسخير واليسير لي، وتهيئة أسباب الإتيان بعرشها، واستقراره بين يدي بهذه السرعة، وغير ذلك.

﴿مِن فَضْلِ رَبِّي﴾، أي: من نعم الله تعالى عليّ، وزيادته لي، وتفضله عليّ، لا لأني مستحق لذلك، وإنما ﴿لِيَبْلُوَنِي﴾؛ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يختبرني ويمتحنني.

﴿ءَأَشْكُرُ﴾؛ الهزمة للاستفهام، أي: أشكر نعمته وفضله وإفضاله عليّ، فأعترف له بذلك، وأستعين به على عبادته وطاعته وذكره والثناء عليه؟ والشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح.

﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾؛ «أم»: عاطفة، أي: أم أكفر نعمته وفضله، وأغتر بملكي وسلطاني

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٥٠٩٠؛ من حديث أبي بكره رضي الله عنه.

(٢) انظر: «ريحانة الكتاب ونجعة المتألم» (٢/٢٠٤).

والشطر الثاني فيه: «يقلب الأمر من حال إلى حال».

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/٢٠٣.

وقدرتي؛ كما هو حال كثير من الملوك الجاهلين؟  
فشكر عليه السلام ربه على نعمته، واعترف بفضلته وإفضاله عليه، وعلم أن ذلك  
اختبار من ربه، فخاف ألا يقوم بشكر هذه النعمة.  
﴿وَمَنْ شَكَرَ﴾، أي: ومن شكر، فاعترف بنعمة الله تعالى عليه، واستعملها في  
طاعته، واستعان بها على ذلك.

﴿فَاتِمَّا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾؛ لأن ثمرة شكره وجزاءه وثوابه يعود إلى نفسه؛ كما قال  
تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].  
ومفهوم هذا: أن من لم يشكر وأساء فعلى نفسه؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا  
فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦، الجاثية: ١٥].

﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾، أي: ومن كفر ولم يشكر ﴿فَإِنَّ رَبِّيَ غَنِيٌّ﴾، أي: غني عنه وعن شكره،  
وعن العباد كلهم وشكرهم وعبادتهم.  
﴿كَرِيمٌ﴾ في نفسه، ليس مفتقرًا إلى أحد، فلا تضره معصية العاصي، ولا تنفعه  
طاعة المطيع.

كما قال موسى عليه السلام: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا  
فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]، وقال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ  
وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ﴾ [الزمر: ٧]، وقال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ  
لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وكما قال عز وجل في الحديث القدسي: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم  
وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي،  
لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقص  
ذلك من ملكي شيئًا»<sup>(١)</sup>.

وهو عز وجل كريم، كثير الخير، عظيم الكرم في غناه؛ لأن الغنى لا يحمد إلا إذا

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٥٧٧، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٩٥؛ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

صاحبه الكرم؛ ولهذا يقرن عز وجل كثيرًا في القرآن بين اسميه «الغني والحميد»، وبين اتصافه بالغنى والحمد.

وهو عز وجل كريم، يعم بخيره الشاكر والكافر؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٢٠].

قوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٣٩﴾﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسَأَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤١﴾﴾:

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال سليمان لحاشيته: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾، أي: غيرهه إلى حال تنكره إذا رآته، بزيادة أو نقص، أو تغيير بعض أجزائه، أو لونه أو فرشته، أو غير ذلك. ﴿نَنْظُرْ﴾ جواب الأمر: ﴿نَكِّرُوا﴾، أي: نظر وتأمل مختبرين لها، ﴿أَتَهْتَدِي﴾ الهمزة للاستفهام، والمراد به: الاستخبار، أي: أتتهدي فتعرف أنه عرشها، فيدل ذلك على ذكائها وفطنتها، وقوة معرفتها، ورجحان عقلها.

﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾؛ فلا تعرفه، فيدل ذلك على خلاف ما ذكر؟

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾، أي: قدمت على سليمان عليه السلام، ونظرت إلى العرش.

﴿قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ﴾، أي: قيل لها: أهكذا عرشك؟ أي: أيشبه هذا عرشك؟

﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾؛ أجابت بمثل ما سئلت عنه، فقالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾، و«كأن»

للتشبيه، فلم تقل: إنه هو، ولم تقل: ليس هو، أو: لا يشبهه؛ لأنه مشابه لعرشها من حيث الأصل، ومخالف له من حيث الصفة؛ لأنه غير، فأجابت إجابة موفقة مسددة فقالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾، أي: يشبهه ويقاربه.

وهذا دليل على غاية ذكائها، ورجحان عقلها؛ فلم تنف كونه عرشها أو يشبهه لقرب

شبهه به، ولم تثبت أنه عرشها لكون عرشها محوطاً محروساً، ولبعد المسافة بين اليمن والشام، فكيف يؤتى به في هذه السرعة الخاطفة؟! فدل جوابها على ذكائها من وجهين:

الأول: أنه مطابق للسؤال.

والثاني: أنه موافق لمقتضى الحال.

﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا﴾، أي: فقال سليمان لما رأى فطنتها وذكاءها واهتداءها للإجابة السديدة، شاكرًا الله تعالى على إيتائه العلم والإسلام قبلها: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا﴾، أي: وأعطينا العلم أكثر منها، ومن قبلها.

﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾، أي: وكنا مسلمين من قبلها، وهذه هي النعمة الكبرى، والمفخرة العظمى، والعزة والسؤدد.

وكانه عليه السلام لما ظهر من ذكائها وفطنتها أراد أن يذكر قومه - حتى لا يغتروا بها - بما هو أعظم من ذلك، وهو ما آتاهم الله من العلم قبلها والإسلام.

قيل: ويحتمل أن هذه المقالة: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ من قول ملكة سبأ، أي: وأعطينا العلم عن ملك سليمان وسلطانه وزيادة اقتداره من قبل هذه الحالة، التي رأينا فيها قدرته على الإتيان بالعرش من المسافة البعيدة، وكنا مسلمين لله تعالى، متابعين لسليمان قبل ذلك. والمعنى الأول أظهر وأقرب.

﴿وَصَدَّهَا﴾، أي: وصرفها عن الإسلام ومنعها من الدخول فيه، ومن عبادة الله تعالى وحده، ﴿مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؛ «ما»: موصولة، أي: الذي كانت تعبد غير الله، وهو الشمس.

﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾؛ تعليل لقوله: ﴿وَصَدَّهَا﴾ الآية، أي: وصدّها عن الإسلام وعن عبادة الله؛ لأنها كانت من قوم كافرين غير مؤمنين لأنها نشأت في بيئة كافرة، فاشتغلت بعبادة غير الله عن عبادة الله - ولم تنتفع بذكائها وفطنتها وعلمها والنفس إن لم تنشغل بالحق انشغلت بالباطل.

﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾، «الصرح»: القصر والبناء المرتفع؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمُنُ ابْنُ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾ [غافر: ٣٦-٣٧].

والمراد بالصرح هنا: القصر الذي بناه سليمان لها، وهو صرح من زجاج أبيض

شفاف، قيل تحته ماء جار.

وإنما قيل لها: ادخلي الصرح؛ ليربها عليه السلام عظم ما أعطاه الله تعالى من الملك والعز والسلطان، مما يفوق ملكها ومما لم يعط لغيره عليه السلام؛ ليختبر ذكائها وفطنتها وشجاعتها، فهو اختبار ثان لها.

﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾، أي: فلما رأت الصرح، ﴿حَسِبْتَهُ لُجَّةً﴾، أي: ظنته ماءً كثيرًا؛ لأن الزجاج شفاف يرى الماء تحته؛ كأنه ليس دونه شيء.

﴿وَكَشَفْتَ عَنْ سَاقِيهَا﴾؛ روي عن قنبل أنه قرأ بهمز الألف: «سَاقِيهَا»، وقرأ الباقون بغير همز: ﴿سَاقِيهَا﴾، أي: شمردت ثيابها عن ساقها؛ لتخوضه.

وهذا يدل على حزمها وقوتها وشجاعتها، فلم تحجم عن دخول الصرح، بل أقدمت عليه، وعلمت أنه إنما قيل لها: ادخلي الصرح؛ لإكرامها، لا لإغراقها، لكنها احتزرت عن الأذى، فكشفت عن ساقها، ولو كانت جبانة لما دخلت أصلاً، ولو كانت غير حازمة لما رفعت ثيابها عن ساقها.

﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾، أي: مملس.

﴿مِن قَوَارِيرٍ﴾، أي: من زجاج، بحيث يرى الماء من تحته، ويظن الماشي عليه كأنه يمشي على الماء.

والمراد بهذا: أنه لا حاجة لك لكشف الساقين.

فتبين بهذا أمران: عظم ملك سليمان عليه السلام، وضعف هذه المرأة، وأنها مع ذكائها وفطنتها وحزمها وشجاعتها -خفي عليها الأمر فحسبت هذا الصرح لجة من الماء، وهو ليس كذلك، وحينئذ عرفت مكانتها، وعرفت مكانة سليمان.

ولهذا قالت لما تبين لها ما أعطي سليمان من النبوة والحكمة والملك والاقترار

العظيم: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، أي: يا رب، إني ظلمت نفسي بعبادة غيرك وذلك لأن عبادة غير الله أظلم الظلم؛ لأن حق الله تعالى أعظم الحقوق وأبينها. خلق ورزق، وأنعم على العباد بسائر النعم والتي أعظمها بيان طريق الحق والأمر باتباعه، وبيان طريق الباطل والأمر باجتنابه، ولهذا قال لقمان عليه السلام في وصيته لابنه ﴿يَبْنَى لَأَ

تُشْرِكُ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ [لقمان: ١٣].

وقدمت الاعتراف بظلمها لنفسها، وإعلان التوبة والإنابة إلى ربها؛ لأن التولية قبل التحلية، ثم انتقلت إلى التحلية، فقالت:

﴿وَأَسَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أي: واستسلمت وانقدت مع سليمان لله رب العالمين، أي: آمنت بالله وحده إلهاً ومعبوداً ورباً، ودخلت في الإسلام.

### الفوائد والأحكام:

١- تغيظ سليمان عليه السلام وغضبه الشديد على ملكة سبأ وقومها؛ لعدم إجابتهم لدعوته، واحتياهم لمصانعته بالهدية؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ﴾ الآية.

٢- رفضه عليه السلام لهديتهم، التي أرادوا مصانعته فيها، وبيانه أن ما آتاه الله من النبوة والحكمة والخير خيراً مما آتاهم؛ اعترافاً بعظيم نعمة الله عليه، وبيانا لعدم حاجته إلى هديتهم؛ لقوله: ﴿أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ فَمَا آتَيْنَاهُ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ﴾.

٣- ذمه لهم بفرحهم بالهدية؛ لنظرهم الدنيوية المادية القاصرة، وحاجتهم إلى المال وولعهم به؛ لقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾.

ومفهوم هذا أنه لم يفرح بهديتهم له، ولم تسره؛ لأنها من باب المصانعة؛ لرد دعوته إياهم إلى الإسلام.

٤- أمره رسولها بالهدية بالرجوع إليهم، وتهديده إياهم بغزوهم بجيش لا طاقة لهم به، وإخراجهم من بلدهم أذلة صاغرين؛ لقوله: ﴿أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾.

٥- كثرة جنود سليمان عليه السلام لقوله: ﴿أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾.

٦- ينبغي إظهار القوة للأعداء، وتخويفهم وإرعابهم وإرهابهم.

٧- أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين، لا حق لكافر فيها.

٨- علمه عليه السلام أنهم سيأتون إليه مسلمين، إما بوحي من الله أو بفراسته ونظره في القرائن؛ ولهذا طلب من ملئه أيهم يأتيه بعرشها قبل ذلك؛ إظهاراً لما أعطاه

الله من العلم والنبوة والملك والقدرة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ ﴿٣٨﴾.

٩- تسخير الجن لسليمان؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكُمْ﴾.

١٠- عظم ما أعطاه إليه الجن من القوة والقدرة والسرعة وغير ذلك لقوله تعالى:

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكُمْ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ ﴿٣٩﴾ [النمل: ٣٩].

١١- تنظيم سليمان عليه السلام وقت عمله وشؤون حياته، وأن له مقاماً ومجلساً مقدراً بمدة، يجلس فيه للقضاء والحكومات بين الناس؛ لقوله: ﴿قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكُمْ﴾. وهكذا ينبغي لذوي المسؤوليات في الأمة تنظيم أوقات جلوسهم للناس.

١٢- أن هذا العرش عظيم يحتاج إلى قوة من يحمله لثقله، وإلى أمانته لما احتوى عليه من الجواهر؛ لقوله: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾.

١٣- لا بد من اجتماع القوة والأمانة فيمن يتولى أي عمل؛ لأن الضعيف لا يستطيع أن يعمل شيئاً؛ لعجزه، وغير الأمين لا يقوم بالعمل كما ينبغي، لخيانته؛ لقول العفريت: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾، وكما قالت إحدى المرأتين اللتين سقى لهما موسى: ﴿قَالَكَ إِحْدَاهُمَا يَتَأْتِي أَسْتَجِرُّهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ ﴿٤٠﴾ [القصص: ٢٦].

١٤- تنافس العفريت من الجن والذي عنده علم من الكتاب في الإتيان به، وغلبة الذي عنده علم من الكتاب، وإتيانه به؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكُمْ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ ﴿٤١﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ﴾.

١٥- أنه يتأتى بالعلم والحكمة ما لم يتأت بالقوة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾.

١٦- كمال وتمام قدرة الله تعالى مما لا يستطيع الإنسان تصوره وإدراكه إذا كيف يأت العرش من اليمن إلى الشام بهذه السرعة مع ما بينها من المسافة الطويلة، وصدق

الله العظيم: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

١٧- فضل سليمان عليه السلام، وعظم ما سخر له من هذه القوى، وكرامته.  
١٨- شكر سليمان واعترافه وتحديثه بعظيم فضل الله تعالى ونعمته عليه؛ بما سخر له من هذه القوى، والإتيان بالعرش بهذه السرعة واستقراره بين يديه؛ لقوله: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾.

١٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لسليمان عليه السلام؛ لقوله: ﴿رَبِّي﴾.  
٢٠- عدم اغتراره عليه السلام بذلك، مع ما له من عظيم المنزلة عند الله، وعلمه أن ذلك من باب الابتلاء من ربه له أي شكر أم يكفر؟ وليس لكونه مستحقاً لذلك؛ لقوله: ﴿لِيَبْتَلُوْنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾.

٢١- إثبات الحكمة والعلة في أحكام الله تعالى وفي هذا رد على الجهمية الذين ينفقون الحكمة في أحكام الله وأفعاله، ويقولون أنه يفعل؛ لمجرد المشيئة تعالى الله عن قولهم.

٢٢- أن من شكر فإنما شكره لنفسه؛ لأن ثواب شكره وجزاءه يعود إليه في الدنيا والآخرة، ومن كفر فإنما كفره على نفسه؛ لأن عقاب كفره على نفسه؛ لقوله: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾، ومفهوم هذا: أن من كفر فإنما كفره على نفسه، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

٢٣- أن الله عز وجل غني كريم لا يضره كفر من كفر، كما لا ينفعه شكر من شكر؛ لتام غناه وكرمه في نفسه؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.

٢٤- الترغيب في شكر النعم، والتحذير من كفرها؛ كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]؛ لأن الشكر سبب لاستقرار النعم، والكفر سبب لزوالها؛ لأنها إذا شكرت قرّت، وإذا كفرت قرّت، وكما قيل:

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم

وحافظ عليها بشكر الإله فإن الإله سريع النقم

٢٥- أنه إنما يُمدح بالغنى إذا صاحبه الكرم؛ لقوله: ﴿عَنِّي كَرِيمٌ﴾.

٢٦- سعة عطاء الله وفضله وكرمه، وعمومه بخيره الشاكر والكافر؛ لقوله تعالى:

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَّبِّي عَنِّي كَرِيمٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

٢٧- إثبات الاختيار للإنسان لقوله: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي عَنِّي كَرِيمٌ﴾.

٢٨- أمر سليمان بتكثير عرشها بتغيير بعض أوصافه؛ اختباراً لفظتها وذكائها

أتمتدي إلى أنه عرشها أم لا تهتدي لذلك؟ لقوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

٢٩- سؤالها اختباراً لها لما جاءت: أهكذا عرشك؟ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ

أَهكَذَا عَرْشُكَ﴾.

٣٠- جواز امتحان الشخص لمعرفة ذكائه وفطنته إذا كان ذلك لمصلحة؛ لقوله

تعالى: ﴿تَكْرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾، وقوله: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ الآية. ومن المصلحة هنا- والله أعلم- التنبيه على كمال قدرة الله تعالى، وعظم ملك سليمان ونبوته وعظيم فضل الله عليه.

٣١- إجابتها إجابة موفقة مسددة تدل على فطنتها وذكائها ورجحان عقلها؛

لقولها: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾؛ فلم تنف أنه هو؛ لتطابق جل صفاته مع صفات عرشها، ولم تقل: هو عرشي؛ لأن عرشها محروس محفوظ، ولبعد المسافة بين اليمن والشام، فكيف ينقل بهذه السرعة الخاطفة؟! فأجابت بجواب مسدد مطابق للسؤال، وموافق لمقتضى الحال.

٣٢- ينبغي لمن سئل أن يكون جوابه مطابقاً للسؤال، موافقاً لمقتضى الحال، فكم

من جانح بالجواب عن السؤال، وكم من مجيب لا يُقدّر مقتضى الحال.

٣٣- اعتزاز سليمان عليه السلام وافتخاره بما آتاه الله من النبوة والعلم والحكمة،

والدخول في الإسلام قبل ملكة سبأ؛ تحدثاً بنعمة الله تعالى عليه؛ لقوله: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ

مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿١٣٦﴾.

٣٤- أن الذي صد هذه الملكة عن الإسلام، وجعلها تعبد من دون الله؛ أنها نشأت في بيئة كافرة وقومها الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

٣٥- أن الكفر والمعاصي من أعظم أسباب الصد عن الإيمان وعن اتباع الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

٣٦- أن النفس إذا لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.

٣٧- أن البيئة السيئة لها أعظم الأثر في الصد عن الحق، وفي الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه» (١).

وقال ﷺ: «مثل المجلس الصالح والمجلس السوء كحامل المسك، ونافخ الكبر» (١).

٣٨- اختبارها ثانيًا بأمرها بدخول الصرح والقصر الذي بناه لها سليمان؛ لترى عظم ما أعطي سليمان من الملك والسلطان، مما لا يدانيه ملكها وسلطانها؛ لترجع بالإكبار والتعظيم لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ﴿٣٩﴾﴾ الآية.

٣٩- ظنها أن الصرح لجة ماء، وكشفها عن ساقها لما رأتها؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا ﴿٤٠﴾﴾.

٤٠- أن المرأة شيمتها الستر، وجواز كشفها عن ساقها عند الحاجة.

٤١- إخبارها بأن هذا صرح مملس من زجاج، فلا حاجة لها لكشف ساقها؛ لقوله: ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴿٤١﴾﴾.

٤٢- اعترافها- لما رأت عظمة ملك سليمان وما أعطي من النبوة والعلم والحكمة- بظلم نفسها بما كانت عليه من عبادة الشمس والشرك بالله، وإعلانها توبتها وإنابتها، وإسلامها مع سليمان لله رب العالمين وإقرارها بألوهية الله تعالى وربوبيته؛

لقولها: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسَأَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

٤٣ - إثباتها ربوبية الله تعالى الخاصة للمؤمنين؛ لقولها: ﴿رَبِّ﴾.

٤٤ - أن الشرك بالله، والمعاصي ظلم للنفس؛ لقولها: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾.

٤٥ - أن التخلية قبل التحلية؛ لهذا قدمت الاعتراف بظلمها لنفسها بالشرك

وتوبتها، ثم أتبع ذلك بإعلان دخولها في الإسلام.

٤٦ - إثباتها ربوبية الله تعالى العامة للعالمين، واستدلالها بتوحيد الربوبية على

توحيد العبادة والألوهية.

٤٧ - في إسلام ملكة سبأ عبرة لمشركي قريش وغيرهم؛ إذ لم يمنعها عظم ملكها

وسلطانها من التأمل بعقلها في دلائل وحدانية الله تعالى، وفساد الشرك، والدخول في

الإسلام؛ ليعلموا أن امتناعهم من الدخول في الإسلام لسخافة عقولهم، وعمائيتهم،

وتمسكهم بالباطل.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿١٥﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ لِمَ نَسْتَعِجِلُونَ بِالْسَيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا نَسْتَعْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿١٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ بَيْتٌ زَيْدٌ وَرَهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠﴾ فَنظَرَ نَظْرًا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢١﴾ فَيَاكَ يَوْمَئِذٍ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَأُنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿١٥﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ لِمَ نَسْتَعِجِلُونَ بِالْسَيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا نَسْتَعْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿١٧﴾﴾:

أتبع قصة سليمان بقصة ثمود ونبههم صالح؛ لأن ديار ثمود على تخوم مملكة سليمان، وكانت في طريق السائرين من سبأ إلى فلسطين؛ ولهذا عقب ثمود بذكر قوم لوط؛ لأنهم أدنى إلى فلسطين.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ﴾؛ الواو استئنافية، واللام: موطئة للقسم، و«ثمود»: هم قبيلة ثمود، ومساكنهم في الحجر شمال الجزيرة.

﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾، أي: أخاهم في النسب والقبيلة.

﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾؛ «أن» تفسيرية، أو هي والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، أي: قائلاً لهم، أو أمراً لهم بأن اعبدوا الله وحده؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسَوْءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٣].

﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾؛ الفاء: عاطفة، و«إذا» هي الفجائية، أي:

ففاجأوا بانقسامهم إلى فريقين يختصمون في الدين: فريق كفر به واستكبر؛ وهم الأكثرون الأقوياء، وفريق آمن به؛ وهم القلة الضعفاء؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَدِيقًا مُرْسَلًا مِّن رَّبِّهِمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِءِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِءِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: ٧٥-٧٦].

وهذه حال الخلق، أكثرهم أتباع كل ناعق بالباطل، والقلة الضعفاء منهم أتباع الحق، فلا يغتر بذلك، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ لِيُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦].

«وقد أمر الله عز وجل آدم بإخراج بعث النار من ذريته من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين»<sup>(١)</sup>.

فالعبرة بالكيف لا بالكم؛ كما قال بعض السلف: «لا تستوحش من الحق لقلة السالكين، ولا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين».

وهذا معنى قول الفضيل بن عياض: «لا تستوحش طرق الهدى لقلة أهلها، ولا تغتر بكثرة السالكين الهالكين»<sup>(٢)</sup>، وقول سفيان بن عيينة: «اسلكوا سبل الحق، ولا تستوحشوا من قلة أهلها»<sup>(٣)</sup>.

قال ابن دريد في المقصورة:

والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمر عني<sup>(٤)</sup>

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٤٨، ومسلم في الإيثار ٢٢٢؛ من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) انظر: «الأذكار» للنووي ص ١٠٨، «مدارج السالكين» ٤٦/١.

(٣) انظر: «حلية الأولياء» ٣٠٦/٧، «الزهد الكبير» للبيهقي ص ١٣١.

(٤) انظر: «ديوان ابن دريد» ص ١٣٢.

﴿قَالَ يَفْقَهُمْ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾؛ الاستفهام للإنكار عليهم في استعجالهم السيئة قبل الحسنة، والتوبيخ لهم، والتعجب من حالهم، والتعريض بسفاههم وعدم رشدهم.

والمعنى: لم تبادرون وتسارعون بفعل السيئات التي تسوء عاقبتها في الدنيا والآخرة، قبل الحسنات التي بها تحسن أحوالكم في الدنيا والآخرة؟  
وأيضاً: لِمَ تَدْعُونَ بِحُضُورِ الْعَذَابِ وَتَعْجِيلِهِ، ولا تطلبون من الله رحمته؟ كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلُتُ﴾ [الرعد: ٦].

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦].

﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾؛ «لولا»: للتحذير، أي: هلا تستغفرون الله، أي: تتوبون إليه من شرككم وعصيانكم، وتسالونه وتدعونه أن يغفر لكم، ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾، أي: رجاء أن ترحموا، أو لأجل أن ترحموا، أي: أن يرحمكم الله.

﴿قَالُوا أَطِيرْنَا بِكَ﴾، أي: تطيرنا بك، أي: تشاءمنا ﴿بِكَ﴾ يا صالح والتطير: التشاؤم، مأخوذ من الشؤم، وهو توقع الشر والتشاؤم يكون بمرئى أو مسموع أو زمان أو مكان أو حال .

والتطير: مأخوذ من الطير؛ لأنهم كانوا في الجاهلية يتشاؤمون بالطيور، فإذا خرج أحدهم لسفر لتجارة أو غير ذلك فشاهد غراباً أو غيره عن يساره تشاءم وعدل عن سفره ونحو ذلك.

﴿وَيَمَن مَّعَكَ﴾، أي: وتطيرنا بالذين معك من أتباعك، أي: أن ما يصيبنا من المصائب والبليات كالفحط والجذب وغور المياه، وغير ذلك؛ بسبب وجودك وأتباعك بيننا، وشؤمكم، فما رأينا على وجهك ووجوه أتباعك خيراً؛ كما قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وقال تعالى عن كفار هذه الأمة: ﴿وَأَن تَصِبُّهُمْ حَسَنَةً يَقُولُوا هَذِهِ مِن عِنْدِ اللَّهِ وَإِن تَصِبُّهُمْ سَيِّئَةً يَقُولُوا هَذِهِ مِن عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

وقال تعالى مخبراً عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّمَّا عَذَابُ الْيَوْمِ ﴿١٨﴾﴾ قَالُوا طَئِرُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ﴾ [يس: ١٨-١٩].

وهكذا فيجعلون ما يصيبهم بسبب ذنوبهم وأفعالهم بأسباب أنبيائهم وصالحينهم؛ قلباً للحقائق.

﴿قَالَ﴾، أي: قال لهم صالح: ﴿طَئِرُكُمْ﴾، أي: ما أصابكم مما تشاءتم به من القحط والجذب وغير ذلك. ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾، أي: إنما هو بتقدير الله تعالى وحكمته، وبسبب ذنوبكم، وليس مني.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾؛ «بل» للإضراب الانتقالي، أي: بل أنتم قوم تُختبرون بالسراء والضراء، والخير والشر، هل تتوبون أم لا؟ ومفتونون ومستدرجون فيما أنتم عليه من الضلال، وفي نسبة الشؤم إلى صالح والمؤمنين.

وقد يكون من ذلك أنهم أصيبوا مع مجيء صالح إليهم بشيء من ذلك بسبب تكذيبهم له ففتنة لهم، فنسبوه إلى صالح وأتباعه، وقد قال تعالى: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٥].

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرًا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ يَوْمَئِذٍ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

قوله: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾، أي: مدينة صالح، أو مدينة ثمود وهي الحجر شمال الجزيرة العربية.

﴿تَسْعَةُ رَهْطٍ﴾؛ الإضافة هنا بيانية فرهط تفسير لتسعة كأنه قال: تسعة رهط. والرهط: العدد من الناس من ثلاثة إلى عشرة، أو من سبعة إلى عشرة، أو العدد حوالي العشرة، مثل: «النفر»، فالمعنى: تسعة نفر.

﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ بالشرك والكفر والمعاصي، وتكذيب صالح والكيده له ولدعوته، ومعاداته وتحذير الناس من اتباعه، وغير ذلك.

﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾؛ تأكيد لإفسادهم؛ لأن الجمل المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها، أي: أن سعيهم الإفساد في الأرض، ولا شأن لهم في الإصلاح البتة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الشعراء: ١٥١-١٥٢].

وقد غلب هؤلاء الرهط على أمر ثمود؛ لأنهم كانوا كبارهم وساداتهم، وهم الذين صدر عن آرائهم ومشورتهم عقر الناقة، وأشقاهاهم: قدار بن سالف؛ كما قال تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ [القمر: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِذْ أُنْبِئَتْ أَشْقَاهَا ﴿١٣﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٤﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسولها ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: ١٢-١٤].

﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالتاء على الخطاب، وضم التاء الثانية: «لنُبَيِّتَنَّهُ»، وقرأ الباقون بالنون، وفتح التاء الثانية: «لنُبَيِّتَنَّهُ».

أي: قال هؤلاء الرهط التسعة المفسدون في الأرض - فيما بينهم - بعضهم لبعض: ﴿تَقَاسَمُوا﴾، أي: تحالفوا، أي: ليقسم كل منكم للآخرين، أي: يحلف.

﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾؛ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: والله لنبيته والتبييت والبيات: مباغته العدو ليلاً، وقتله غدراً ومكرًا، أي: لنباغته ليلاً، وقتلته وأهله.

أي: طلب بعض من بعض أن يتعاهدوا، ويتحالفوا على أن يبيتوا صالحاً وأهله ويقتلوه. وهذا من أعظم الغدر والمكر والخيانة، لأن الليل موضع السكينة والهدوء والطمأنينة.

﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالتاء وضم اللام الثانية:

﴿لَتَقُولَنَّ﴾، وقرأ الباقون بالنون وفتح اللام الثانية: ﴿لَتَقُولَنَّ﴾.

و«ثم» حرف عطف، واللام: للقسم، أي: ثم والله لنقولن لوليه، أي: لولي دمه وهم ورثته بفرض أو تعصيب.

﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾؛ قرأ حفص عن عاصم بفتح الميم وكسر اللام: ﴿مَهْلِكَ﴾.

وقرأ الباقون ما عدا أبا بكر عن عاصم: «مُهْلَكَ» بضم الميم وفتح اللام، وقرأ أبو بكر بفتحهما: «مَهْلِكَ» وهي مصدر الإهلاك أو مكانه أو زمانه.  
أي: ما حضرنا هلاك أو إهلاك صالح وأهله، وضمير الهاء في «أهله» يعود إلى «وليه».

أي: ثم لنقولن لولي صالح: ما شهدنا مقتل أهلك، أي: ما شهدنا مقتل أهلك: صالح وأهله، أي: نقسم أننا ما شهدنا مقتل أهله، ولا حضرنا. وهذا كذب منهم، بل شهدوا وفعلوا ولكن من هان عليه القتل هان عليه الإنكار من باب أولى، وكأنهم بهذا الإنكار يقولون: ما شهدنا بل فعلنا.

﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾؛ الواو: عاطفة، واللام: لام الابتداء للتوكيد، فالجملة معطوفة على قولهم: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ داخلة في جملة مقول القول، فهي من جملة دفاعهم عن أنفسهم.

ويجتمل: أن تكون الواو حالية، فالجملة في محل نصب على الحال من فاعل «شهدنا»، فهي تقرير لقولهم: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾، وتهوين للأمر فيما بينهم، وطمأنة من بعضهم لبعض.

﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا﴾؛ «مكراً» مفعول مطلق، ونكرٌ للتعظيم، أي: ومكروا مكراً شديداً، بالإفساد في الأرض، والكيد لصالح ودعوته، ويقاسم بعضهم لبعض على تبئيت صالح وأهله وقتلهم ليلاً، وقولهم لوليه: ما شهدنا مقتلهم، وإنا لصادقون.

﴿وَمَكْرُنَا مَكْرًا﴾؛ الله عز وجل لا يوصف بالمكر إلا على سبيل المجازاة والمعاقبة للماكرين، أي: ومكرنا بهم مكراً شديداً؛ أشد وأعظم من مكرهم، مجازاة على مكرهم، وجعلنا مكرهم سبباً لإهلاكهم. والجزاء من جنس العمل وكما يدين المرء يدان.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ باستدراجنا لهم، ومكرنا بهم؛ لانطماس بصائرهم، حتى أخذناهم على غرة وغفلة، فلا هم شعروا بعاقبة مكرهم وأنها إلى البوار، ولا بأن الله يستدرجهم بمكرهم، لأن الله أصمهم وأعمى أبصارهم.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾؛ الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، أي: فتأمل وتفكر كيف كان سوء عاقبة مكرهم؟ والعاقبة: ما يعقب الشيء، أي: انظر ما يعقب مكرهم، أي: نتيجته ونهايته وما أدى إليه.

﴿أَنَا دَمَّرْنَاكُمْ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وعاصم ويعقوب بفتح الهمزة: ﴿أَنَا﴾، بدل من عاقبة وبيان لها، أو خبر لمبتدأ محذوف، أي وهي: ﴿أَنَا دَمَّرْنَاكُمْ﴾. وقرأ الباقون بكسرها: ﴿إِنَّا﴾. فهي مستأنفة لبيان هذه العاقبة. والتدمير: الإهلاك الشديد، أي: أهلكتنا هؤلاء الرهط إهلاكاً شديداً، ﴿رَفَّوْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ «أجمعين»: توكيد، أي: وأهلكنا قومهم الكافرين جميعاً.

أي: استأصلنا شأفتهم كلهم عن آخرهم بالصيحة التي أرجفت بهم، وصعقتهم، وقطعت قلوبهم في أجوافهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحَخِيطِ﴾ [القمر: ٣١] ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ [هود: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَهَابِلِكُوا بِالطَّائِفَةِ﴾ [الحاقة: ٥]، أي: بالصيحة الشديدة، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۗ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١٤-١٥].

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ﴾، أي: متهدمة جدرانها، ساقطة سقوفها، معطلة خالية من ساكنيها، موحشة أرجاؤها، كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، أي: متهدمة مدمرة.

﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾؛ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب ظلمهم بالشرك

والكفر، وتكذيب صالح، وصد الناس عن اتباعه، وتبييت قتله وأهله، وعقر الناقة، وغير ذلك.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾، أي: في قصة صالح عليه السلام وقومه وتكذيب أكثرهم له، وما دبره رؤوس الكفر منهم من المكر والكيد له، ورد الله كيدهم في نحورهم، وإهلاكهم عن آخرهم.

﴿لَايَةً﴾ اللام: للتوكيد، أي: لدلالة على عظمة الله تعالى وتمام قدرته وحكمته ووحدانيته، وصدق رسله، وعبرة وعظة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، أي: لقوم يعلمون ذلك، وينتفعون بعلمهم، فيستدلون بذلك على الحق، ويتعظون ويعتبرون.

﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ بالله وبكل ما أوجب عز وجل الإيمان به، بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارهم.

﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾، أي: وكانوا يتقون الله بترك كل ما نهى الله عنه، وهم صالح واتباعه المؤمنون.

والمعنى: أنجيناهم وعصمناهم وحفظناهم من العقوبة والتدمير والهلاك، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [هود: ٦٦-٦٧].

### الفوائد والأحكام:

١- إثبات إرسال صالح عليه السلام إلى قومه ثمود، ودعوته إياهم إلى عبادة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾.

٢- أن صالحًا عليه السلام من قبيلة ثمود، وأخوهم في النسب، وفي هذا جواز إطلاق الأخوة النسبية بين المسلم والكافر.

٣- أن الدعوة إلى توحيد الله تعالى وترك الشرك هي أساس دعوة جميع الرسل عليهم السلام، وأن كلاً منهم يبعث إلى قومه خاصة، وفي الحديث: «وكان النبي يبعث

إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة» (١).

٤- انقسام ثمود إلى فريقين: كفار، وهم الكثرة الكاثرة منهم، ومؤمنون، وهم القلة والضعفاء؛ لقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾، وهذا حال الأمم كلها مع رسلهم مؤمن وكافر؛ حكمة من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا نَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن: ٢].

٥- وقوع الخصام بين المؤمنين والكافرين، وبين الرسل وأعدائهم، كما قال تعالى: ﴿هَذَا نَحْنُ وَهَذَا سُنَّةٌ كُؤُوبِيَّةٌ، لَا بَدَّ مِنْهَا أَنْ يَحْصَلَ الْخِصَامُ وَالْقِتَالُ بَيْنَ أَهْلِ الْحَقِّ وَأَهْلِ الْبَاطِلِ لِلتَّمْحِيطِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكُفْرِيْنَ﴾ [آل عمران: ١٤١]، وقال تعالى: ﴿لِيُمَيِّزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧].

٦- إنكار صالح عليه السلام على قومه استعجالهم بالكفر والمعاصي قبل الإيمان والطاعة، وبالعذاب قبل الرحمة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾.

٧- حظه إياهم وحثه لهم على الاستغفار والتوبة إلى الله مما هم عليه من الكفر، واستعجال السيئة قبل الحسنة؛ ليرحمهم الله؛ لقوله: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

٨- فضيلة الاستغفار والتوبة وأن ذلك سبب للرحمة، ورفع العقوبة.

٩- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

١٠- تشاؤمهم بصالح وأتباعه المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَطِئْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾، فانسبوا ما أصابهم من قحط وجذب ونحو ذلك إلى صالح عليه السلام وأتباعه.

١١- رده عليه السلام عليهم بأن: طائرهم عند الله، أي: ما يصيبكم بتقدير الله، وبسبب ذنوبكم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

١٢- أن ما يصيب الإنسان كله من الله وبتقديره، وبسبب ذنوبه.  
 ١٣- إرشاده وبيانه لهم أنهم يختبرون بما يصيبهم من السراء والضراء، وهل يتوبون أم لا؟ وأنهم مفتونون ومستدرجون بما هم عليه من الضلال؛ لقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾.

١٤- أن الله قد يحدث من الأمور الكونية ما يكون سبباً لافتتان بعض الناس فقد يكون وافق مجيء صالح عليه السلام إليهم حصول شيء من الجذب والقحط. كما افتتن بنو إسرائيل بالحيتان يوم سبتهم، وابتلي الصحابة وهم محرمون بالصيد تناله أيديهم ورماحهم.

١٥- تولى تسعة رهط في الحجر من أشقى ثمود كبر الإفساد في الأرض؛ بالشرك والمعاصي، وإظهار العداوة والكيد لصالح وتكذيبه، والصد عن دعوته؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (١٥).

١٦- أن هؤلاء الرهط لا خير فيهم أبداً همهم الإفساد، ولا شأن لهم في الإصلاح البتة.  
 ١٧- أنه قد يجتمع في الشخص كونه مفسداً من جهة، ومصلحاً من جهة أخرى؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (١٨).

١٨- أن المعاصي من أعظم أسباب الفساد في الأرض، وهو فساد معنوي يفوق الفساد الحسي، ويؤدي إليه.

١٩- إقسام هؤلاء الرهط فيما بينهم على تبئيت صالح وأهله ليلاً، وقتلهم غدراً؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾، وهذا ما يعرف اليوم بحرب العصابات والاعتيالات.

٢٠- اتفاقهم على الإنكار، وعلى أن يقسموا لوليه المطالب بدمه: ما شهدنا مقتل أهلك، وعلى صدقهم؛ لقولهم: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾.

٢١- أن من هان عليه القتل هان عليه الإنكار من باب أولى.  
 ٢٢- أن البينة على المدعي واليمين على من أنكر كما قال ﷺ: «البينة على المدعي،

واليمين على من أنكر»<sup>(١)</sup>.

٢٣- مكرهم الشديد، وكيدهم لصالح عليه السلام ولدعوته؛ لصد الناس عنها، وتبييتهم قتله وأهله، ومكر الله بهم بإهلاكهم بسبب مكرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا مَكْرًا﴾.

٢٤- أن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله، وأن على الظالم تدور الدوائر، ومن حفر حفرة لأخيه وقع فيها.

٢٥- أن الله عز وجل يمكر بالماكرين، ويكيد للكائدين، على سبيل المجازاة والمعاقبة لهم. وهو أعظم منهم مكرًا، وهو خير الماكرين.

٢٦- أنه عند انطماس البصيرة لا يشعر الإنسان أن ما يصيبه بسبب ذنوبه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، فلا هم شعروا بسوء عاقبة مكرهم ولا بمكر الله بهم.

٢٧- ينبغي النظر والتأمل في مصارع المكذبين، وما حل بهم من العقوبات والمثلات، بسبب مكرهم، وأخذ العظة والعبرة مما حل بهم، والسعيد من وعظ بغيره؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ الآية.

٢٨- تدمير الله عز وجل لهؤلاء المفسدين الماكرين من قوم صالح وقومهم، وإهلاكهم أجمعين؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَا دَمَّرْنَا هُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

٢٩- شؤم العقوبات، وأنها إذا نزلت تعم لقوله تعالى: ﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَّرْنَا هُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥١].

٣٠- شهادة بيوتهم الخاوية المتهدمة، الخالية من السكان، الموحشة المكان، على ظلمهم بتكذيبهم رسل الله وكفرهم وعلى عدل الله فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾.

٣١- أن الظلم بالكفر والمعاصي ومخالفة أمر الله وتكذيب رسله سبب للعقوبات والهلاك والدمار، مما يوجب الحذر من ذلك.

٣٢- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله، لقوله تعالى: ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾، وفي هذا

(١) سبق تخرجه.

رد على الجهمية الذين يقولون إن الله يفعل لمجرد المشئة لا لحكمة تعالى الله عن قولهم.

٣٣- أن في قصة صالح عليه السلام وقومه، وتكذيب أكثرهم له، ومكرهم وكيدهم له ولدعوته، وإبطال الله عز وجل مكرهم، ورد كيدهم في نحورهم - دلالة على عظمة الله تعالى، وتمام قدرته ووحدانيته، وصدق رسله، وعظمة وعبرة لقوم يعلمون، أي: ينتفعون بعلمهم، فيستدلون به على الحق ويتعظون؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

٣٤- فضيلة العلم وأهله، لأنه لا ينتفع بالآيات إلا أهل العلم والمعرفة بالله.

٣٥- إنجاء الله عز وجل للذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا بجوارحهم الطاعات، وابتعدوا المعاصي والمحرمات، وهم صالح عليه السلام وأتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

٣٦- الترغيب في الإيمان والتقوى، وأنها من أسباب النجاة من العذاب؛ لقوله

تعالى: ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٣].

٣٧- في إهلاك المكذبين من قوم صالح، وإنجائه ومن معه من المؤمنين؛ تهديد

ووعيد للمشركين المكذبين، وتسلية للنبي ﷺ، وبشارة له ولمن معه من المؤمنين.

٣٨- كمال عدل الله في مجازاة العباد كل بما يستحقه، وأن الجزاء من جنس العمل.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٦﴾ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّجَاهِلُونَ ﴿٥٧﴾ \* فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْأَسُ يَنْظَهُرُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ قَدَرْنَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

يذكر الله عز وجل في القرآن لوطاً بعد صالح - والله أعلم - لقرب مدائن صالح من قرى قوم لوط، وكلها معلومة للناس على الطريق بين الحجاز والشام.

قوله: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾، أي: واذكر لوطاً حين قال لقومه منكراً عليهم: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾؛ الاستفهام: للإنكار والتفريع والتوبيخ، أي: أترتكبون وتفعلون الفاحشة الشنيعة القبيحة، فاحشة اللواط، التي تستفحشها العقول السليمة، والفطر المستقيمة، والشرائع كلها، وهي إتيان الذكران، والتي ما سبقهم بها أحد من العالمين، والتي هي أعظم من الزنا وجميع الفواحش؟.

ولهذا أطلق عليها في القرآن «الفاحشة» بالتعريف؛ كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الآية: ٨٠]، وقوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الآية: ٢٨].

بينما أطلق على الزنا: «فاحشة» بالتنكير؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُوَ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢].

وإنما كان اللواط أشد وأعظم فحشاً - مع فحش الجريمتين - لأن اللواط شذوذ وخروج عن الفطرة السوية التي فطر الله الخلق عليها؛ إذ لم يوجد في البشر، ولا في الحيوانات كلها أن ذكراً يعلو ذكراً، إلا ما كان من قوم لوط؛ ولهذا روي أن الوليد بن عبد الملك قال: لولا أن الله عز وجل قص علينا قصة قوم لوط في القرآن ما ظننت أن

ذَكَرًا يَعْلُو ذَكَرًا»<sup>(١)</sup>.

وأيضاً: فإن اللواط- وهو إتيان الذكر الذكر- لا يجوز بحال من الأحوال؛ لمخالفته للفترة.

وأما إتيان الذكر المرأة فإنه لا يجوز إذا كانت المرأة زوجته أو ملك يمينه.

﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؛ الجملة: حالية، أي: وأنتم تعلمون فحشها وخبثها وشدة قبحها، ويبصر بعضكم بعضاً؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

﴿أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾؛ الاستفهام: لتأكيد الإنكار والتفريع والتوبيخ، واللام: للتوكيد، و«شهوة»: حال، أي: قد انتكست فطركم، فأصبحتم تأتون الرجال في أدبارهم شهوة.

﴿مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾؛ اللاتي خلقهن الله لكم، وجعلهن محلاً للشهوة والنكاح بالزواج أو ملك اليمين؛ كما قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦].

أي: أن شهوتكم كانت في إتيان الرجال، وليسوا محلاً للشهوة، دون النساء اللاتي هن محل الشهوة، فاستحسنتم القبيح واستقبحتم الحسن، وأسأتم فيما فعلتم وأسأتم فيما تركتم.

وهذه من العقوبات العاجلة؛ أن من ابتلي بإتيان الرجال لم يكن عنده ميل إلى النساء، حتى إن بعض من ابتلوا بذلك تركوا موضع الحرث من نسائهم، وأخذوا يكرهونهن على إتيانهم في أدبارهن.

﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾؛ بفعلكم هذه الفاحشة؛ لاستبدالكم الحلال بالحرام، والطيب بالخبيث، والطهر بالنجاسة، والنافع بالضار، وما فيه الأجر والمثوبة، بما فيه الإثم والعقوبة.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾؛ الفاء: استئنافية، أي: فما كان جواب قومه له لما

(١) انظر: «البداية والنهاية» (٩/١٦٣).

أنكر عليهم هذه الفاحشة ونهاهم عنها - بدل أن ينقادوا له، أو يتركوه وشأنه - ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾؛ «إلا»: أداة حصر، و«أن» والفعل «قالوا» في تأويل مصدر في محل رفع اسم «كان»، أي: إلا قولهم:

﴿أَخْرَجُوا آلَ لُوطٍ﴾، أي: لوط وأهل بيته، ﴿مَنْ قَرَّبَتْكُمْ﴾؛ وهي: سدوم.  
 ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾؛ تعليل لقولهم: ﴿أَخْرَجُوا آلَ لُوطٍ﴾، أي: لأنهم يتطهرون، أي: يتنزهون عن اللواط وأدبار الرجال، أي: يتطهرون عن فعلكم؛ لأن مرتكب الفاحشة لا يرضى إلا أن يكون الناس كلهم مثله؛ كما قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

فيا سبحان الله! كأنهم يقولون: أخرجوهم لا لذنب إلا أنهم يتطهرون، ومتى كان التطهر يستوجب العقاب بالإخراج أو غيره؟! وهذا محض الزيغ والضلال.  
 وقولهم: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (٥٦) يحتمل أنهم أردوا الحقيقة، وأن هذا الفعل خبيث، وهؤلاء يريدون التطهر منه.

ويحتمل - وهو الأقرب - أن قولهم: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ من باب التهكم بهم والسخرية منهم.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾، أي: فأنجينا لوطاً وأهل بيته من العذاب بسبب إيمانهم.  
 كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٥) ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦].

﴿إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ قَدَرْنَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾؛ «إلا»: أداة استثناء، أي: إلا امرأته قدرنا عليها وكتبناها من الغابرين، أي: من الهالكين الباقين في العذاب مع قومها؛ لأنها كانت معهم على دينهم راضية بأفعالهم القبيحة، معينة لهم على ذلك، بدلائنها إياهم على ضيفان لوط.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾، أي: وأنزلنا عليهم مطراً، ونكّر «مطراً» للتعظيم والتهويل، أي: مطراً من حجارة من سجيل منضود، وذلك بعد قلب ديارهم، وجعل عاليها سافلها؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا

عَلَيْهَا حِجَارَةٌ مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنْ  
الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ [هود: ٨٢، ٨٣]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا  
عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر: ٧٤].

﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾، أي: فبئس مطر المنذرين مطرهم، حيث أمطروا  
عقوبة لهم بالحجارة المهلكة، بدل الماء الذي به الرحمة والحياة؛ لأنهم أنذروا وحذروا  
عقاب الله وأليم عذابه، فلم ينزجروا، ولم يرتدعوا.

### الفوائد والأحكام:

١- التذكير بدعوة لوط عليه السلام لقومه، وإنكاره عليهم إتيان الفاحشة  
العظمى فاحشة اللواط؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ  
وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

٢- إثبات رسالة لوط عليه السلام، وأنه أرسل إلى قومه خاصة كغيره من الرسل  
عليهم السلام، عدا محمد ﷺ فقد أرسل إلى الناس عامة.

٣- أن اللواط أشد الفواحش وأشنعها وأقبحها؛ فهو أشد فحشًا من الزنا- مع  
شناعة الجريمتين- ولهذا أطلق عليه في القرآن: «الفاحشة» بالتعريف، بينما أطلق على الزنا  
«فاحشة» بالتنكير، وذلك؛ لأن اللواط شذوذ ومخالفة للفطرة السوية؛ ولأن إتيان الذكر  
الذكر لا يجوز مطلقًا، بينما إتيان الرجل المرأة يجوز إذا كانت زوجته أو ملك يمينه.  
ولهذا جعل الشرع عقوبة اللواط القتل بكل حال للفاعل والمفعول به، المحصن  
وغيره.

كما في الحديث: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»<sup>(١)</sup>.  
وذلك؛ لأنه يصعب التحرز منه؛ إذ لا يستنكر وجود الذكر مع الذكر، بخلاف  
وجود الرجل مع المرأة الأجنبية.

وأيضًا: فإنه سبب لاكتفاء الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، وذلك مخالف أشد  
المخالفة للحكمة التي أرادها الله من تكثير النسل وعمارة الكون.

(١) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤٦٢، والترمذي في الحدود ١٤٥٦، وابن ماجه في الحدود ٢٥٦١؛ من  
حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

٤- ارتكاب قوم لوط هذه الفاحشة، مع علمهم بقبحها وشناعتها وفحشها، وعلى مرأى من بعضهم لبعض، مما يزيدا شناعة وفحشا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾.

٥- إنكار لوط عليهم انتكاس فطرهم في إتيانهم الرجال شهوة وترك ما أباح الله لهم من النساء؛ لقوله: ﴿أَيُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾.

٦- أن من أسباب التشديد في أمر هذه الفاحشة أن الرجال ليسوا محلاً للشهوة ولوجود البديل المباح من النساء.

٧- أن من يفعل هذه الفاحشة الشنيعة، وهي إتيان الرجال شهوة من دون النساء يتبلى عقوبة له بعدم الرغبة في النساء، والجزاء من جنس العمل، فحيث ارتكب الحرام وآثره، ابتلي بعدم الرغبة في الحلال، جزاء وفاقاً.

٨- جهل قوم لوط وسفهم وانحطاط أخلاقهم؛ لاستبدالهم الحلال بالحرام، والطيب بالخبث، والنافع بالضار، وما فيه الأجر والمثوبة، بما فيه الإثم والعقوبة؛ لقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بُجْهَلُونَ﴾.

٩- وجوب الإنكار على من يفعل هذه الفاحشة وتنفيذ حكم الله تعالى فيه؛ لأن اللواط محرم بمقتضى الشريعة والطبيعة، وارتكابه من أعظم السفه والاعتداء؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾.

١٠- عتو قوم لوط، فلم يقتصروا على رد دعوته، بل قابلوا نصحه لهم بالعمل على إخراجهم وآله من بلدهم، مقابلة منهم للإحسان بالإساءة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾.

١١- شدة تحريضهم على لوط وآله؛ لقولهم: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾. وذلك من وجهين:

الأول: قولهم: ﴿آلَ لُوطٍ﴾، أي: أن هؤلاء ليسوا منكم فلا وجه لكونكم تسكتون عنهم.

والوجه الثاني: قولهم: ﴿مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ ففي هذا إلهاب حميتهم وعصبيتهم ليخرجوهم

من قريتهم.

١٢- أنه لا ذنب للوط وآله إلا أنهم يتطهرون عن الفاحشة التي عليها قومهم،

ولا يرضون بها؛ لقولهم: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾. وفي هذا قرن الحكم بسببه.

١٣- أن قول البعض إذا رضيه الباقون فهو ينسب للجميع، ولهذا نسب إليهم

كلهم هذا القول وعذبوا جميعاً.

١٤- أنه عند انطاس البصائر، وغلبة الهوى والشهوات يكرم أهل الفسق، ويهان

أصحاب الحق.

١٥- إنجاء الله تعالى للوط عليه السلام وأهله من العذاب؛ لقوله تعالى:

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾.

١٦- استثناء امرأته من الناجين؛ لتقدير الله أنها من الباقين في العذاب؛ لكفرها

وتواطئها مع قومها؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ قَدَّرْنَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾.

١٧- أن امرأة الرجل من أهله؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ

قَدَّرْنَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾، وفي هذا رد على الرافضة -أخزاهم الله- في إخراجهم أزواج

النبي ﷺ من أهله، ليقعوا فيهن، ويتهموهن، عليهم من الله ما يستحقون.

١٨- إثبات تقدير الله تعالى السابق لكل ما هو كائن.

١٩- أنه لا ينجي الفاسق انتسابه وارتباطه بقوم صالحين، حتى ولو كان ذلك

لأفضل الخلق رسل الله عليهم السلام، فما نفع امرأة لوط كونها زوجاً له عليه السلام،

كما قال عز وجل عنها وعن امرأة نوح: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا أُمَّرَأَتَ نُوحَ

وَأُمَّرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا

وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ [التحریم: ١٠].

وقال تعالى لنوح في ابنه: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ﴿٤٦﴾ [هود: ٤٦].

٢٠- إهلاك قوم لوط بمطر الحجارة، واستئصالهم عن آخرهم؛ لقوله تعالى:

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾، وذلك بعد قلب ديارهم، وجعل عاليها سافلها، وذلك

لسفول أخلاقهم، وانتكاس فطرهم.

٢١- سوء المطر الذي أمطروا به، وشدة العذاب الذي أهلكوا به، بقلب ديارهم، وإمطارهم بالحجارة؛ لأنهم أُنذروا وحذروا من عذاب الله وعقابه، فلم ينزجروا؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾.

٢٢- إن المطر ليس خاصًا بالماء، بل كل ما حصب به الإنسان من فوق يسمى مطرًا.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُدْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ مِمَّنْ قَوْفٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ أَكْثَرُ لَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَلَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلٌّ هَا تَوَّابُونَ ﴿٦٤﴾ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلٌّ هَا تَوَّابُونَ ﴿٦٥﴾ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٦﴾ بَلِ أَدْرَاكُ عِلْمِهِمْ فِي الْآخِرَةِ ۗ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۗ بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٧﴾ ۝

قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾:

قوله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ الأمر له ﷺ، ولكل مؤمن، و«ال» في «الحمد» للاستغراق والشمول، و«الحمد»: وصف المحمود والثناء عليه بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم.

واللام في قوله: «الله»، للاستحقاق والاختصاص، أي: الحمد الكامل المطلق مستحق لله تعالى وحده على نعمه التي لا تعد ولا تحصى؛ من نصره رسله وأتباعهم، وإهلاك المكذبين لهم وبيان الحق للخلق، وهداية من شاء وتوفيقهم إليه، وإدراار النعم عليهم، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

فله الحمد عز وجل في الدنيا والآخرة، وفي جميع الأوقات، وفي الأرض والسموات؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]، وقال

تعالى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ ﴿١٨﴾ [الروم: ١٨].  
وله الحمد على ربوبيته للخلق أجمعين؛ كما قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ  
وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٣٦﴾ [الجاثية: ٣٦].

﴿وَسَلِّمْ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ أَصْطَفَيْتَ﴾، أي: الذين اختارهم من أنبيائه ورسله  
وأوليائه وعباده المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿١٣٧﴾  
﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٣٨﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٩﴾ [الصفوات: ١٨٠-١٨٢].

وفي قوله ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ أَصْطَفَيْتَ﴾: حمد منه عز  
وجل لنفسه على ما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال، والأسماء الحسنى،  
والصفات العلا، وسلام منه على صفوة عباده من رسله وأنبيائه وعباده المؤمنين.

وفيه أمر له ﷺ وللمؤمنين بحمده عز وجل بما حمد به نفسه، وأمر له ولهم بالسلام  
على صفوة عباده من رسله وأنبيائه والمؤمنين بما سلم به الله عز وجل عليهم، فنحن  
نقول كما أمرنا عز وجل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ أَصْطَفَيْتَ﴾.

وكما أمرنا ﷺ بأن نقول في التشهد: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين».

وقال: «إنكم إذا قتلتموها أصابت كل عبد صالح في السماء والأرض»<sup>(١)</sup>.

﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مِمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ قرأ أبو عمرو ويعقوب وعاصم بالغيب: ﴿يُشْرِكُونَ﴾.  
وقرأ الباقون بالخطاب: «تُشْرِكُونَ».

والاستفهام للإنكار على المشركين في إشراكهم مع الله غيره، وتقرير خيرية الله  
تعالى خيرية مطلقة في صفاته وفي ثوابه وجزائه لمن يعبده وفي كل شيء.

و«أم»: هي المتصلة، حرف عطف، و«ما» مصدرية، أو موصولة، أي: الله خير أم  
شركهم؟ أو: أم شركاؤهم؟ و«خير»: اسم تفضيل، وأصلها: «أخير» فحذفت الهمزة،  
واستعمال التفضيل هنا فيما ليس في الطرف الآخر شيء من الفضل؛ كما في قوله تعالى:

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٨٣١، ومسلم في الصلاة ٤٠٢، وأبو داود في الصلاة ٩٦٨، والنسائي في  
التطبيق ١١٦٢، والترمذي في الصلاة ٢٨٩، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٩٩؛ من حديث عبد الله بن  
مسعود رضي الله عنه.

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]؛ إذ ليس في النار خير البتة، بل هي شر محض، وكذلك هنا المعبودات من دون الله ليس في عبادتها خير البتة، بل هي شر محض.

قوله تعالى: ﴿أَمْنَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ لَهُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [٦٦]:

وهذا وما بعده تفصيل وبيان لقوله: ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أي: بيان لما به يُعرف كمال تفرده عز وجل بالربوبية والألوهية، وبطلان إلهية ما سواه.

قوله: ﴿أَمْنَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾:

«أم» هنا وفي المواضع الأربعة بعده هي: المنقطعة، بمعنى: «بل»، التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام التقريري، أي: بل، أمّن ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ كمن لم يفعل ذلك؟؛ ولهذا قال: ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ؟﴾!

وقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: أوجدهما وما فيها وما بينهما.  
﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، أي: وأنزل لأجلكم من السماء ماء، وهو المطر، والمراد بالسماء العلو.

﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ﴾؛ بساتين كثيرة، ملتفة الأشجار، طيبة الثمار، وفي الجملة إلتفات من الغيبة إلى التكلم.

﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾، أي: صاحبة منظر حسن، وشكل بهي، من كثرة أشجارها وتنوعها، وجودة ثمارها، تبهج الناظرين وتسرههم وتعجبهم، وتبهجها قلوبهم وتنشرح لها صدورهم.

﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾، أي: ما كان ممكناً لكم، ولا في

استطاعتكم أيها الخلق ﴿أَنْ تُبْسِئُوا شَجَرَهَا﴾.

«أن» والفعل «تنبتوا» في تأويل مصدر في محل رفع اسم «كان»، أي: ما كان ممكناً لكم إنبات شجرها، بل الله عز وجل هو الذي أنزل لكم الماء من السماء، وأنبت الأشجار والنبات من الأرض؛ كما قال تعالى في سورة الواقعة: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿١٣﴾ وَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿١٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُوتَ ﴿١٥﴾﴾ [الواقعة: ٦٣ - ٦٥].

﴿أَيُّ إِلَهٍ مَعَ اللَّهِ﴾؛ الاستفهام هنا وفي المواضع الأربعة بعده: للإنكار والنفي، أي: إله مع الله فعل هذه الأفعال: خلق السموات والأرض، وأنزل لكم من السماء ماء، وأنبت به حدائق ذات بهجة، فيستحق أن يعبد مع الله ويشرك به؟! كلا، فلا أحد انفرد بشيء منها ولا أحد شارك الله في شيء منها أو أعانه، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: ٢٢].

وكقوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد: ١٦]، وقوله: ﴿هَلْ دَا خَلَقَ اللَّهُ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١]، وقوله: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٧]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [النحل: ٢٠]، وقوله: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٣﴾﴾ [الفرقان: ٣].

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾؛ «بل»: للإضراب الانتقالي، ﴿يَعْدِلُونَ﴾، أي: ينحرفون عن طريق الحق، فيعدلون بربهم ويسوون به غيره من الأنداد والشركاء، ويشركون مع الله، مع اعترافهم بأنه الخالق الرازق وحده؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨]، لقمان: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنَ الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت: ٦٣].

فهم يعترفون بربوبيته، وأنه الرب الخالق المالك المتصرف، الرازق، لكنهم يعدلون به غيره في العبادة من لا يخلق ولا يرزق، ولا يملك من الأمر شيئاً، فيشركونهم معه؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

وسيعترفون غداً حين يرون العذاب بألوهيته، حين لا ينفعهم ذلك، ويعترفون بضلالهم في تسويتهم معبوداتهم به عز وجل، بقولهم: ﴿تَأَلَّهَ إِن كُنَّا لِنِي ضَلَّلِ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨].

قوله تعالى: ﴿أَمْنَ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بِدَلٍّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: قوله: ﴿أَمْنَ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾، أي: بل، أمن ﴿جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ كمن لم يفعل ذلك؟؛ ولهذا قال: ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾؟

وقوله: ﴿جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾، أي: جعلها قارة ساكنة، مذللة، صالحة للقرار والسكن والعيش عليها، وحرثها والبناء عليها، لا تضطرب ولا تميد بأهلها، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [إغافر: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهَا﴾ [الملك: ١٥].

﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾، أي: وجعل في خلال الأرض، على ظهرها وفي جوفها أنهاراً عذبة طيبة الماء، سيرها وصرّفها فيها تشقها شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً وفي وسطها؛ تيسيراً لمصالح العباد وأرزاقهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥].

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾، أي: وجعل لها جبلاً شامخات رواسي، ترسيها وتثبتها لثلا

تميد وتضطرب بهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَالْقَلَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَىٰ أَنْ قَمِيدَ بِكُرٍّ﴾ [القمان: ١٠].  
 ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ﴾، أي: جعل بين البحر المالح والبحر العذب ﴿حَاجِزًا﴾، أي: مانعًا من الأرض يمنع من اختلاط المياه العذبة بالمياه المالحة؛ مما يفسدهما ويذهب بخاصية كل منهما، بأن جعل الأنهار والعيون العذبة مجاريها بعيدة عن البحار المالحة؛ لتبقى عذبة زلالًا لسقي الإنسان والحيوان والنبات وغير ذلك، وتبقى البحار المالحة المحيطة بالأرجاء والأقطار ومن كل جانب على خاصيتها، وهو كون مائها ملحًا أجاجًا؛ لئلا يفسد الهواء بريحتها، قال تعالى: ﴿\* وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أجاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣].

قوله: ﴿أَيُّ لَهٗ مَعَ اللَّهِ﴾، أي: أإله مع الله جعل هذا، فيستحق أن يعبد مع الله؟ كلا؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل أكثر الخلق لا يعلمون ما في هذه الآيات من العبر، ولا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويسعدهم في الآخرة، وهو العلم بالله تعالى، وما يجب له؛ ولهذا أشركوا معه غيره، وإن كان لديهم العلم الدنيوي؛ كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم: ٧].

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَّرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾، أي: بل آمن ﴿يُجِيبُ الْمُضْطَّرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ﴾ [٣٦].

قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَّرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾، أي: بل آمن ﴿يُجِيبُ الْمُضْطَّرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ كمن لا يفعل ذلك؟!؛ ولهذا قال: ﴿أَيُّ لَهٗ مَعَ اللَّهِ﴾؟

وقوله: ﴿يُجِيبُ الْمُضْطَّرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، أي: يستجيب دعاء المضطر؛ أي المكروب الذي نزل به الضر، وأملت به الخطوب، واشتدت عليه الكروب، وتعسر عليه المطلوب، واضطر للخلاص مما نزل به من مؤمن وكافر.

﴿إِذَا دَعَاهُ﴾، أي: إذا التجأ إليه ودعاه صادقًا من قلبه، مع سلامته من موانع

قبول الدعاء، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهًا إِلَّا يَأْتِيهِ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَعُّونَ﴾ [النحل: ٥٣].

﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾، أي: يزيل المكروه، ويرفع البلاء، ويدفع الشر، فيجيب دعاء المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء عامة ممن دعا، ومن لم يدعو. والسوء: كل ما يسوء حيًّا: كالمرض والفقر، ونحو ذلك، أو معنويًّا كالجهل، ونحو ذلك.

عن أبي تيممة الهجيمي، عن رجل من بلهجوم، قال: قلت: يا رسول الله، إلام تدعو؟ قال: «أدعو إلى الله وحده، الذي إن مسك ضرٌّ فدعوته كشفه عنك، والذي إذا أضللت بأرض قفر دعوته رد عليك، والذي إذا أصابتك سنة فدعوته أُنبت عليك»<sup>(١)</sup>.

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾، أي: ويجعل بعضكم يخلف بعضًا في أرضه التي يورثها من يشاء، أمة بعد أمة، وقرنًا بعد قرن، وجيلًا بعد جيل؛ خلافة شرعية أو كونية كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، أي: قومًا يخلف بعضهم بعضًا.

﴿أَلَيْسَ لَهِ مَعَ اللَّهِ﴾، أي: أليس مع الله يفعل ذلك ويقدر عليه، فيستحق أن يعبد مع الله؟ كلا؛ ولهذا قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾؛ قرأ أبو عمرو وهشام وروح بالغيب: «يَذَكَّرُونَ»، وقرأ الباقون بالخطاب: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾.

و«قليلًا»: مفعول مطلق، و«ما»: مصدرية، أي: قليلًا تذكركم واتعاظكم

وتفكرم فيما ينفعكم ويرشدكم إلى الحق، وإلى الطريق المستقيم، قد غلبت عليكم الغفلة.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٣﴾﴾:

قوله: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ﴾، أي: بل أمَّن ﴿يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ﴾ كمن لا يفعل ذلك ولا يقدر عليه؟ ولهذا قال: ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ ۗ﴾؟

أي: من يدلکم ويرشدکم في ظلمات البر والبحر، حيث لا معلم ولا دليل إلا هدايته لكم بما يسر لكم من الدلائل السماوية، كالقمر والنجوم في الليل، والشمس في النهار، والرياح، والدلائل الأرضية، والأسباب العلمية التي تهتدون بها؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَتِ وَابِلَاتِجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾، [النحل: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ التُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۗ﴾ [الأنعام: ٩٧].

﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ﴾، أي: مبشرات بين يدي السحاب والمطر، تثير السحاب ثم تؤلفه وتجمعه، ثم تلقحه، ثم تسوقه، ثم تدره، فيستبشر بذلك العباد قبل نزول المطر.

والمراد بالرحمة في قوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ﴾: المطر؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَنْظُرْ إِلَىٰ ءَاثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۗ﴾ [الروم: ٥٠]، أي: المطر.

﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ ۗ﴾، يفعل ذلك ويقدر عليه، فيستحق أن يعبد مع الله؟ كلا، ولهذا قال: ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۗ﴾. أي: تعالى الله وتعاضم عن شركهم، وعن شركائهم.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤﴾﴾:

قوله: ﴿أَمَّنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: بل  
 ﴿أَمَّنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ كمن لا يفعل ذلك،  
 ولا يقدر عليه؟ ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ؟﴾

وقوله: ﴿أَمَّنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، أي: الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم  
 يعيده، خلقاً آخر؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ  
 عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٣﴾ إِنَّهُ هُوَ بَئِدُ وَيُعِيدُ ﴿١٤﴾﴾  
 [البروج: ١٢ - ١٣]، وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: بما ينزل من المطر وبركات السماء، وبما  
 يقدره من الرزق، كما قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢].

وبما يخرج لكم من النبات وبركات الأرض؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ  
 مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾  
 [البقرة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا  
 لَكُمْ وَسَخَّرْنَا لَكُمْ الْفُلْكَ﴾ [إبراهيم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ  
 مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ  
 السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٩﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْسَابًا  
 كَثِيرًا ﴿٥٠﴾﴾ [الفرقان: ٤٨ - ٤٩]، وفي قوله تعالى هنا: ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ  
 وَالْأَرْضِ﴾، وقوله قبله: ﴿وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ  
 بَهْجَةٍ﴾، وقوله: ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾: تأكيد للامتنان  
 عليهم بما وفر لهم من الرزق وأسبابه، والذي به حياتهم.

﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ؟﴾، أي: يفعل ذلك ويقدر عليه، فيستحق أن يعبد مع الله؟ كلا؛  
 ولهذا قال: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾، أي: قل يا محمد لمن زعموا أن هناك آلهة مع الله،  
 وأشركوهم مع الله: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾، أي: أحضروا دليلكم وحجتكم، والأمر  
 للتحدي.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ في دعواكم أن هناك آلهة مع الله.  
 وأنى لهم ذلك؟ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].  
 قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [٦٥]:

لما بين عز وجل تفردة بالخلق، وإنزال المطر، وإنبات النبات، وجعل الأرض قراراً، وخلالها أنهاراً، وتثبيتها بالرواسي، وجعله بين البحرين حاجزاً، وإجابته المضطر، وكشفه السوء، وجعل الخلائق خلفاء الأرض، وبدئه الخلق ثم إعادته، ورزقهم من السماء والأرض، أتبع ذلك بيان اختصاصه وحده بعلم الغيب.  
 قوله: ﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد للناس عامة، ولمن يدعي أن أحداً من الخلق يعلم الغيب من الشركاء وغيرهم:

﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾؛ «إلا»: للاستثناء، أي: لا يعلم الغيب أحد سوى الله تعالى وحده؛ كما قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].  
 وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ [يونس: ٢٠].

وقد قال عز وجل لأفضل الخلق وسيدهم ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «من زعم أنه يعلم - يعني: النبي ﷺ - ما يكون في غد؛ فقد أعظم على الله الفرية؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبِ إِلَّا اللَّهُ ﴿١﴾ .

قال قتادة: «إن الله تبارك وتعالى إنما جعل هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدى بها، وجعلها رجوماً للشياطين، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه، وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به، وإن ناساً جهلة بأمر الله، قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة: من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن ولد بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود، والطويل والقصير، والحسن والذميم، وما علم هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطائر بشيء من الغيب، قضى الله أنه: ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبِ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (٢) .

قال ابن كثير (٣) بعد ذكره قول قتادة هذا: «وهو كلام جليل متين صحيح».   
﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾، أي: وما يعلمون وما يدرون متى يبعثون من القبور للحساب والجزاء.

﴿بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾؛ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر بقطع الهمزة مفتوحة وإسكان الدال من غير ألف بعدها: «أدرك»، وقرأ الباقون بوصل الهمزة وتشديد الدال مفتوحة وألف بعدها: ﴿أَدْرَاكَ﴾.

و﴿بَلِ﴾ في المواضع الثلاثة: للإضراب الانتقالي، أي: بل ضعف علمهم في الآخرة وغاب، فلم يؤمنوا بها، ولم يستعدوا لها، ولم يعلموا متى وقتها.

والضمير في قوله: ﴿عِلْمُهُمْ﴾ للكفار؛ ولهذا قال: ﴿بَلِ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾، أي: بل هم في شك من وقوعها؛ كما قال الله تعالى عنهم: ﴿قَالُوا آءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَعْمَلْنَا لَكُمْ بُعُوثًا ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا لَكُنُوزًا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المؤمنون: ٨٢-٨٣].

﴿بَلِ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ﴾؛ «عمون» جمع «عم» بالتنوين، وهو على وزن: «فعل»،

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٢٩١٣/٩.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٢٩١٣/٩، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٢١٦/٦.

(٣) في «تفسيره» ٢١٦/٦.

صيغة مبالغة من العمى؛ للدلالة على شدة العمى؛ قال زهير<sup>(١)</sup>:

وأعلم علم اليوم والأمس قبله      ولكنني عن علم ما في غدٍ عمي  
والمعنى: بل هم من الآخرة عمون، لا علم لهم بها، فانتقلوا من عدم الشعور متى  
تكون، إلى ضعف العلم بها، إلى الشك بها، إلى أن بلغوا غاية المراتب وهي العمى، أي:  
عمى القلوب والبصائر عنها كلية؛ ولهذا لم يعملوا لها، بل أنكروها، واستبعدوا  
وقوعها.

### الفوائد والأحكام:

- ١- حمد الله تعالى لنفسه، وسلامه على عباده الذين اصطفاهم من الرسل والأنبياء  
والمؤمنين، وأمره نبيه ﷺ بحمده عز وجل، والسلام على عباده الذين اصطفاهم؛ لقوله  
تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾.
- ٢- في أمر الله عز وجل للنبي ﷺ بحمده والسلام على عباده الذين اصطفى؛ أمر  
للمؤمنين بحمد الله تعالى، والسلام على من اصطفاهم من أنبيائه ورسله وعباده  
الصالحين، ووجوب ذلك عليهم، فلك الحمد ربنا، وسلام على عبادك المصطفين.
- ٣- أن الحمد المطلق، والوصف بصفات الكمال مع تمام المحبة والتعظيم؛ مستحق  
لله تعالى وحده، خاص به؛ وأنه عز وجل يُحمد على كل حال، من إهلاك أعدائه وإنجاء  
أوليائه، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.
- ٤- فضيلة الرسل والأنبياء ومن اصطفاهم الله تعالى من عباده، ورفع منزلتهم؛  
لأن الله تعالى سلم عليهم، وأمر نبيه والمؤمنين بالسلم عليهم.
- ٥- إثبات عبودية الرسل والأنبياء والمؤمنين لله عز وجل عبودية خاصة.
- ٦- اصطفاء الله تعالى واختياره من عباده من يشاء لرسالاته ولعبادته والإيمان به،  
كما قال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨]، وقال تعالى:  
﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمَنْ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].
- ٧- الإنكار على المشركين في إشراكهم مع الله عز وجل - الذي له الخلق والأمر،

(١) انظر: «ديوانه» (ص ١١٠).

وبيده الخير والنفع والضر - آلهة لا تنفع ولا تضر، ولا تملك شيئاً من الأمر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مِّمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

٨- أن أفعل التفضيل قد يستعمل في المفاضلة فيما ليس في أحد الطرفين شيء من الفضل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مِّمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ إذ ليس في شرك المشركين وشركائهم خير البتة، بل ذلك شر محض.

٩- أن الله عز وجل خير من كل شيء خيرية مطلقة.

١٠- إثبات أن الله عز وجل وحده هو الذي خلق السموات والأرض، وأنزل من السماء ماء، وأنبت به حدائق ذات بهجة، واستحقاقه وحده العبادة، وأنه لا إله مع الله فعل ذلك، فيستحق أن يعبد معه؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾.

١١- إثبات كمال قدرة الله تعالى وحكمته، ونعمته في خلقه السموات والأرض، وإنزال المطر من السماء، وإنبات الحدائق والأشجار والنبات، وما في ذلك من منافع للخلق.

١٢- حكمة الله تعالى في جعل المطر ينزل من السماء ليسقي السهل والجبل.

١٣- إثبات الحكمة وربط الأسباب بمسبباتها؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ﴾، ففي قوله: ﴿فَأَنْبَتْنَا﴾ إضافة الشيء إلى مسببه، لا إلى سببه، وفي قوله: «به» إثبات السبب.

١٤- إباحة التنزه في الحدائق والتأمل في عجيب ما أودع الله فيها مما يبهج القلب ويشرح الصدر، ويسر الناظرين، ويمجد النشاط للعبادة والعمل.

وكما جاء في حديث حنظلة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»<sup>(١)</sup>.

١٥- أنه ليس بإمكان الخلق، ولا في مقدورهم إنبات النبات؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾.

(١) أخرجه مسلم في التوبة ٢٧٥٠، والترمذي في صفة القيامة ٢٥٤١، وابن ماجه في الزهد ٤٢٣٩.

١٦- تحدي المشركين المتخذين مع الله إلهة أن يكون لأهلهم شيء مما ذكر فتستحق أن تعبد؛ لقوله تعالى: ﴿أَيُّ إِلَهٍ مَعَ اللَّهِ﴾.

١٧- عدول المشركين سفهاً منهم وانحرافهم عن الحق، وتسويتهم شركاءهم بالله، مع اعترافهم بأنه الرب الخالق الرازق؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾.

١٨- إثبات أن الله عز وجل هو الذي جعل الأرض قراراً، وجعل خلالها أنهاراً، وأرساها بالجبال الرواسي، وجعل بين البحرين حاجزاً، واستحقاقه وحده العبادة دون سواه، وأنه لا إله مع الله فعل ذلك فيستحق أن يعبد مع الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾.

١٩- إثبات تمام قدرة الله تعالى، ومنتته على خلقه بجعل الأرض قراراً، وجعله خلالها أنهاراً، وترسيتهما بالجبال، وجعله بين البحرين حاجزاً؛ لمصالح عباده.

٢٠- أن أكثر الخلق لا يعلمون العلم الذي يسعدهم حقاً، وينفعهم في الآخرة، وهو العلم بالله وما يجب له؛ ولهذا أشركوا معه غيره؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فلا يغتر بما عليه أكثر الخلق.

٢١- إثبات أن الله عز وجل هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، ويجعل الخلائق يخلف بعضهم بعضاً في الأرض، وإثبات استحقاقه وحده العبادة، وأنه لا إله مع الله فعل ذلك فيستحق العبادة معه؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَجَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾.

٢٢- أنه عز وجل يجيب دعوة المضطر مؤمناً كان أو كافراً، وقد قال ﷺ لمعاذ رضي الله عنه حين بعثه داعياً إلى اليمن: «واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»<sup>(١)</sup>، وقال عز وجل في الحديث القدسي: «إن رحمتي سبقت غضبي»<sup>(١)</sup>.

٢٣- قدرة الله تعالى التامة، ونعمته العظيمة على العباد في إجابته دعوة المضطر

(١) سبق تخرجه.

منهم، وكشف السوء، واستخلافهم في الأرض.

٢٤- قلة تذكر الخلق واتعاضهم، وقلة المتذكر منهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا

تَذَكَّرُونَ﴾.

٢٥- ينبغي الالتجاء إلى الله تعالى وحده، ودعاؤه دون سواه؛ لرفع الضر وكشف

السوء والبلاء، والإكثار من ذكره، والتذكر والاتعاظ بآياته.

٢٦- إثبات أن الله عز وجل هو الذي يهدي في ظلمات البر والبحر، ويرسل

الرياح بشرًا بين يدي رحمته، واستحقاقه وحده العبادة، وأنه لا إله مع الله فعل ذلك

فيستحق العبادة مع الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ

يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَلَيْهَ مَعَّ اللَّهُ ۗ﴾.

٢٧- منة الله تعالى العظيمة، وقدرته التامة في هدايته العباد في ظلمات البر والبحر،

وإرسال الرياح تبشرهم بالمطر.

٢٨- أن المطر من رحمة الله تعالى.

٢٩- تنزه الله عز وجل، وتعالیه، وتعاضمه عن شرك المشركين، وعن شركائهم؛

لقوله تعالى: ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

٣٠- إثبات أنه عز وجل هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، ويرزق الخلق من السماء

والأرض، واستحقاقه وحده العبادة، وأنه لا إله مع الله فعل ذلك، فيستحق العبادة مع

الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَيْهَ مَعَّ

اللَّهُ ۗ﴾.

٣١- كمال قدرة الله تعالى، وتمام نعمته على العباد، في بدء الخلق وإعادته، ورزقهم

من السماء والأرض بالمطر والنبات وغير ذلك.

٣٢- تحدي المشركين بالإتيان ببرهانهم ودليلهم وحجتهم على أن هناك آلهة مع

الله، وعلى شركهم بالله؛ وأنى لهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ﴾.

٣٣- اختصاص الله عز وجل، وتفردده وحده بعلم الغيب؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا

يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۗ﴾.

٣٤- جهل الخلائق بالقيامة، وعدم علمهم متى يبعثون؛ لأن ذلك مما انفرد الله تعالى بعلمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾؛ ولهذا لما سأل جبريل النبي ﷺ عنها قال ﷺ: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل»<sup>(١)</sup>.

٣٥- غياب علم المشركين بالآخرة، ومتى وقتها، وشكهم فيها، وعمى بصائرهم عنها؛ ولهذا لم يستعدوا لها، بل أنكروها؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلِ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلِ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

وإنما يكمل علمهم بها يوم يرونها حقيقة يوم القيامة حين لا ينفعهم ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾<sup>(٣)</sup> [مريم: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُْنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾<sup>(٤)</sup> [التكاثر: ٧].

\* \* \*

(١) أخرجه البخاري في الإبان ٥٠، ومسلم في الإبان ٩، والنسائي في الإبان وشرائعه ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذْذَا كُنَّا تُرَابًا وَّءَابَاؤُنَا آيَاتًا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَّءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصِّلُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذْذَا كُنَّا تُرَابًا وَّءَابَاؤُنَا آيَاتًا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَّءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾:

قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ إنكاراً منهم للبعث، وتكذيباً به: ﴿إِذْذَا كُنَّا تُرَابًا وَّءَابَاؤُنَا آيَاتًا لَمُخْرَجُونَ﴾؛ الاستفهام: للإنكار في الموضوعين.

واللام في قوله: ﴿لَمُخْرَجُونَ﴾ للتوكيد.

﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا﴾ البعث ﴿نَحْنُ وَّءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا﴾؛ «إن» نافية بمعنى: «ما»، أي: ما هذا الوعد بالبعث ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ «إلا»: أداة حصر، ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ قصصهم وحكاياتهم الكاذبة، التي سطورها في كتبهم وتناقلوها بينهم للتسلية والترجية.

﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء الكفار المنكرين للبعث، وما جاءت به الرسل.

﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: امشوا فيها، وتنقلوا بين جنباتها.

﴿فَانظُرُوا﴾؛ بأبصاركم، وتأملوا واعتبروا ببصائرهم وقلوبكم.

﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾، أي: كيف كانت نهاية المجرمين المكذبين للرسل، وما

جاؤوا به من عند الله؟ حيث حلت بهم العقوبات والمثلات، وصاروا عبرة للمعتبرين، وخبراً بعد عين؛ كما قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْدِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿\* أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرْنَا اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَاللَّكْفَرِينَ الْأَمْثَلَهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد: ١٠].

وقال تعالى: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾، أي: لا تأسف ولا تأس على هؤلاء المكذبين؛ لعدم إيمانهم، فلو علم الله فيهم خيراً لهداهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَنِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدَّهَبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

﴿وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾؛ «ما»: مصدرية، أي: من مكرهم، ويجوز كونها موصولة، أي: من الذي يمكرونه.

أي: لا يضيّق صدرك بسبب مكرهم وكيدهم لك ولما جتّهم به من الحق؛ فإنهم إنما يمكرون بأنفسهم، ومكرهم عاقبته عليهم، والله معك، حافظك وناصرك ومظهر دينك؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [النحل: ١٢٧].

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآيَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾:

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾:

ذكر في الآيات السابقة قولهم: بأن الوعد بإخراجهم بعد كونهم ترابًا من قبورهم من أساطير الأولين، ثم ذكر هنا استعجالهم هذا الوعد ومتى يكون؛ تكذيبًا به، وإنكارًا له.

أي: ويقول الكفار المكذبون بالبعث: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾، أي: متى البعث والقيامة؟ والاستفهام: للاستبعاد والتكذيب والاستعجال والتهمك؛ بدليل قولهم: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، أي: إن كنتم أيها الرسل صادقين في زعمكم أن هناك بعثًا وحسابًا وجزاء.

﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾، أي: عسى أن يكون قرب لكم بعض الذي تستعجلون من العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾ [الإسراء: ٥١ - ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۗ﴾ [الحج: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَآيَاتِنَاهُمْ بَعْتَهُ وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ۗ﴾ [يس: ٣٣] ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ۗ﴾ [العنكبوت: ٥٣ - ٥٤].

وفي الآية تهديد لهم بقرب العذاب؛ لأن «عسى» من الله واجبة؛ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما<sup>(١)</sup>.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَذُو فَضْلٍ﴾؛ اللام: للتوكيد، ونكر «فضل»: للتعظيم، أي: لصاحب فضل عظيم، وكرم عميم ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ كلهم، في إسباغه النعم عليهم مع كفر كثير منهم وظلمهم لأنفسهم؛ ولهذا قال:

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾، أي: أكثر الناس لا يشكرون الله على فضله عليهم ونعمه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾؛ اللام: للتوكيد، و«ما»: موصولة، أي: ليعلم الذي تكن صدورهم، أي: الذي تخفيه وتضمره وتنطوي عليه صدورهم.

﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، أي: والذي يعلنون، أي: والذي يظهره ويبدونه ويجهرون به.

(١) سبق تحريجه.

كما قال تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ [يس: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنْكَ مَنَ أَسْرَ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِالَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ ﴿٧٠﴾ [الرعد: ١٠].

﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾، أي: وما من شيء غائب عن أبصار الخلائق، ولا خبيثة في السماء والأرض ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾؛ «الإلا»: أداة حصر، ونكر «كتاب»؛ للتعظيم، أي: إلا في كتاب عظيم؛ وهو اللوح المحفوظ، الذي كتب الله تعالى فيه كل شيء مما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿٧٠﴾ [الحج: ٧٠].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُضُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ **وَأَنَّهُ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴿٧٧﴾ **إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ** ﴿٧٨﴾ **فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ** ﴿٧٩﴾ **إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الضُّمَمَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدِيرِينَ** ﴿٨٠﴾ **وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُّسْمِعُونَ** ﴿٨١﴾:

قوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُضُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾:

ذكر في الآيات السابقة قول المكذبين للبعث، ولما جاء به ﷺ: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، ثم ذكر في هذه الآيات عظمة القرآن، وما اشتمل عليه من الأخبار الصادقة والهدى والرحمة الدالة على أنه من عند الله تعالى وأنه حق وصدق.

أي: إن هذا القرآن العظيم المنزل على النبي ﷺ ﴿يَفُضُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ أي: الموجودين في عهد النبي ﷺ ومن يأتي منهم بعد ذلك، أي: بين لهم.

﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾؛ مما يحتاج إلى بيان القول الفصل فيه؛ كما في اختلافهم في عيسى عليه السلام؛ فاليهود كذبوه وأنكروا رسالته، وافتروا عليه وعلى أمه، والنصارى عبدوه وغفلوا فيه، فقالوا: هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة! تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً!

فجاء القرآن الكريم بالقول الوسط الحق العدل: أنه عبد الله ونبيه ورسوله؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ﴾ [مريم: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٦]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٤].  
 ﴿وَإِنَّهُ لَهْدَى﴾؛ اللام: للتوكيد، أي: وإن هذا القرآن هدى، فيه بيان الحق، والدلالة عليه والهداية إليه، والعصمة من الغي والضلال بإذن الله.  
 ﴿وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: سبب لرحمتهم، فيه سعادتهم في دنياهم وأخراهم، ونجاتهم من العذاب.

وإنما خص بهداية القرآن ورحمته المؤمنين؛ لأنهم هم الذين يهتدون به، وينتفعون بما فيه، ويعملون به بتوفيق الله وإلا فهو بيان وهدى للناس جميعاً؛ كما قال تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾، أي: إن ربك يا محمد يفصل يوم القيامة بين المختلفين من بني إسرائيل وغيرهم، وبين الخلائق جميعاً ﴿بِحُكْمِهِ﴾، أي: بحكمه وقضائه النافذ في ذلك اليوم، كما حكم بينهم في الدنيا بما قص عليهم في كتابه.  
 ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾، أي: ذو العزة التامة في حكمه وقضائه وانتقامه، وغير ذلك.  
 ﴿الْعَلِيمُ﴾؛ ذو العلم الواسع لكل شيء من أعمال العباد وأقوالهم، وغير ذلك، فاجتمع في قضائه العزة والقوة، والعلم الواسع، فجاءت أحكامه أعدل الأحكام وأقومها.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾؛ الخطاب للنبي ﷺ، أي: اعتمد على الله في تبليغ رسالة ربك ودينه، وفوض إليه في جميع أمورك، في جلب الخير ودفع الضر، وثق به يكفك كل شيء.  
 ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾؛ الجملة: تعليل لأمره بالتوكل على الله، أي: لأنك على الحق المبين، أي: على الحق الثابت بصدق أخباره وعدل أحكامه، البين الواضح

الظاهر، ولا تكثر بمن خالفك؛ فلن يضرك ضلال من ضل، وليس عليك هداهم.  
 والتوكل نصف الدين قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال  
 تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

قال ابن القيم: «وفي ذكر أمره بالتوكل مع إخباره بأنه على الحق؛ دلالة على أن  
 الدين بمجموعه في هذين الأمرين: أن يكون العبد على الحق في قوله وعمله واعتماده  
 ونيته، وأن يكون متوكلاً على الله، واثقاً به، فالدين كله في هذين المقامين»<sup>(١)</sup>.

﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكَلِمَاتِ﴾؛ الإسماع: إبلاغ الكلام إلى المسامع.  
 والإسماع المنفي: إسماع الانتفاع، والموتى جمع: ميّت، والمراد بـ«الموتى»: موتى  
 القلوب؛ من المكذبين والكفار، كما قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا  
 لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّارِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ  
 الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠]، أي: حياة قلبية، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنَ فِي  
 الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]، أي: أن موتى القلوب كأصحاب القبور لا يمكن إسماعهم.

والمعنى: إنك لا تستطيع إسماع من ماتت قلوبهم من المكذبين والكفار إسماعاً  
 يتفنون به، وإن أسمعهم حسياً إسماع إدراك؛ كما لا تستطيع إسماع الموتى الذين في  
 قبورهم؛ لأن من مات قلبه لا ينتفع بما يسمع، فكأنه لا يسمع كميّت القبر؛ كما قال  
 تعالى: ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ  
 أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:  
 ٤٤].

﴿وَلَا تَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَوْ أُمَّدِرِينَ﴾؛ قرأ ابن كثير بالياء مضمومة، وفتح  
 الميم، و«الصم» بالرفع: ﴿وَلَا يُسْمَعُ الصُّمُّ﴾، وقرأ الباقون بالتاء مضمومة، وكسر الميم،  
 ونصب «الصم»: ﴿وَلَا تَسْمَعُ الصُّمُّ﴾.

والصم جمع: «أصم»، وهو من لا يسمع، والمراد: صم القلوب.

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٤٤.

أي: ولا تستطيع إسماع صم القلوب الذين لا يتفعلون بسمعهم ﴿الدَّعَاءَ﴾، أي: النداء والدعوة إسماعاً ينفعلهم، وإن أسمعهم إسماعاً حسياً وإسماع إدراك. ﴿إِذَا وَلَوْ مَدْبِرِينَ﴾؛ «مدبرين» حال، أي: إذا ولوا على أعقابهم مدبرين بأبدانهم، معرضين بقلوبهم عنك وعن دعائك.

كما لا تستطيع إسماع صم الأذان إذا ولوا مدبرين عنك وهذا غاية ما يكون من بُعد السمع، صم الأذان، وولوا مدبرين، فلا أمل في أن يسمعوا. وقوله: ﴿مُدْبِرِينَ﴾، أي: على أدبارهم، وفي هذا تشنيع عليهم. فاجتمع فيهم ثلاثة موانع من الانتفاع بالسمع: الأول: الصمم المعنوي؛ وهو عدم انتفاعهم بما يسمعون من الدعوة والموعظة. الثاني: توليهم مدبرين بأبدانهم عنه.

الثالث: إعراضهم بقلوبهم عن دعوته. وهذا أشد. ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنِ ضَلَالَتِهِمْ﴾؛ قرأ حمزة بقاء مفتوحة، وسكون الهاء، دون ألف، ونصب «العمي»: «تَهْدِي الْعُمَىٰ»، وقرأ الباقون بباء الجر، وفتح الهاء، وألف بعدها، وخفض «العمي»: ﴿بِهَادِي الْعُمَىٰ﴾. والعمي جمع، أعمى. أي: وما أنت بهادي عُمَى القلوب والبصائر وصارفهم عن ضلالتهم وغيرهم وتيههم في الباطل إلى الحق، أي: أنك لا تستطيع ذلك. ﴿إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾؛ «إن»: نافية بمعنى: «ما»، أي: ما تسمع، و«إلا»: أداة حصر، و«من»: موصولة، أي: ما تسمع إلا الذي يؤمن بآياتنا، أي: يصدق بقلبه بآياتنا الشرعية والكونية.

﴿فَهُمْ مُّسَلِّمُونَ﴾؛ الجملة: تعليلية، أي: فهم مستسلمون مستحيون لها، منقادون بجوارحهم لفعل الواجبات وترك المنهيات؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦].

### الفوائد والأحكام:

١- إنكار الكفار للبعث، وتكذيبهم به واستبعادهم له؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَّآبَاءُنَا أَيْنَا لِمُخْرَجُونَ﴾ [٧٧].

٢- تليسههم الحق بالباطل بالشبهات والتمويه: لقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَّءَابَاؤُنَا أَنِيتًا لَمُخْرَجُونَ ﴿١٧﴾﴾، وقولهم: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَّءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾، أي: ولم يروا شيئاً، وكأنهم وعدوا بذلك في الدنيا.

٣- زعمهم أن ما وعدوا به من البعث هم وآباؤهم، وما جاءت به الرسل من عند الله: من حكايات الأولين وقصصهم وخرافاتهم التي سطروها في كتبهم، وتناقلوها للتسلية وترجية الأوقات؛ لقولهم: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَّءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨﴾﴾.

٤- الوعيد والتهديد لهم، وأمرهم بالسير في الأرض، والنظر بأبصارهم، والتأمل ببصائرهم وعقولهم: كيف كانت نهاية المجرمين المكذبين للرسل، وما حل بهم من العقوبات والدمار والهلاك؟ لقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٩﴾﴾.

٥- أهمية السير في الأرض والنظر والتأمل في عقوبات الماضين من المكذبين ومصارعهم؛ لأن في ذلك عبرة وعظة لمن يعتبر، والسعيد من وعظ بغيره فاتعظ.

٦- أن العبرة بعواقب الأمور ونهاياتها، وليست في بداياتها.

٧- تسلية الله تعالى لنبيه ﷺ، بالألا يحزن على هؤلاء الكفار من قومه؛ لعدم إيمانهم؛ لأن الله لو علم فيهم خيراً لهداهم، وألا يضيق صدره بسبب مكرهم؛ لأنهم إنما يمكرون بأنفسهم، والله حافظه وناصره ومؤيده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾. وفي هذا تسلية للدعاة إلى الله والمصلحين بأن عليهم الاستمرار في طريقهم، والتناج على الله.

٨- أن الرسول ﷺ كغيره من البشر، يتتابه ما يتتابه من الحزن وضيق الصدر؛ ولكن الله تعالى معه، يذهب حزنه، ويكشف كربته، ويشرح صدره.

٩- استعجالهم بما وعدوا به من البعث والعذاب؛ سفهاً منهم واستبعاداً له، وتكذيباً به، وتهكماً بالرسل؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢١﴾﴾.

١٠- التهديد لهم بقرب العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدْفَ لَكُمْ

بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٦﴾.

١١- حلم الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ ﴿٧٦﴾، فتوعدهم ببعضه دون كله.

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ، وتشريفه وتكريمه بخطاب الله تعالى له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾.

١٣- عظم فضل الله تعالى وإنعامه على الناس، وقلة الشاكرين منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٧٦﴾.

١٤- ينبغي عدم الاغترار بما عليه أكثر الخلق، فأكثرهم غير شاكرين؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣].

١٥- علم الله تعالى الواسع التام بما يخفيه الخلائق وما يظهره؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ﴿٧٤﴾.

١٦- وجوب مراقبة الله تعالى في السر والعلن؛ لأن الله تعالى يعلم السر وأخفى، وسيحاسب الخلائق ويمجازيهم على أعمالهم خيرها وشرها.

١٧- أن علم الله تعالى بما يسره الخلق كعلمه بما يعلنون؛ لهذا قدم قوله: ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد: ١٠].

١٨- إحصاء الله تعالى لكل شيء، وكتابته ذلك في اللوح المحفوظ، وأنه لا يغيب عن علمه أي شيء في السماء ولا في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٧٥﴾. وفي هذا إثبات مرتبتين من مراتب القضاء والقدر، وهما: العلم والكتابة، والرد على القدرية الذين ينفون تقدير الله السابق، ويزعمون أن أعمال العبد ليست بمشيئة الله، تعالى عن قولهم.

١٩- بيان القرآن الكريم لبني إسرائيل القول الحق العدل في كثير مما اختلفوا فيه؛ كما في اختلافهم في عيسى عليه السلام؛ فاليهود كذبوه وافتروا عليه، والنصارى عبدوه وغلوا فيه، فجاء القرآن فيبين القول الحق العدل فيه، وأنه عبد الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿٧٦﴾، وقال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠].

٢٠- أن القرآن قصص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون، وهو الذي في قصصه عليهم فائدة دون ما عدى ذلك.

٢١- هيمنة القرآن الكريم على الكتب السماوية السابقة، وأنه الحاكم عليها.

٢٢- التعريض بدم بني إسرائيل بسبب اختلافهم، لأن الخلاف شر ومذموم وغير محمود.

٢٣- أن القرآن هدى ورحمة للمؤمنين خاصة؛ لأنهم هم الذين يهتدون به، ويتنفعون بها فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۗ﴾؛ كما أنه هدى هداية عامة، ورحمة عامة لجميع الخلق.

٢٤- فضيلة الإيثار، لأنه سبب للتوفيق للاهتداء بالقرآن، ونيل الرحمة به

٢٥- قضاء الله عز وجل يوم القيامة بين الخلائق بحكمه العدل، وقضائه الفصل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ﴾، كما له القضاء بينهم في الدنيا، فله الحكم الشرعي بينهم في الدنيا، وله الحكم الجزائي بينهم في الآخرة، وله الحكم القدري في الدارين.

٢٦- إثبات اسمي الله عز وجل: «العزیز»، و«العلیم»، وصفتي: العزة التامة، والعلم الواسع؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.

٢٧- في اقتران اسميه عز وجل «العزیز» و«العلیم»، وصفتي العزة والعلم في حقه كمال إلى كمال.

٢٨- حاجة الحاكم والقاضي إلى صفة القوة؛ ليكون حكمه زاجراً نافذاً، وإلى صفة العلم؛ ليكون حكمه عدلاً صواباً، موافقاً للحق والدليل.

٢٩- أمره تعالى للنبي ﷺ بالتوكل عليه، وتفويض أموره إليه في تبليغ رسالة ربه ودينه، والثقة بكفايته له ونصره؛ لأنه على الحق البين الواضح؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ۗ﴾.

٣٠- شهادة الله تعالى بأن ما جاء به ﷺ هو الحق، وأنه ﷺ على الحق المبين، ومفهوم هذا أن ما خالفه فهو باطل ظاهر

٣١- وجوب التوكل على الله، وأن من جمع بين الاستقامة على الحق، والتوكل على الله

تعالى، فهو محفوظ بحفظ الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].  
 ٣٢- أن الحق وإن كان بيناً واضحاً وضوح الشمس رابعة النهار، فإنه لا يظهر للخفافيش؛ لأن ضياء النهار يعميها؛ ولهذا عقب هذا بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الْأَصْمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْبِرِينَ﴾ (٨٠).  
 وكما قيل:

خفافيش أعشاها النهار بضوئه فوافقها من ظلمة الليل غيب

فظلت تحاكي الطير في ظلمة الدجى وإن لاح ضوء الصبح للعش تهرب (١)

٣٣- أنه ﷺ لا يستطيع إسماع من ماتت قلوبهم إسماع انتفاع، وإن أسمعهم إسماع إدراك كما لا يستطيع لا هو ولا غيره إسماع موتى القبور إسماع إدراك كإسماع الأحياء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾.

٣٤- أن الموتى لا يسمعون في قبورهم كما يسمع الأحياء، وإن كان لهم سماع كما دلت عليه بعض الأحاديث دون ذلك والله أعلم.

٣٥- أنه ﷺ لا يستطيع إسماع الصم إسماع انتفاع بما يدعوهم إليه، إذا كانوا لا ينتفعون بما يسمعون، وولوا مدبرين عن الحق معرضين عنه، كما لا يستطيع هو ولا غيره إسماع صم الأذان إذا ولوا مدبرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْمَعُ الْأَصْمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْبِرِينَ﴾.

٣٦- أن من كان أصمَّ حسيًّا فإنه لا يسمع النداء، ويزداد عدم سماعه إذا ولى مدبراً.

٣٧- أن من مات قلبه ولم يقبل الحق، ولم ينتفع به فهو منزلة الميت الذي لا يسمع وأن من لم ينتفع بسماع الحق فهو بمنزلة الأصم الذي لا يسمع.

٣٨- أنه ﷺ ليس بيده هداية من عميت بصائرهم وضلوا عن الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنِ ضَلَالَتِهِمْ﴾.

٣٩- أن من لم يبصر الحق، ولم يهتد به، وضل عنه فهو بمنزلة الأعمى.

(١) البيتان لابن مشرف. انظر: «ديوانه» ص ٣٣.

٤٠- أنه إنما يسمع دعوته ﷺ، ويتتبع بساعه لها من آمن بقلبه بآيات الله، واستسلم وانقاد لها بجوارحه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

٤١- أن هداية القلوب بيد الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

٤٢- أن الإيمان يستلزم الإسلام فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمن لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنِ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَخَشِرُ مِنْ كُلِّ آمَةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ وَقَالَ أَكْذَبْتُمْ بَيِّنَاتِي وَلَمْ تُخِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذًا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لِسَانِكُمْ فِيهِ وَالتَّهَارُ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾.

قوله: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾، أي: وإذا وقع القول والقضاء على الناس، وحق عليهم العذاب، وذلك عند فساد الناس، وتبديلهم الدين الحق، وقرب الساعة. ﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ ﴾؛ نكر دابة؛ لأنها غير معروفة، بل منفردة من نوعها، وللتحويل والتعظيم، وهي من علامات الساعة الكبرى.

﴿ تُكَلِّمُهُمْ ﴾، أي: تحدثهم وتخطابهم، فتقول: ﴿ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾، قرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب بفتح الهمزة: «أن»، وقرأ الباقون بكسرها: «إن».

أي: أن الناس لا يصدقون بآيات الله التصديق الجازم، ولا يؤمنون بها، ولا ينقادون لها. واليقين: التصديق الجازم.

وقال بعضهم: إن قوله: ﴿ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾، تعليل من كلام الله تعالى؛ لقوله: ﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾، وليس من كلام الدابة. فعلى هذا يكون تكليم الدابة لهم لما بيّن.

عن حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه، قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى بن مريم، والدجال، وثلاث خسوف: خسفٌ بالشرق، وخسفٌ بالمغرب، وخسفٌ بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر، تبيت معهم حيث باتوا،

وتقيل معهم حيث قالوا»<sup>(١)</sup>.

وعن ابن عمرو رضي الله عنهما، قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الآيات خروجا: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيتها ما كانت قبل صاحبته، فالأخرى على إثرها قريباً»<sup>(٢)</sup>.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستاً: طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال، أو الدابة، أو خاصة أحدكم، أو أمر العامة»<sup>(٣)</sup>.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ آدَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لِسَانِكُمْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾:

قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ﴾، أي: اذكر يوم نحشر، أي: نجمع، ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ﴾، أي: من كل أمة من الأمم، ﴿فَوْجًا﴾، أي: جماعة.

﴿مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا﴾، أي: من الذين يكذبون بآياتنا الكونية والشرعية؛ كما قال تعالى: ﴿أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْوَجَهُمْ﴾ [الصفات: ٢٢]، أي: نظراءهم وأشباههم، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ رُوِّجَتْ ﴿٧﴾﴾ [التكوير: ٧]، أي: جمع وقرن كل نظير إلى نظيره.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، أي: يدفعون ويساقون، ويحبس أولهم على آخرهم؛ ليكونوا

(١) أخرجه مسلم في الفتن، الآيات التي تكون قبل الساعة ٢٩٠١، وأبو داود في الملاحم، أمارات الساعة ٤٣١١، والترمذي في أبواب الفتن، ما جاء في الخسف ٢٢٧٤، ٢٢٧٨، وابن ماجه في الفتن، باب الآيات ٤٠٥٥، وأحمد ٧/٤.

(٢) أخرجه مسلم في الفتن، خروج الدجال ومكته في الأرض ٢٩٤١، وأبو داود في الملاحم ٤٣١٠، وابن ماجه ٤٠٦٩.

(٣) أخرجه مسلم في الفتن، باب بقية من حديث الدجال ٢٩٤٧.

زمرة واحدة، ويشدد خزيمهم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ﴾، أي: حضروا وأوقفوا بين يدي الله تعالى في مقام المساءلة والحساب؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَفُّوهُمْ<sup>٢٤</sup> إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصفات: ٢٤].

﴿قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي﴾؛ الاستفهام للتوبيخ والتقريع، أي: قال الله عز وجل موبخًا ومقرعًا لهم: ﴿أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي﴾، أي: أنكرتموها بقلوبكم، ولم تنقادوا لها بجوارحكم.

﴿وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا﴾؛ الجملة: حالية، أي: والحال أنكم لم تحيطوا بها علمًا، أي: بادرتم بالتكذيب بها من غير أن تفهموها وتأملوا فيها، وتدركوها. قال ابن القيم<sup>(١)</sup>:  
إن البدار برد شيء لم تحط علمًا به سبب إلى الحرمان  
ويجوز كون الجملة معطوفة على مقول القول.

﴿أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ «أم»: هي المنقطعة بمعنى: «بل».

و«ماذا»: اسم استفهام، أو «ما»: اسم استفهام، و«ذا»: اسم موصول، أي: بل ماذا كنتم تعملون؟ أو ما الذي كنتم تعملونه؟ أي: إن أعمالكم لا تدل إلا على تكذيبكم بآيات الله.

﴿وَوَفَّعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا﴾؛ الباء للسببية، و«ما» مصدرية، أي: صدق القول عليهم وحقت كلمة العذاب عليهم بسبب ظلمهم بتكذيب الآيات، والكفر بها، والشرك بالله.

﴿فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾، أي: قد خرسست ألسنتهم وبُهِتوا، فلم يستطيعوا الجواب ولم يتكلموا بكلمة لدفع العذاب عنهم؛ لأنه لا حجة لهم؛ كما قال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٦].

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾؛ الاستفهام للتوبيخ، والرؤية هنا علمية، أي: ألم يعلموا ويتأملوا ببصائرهم.

﴿أَنَا جَعَلْنَا آئِيلَ﴾، «جعل» بمعنى: «صير»، و«الليل»: مفعول أول، والمفعول

(١) في «النونية؛ الكافية الشافية» (ص ٣٠٥).

الثاني محذوف، والتقدير: صيرنا الليل مظلماً.

﴿لَيْسَكُنُوا فِيهِ﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يسكنوا فيه، ويناموا، ويستريحوا من نصب العمل في النهار.

﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾، أي: وجعلنا النهار مبصراً أي: صيرناه مبصراً، أي: مضيئاً بالشمس، يبصرون فيه؛ ليتصرفوا فيه في معاشهم ومكاسبهم وأسفارهم وتجاراتهم، وغير ذلك.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾، أي: في جعل الليل سكناً، والنهار مبصراً، ﴿لآيَاتٍ﴾ اللام: للتوكيد، أي: دلالات على وحدانية الله تعالى، وكمال قدرته، وتمام نعمته على العباد. ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، أي: لقوم يؤمنون بالله وآياته، ويصدقون بها، ويتفعلون بالنظر والتأمل فيها، ويستفيدون منها، ويشكرون الله عليها.

#### الفوائد والأحكام:

١- ثبوت خروج الدابة- التي هي من علامات الساعة الكبرى- بعد فساد الناس، وتبديلهم الدين الحق، في آخر الزمان، واستحقاقهم للعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾.

٢- تكليم هذه الدابة ومخاطبتها للناس بما هم عليه من الكفر وعدم الإيمان بآيات الله؛ تقریباً وإنذاراً لهم؛ لقوله تعالى: ﴿تَكَلِّمُهُمَّ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

٣- قدرة الله تعالى التامة على تبديل الأحوال وتغييرها، وعلى كل شيء، فيجعل الدابة البهيم ناطقة؛ كما يجعل الناطق أخرس، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿تَكَلِّمُهُمَّ﴾ الآية.

٤- وجوب الإيمان بآيات الله تعالى ومراقبته وتقواه، والحذر من التفريط والغفلة قبل حلول العذاب.

٥- إثبات حشر الناس يوم القيامة، وجمع المكذبين بآيات الله من الأمم بعضهم إلى بعض، وحبس بعضهم على بعض؛ ليزداد خزيهم وإذلالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (٨٣).

٦- تقریب المكذبين وتوبيخهم على تكذيبهم بآيات الله من غير فهم لها، ولا تأمل

فيها؛ وعلى أعمالهم الباطلة الدالة على تكذيبهم؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عَلِمًا أَمَّا أَكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

٧- أن أعمال هؤلاء المكذبين تدل على تكذيبهم بآيات الله، وكفرهم.

٨- إثبات الكلام لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عَلِمًا أَمَّا أَكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٩- تهديدهم بوقوع القول عليهم وصدقه فيهم، ووجوب العذاب عليهم بسبب ظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا﴾.

١٠- التحذير من الظلم بالكفر، وتكذيب الآيات، وغير ذلك، وأنه سبب للعذاب.

١١- إثبات الأسباب، وإثبات الحكمة في أفعال الله تعالى.

١٢- عدم استطاعتهم النطق للجواب على تقييدهم وتبويخهم، ولدفع العذاب عنهم؛ لأنه لا حجة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿حُجَّتْهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦].

١٣- بيان كمال قدرة الله تعالى، وتمام نعمته في جعل الليل وقتاً للسكن، وجعل النهار مبصراً لأجل العمل، وما في ذلك من الآيات العظيمة والنعم الجليلة؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِسَكُنٍ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

١٤- أنه إنما يستفيد من الآيات الكونية، ويستدل بها على كمال قدرة الله تعالى، وتمام نعمته؛ المؤمنون.

١٥- أن ما عليه كثير من المسلمين اليوم من جعل الليل وقتاً للسهر والحركة والعمل، وجعل النهار وقتاً للسكن والراحة والنوم مخالف للشرع والفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهو من أعظم أسباب انتكاس الأمة وضعفها، فهل يعي المسلمون هذه الحقيقة -نسأل الله تعالى أن يرد المسلمين إلى رشدهم، وما ذلك على الله بعزيز.

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنُزِعَ مِنَ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُغِعَ اللَّهُ الَّذِي اتَّقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُرْمِنْ فَنَزَعَ يَوْمَئِذٍ أَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكَبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَسَبْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَى فَأَتَمَّا يَهْتَدَى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنُزِعَ مِنَ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُغِعَ اللَّهُ الَّذِي اتَّقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُرْمِنْ فَنَزَعَ يَوْمَئِذٍ أَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكَبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَسَبْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾:

قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾، «الصور»: هو القرن العظيم الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، أي: واذكر يوم ينفخ في الصور النفخة الأولى، نفخة الفرع والصعق؛ ليموت كل من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿٣٩﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿٤٠﴾﴾ [الحاقة: ١٣ - ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦١﴾ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٦٢﴾﴾ [النازعات: ٦ - ٧].

فالراجفة: النفخة الأولى، وهي نفخة الفرع والصعق، والرادفة: النفخة الثانية، نفخة البعث والنشور، وخروج الناس من قبورهم لموقف الحساب.

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال في أمتي، فيمكث أربعين - لا أدري أربعين يوماً، أو أربعين شهراً، أو أربعين عاماً - فيبعث الله عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود، فيطلبه، فيهلكه، ثم يمكث سبع

سنين، ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحًا باردة من قِبَل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدهم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه». قال: سمعتها من رسول الله ﷺ. قال: «فيبقى شرار الناس في خفة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكرًا، فيتمثل لهم الشيطان، فيقول: ألا تستحيون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دارٌ رزقهم، حسنٌ عيشهم، ثم ينفخ في الصور، فلا يسمعه أحد إلا أَصْغَى لَيْتًا وَرَفَعَ لَيْتًا<sup>(١)</sup>». قال: «وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله، قال: فيصعق، ويصعق الناس، ثم يرسل الله، أو قال: ينزل الله مطرًا كأنه الطل<sup>(٢)</sup> فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: يا أيها الناس، هلم إلى ربكم: ﴿وَقَفُّوهُمْ<sup>۞</sup> إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات: ٢٤]، ثم يقال: أخرجوا بعث النار، فيقال: من كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمئة وتسعة وتسعين، قال: فذاك يوم يجعل الولدان شيبا، وذلك: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القلم: ٤٢]<sup>(٣)</sup>.

﴿فَفَزَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: خافوا وانزعجوا وارتاعوا، وماج بعضهم في بعض، وقلقوا خوفًا مما هي مقدمة له، وعبر بالماضي "فرع"، لتحقيق وقوعه وقربه.

﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾؛ «إلا» أداة استثناء، و«من» موصولة، أي: إلا الذي شاء الله أن يأمن من الفرع، فأكرمه وثبته وحفظه.

وقد أخبر النبي ﷺ أنه أول من يفيق فيجد موسى عليه السلام أخذ بقائمة من قوائم العرش قال ﷺ: «فلا أدري أجوزي بصعقة الصور أم أفاق قبلي»<sup>(٤)</sup>.

وفي هذا دلالة على أنه ﷺ لا يعلم هل موسى ممن استثنى الله في الآية أم لا، وإذا

(١) أي: أمال عنقه؛ ليستمعه من السماء جيدًا.

(٢) الطل: المطر الخفيف.

(٣) أخرجه مسلم في الفتن، باب في خروج الدجال ٢٩٤٠.

(٤) أخرجه البخاري في الديات ٦٥١٩، ومسلم في الفضائل - فضائل موسى عليه السلام ٢٣٧٣ من حديث

أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

كان ﷻ لا يعلم ذلك فغيره من باب أولى لا يعلم من الذي استثناه الله في الآية.  
 ﴿وَكُلُّ أُمَّةٍ دَاخِرِينَ﴾؛ قرأ حمزة وخلف وحفص بفتح التاء وقصر الهمزة:  
 ﴿أَتَوْهُ﴾، وقرأ الباقون بمد الهمزة وضم التاء: «أَتَوْهُ».  
 ومعنى القراءتين واحد، أي: وكل من في السموات ومن في الأرض جاؤوا إلى الله  
 تعالى يوم القيامة.

﴿دَاخِرِينَ﴾؛ حال، أي: صاغرين ذليلين، منقادين مطيعين، لا يتخلف منهم أحد  
 عن أمره؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٥٢]، وقال  
 تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿١٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ  
 وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿١٤﴾ وَكُلُّهُمْ عِندَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿١٥﴾﴾ [مریم: ٩٣-٩٥].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَهُمْ إِلَى نُضْبٍ يُوفُضُونَ ﴿١٣﴾  
 خَشَعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المعارج: ٤٣-٤٤].

وقال تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكِيرٍ ﴿٦﴾ حُشَعًا أَبْصَرُهُمْ  
 يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَانَهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ  
 عَسِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر: ٦-٨].

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾، أي: وتشاهد أيها المشاهد يوم القيامة الجبال  
 تظنها واقفة مستقرة ثابتة على ما كانت عليه.

﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾، أي: والحال أنها تمر مر السحاب، أي: تسير بسرعة سير  
 السحاب من خفتها وشدة الأهوال؛ بعد أن اقتلعت من أماكنها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ  
 تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾﴾ [الطور: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسِطُّ الْجِبَالَ تُرَى الْأَرْضَ  
 بَارِزَةً ﴿٤٧﴾﴾ [الكهف: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٥﴾  
 فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٦﴾ لَا تَبْقَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٧﴾﴾ [طه: ١٥-١٧].

﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾؛ «صنع»: مفعول مطلق لفعل محذوف، أي:  
 صنع الله ذلك صنعًا، وفي إضافة صنع إلى الله تعظيم له، أي: أن هذا من الأمور  
 العظيمة التي هي من صنع الله.

وقيل: منصوب على الإغراء، أي: انظروا صنع الله وتأملوه وعليكم به.  
﴿الَّذِي أَنْقَضَ كُلَّ شَيْءٍ﴾؛ أي: أحكم كل شيء صنعته أو شرعه، فجاء خلقه  
وتقديره وشرعه في غاية الإتقان، من غير اختلاف ولا تفاوت ولا زيادة ولا نقصان؛  
كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ  
الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٢﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٣﴾  
[الملك: ٣ - ٤]. وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا  
كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ [النساء: ٨٢].

﴿إِنَّهُ خَيْرٌ مِمَّا تَفَعَّلُونَ﴾؛ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بالغيب: ﴿بِمَا  
يَفَعَّلُونَ﴾، وقرأ الباقون بالخطاب: ﴿تَفَعَّلُونَ﴾.  
و«ما»: مصدرية أو موصولة، أي: إنه خير بفعلكم، أو بالذي تفعلونه، مطلع على  
دقيق أفعالكم وجليلها، باطنها وظاهرها، خفيها وجليها، وسيحاسبكم ويجازيكم  
عليها.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾، أي: من أتى بالحسنة يوم القيامة، قلبية، أو  
فعلية؛ قولاً أو فعلاً أو بذلاً.

﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾؛ بمضاعفتها الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعف، إلى  
أضعاف كثيرة؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾  
[الأنعام: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ  
أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقال تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا  
يُضْعِفُهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ [التغابن: ١٧]، وقال تعالى: ﴿مَنْ  
ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ وَ لَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ [الحديد: ١١].

﴿وَهُمْ مِنْ فِرْعَانَ يَوْمِئِذٍ ءَامِنُونَ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وعاصم بتنوين: ﴿فِرْعَانَ﴾.  
وقرأ الباقون بدون تنوين على الإضافة: ﴿فِرْعَانَ﴾.

وقرأ نافع وأبو جعفر وحمزة والكسائي وعاصم: ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ بفتح الميم.  
وقرأ الباقون بكسرها: ﴿يَوْمِئِذٍ﴾.

أي: وهم بسبب إتيانهم بالحسنة، من كل فرع يوم القيامة، أو من فرع يوم القيامة وخوفه وقلقه ووجله- آمنون؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَّ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٤٠﴾﴾ [فصلت: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾، أي: ومن أتى يوم القيامة بالسَّيِّئَةِ قلبية أو قولية أو فعلية، التي توجب النار كالشرك والمعاصي.

﴿فَكَتَبَتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾، أي: كبروا وألقوا على وجوههم في النار. ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ الاستفهام بمعنى النفي، وفيه تقريع وتبكيث أي: ما تجزون إلا بما كنتم تعملون، و«إلا»: أداة حصر، و«ما» موصولة، أي: إلا الذي كنتم تعملونه.

والمعنى: فيقال لهم: ما تجزون إلا الذي كنتم تعملونه أي: الإجزاء الذي كنتم تعملونه من السيئات، لأن الإجزاء من جنس العمل؛ كما قال تعالى: ﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦].

وقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾، ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾، ولم يقل: من فعل الحسنة، ومن فعل السيئة؛ لأن الإنسان قد يفعل الحسنة ولا يثاب عليها، لارتكابه ما يحبطها ويبطل ثوابها، وقد يفعل السيئة ولا يعاقب عليها، لإتيانه بما يكفرها من التوبة والحسنات الماحية ونحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١١﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ﴾:

أي: قل لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ﴾، أي: إنما أمرني الله عز وجل، ﴿أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ﴾؛ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر

محذوف، أي: بعبادة رب هذه البلدة، أي: مكة المكرمة، شرفها الله.  
 كما قال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ  
 مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمُ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾  
 [يونس: ١٠٤].

وأضاف الربوبية إلى البلدة تشريفًا لها؛ كما قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا  
 الْبَيْتِ ﴿٣﴾﴾ [قریش: ٣].

﴿الَّذِي حَرَّمَهَا﴾، أي: الذي جعلها حرمًا يجب احترامها، وحرامًا، أي: محرمة  
 فلا يدخلها مشرك ولا يسفك فيها دم، ولا ينفر صيدها، ولا يختلئ خلاها، وفي هذا  
 تعظيم لها، وامتنان على أهلها.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد  
 حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل  
 القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة،  
 لا يعضد شوكة، ولا ينفر صيده، ولا تلتقط لقطته، إلا من عرفها، ولا يختلئ خلاه»<sup>(١)</sup>.

﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾؛ من عطف العام على الخاص، أي: هو رب هذه البلدة ربوبية  
 خاصة، ورب كل شيء ربوبية عامة أي: خالقه ومالكه والمتصرف فيه.  
 ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾؛ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل  
 جر بحرف جر محذوف، أي: وأمرت بأن أكون من المسلمين.

أي: وأمرني ربي أن أكون من المسلمين المستسلمين له بتوحيده، والإخلاص له،  
 المنقادين لطاعته.

كما قال تعالى في سورة الرعد: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ  
 مَنَابٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الآية: ٣٦].

وهو ﷺ أول المسلمين؛ كما قال في سورة الأنعام: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الآية:

(١) أخرجه البخاري في الجزية ٣١٨٩، ومسلم في الحج، تحريم مكة وصيدها ١٣٥٣، وأبو داود في المناسك،  
 تحريم مكة ٢٠١٧، والنسائي في مناسك الحج ٢٨٩٢، وأحمد ٢٥٣/١، ٢٥٩.

[١٦٣].

﴿وَأَنْ أتلُوا الْقُرْآنَ﴾، أي: وأمرت أن أتلوا القرآن، أي: أمرت بتلاوة القرآن، أي: باتباعه وقراءته على الناس وتبليغه لهم، فما أنا بالنسبة لهم إلا مبلغ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤، العنكبوت: ١٨].

﴿فَمَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾، أي: فمن اهتدى من الناس بهدي القرآن إلى الصراط المستقيم.

﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾؛ الفاء: رابطة لجواب الشرط، و«إنما» أداة: حصر، أي: فإنما نفع اهتدائه يعود إلى نفسه دون غيره.

﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ عن الهدى وعن الصراط المستقيم بعد بلوغ القرآن إليه.

﴿فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾، أي: إنما أنا كغيري من المنذرين، أي: من المحذرين المخوفين من عذاب الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

أي: ليس بيدي هداية من ضل، وليس علي حساب، وإنما ذلك على الله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي: احمد الله تعالى، وأخبر بأن الحمد المطلق والوصف بصفات الكمال لله تعالى وحده على تمام ربوبيته ووحدانيته، ووضوح سبيله، وبيان حجته، وكمال عدله.

﴿سَرِيرِكُمْ ءَايَاتِهِ﴾، السين تفيد تحقق وقوع الشيء وقربه أي: سيبين ويظهر لكم آياته الشرعية، وآياته الكونية في الآفاق وفي السماء والأرض والأنفس والأرزاق، وغير ذلك. ﴿فَتَعَرَّفُونَهَا﴾ تمام المعرفة؛ لتقوم عليكم الحجة بذلك؛ كما قال تعالى: ﴿سَرِيرِهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٠-٢٢].

وقد أراهم الله تعالى من الآيات ما أوقع بهم يوم بدر، وغير ذلك مما لا يخفى من الآيات الكونية والشرعية.

ومن عميت بصيرته عن رؤية الآيات في هذه الدنيا فسيراها في الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ ﴿٨٨﴾ [ص: ٨٨]، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، قرأ نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب بالتاء: ﴿تَعْمَلُونَ﴾، وقرأ الباقون بالياء: ﴿يَعْمَلُونَ﴾.

أي: وما الله بغافل عن عملكم، أو عن الذي تعملونه، بل هو شهيد رقيب على أعمالكم، سيحصيها عليكم، ويحاسبكم ويمجازيكم عليها؛ كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ ﴿٥٢﴾ [الأحزاب: ٥٢].

قال ابن كثير<sup>(١)</sup>: «ذكر عن الإمام أحمد رحمه الله؛ أنه كان ينشد هذين البيتين، إما له أو لغيره:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل      خلوت ولكن قل علي رقيب  
ولا تحسبن الله يغفل ساعة      ولا أن ما يخفى عليه يغيب

#### الفوائد والأحكام:

١- إثبات النفخ في الصور النفخة الأولى نفخة الفزع؛ ليصعق ويموت كل من في السموات والأرض إلا من شاء الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنُفِخَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ [الزمر: ٦٨].

٢- إثبات الصور؛ وهو قرن ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، كما دلت على ذلك السنة.

٣- شدة النفخ في الصور، وفزع الخلائق وقلقهم وخوفهم وانزعاجهم عند النفخ

(١) في «تفسيره» ٦/ ٢٢٩. والبيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص ٣٤).

في الصور؛ خوفاً مما هو مقدمة له، وهو الصعق؛ لقوله تعالى: ﴿فَفَزَعَنَا مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾.

٤- إثبات المشيئة لله تعالى؛ وهي الإرادة الكونية.

٥- إثبات البعث، ومجيء الخلائق كلهم يوم القيامة إلى الله تعالى صاغرين ذليلين منقادين، لا يتخلف منهم أحد؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أُنُوفٍ ذَخِيرٍ﴾.

٦- تغيير حال الجبال- مع عظمتها- وتسييرها بسرعة، بعد أن كانت ثابتة راسية، من شدة هول ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ﴾.

٧- عظمة خلق الله وبديع صنعه، وإتقانه كل شيء خلقه وقدره وشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

٨- علم الله تعالى التام، وإطلاعه على أفعال العباد، باطنها وظاهرها، دقيقها وجليلها، خفيها وجليلها، وإحصاؤه لها، ومحاسبتهم ومجازاتهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ وَخَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

وفي هذا وعد لمن أحسن العمل، ووعيد لمن أساء وحث على إحسان العمل وتحذير من إساءة العمل.

٩- فضل الله عز وجل بمجازاته الحسنة بخير منها ومضاعفتها؛ جوداً منه وكرماً، وهذا في مقام الفضل؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾.

١٠- أن الجزاء أفضل من العمل وأعظم.

١١- أمن وطمأنينة من لقي الله تعالى يوم القيامة محسناً قد عمل الصالحات من فزع ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ فِرْعَ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾.

١٢- إثبات الفزع يوم القيامة، لشدة أهواله.

١٣- شدة عذاب من وافى ذلك الموقف بالسيئات، وإلقاؤهم على وجوههم في النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾.

١٤- أن المدار في الإثابة على الحسنات المجيء بها يوم القيامة سالمة من البطلان، وأن المدار في العقاب على السيئات المجيء بها من غير توبة.

- ١٥- إثبات النار وعذابها.
- ١٦- تبييت من جاؤوا بالسيئات وتقريعهم بأن هذا جزاء عملهم، وأنهم لا يجازون إلا بما عملوه، وهذا عذاب معنوي ينصب على قلوبهم، لا يقل عن العذاب الحسي؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.
- ١٧- أن الجزاء من جنس العمل وكما يدين المرأيدان.
- ١٨- كمال عدل الله تعالى فلا يجازي أحداً إلا بما عمل.
- ١٩- أنه ﷺ - كغيره من الأمة - مأمور بعبادة الله تعالى وحده، رب البلدة الحرام، الذي حرمها، ورب كل شيء ومليكه، وأن يكون من المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. وفي هذا رد على غلاة الصوفية الذين يزعمون أن الولي يصل إلى درجة يسقط بها عنه التكليف.
- ٢٠- شرف مكة وفضلها؛ لأن الله أضافها إلى ربوبيته الخاصة وحرمها.
- ٢١- أن الذي حرم مكة هو الله عز وجل فقوله ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة» (١) أي: حرّمها بتحريم الله، أي: أظهر وأبان تحريمها.
- ٢٢- أن الله عز وجل كل شيء، فهو خالق كل شيء، ومالكه، والمتصرف فيه وربّه ربوبيته عامة.
- ٢٣- أن مهمته ﷺ في الدعوة: هي تلاوة القرآن على الناس، وتبليغهم رسالة ربه؛ لقوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾.
- ٢٤- أن من اهتدى بهداية القرآن فإنها ثمرة هدايته لنفسه، ومن ضل فإنها ضلاله على نفسه؛ لمنطوق ومفهوم قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾.
- ٢٥- وجوب تلاوة القرآن واتباعه والعمل به.
- ٢٦- أنه ﷺ - مع تفضيله على جميع الرسل - هو منذر كغيره من المنذرين، وليس

(١) سبق تخريجه.

إليه هداية الناس إلى الحق، وعصمتهم من الضلال؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾.

٢٧- الحث على حمد الله تعالى، والاعتراف باطنًا وظاهرًا بأن له وحده الحمد المطلق، والوصف التام؛ لتام ربوبيته ووحدانيته، ووضوح سبيله، وكمال عدله؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

٢٨- بيانه عز وجل وإظهاره آياته الشرعية والكونية، وإقامته الحجة على الخلق؛ ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة؛ لقوله تعالى: ﴿سَرِيكُ أَيْتِيهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾، فيعرفها المؤمن في الدنيا، ويعرفها غيره في الآخرة حين لا ينفعه ذلك.

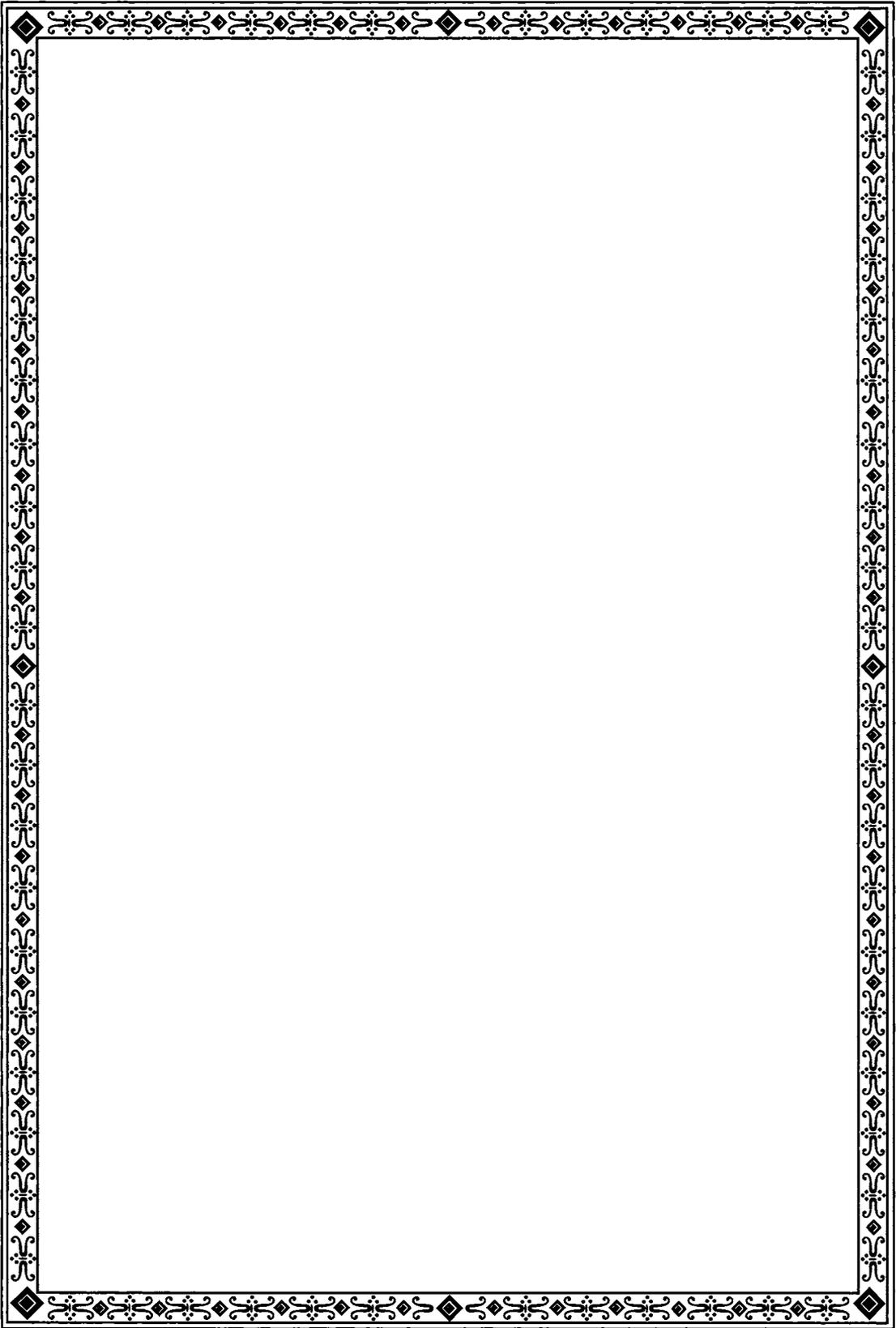
٢٩- أن الله عز وجل رقيب على الخلائق، شهيد على أعمالهم، ليس بغافل عنها، بل يحصيها عليهم، وسيحاسبهم ويجازيهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

٣٠- وجوب مراقبة الله تعالى في السر والعلن، والحذر من التفريط والغفلة.

٣١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾.

\* \* \*

# تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَصَصِ



## المقدمة

## أ- اسم السورة:

سميت «سورة القصص» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى فيها: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الآية: ٢٥].

والمراد بالقصص: ما قصه موسى عليه السلام على صاحب مدين مما لقيه عليه السلام في مصر قبل خروجه منها.

## ب- مكان نزولها:

مكة.

## ج- موضوعاتها:

١- افتتحت هذه السورة بقوله تعالى: ﴿طَسَمَ﴾ كسورة الشعراء، تعظيماً للقرآن

العظيم وبيانا لإعجازه؛ ولهذا قال بعده: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.

٢- تحدثت عن قصة موسى مبسوطه، فذكرت ما جرى له، ولأمه، ولبنى إسرائيل من أذى فرعون وجنوده، وما حصل منه من قتل الرجل القبطي، ومن الخوف، وخروجه من مصر، بعد نصح الرجل الذي جاء يسعى له بالخروج منها، وتوجهه صوب مدين، وما جرى له هناك إلى أن قضى الأجل الذي كان بينه وبين صاحب مدين وسار بأهله، ونداء الله تعالى له: ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْسُحَ آدَمُ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

وإيتائه العصا واليد، برهانان من ربه إلى فرعون وملائته، وطلبه عليه السلام شد عضده بأخيه هارون، واستجابة الله تعالى له.

وتكذيب فرعون وملئه له، وزعمهم أن ما جاء به من الآيات ما هو إلا سحر مفترى، وتمادي فرعون بالطغيان وزعمه أنه لا إله غيره، واستكباره هو وجنوده. وأخذهم وإهلاكهم في أليم، وجعلهم يوم القيامة من المقبوحين.

٣- ذكر إيتائه عز وجل موسى عليه السلام التوراة بعد إهلاك القرون الأولى، بصائر للناس وهدى لعلهم يتذكرون.

٤- بيان أن ما جاء من ذكر خبر موسى عليه السلام وما جرى له، وإرساله، ونداء الله له ليس لكونه ﷺ شاهداً ذلك، ولكن بوحى الله تعالى إليه ﷺ وإرساله رحمة من الله

عز وجل له ﷺ وللأمة؛ لينذر قومًا ما أتاهم من نذير من قبله لعلهم يتذكرون، ولإقامة الحجة عليهم وقطع عذرهم إذا جاءهم العذاب، فلا يحتجوا أنه ما جاءهم رسول.

٥- تكذيب المشركين للرسول ﷺ، ولما جاءهم به من الآيات، واتباعهم أهواءهم بغير هدى من الله، وضلالهم مع بيان القول لهم وتفصيله لعلهم يتذكرون.

٦- إيمان أهل الكتاب المنصفين بالقرآن، وأنه الحق من ربهم، ووعد الله لهم بإيتائهم أجرهم مرتين بسبب صبرهم، ودرئهم بالحسنة السيئة، وإنفاقهم مما رزقهم الله، وإعراضهم عن اللغو، وعن الجاهلين.

٧- اختصاص الله عز وجل بهداية التوفيق لقوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ وفي هذا تسلية له ﷺ.

٨- زعم المشركين الباطل أنهم إن اتبعوا الهدى مع الرسول ﷺ تحفظوا من أرضهم، وتذكيرهم بمرته عز وجل عليهم بتمكينه لهم حرماً آمناً تجبى إليه ثمرات كل شيء، وتذكيرهم بكثرة القرى التي أهلكها الله لما بطرت معيشتها، وأنه ما كان مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياته، وأنه ما كان مهلك القرى إلا وأهلها ظالمون. وفي هذا تهديد ووعد لهم.

٩- بيان أن ما أوتي العباد من شيء، فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى، وأنه شتان بين من وعده الله وعداً حسناً فهو لاقية حقاً وحتماً، وبين من متعه الله متاع الحياة الدنيا فعاش فيها كالبهيمة ثم هو يوم القيامة من المحضرين في العذاب.

١٠- فضح المشركين وتقريرهم يوم القيامة، وبراءتهم وشركاؤهم بعضهم من بعض ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿١٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾.

١١- تقريرهم بندائهم ماذا أجبتم المرسلين؟ وعمى الأخبار عليهم فهم لا يتساءلون.

١٢- البشارة بالفلاح لمن آمن وعمل صالحاً ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَسَيَكُنْ

أَنْ يَكُونُ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿١٣﴾

١٣- بيان أن له عز وجل كامل الملك والخلق والتدبير يخلق ما يشاء ويختار، ويعلم ما تكن صدور الخلائق وما يعلنون، لا معبود بحق إلا هو، له الحمد في الدنيا والآخرة، وله الحكم، وإليه يرجعون.

١٤- الامتتان على العباد برحمته لهم بإيجاد الليل وقتاً للسكن، والنهار وقتاً للعمل، فلا إله غير الله يقدر على الإتيان بذلك، مما يوجب شكره وعبادته وحده.

١٥- إخراج عزم وجل من كل أمة شهيداً يشهد عليهم وهو رسولهم، وإفحام المشركين بالإتيان ببرهانهم على صحة ما ادعوه من الشركاء لله وعلمهم آنذاك أن الحق لله، وغياب ما كانوا يفترون.

١٦- ذكر قصة قارون وبغية على قوم موسى، وما آتاه الله من الكنوز العظيمة، وفرحه وبطوره واختياله، ونهي قومه له عن ذلك، وأمرهم له أن يبتغي فيما آتاه الله الدار الآخرة ولا ينسى نصيبه من الدنيا، ويحسن كما أحسن الله إليه ولا يبيغ الفساد في الأرض، لأن الله لا يحب المفسدين.

وتماذيه بالكفر والبغي والطغيان وكفره نعمة الله عليه ونسبته ما أعطاه الله إلى علم عنده. وتهديده بأن الله قد أهلك قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً.

١٧- خروجه على قومه في زينته بطراً وخيلاء، وتمني الذين يريدون الحياة الدنيا أن يكون لهم مثل ما أوتي قارون، واستعظامهم حظه جهلاً منهم، ورد الذين أوتوا العلم عليهم بقولهم: ﴿وَيَلْعَنُكُمْ تَوَّابٌ أَلَمْ يَنْزِلْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَخَالَتْ مِنْهُ نَخِيلًا فَأَجْرًا وَمَنْ يَعْصِ أَمْرًا مِنْ رَبِّهِ يَلْعَنُ اللَّهُ لَعْنَةً أَلِيمَةً﴾. وَالصَّكِرُونَ ﴿١٨﴾

١٨- عقوبة الله تعالى له بخسف الأرض به وبداره، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله، وما كان من المنتصرين بنفسه، وإقرار الذين تمنوا مكانه بالأمس أن الله يسطر الرزق لمن يشاء ويقدر، وأنه لولا لطف الله بهم لخسف بهم مثله، وأنه لا يفلح الكافرون.

١٩- تعظيم الدار الآخرة وما فيها من النعيم، وأن الله جعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين.

- ٢٠- بيان عظيم فضل الله تعالى، وتمام عدله، فمن جاء بالحسنة فله خير منها؛ فضلاً من الله عز وجل، ومن جاء بالسيئة جوزي بمثلها؛ عدلاً منه عز وجل.
- ٢١- إثبات المعاد والبعث والحساب والجزاء، وإثبات علمه عز وجل بمن جاء بالهدى ودعا إليه وهو هو ﷺ، ومن كان في ضلال مبين وهم المشركون المكذبون له.
- ٢٢- الامتنان عليه ﷺ بالرسالة، وبيان أنه ﷺ ما كان يرجو ويؤمل أن يلقي إليه القرآن ويوحى إليه ويكلف بالرسالة إلا رحمة من ربه عز وجل له وللأمة.
- ٢٣- نهيه ﷺ أن يكون ظهيراً للكافرين، وأن يصدوه عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليه، وأمره بالدعوة إلى ربه وتحذيره من الشرك وأهله، وهو نهي وأمر وتحذير له ولأمة.
- ٢٤- تقرير أن كل شيء هالك إلا وجهه عز وجل، له الحكم وحده، وإليه مرجع الخلائق وعليه حسابهم.

\* \* \*

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَّرَ ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ ﴿ نَسَلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبِيٍّ مُوسَى  
وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٣ ﴿ إِنْ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا  
شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ  
الْمُفْسِدِينَ ٤ ﴿ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً  
وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ٥ ﴿ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرِي فِرْعَوْنَ وَهَلْمَانَ وَجُوذَهُمَا  
مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ٦ ﴿

قوله: ﴿طَسَّرَ ١﴾؛ سبق الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في مطلع  
سورة البقرة.

قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢﴾؛ سبق الكلام على هذه الآية في أول  
سورة يوسف، أي: تلك آيات القرآن العظيم، البين الواضح، المبين للحق، ولعظمة من  
أنزله، وصدق من جاء به، ولحقائق الأمور، ولكل ما يحتاج إليه العباد في طريقهم إلى  
الله تعالى.

وأشار إلى آيات القرآن الكريم بإشارة البعيد: «تلك» تعظيماً لها.  
﴿نَسَلُوا عَلَيْكَ﴾، أي: نقرأ ونقص عليك يا محمد، ﴿مِنْ نَبِيٍّ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ﴾،  
أي: بعض نبي موسى وفرعون، أي: خبرهما. والنبأ: الخبر العظيم المهم.  
﴿بِالْحَقِّ﴾؛ الباء: للملابسة، أي: بالحق الثابت والخبر الصادق؛ كما قال تعالى:  
﴿مَنْ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ  
قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفْلِينَ﴾ [يوسف: ٣]، أي: نذكر لك الأمر على ما كان عليه كأنك تشاهده،  
وكأنك حاضر.

﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ اللام: للتعليل، أي: لأجل قوم ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، أي: يصدقون  
بالقرآن بقلوبهم، وينقادون له بجوارحهم، ويصدقون أخباره الثابتة، ويعملون بأحكامه  
العادلة.

﴿إِنْ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: تكبر وتجبر وطغى في الأرض، فادعى  
الربوبية والألوهية، وأذى عباد الله.

والمراد بالأرض: أرض مصر، وأرض مملكته.

﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾، أي: وجعل أهل أرض مملكته طوائف متفرقة؛ ليضرب بعضهم ببعض؛ ليطمئنه ما يريد.

﴿يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾، أي: يذل ويقهر طائفة وجماعة منهم، وهم بنو إسرائيل الذين فضلهم الله على عالمي زمانهم، فكان يحتقرهم ويستغلهم في أخس الأعمال، ويكدهم ليلاً ونهاراً في أشغاله وأشغال رعيته.

﴿يُذَيِّعُ أَبْنَاءَهُمْ﴾؛ بدل من قوله: ﴿يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾، أي: يذبح أبناءهم، وهم الذكور من المواليد؛ لأجل إذلالهم بالقضاء على الرجال أو خوفاً أن يوجد غلام منهم يكون سبب هلاكه، وذهاب دولته على يديه.

﴿وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾، أي: يستبقيهن فلا يقتلن؛ ليعملن في الخدمة وفي الأعمال الحقيرة والوضيعة والشاقة.

﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾، أي: من المفسدين في الأرض، بتجبره وتكبره، وجعل أهل مملكته شيعاً، واستضعافه طائفة منهم يقتل أبناءهم، ويستحیی نساءهم.

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ﴾؛ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«نريد»، أي: ونريد المن على الذين استضعفوا. أي: ونريد أن ننعم ونتفضل على الذين استضعفهم فرعون في الأرض - وهم بنو إسرائيل - فنقويهم ونخرجهم من قبضته وحكمه.

﴿وَجَعَلَهُمْ آيَةً﴾، أي: نصيرهم أئمة في الدين والدعوة إلى الله وقدوة في الخير في أهل زمانهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

﴿وَجَعَلَهُمْ لَأُورَثِينَ﴾؛ للأرض بعد فرعون وقومه؛ كما قال تعالى: ﴿وَأُورَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُّونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ

وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ [الشعراء: ٥٩].

﴿وَتُمْكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: نثبت سلطانهم في الأرض وتقويهم، والمراد: أرض مصر والشام.

﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء وفتحها، وإمالة فتحة الراء بعدها، ورفع الأسماء الثلاثة: «وَيَرَى فِرْعَوْنُ وَهَامَانُ وَجُنُودُهُمَا»، وقرأ الباقون بالنون، وضمها وكسر الراء، وفتح الياء، ونصب الأسماء الثلاثة: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا﴾.

وقوله: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ﴾؛ معطوف على «نريد»، أي: ونريد أن نري فرعون، ﴿وَهَامَانَ﴾؛ وهو وزير فرعون، ﴿وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ﴾، أي: من هؤلاء المستضعفين، بني إسرائيل.

﴿مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾؛ «ما»: موصولة، أي: الذي كانوا يحذرونه منهم؛ وهو ذهاب ملكهم على أيديهم، بل على يد رجل منهم؛ وهو موسى عليه السلام.

#### الفوائد والأحكام:

- ١- إثبات إعجاز القرآن، والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿طَسَّرَ﴾.
- ٢- تعظيم القرآن العظيم وآياته؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾.
- ٣- وضوح آيات القرآن الكريم، وبيانه للحق، ولعظمة من أنزله، وصدق من جاء به، ولكل ما يحتاج إليه العباد؛ لقوله تعالى: ﴿الْمُبِينِ﴾.
- ٤- أهمية قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وما فيها من العبر والعظات، مما لا يوجد في كثير من قصص الأنبياء عليهم السلام؛ لهذا تلاها عز وجل على نبيه محمد ﷺ، وكرر ذكرها في القرآن أكثر من غيرها من قصص الأنبياء.
- ٥- أن الحكمة من تلاوة نبي موسى وفرعون وقصصه على النبي ﷺ؛ لأجل المؤمنين الذين يصدقون أخبار القرآن، ويعملون بأحكامه، ويتعظون به؛ لقوله تعالى: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.
- ٦- أن ما أخبر الله به في القرآن الكريم من الأخبار حق ثابت، وصدق لا شك فيه؛ لقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾.

[الأنعام: ١١٥].

٧- أنه إنما ينتفع بالوحي وبما جاء به الرسل المؤمنون فقط؛ لهذا خصهم بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وهو منزل هداية لجميع الناس؛ كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

٨- علو فرعون في الأرض وتجره وتكبره وطغيانه، فادعى الربوبية والإلهية، وآذى العباد، وخرّب البلاد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾.

٩- اتباعه سياسة «فرق تسد»، بجعله أهل مملكته شيعة وطوائف وأحزاباً؛ ليضرب بعضهم ببعض، ويتم له ما يريد؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾، وهذه سياسة الطغاة والمجرمين في كل عصر ومصر.

١٠- استضعافه بني إسرائيل، وإذلاله إياهم، واحتقاره لهم، وتسخيرهم إياهم بأخس الأعمال وأشقها، وتذبيح أبنائهم، واستحياء نسائهم للخدمة والأعمال الوضيعة؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْتَضِعُّنَّ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ﴾.

١١- إفساده في الأرض غاية الإفساد بها ذكر وبغير ذلك من أوجه الفساد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

١٢- إثبات الإرادة الكونية والشرعية لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية.

١٣- إثبات الجعل الكوني والشرعي؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهُمْ آيَةً وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾.

١٤- قدرة الله تعالى التامة، ونعمته العظيمة على بني إسرائيل؛ بتقويتهم بعد الاستضعاف في الأرض، وجعلهم أئمة في الدين والدعوة، وتوريثهم الأرض وتمكينهم فيها وإظهارهم، وإهلاك فرعون وهامان وجنودهما، وزوال ملكهم على يد موسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمْ آيَةً وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۗ وَنُفِخَ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾.

١٥- أنه بالاستقامة على أمر الله تعالى والصبر واليقين تنال الإمامة في الدين ووراثته

الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، قال ابن تيمية: «بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين».

١٦- أنه لا ينجي حذر من قدر؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَلْمَنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾.

١٧- انتقام الله تعالى من الظالم، ونصره للمظلوم ولو بعد حين، وأن العاقبة للمتقين.

١٨- أن الأمة المستضعفة مهما بلغت من الضعف وتسلط العدو عليها ظلمًا، لا ينبغي أن يستولي عليها اليأس من استعادة حقها، وتمكين الله تعالى لها؛ فالأيام دول.

١٩- أن الأمة الذليلة المغلوبة على أمرها، التي لا تأخذ حقها ولا تطالب به؛ لا يقوم لها أمر دينها، ولا يكون لها إمامة فيه.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَأَلْقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتِ لِأُخْتِيهِ فَصِيَّةُ فَصَّرْتُ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ \* وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَنَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَأَلْقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾:

قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾، أي: ألهمناها ونفشنا في روعها، وقيل: أوحينا إليها في المنام.

﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾؛ تفسير لقوله: «أوحينا»، ويجوز أن تكون «أن»: مصدرية، والمصدر المؤول: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾؛ في محل جرياء محذوفة، أي: بأن أرضعيه.

﴿فإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ﴾؛ من أن يعلم به فرعون وجنوده، الذين يتبعون الموالي من الأبناء، حيث كان يقتل الغلمان عامًا، ويتركهم عامًا.

﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾، أي: في النهر، والمراد: نهر النيل، الذي كانت أم موسى ساكنة على ضفافه.

﴿وَلَا تَخَافِي﴾؛ عليه من الغرق أو غير ذلك، ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾؛ على فقده وفراقه،

بل اطمئني وثقي بحفظنا له.

﴿إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ﴾، أي: مرجعوه إليك سالمًا من كيد فرعون، ومن كل شر  
﴿وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، أي: جاعلوه في عداد المرسلين، أي: سيكبر ويجعله الله  
رسولاً.

فبشرها ببشارتين: رده إليها سالمًا، وتشريفه بجعله رسولاً، ولا بشارة تفوق هذه  
البشارة.

وفي تقديم هذه البشارة طمأنة لقلبها، وتسكين لروعها؛ ولهذا خافت عليه  
ووضعت في تابوت مغلق، وألقته في النهر؛ تسلياً لأمر الله تعالى، وثقة بحفظه لها.  
كما قال تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَأَلْقِيهِ إِلَىٰ يَمِّ  
بِالسَّاحِلِ ﴿٣٩﴾﴾ [طه: ٣٨-٣٩].

﴿فَأَلْتَقِطْهُ وَاَلْ فِرْعَوْنَ﴾، أي: التقطوه من النهر، حيث حملة النهر إلى قريب  
من دارهم، فأخذوه لقيطاً واللقيط: هو الطفل المنبوذ؛ ولهذا قال: فالتقطه آل فرعون،  
ولم يقل: فأخذه.

﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزْنًا﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الحاء وإسكان  
الزاي: «وَحَزْنًا»، وقرأ الباكون بفتحها: ﴿وَحَزْنًا﴾.

واللام في قوله: ﴿لِيَكُونَ﴾: للتعليل؛ لأن الله فيضهم لالتقاطه؛ ليجعله لهم  
عدوًّا وحزناً، فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه، وفي شدة حسرتهم؛ إذ كيف يلتقطونه  
لأجل أن يكون لهم عدوًّا وحزناً، أي: يُظهر العداوة لهم، ويُحزنهم بهلاكهم وزوال  
ملكهم على يديه؟!!

وقيل: اللام: لام العاقبة؛ لأنهم لم يريدوا بالتقاطه أن يكون لهم عدوًّا وحزناً، وإنما  
كانت عاقبة التقاطهم له أن كان لهم عدوًّا وحزناً.

قال ابن القيم في تأييد القول الأول:

«فهو تعليل لقضاء الله سبحانه بالتقاطه وتقديره له؛ فإن التقاطهم له إنما كان  
بقضائه وقدره، فهو سبحانه قدر ذلك وقضى به؛ ليكون لهم عدوًّا وحزناً، وذكر فعلهم  
دون قضائه؛ لأنه أبلغ في كونه حزناً لهم وحسرة عليهم؛ فإن من اختار أخذ ما يكون

هلاكه على يديه إذا أصيب به، كان أعظم لحزنه وغمه وحسرتة.. فإنه سبحانه أراد أن يظهر لفرعون وقومه ولغيرهم من خلقه كمال قدرته وعلمه، وحكمته الباهرة، وأن هذا الذي يذبح فرعون الأبناء في طلبه هو الذي يتولى تربيته في حجره وبيته باختياره وإرادته، ويكون في قبضته وتحت تصرفه، فذكر فعلهم به في هذا أبلغ وأعجب من أن يُذكر القضاء والقدر»<sup>(١)</sup>.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَلَكَ وَجُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾، أي: متعمدين لارتكاب الخطايا والآثام، والإفساد في الأرض بالمكر والإجرام. ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: ولما هم فرعون بقتل موسى، ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ وهي: آسية بنت مزاحم، المؤمنة الفاضلة لجليلة، التي اختارت الجار قبل الدار؛ فقالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ [التحریم: ١١]. وفي الحديث: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون»<sup>(٢)</sup>.

﴿فَرَّتْ عَيْنٌ لِيْ وَلَكَ﴾، أي: هذا الطفل قرّة عين لي ولك، أي: سبب قرّة عين لي ولك، تحصل به المسرة لنا في حياتنا، وتقر به أعيننا، ونسعد به. وذلك أنها لما رآته أعجبها، وأوقع الله محبته في قلبها؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩].

وذلك من توفيق الله تعالى له ولها، وسعادتها، وشقاوة زوجها؛ ولهذا صار قرّة عين لها كما قالت، ورفعة لها في الدنيا والآخرة، وصار عدواً وحزناً لفرعون وقومه. ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾، أي: أبقوه، ﴿عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾؛ الجملة موضع التعليل لقولها: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾، أي: عسى أن ينفعنا بخدمته لنا أو غير ذلك. وقد نفعها الله به أعظم نفع؛ حيث كان سبباً لإيمانها، وذلك لحسن نيتها وقولها

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/٣٤٩.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٤١١، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤٣١، والترمذي في الأئمة ١٨٣٤، وابن ماجه في الأئمة ٣٢٨٠؛ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

الحق، ولزومها العدل، وعطفها ورحمتها.

﴿أَوْ نَتَّخِذْهُرُ وُلْدًا﴾، أي: أو نجعله ولدًا لنا بالتبني ونكرمه، وذلك أنها - فيما ذكر - ليس لها ولد منه.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ الجملة: حالية، أي: وهم لا يشعرون بعاقبة أمرهم معه، أي: وهم لا يدرون ولا يعلمون خفي إرادة الله تعالى، وما له من الحكمة البالغة في جعلهم يلتقطونه، ويتربى على أيديهم؛ ليكون هلاكهم وزوال ملكهم على يديه.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِغًا ۚ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمَآ عَلَيْهِ الْمَرَاصِعَ ۖ مِنْ قَبْلِ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ﴾، أي: صار قلبها ولبها حين ذهب النهر بولدها ﴿فَرِغًا﴾، أي: خاليًا من كل شيء إلا من هم موسى، وكيف يكون مصيره؟  
وقيل: خاليًا من العقل، أي: قد طار عقلها من شدة قلقها عليه.

﴿إِن كَادَتْ﴾، أي: قاربت وأوشكت من شدة وجدها وحزنها وقلقها، ﴿لَتُبْدِي بِهِ﴾، أي: لتظهر ما في فؤادها، وتبوح بسرها، وتخبّر أنه ذهب ولدها، وتخبّر بحالها.

﴿لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾؛ «لولا»: حرف شرط غير جازم، أي: لولا أن ثبتناها، وقوينا قلبها، وألهمناها الصبر.

﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تكون من المؤمنين الإيمان الكامل، بصبرها وثباتها، وتصديقها بوعد الله لها بقوله تعالى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾؛ وقالت أم موسى لأختها: ﴿قُصِّيهِ﴾، أي: تتبعني

أثره، وابعثي عنه، وخذي خبره، وتطليه سراً.

﴿فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ﴾، أي: فخرجت تقص أثره، وتتبع خبره، ﴿فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ﴾، الفاء: للترتيب والتعقيب؛ أي: أنها ما ذهبت بعيداً حتى رآته. ومعنى ﴿فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ﴾ أي: أبصرته عن بعد، ونظرت إليه خلصة ومسارقة وهي مارة، وكأنها لا تريده، مبالغة في التخفي، حتى لا يعرفوا علاقتها به، ومعرفتها بمن ألقاه بالنهر، فربما قتلوه عقوبة لهم.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: لا يدرون ولا يعلمون بأنها أخته، وأنها ترقبه عن بُعد؛ لأنه لم يظهر منها ما يشعر بصلتها به لذكائها.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾، أي: وحرمنا عليه المراضع تحريماً كونياً قدرياً. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، أي: في قدر الله السابق، أو من قبل رده إلى أمه، بأن منعه قدرًا من قبول ثديي النساء كلهن فلم يقبل ثدي واحدة من المراضع المحضرة له؛ كرامة له، وليكون ذلك سبباً لرجوعه إلى أمه؛ لترضعه وهي آمنة بعدما كانت خائفة.

﴿فَقَالَتْ﴾، أي: فقالت أخته لما رأت حنوهم عليه، ورأتهم حائرين فيمن يرضعه: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾، أي: يتعهدون لكم بإرضاعه وحضانته، ويقومون بذلك أتم قيام، ولم تقل على أهله حتى لا يفتضح أمرها، ونكرت: ﴿بَيْتٍ﴾ حتى لا يعرفوها مع أنها أخت موسى، وصاحبة البيت هي أمه.

﴿وَهُمْ لَهُ نَصِیْحُونَ﴾؛ في القيام عليه وحفظه ورعايته، والعناية به، فجاؤوا به إلى أمه، فأعطته ثديها فالتقمه، فأكرموها وجعلوا لها أجراً ونفقة، مقابل إرضاعها إياه، وتربيتها له، وقيامها عليه؛ ولهذا قال:

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ﴾، أي: فأرجعناه إلى أمه؛ كما وعدناها بذلك؛ ﴿كَي تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾، أي: لكي تقر عينها به وتسعد، ولا تحزن عليه وعلى فقده.

قال ابن كثير<sup>(١)</sup>: «ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل، يوم وليلة، أو نحوه،

(١) في «تفسيره» ٦/٢٣٤.

والله أعلم، فسبحان من بيده الأمر! ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، الذي يجعل لمن اتقاه بعد كل همٍّ فرجًا، وبعد كل ضيقٍ مخرجًا.

﴿وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾؛ الواو: عاطفة، واللام: للتعليل، والمصدر المؤول: ﴿أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾؛ في محل نصب سد مسد مفعولي «تعلم».

أي: ولتعلم أن وعده الله برده إليها حق، أي: صدق، وأمر محقق واقع وثابت حق اليقين، بل عين اليقين، ويعقبه بعد كبره تحقق وعده بإرساله.

فجمع الله لها- بسبب قوة إيمانها وصبرها وتصديقها بوعد الله تعالى- بين رجوع ولدها إليها، وإرضاعها إياه، وحضانتها في بيتها وهي آمنة مطمئنة، وبين الأجر والنفقة التي أجروها لها مقابل ذلك؛ ولهذا قال ﷺ: «مثل الذي يعمل ويحتسب في صنعته الخير؛ كمثل أم موسى: ترضع ولدها، وتأخذ أجرها»<sup>(١)</sup>.

وهذا العمر الله هو الموفق: صاد عصفورين بحجر واحد.

وفرق بين هذا وبين كثير من العاملين في أعمال الأمة من الموظفين كبيرهم وصغيرهم، ومن القضاة والمدرسين، وأئمة المساجد والمؤذنين، وغيرهم، ممن لا يخطر الاحتمال لهم على بال، نظرهم مادية فقط، ونظرهم لا يتجاوز أقدامهم، حالهم كمن يسوق الإبل أو البقر أو غيرها من السواني بلا ماء، أو كما قيل:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول<sup>(٢)</sup>

فهذا والله الغبن، والخسارة التي لا تشبهها خسارة؛ أن يظل الإنسان يكدح في العمل أكثر عمره دون أن يستحضر أن هذا العمل من دينه، فيحتسب في ذلك، ويمجد الله على ذلك، فيعطى أجره مرتين: أجر من الله تعالى على احتسابه وخدمته في مصالح الأمة، مع الأجر الذي يتقاضاه من بيت مال المسلمين، أو ممن استأجره.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن وعد الله حق، ولا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويسعدهم حقًا، وهو العلم بالله عز

(١) أخرجه أبو داود في «مراسيله»، والبيهقي في «سننه» عن جبير بن نفير مرسلًا. انظر: «الجامع الصغير» الحديث ٨١٤٣، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/٢٣٤.

(٢) البيت لعبد الغني النابلسي. انظر: «ديوانه» (ص ١٢٦٨).

وجل، وما يجب له؛ كما أنهم لا يعلمون ما لله عز وجل من الحكم العظيمة في جعل كثير من النعم والمنن الجسيمة، والعواقب الحميدة في طي بعض المحن؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال تعالى: ﴿فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

### الفوائد والأحكام:

١- عناية الله تعالى بموسى وأمه منذ كان وليدًا، وحفظه له، وإلهامها بإرضاعه، ووضعه في النهر إذا خافت عليه، وأنه عز وجل إذا أراد أمرًا هيا أسبابه، وأتى بها شيئًا فشيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ الآية.

٢- لطف الله تعالى بأم موسى، وطمأنته لها بالأخاف ولا تحزن على وليدها إذا ألقته في البحر، وبشارته لها برده إليها، وتشريفه بالرسالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾. وفي هذا إثبات رسالة موسى عليه السلام.

٣- أن الخوف الطبيعي من الخلق لا ينافي الإيمان؛ كما جرى لأم موسى، وفي هذا إثبات رسالة موسى عليه السلام.

٤- قوة إيمان أم موسى وامتثالها لأمر الله، حيث أرضعت وليدها وألقته في البحر لما خافت عليه ثقة بوعد الله تعالى بحفظه.

٥- تقدير الله تعالى بحكمته لموسى أن يلتقطه آل فرعون ويأخذوه من النهر إلى دارهم؛ لأجل أن يكون لهم عدوًا وحرزًا، بهلاكهم وزوال ملكهم على يديه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَتْهُ سَالِةً أَوْ سَاقِطَةً أَلْفِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.

٦- عظم آيات الله ودلائل قدرته العجيبة أن تكون نجاة موسى عليه السلام بإلقائه في البحر مورد الهلاك، وأن تكون تربيته في حضن عدوه فرعون.

٧- أنه لا ينجي حذر من قدر، وأن الحذر قد يؤتى من مأمنه؛ ففرعون يقتل أبناء بني إسرائيل حذرًا من مولود منهم يكون هلاكه وزوال ملكه على يديه، ويشاء الله

تعالى ويريد بحكمته البالغة أن يتربى هذا المولود على يديه.

٨- تعمد فرعون وهامان وجنودهما فعل الخطايا والآثام، والإفساد في الأرض بالمكر والإجرام، واستحقاقهم بذلك المكر بهم، وأخذهم بأنواع العقوبات والانتقام؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمْلَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾.

٩- تسخير الله تعالى لموسى امرأة فرعون؛ بإلقاء محبته في قلبها، وعطفها عليه، ورحمتها له، وتوسلها إلى فرعون بكون هذا الوليد قرة عين لهما، ونهيها لهم عن أن يقتلوه، رجاء أن ينفعهم أو يجعلوه لهم ولداً؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾.

١٠- أن فرعون وأعدائه قد هموا بقتل موسى عليه السلام بدليل قول امرأته: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾.

١١- عدم إدراك فرعون وآله ما وراء التقاط هذا الوليد وتربيته على أيديهم؛ مما هو مخبوء لهم في طي القدر على يد هذا الوليد؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

١٢- فراغ قلب أم موسى لما ذهب النهر بولدها من كل شيء إلا من ذكره، وذهاب عقلها ولبها من شدة قلقها عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾.

١٣- تثبيت الله تعالى لأم موسى، وربطه على قلبها بعد أن كادت أن تفصح عن حالها، وتبوح بسرها، وتخبّر بأن وليدها ذهب في النهر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَيَّ قَلْبَهَا﴾؛ وهذا من أعظم نعم الله على العبد؛ أن يشبهه ويربط على قلبه في المواقف المذهلة.

١٤- إثبات القضاء والقدر؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَيَّ قَلْبَهَا﴾ [القصص:

١٠].

١٥- أن الصبر والثبات في الشدائد من أعظم دلائل الإيمان، والتصديق بوعد الله

تعالى العاجل والآجل؛ لقوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٦- أن الإيمان يزيد وينقص، ومن أعظم ما يزيد الإيمان الصبر عند الشدائد،

والتثبيت من الله على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: ليزداد

إيمانها ويطمئن قلبها.

- ١٧- إثبات العلل والأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.
- ١٨- أمر أم موسى - شفقة منها عليه - لأخته بقص أثره وتبعه؛ لعلها أن تجده، وتعرف خبره؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾؛ وهذا من فعل الأسباب، ولا ينافي إيمانها بوعد الله لها برده إليها.
- ١٩- تتبع أخته لأثره، وسعيها في طلبه حتى بصرت به عن جنب، أي: وهي مارة حول بيت فرعون، من غير أن يعلموا بها، ولا بقصدها، ولا بكونها بصرت به، مبالغة منها في التخفي؛ حتى لا يعلموا بعلاقتها به فتكون تحت طائلة المساءلة عن خبره؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.
- ٢٠- جواز خروج المرأة في حوائجها بلا محذور.
- ٢١- حكمة الله تعالى في تقديره كوناً عدم قبول موسى ثديي النساء؛ ليكون ذلك سبباً لرجوعه إلى أمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾.
- ٢٢- انتهاز أخته فرصة عدم قبوله ثديي النساء؛ لتدلمهم على أهل بيت يكفلونه، ويتعهدون لهم بإرضاعه وتربيته، وهم له ناصحون؛ لكي يرجع إلى أمه؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾.
- ٢٣- أنه لا أفضل ولا أنفع للمولود من رضاعة أمه، ولا أحسن رعاية له، وعناية به، ولا أنصح له من أمه؛ لقول أخت موسى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾.
- ٢٤- جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع، والدلالة على من يفعل ذلك.
- ٢٥- إرجاع موسى إلى أمه- كما وعدها الله عز وجل بذلك- لكي تقرر عينها به وترضعه مطمئنة، وترعاه، ولا تحزن لفقده أو بعده عنها، ولتعلم أن وعد الله برده إليها حق، ويزداد إيمانها؛ لقوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۗ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۗ﴾.
- ٢٦- أن الله عز وجل يبتلي العبد ببعض المشاق من الحزن الشديد، والهلم البليغ،

وأَسباب ذلك وغيره؛ ليوصله بالصبر على ذلك إلى ما هو خير له في دينه ودنياه وأخراه؛ كما حصل لأَم موسى عليه السلام.

٢٧- أن أكثر الخلق لا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويسعدهم حقًّا؛ وهو العلم بالله تعالى وما يجب له؛ كما لا يعلمون ما لله عز وجل من الحكم العظيمة في جعل كثير من النعم والمن والمنة الجسمية في طي بعض المحن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ، وَأَسْتَوَىٰ، آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَاصْبِرْ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي ائْتَمَرَكَ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُكَ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَنَوَىٰ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَن أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَنِي نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ، وَأَسْتَوَىٰ، آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾:

قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾، أي: ولما كبر موسى وبلغ أشده، أي: اشتدت وتكاملت قواه البدنية والجسمية، وبلوغ الأشد، ببلوغ ثلاث وثلاثين سنة، وقيل: قريباً من الأربعين؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف: ١٥].

﴿وَأَسْتَوَىٰ﴾، أي: تكاملت قواه العقلية والفكرية.

﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، أي: أعطيناه حكماً يعرف به الأحكام الشرعية، ويحكم

به بين الناس، وعلماً كثيراً.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾؛ الواو: اعتراضية، والكاف للتشبيه، أي: ومثل هذا

الجزء بإيتاء الحكم والعلم نجزي المحسنين، أمثال موسى عليه السلام، الذين يحسنون في عبادة الله تعالى، وإلى عباد الله.

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ﴾، أي: ودخل موسى المدينة، أي: مدينة من مدن مصر يسكنها أقباط وإسرائيليون.

﴿عَلَى حِينٍ عَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾، أي: في وقت غفلة من أهلها، إما وقت القيلولة، أو غير ذلك من الأوقات التي يغفل فيها الناس عن الانتشار.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا﴾، أي: في هذه المدينة، ﴿رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾، أي: يتصاربان ويتصارعان ويتنازعان.

﴿هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾، أي: أحدهما من شيعة موسى وقومه، أي: من بني إسرائيل، والآخر من عدوه، أي: من القبط قوم فرعون أعداء بني إسرائيل.

﴿فَأَسْتَفْتَاهُ﴾، أي: طلب منه العوث والعون، ﴿الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ﴾؛ الإسرائيلي.

﴿عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾، أي: على القبطي.

﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى﴾، أي: فوكز موسى القبطي، أي: ضربه بجُمع كفه.

﴿فَقَضَى عَلَيْهِ﴾، أي: فأماته بتلك الوكزة؛ لشدتها؛ لقوة موسى عليه السلام.

﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾، أي: ندم موسى على فعله، وقال: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾؛ الإشارة ترجع إلى ما حصل منه من وكز القبطي والقضاء عليه، وما لابس ذلك من الغضب، أي: هذا كله من تزيين الشيطان وتسويله ووسوسته.

وفي هذا دلالة على أنه إنما حمله الغضب على فعله، وأنه لم يقصد القتل.

﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ تعليل لكون ما فعله من عمل الشيطان، أي: لأن

الشيطان عدو لبني آدم ﴿مُضِلٌّ﴾؛ ساع جهده في إضلالهم ما استطاع ذلك.

كما قال أعاذنا الله منه: ﴿فِيمَا أَعُوذُ بِتَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا يَدِينَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧]، وقال: ﴿بِمَا أَعُوذُ بِتَنِي لِأَزِينَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أَعُوذُ بِتَهُمْ

أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩]، وقال: ﴿فِعِزَّتِكَ لِأَعُوذُ بِتَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].

﴿مُبِينٌ﴾، أي: مبين عداوته لبني آدم ومظهرها، ومبين سعيه في إضلالهم وإهلاكهم.

﴿قَالَ﴾، أي: قال موسى معترفاً بذنبه، مقراً بخطئه، نادماً على فعله، تائباً إلى ربه:

﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، أي: يا رب، إني ظلمت نفسي بهذا الفعل، ﴿فَاعْفِرْ لِي﴾، أي: فتجاوز عني واستر علي.

﴿فَغَفَرَ لَهُ﴾؛ الفاء: تفيد التعقيب. فاستجاب الله دعوته، فغفر له، وتجاوز عنه، وستر عليه.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾؛ تعليل لقوله: ﴿فَغَفَرَ لَهُ﴾، أي: لأنه عز وجل هو الغفور الرحيم، و«الغفور»: ذو المغفرة الواسعة لذنوب عباده، و«الرحيم»: ذو الرحمة الواسعة لكل شيء، العامة لكل حي، والرحمة الخاصة بأوليائه من رسله، وعباده المؤمنين.

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾، أي: قال موسى عليه السلام اعترافاً بنعم الله تعالى عليه، وشكراً لمننه وأفضاله إليه: ﴿رَبِّ إِنَّمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾؛ الباء: للسببية، و«ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: يا رب، بالذي أنعمت به عليّ، أو بإنعامك عليّ بالمغفرة وغير ذلك.

﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾؛ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: فلن أكون نصيراً ومعيناً للمجرمين المخالفين لأمرك.

وهذا وعد من موسى عليه السلام، وشكر منه لربه، بسبب منة الله تعالى وإنعامه عليه بالمغفرة وغير ذلك: ألا يعين مجرمًا؛ كما فعل في قتل القبطي.

ويحتمل كونه دعاء من موسى وسؤال منه لربه بعد أن غفر له ألا يكون بعد هذا ظهيراً للمجرمين، أي: لا تجعلني بعد هذا ظهيراً لهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اُسْتَنْصَرُهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمْوَسَى إِنَّ أَلْمَأْمَأَةَ يَأْتَمُرُونَ بِكَ لِتَقْتُلُوكَ فَأَخْرَجَ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾:

قوله: ﴿فَأَصْبَحَ﴾، أي: فصار في المدينة بعد قتله القبطي، أو دخل في صباح ليلته بعد أن قتل القبطي ﴿خَائِفًا﴾؛ خبر أصبح، أي: خائفًا من مغبة ما فعل، وأن يقتاد بدم القبطي الذي قتله.

﴿يَتَرَقَّبُ﴾؛ خبر ثانٍ لـ «أصبح»، أي: ينتظر ما يناله بسبب القتل، ويتوقع أن يؤخذ بذلك في أي لحظة.

﴿فَإِذَا الَّذِي اِسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ﴾؛ الفاء: عاطفة، و«إذا»: للمفاجأة، أي: فإذا

الإسرائيلي الذي استغاثه بالأمس واستنصره على القبطي الذي قتله.

﴿يَسْتَنْصِرُحُهُ﴾، أي: يستنصره اليوم، ويستغيثه مرة أخرى على قبطي آخر،

والاستصرخ: المبالغة في الصراخ؛ لطلب الإنقاذ من الشدة.

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى﴾، أي: قال موسى للإسرائيلي المستغيث بالأمس، والمستصرخ

اليوم، موبخاً له وزاجراً: ﴿إِنَّكَ لَعَوِيُّ مُبِينٌ﴾؛ اللام: للتوكيد، و«غوي»، أي: شديد

الغواية، ضال، بعيد عن الرشد، ﴿مُبِينٌ﴾، أي: بين الغواية؛ لما فعلته بالأمس واليوم،

تورط نفسك بمشاكسة من لا تطيقه، ثم تروم الغوث مني يوماً بعد يوم.

﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾، «أن» في قوله: ﴿أَنْ أَرَادَ﴾:

زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: فحين أراد موسى أن يبطش

بالذي هو عدو لها، أي: بالقبطي، عدوه وعدو الإسرائيلي.

و«أن» والفعل «يبطش» في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ «أراد»، أي: فلما

أراد البطش بالذي هو عدو لها، أي: أراد ضربه بشدة وعنف، والبطش: الأخذ بقوة.

﴿قَالَ﴾ القبطي زاجراً لموسى عن قتله، ومنكراً عليه: ﴿أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ

نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُوحِينَ﴾.

والاستفهام في قوله: ﴿أَتُرِيدُ﴾ للإنكار، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في

محل نصب مفعول به لـ «تريد»، أي: أتريد قتلي؟! والكاف: للتشبيه، و«ما»: مصدرية،

أي: مثل قتلك نفساً بالأمس. يريد: القبطي الأول.

وقد استنتج القبطي الثاني هذا من قول موسى للإسرائيلي: ﴿إِنَّكَ لَعَوِيُّ مُبِينٌ﴾،

فعرف أن موسى هو القاتل للقبطي بالأمس، ومن ثم سعى إلى فرعون وأخبره بذلك.

﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾؛ «إن»: نافية بمعنى: «ما»، و«إلا»

أداة حصر، أي: ما تريد إلا أن تكون ﴿جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾؛ بالقتل والبطش ونحو

ذلك، والجبار: المتعالي المترفع على غيره.

﴿وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾؛ «أن» والفعل «تكون» في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«تريد»، أي: وما تريد الإصلاح، أي: وإلا لو أردت أن تكون من المصلحين لأصلحت بيني وبين هذا الرجل من غير قتل أحد، فانكف موسى عن قتله، وارعوى لوعظه وزجره.

وذهب ابن كثير إلى أن الذي قال: ﴿يَمُوسَىٰ أَرِيدُ أَنْ تَقْتَلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِأَلَمِيسَٰ إِنَّ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾؛ هو الإسرائيلي، وذلك أنه لما عزم موسى على البطش بالقبطي اعتقد الإسرائيلي لخوره وضعفه أن موسى يريد؛ لقوله له قبل هذا: ﴿إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾؛ فبادر بقوله دفاعاً عن نفسه: ﴿يَمُوسَىٰ أَرِيدُ أَنْ تَقْتَلَنِي﴾ الآية.

قال ابن كثير<sup>(١)</sup>: «فلما سمعها ذلك القبطي لقفها من فمه، ثم ذهب بها إلى باب فرعون، فألقاها عنده، فعلم بذلك، فاشتد حنقه، وعزم على قتل موسى، فطلبوه وبعثوا وراءه؛ ليحضره لذلك».

والراجع الذي يدل عليه سياق الآيات ومعناها هو القول الأول.

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾، أي: من آخرها، وأبعد مكان فيها.  
﴿يَسْعَى﴾ أي: يسرع ركضاً على قدميه من فرط عطفه على موسى، ونصحته له، وخوفه عليه.

وقدم هنا «رجل» فقال: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾، بينما أخره في سورة يس فقال: ﴿وَجَاءَ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ [الآية: ٢٠] والحكمة - الله أعلم - أنه في هذه السورة قدمه اهتماماً بالخبر الذي جاء به فقدم ذكره على ذكر المكان.

وفي سورة يس قدم قوله: ﴿مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ اهتماماً بكون هذا الرجل بعيداً عن الرسل، وما جاء إلا ليؤكد صحة ما جاؤوا به قبله.

﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ﴾، أي: فرعون وملاه. وفي ندائه لموسى باسمه دلالة على أن له به معرفة.

﴿يَأْتِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾، أي: يتشاورون فيك، ﴿لِيَقْتُلُوكَ﴾؛ اللام للتعليل، أي: لأجل أن يقتلوك، أي: لأجل قتلك، ﴿فَأَخْرَجَ﴾؛ عن المدينة، ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾؛ لتعليل لمجيئه إليه، وإخباره بآثام الملائة لقتله، ولأمره له بالخروج، أي: إني لك من المخلصين بالنصح.

### الفوائد والأحكام:

١- منة الله تعالى على موسى لما بلغ أشده واستوى بإيائه الحكم والعلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

٢- ثناء الله عز وجل على موسى بوصف الإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

٣- مجازاة الله تعالى المحسنين بالإحسان إليهم، والترغيب في الإحسان؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

٤- ابتلاء موسى بركز القبطي الذي من عدوه؛ انتصارًا للإسرائيلي الذي من شيعته، والقضاء عليه، بسبب تسويل الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفَلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾، وفي هذا دلالة على أنه عليه السلام إنما حمله على فعله الغضب، وأنه لم يقصد القتل، وهذا قبل بعثته.

٥- جواز الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه، دون ما لا يقدر عليه، مما لا يقدر عليه إلا الله تعالى.

٦- إثبات الولاء والبراء في الدين، والولاية والعداوة؛ لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾.

٧- قوة موسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾.

٨- حكمة الله تعالى في إجراء الأسباب من دخول موسى المدينة وقتله القبطي؛ ليكون ذلك سببًا لخروجه، ومن ثم وحي الله تعالى إليه وإرساله.

٩- إثبات الأسباب؛ لقول موسى ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾؛ أي: بسببه.

١٠- عداوة الشيطان القديمة البينة الظاهرة لبني آدم، وحرصه على إضلالهم، وإيقاعهم في المعاصي؛ مما يوجب الحذر منه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾.

١١- اعتراف موسى عليه السلام بظلمه لنفسه بهذا الفعل، وسؤاله ربه أن يغفر له، ويتوب عليه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾.

١٢- سرعة استجابته عز وجل لموسى ومغفرته له؛ لقوله تعالى: ﴿فَغَفَرَ لَهُ﴾ بفاء التعقيب.

١٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لموسى عليه السلام؛ لقوله: ﴿رَبِّ﴾.

١٤- أن الاعتراف بالذنب توبة، وأن ارتكاب الذنب ظلم للنفس.

١٥- أن أفضل ما يكون الدعاء باسم الرب ووصف الربوبية؛ لقول موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾، وهكذا كان جل دعاء الأنبياء عليهم السلام؛ لأن معنى «الرب»: الخالق المالك المدبر، الذي بيده العطاء والمنع، والضر والنفع.

١٦- إثبات اسمي الله عز وجل: «الغفور» و«الرحيم»، وصفتي: المغفرة والرحمة الواسعتين له عز وجل؛ لقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

١٧- اعتراف موسى عليه السلام بنعم الله تعالى عليه، وشكره لمن ربه وأفضاله عليه مذ كان وليدًا، ومغفرته له وتوبته عليه، وندمه عليه السلام على ما فرط منه من قتل القبطي، ووعده أو دعاؤه بسبب تلك النعم ألا يكون معينًا للمجرمين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

١٨- عدم جواز إعانة أهل الإجمام والشرور على إجرامهم وشرورهم؛ ولهذا قال ﷺ: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا، قالوا: يا رسول الله هذا الظالم فكيف ننصر المظلوم؟ قال: تمنعه من الظلم»<sup>(١)</sup>.

١٩- أن المنعم بسائر النعم كلها، المستوجب للشكر؛ هو الله عز وجل وحده.

٢٠- أن شكر الله كما يكون بطاعته، يكون أيضًا باجتتاب معصيته، وأن النعم

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب، عن أخاك ظالمًا أو مظلومًا ٢٣١٢-٢٤٤٣، من حديث أنس رضي الله عنه.

تقتضي من العبد فعل الخير وترك الشر.

٢١- ملازمة الخوف لموسى بعد قتله القبطي، وتوقعه أن يؤخذ ويقتاد بدمه كل لحظة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾.

٢٢- مفاجأة موسى أن الرجل الذي استنصره بالأمس يستنصره اليوم على قبطي آخر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا الَّذِي اَسْتَنْصَرُوهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَنْصِرُكُمُوهُ﴾، أي: يطلب منه النصرة.

٢٣- توبيخ موسى عليه السلام لهذا الرجل وزجره له؛ لما هو عليه من الغواية والضلال المبين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾.

٢٤- إرادة موسى البطش بالقبطي نصرة للإسرائيلي؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾.

٢٥- إثبات الإرادة للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ﴾، وفي هذا رد على الجبرية الذين يزعمون أن الإنسان مجبور على أفعاله، مسلوب الإرادة.

٢٦- تأثر موسى عليه السلام بموعظة القبطي له، وامتناعه عن البطش به لما وعظه، واحترازه عما لاحظته عليه بقوله: ﴿يَلْمُوسَى أَنْ تُرِيدَ أَنْ تُفْتَنِي كَمَا فُتِنْتُ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

٢٧- عدم جواز قتل الكافر الذي له عهد بعقد أو عرف؛ لندم موسى على قتله القبطي، وعده ذلك من عمل الشيطان، واعترافه بظلمه لنفسه بهذا الفعل، وقوله: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، وقوله للإسرائيلي: ﴿إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، واتعاضه بقول القبطي: ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

٢٨- أن الذي يقتل النفوس بغير حق يكون من الجبارين المفسدين في الأرض.

٢٩- وصول خبر قتل موسى للقبطي إلى فرعون وملئه، وتشاورهم في قتله، ومنه الله تعالى عليه وحفظه منهم بتسخير ذلك الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، فأخبره بآثارهم لقتله، ونصحه بالخروج من مصر؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَلْمُوسَى إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِلَيَّ لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾.

٣٠- مشروعية النصيحة، والتحذير مما ينبغي التحذير منه، ولا يكون ذلك من الغيبة والنميمة.

٣١- صدق هذا الرجل الناصح، ومحبه لموسى، وحرصه على سلامته؛ لهذا جاء يسعى ركضاً على قدمه؛ خوفاً من أن يوقعوا بموسى قبل أن يحذره منهم، وهذا من تسخير الله تعالى لموسى، وحفظه له.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾  
 وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ  
 مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ  
 تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدَرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ  
 كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ  
 فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَبَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ  
 أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ  
 الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ  
 الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِمَا نُنَادِي بِكُمْ مِنْ خَيْرٍ وَنَحْنُ نَسْتَجِدُّكُمْ  
 عَلَىٰ أَنْ تَكُونَ لَنَا مَثَاقِدَ حَنْظِلٍ مِمَّنْ ظَلَمُوا الْأَنْفُسَ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ  
 إِنَّ يَوْمَ الظُّلُمَاتِ إِذَا كُنْتُمْ لِلظَّالِمِينَ كَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ  
 قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَةَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا  
 تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ  
 مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ  
 قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدَرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾  
 فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾

قوله: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾، أي: فخرج من المدينة ومن مصر فراراً من فرعون وقومه؛  
 امثالاً لنصح ذلك الرجل الناصح له بالخروج.

﴿خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾؛ حالان، أي: حال كونه خائفاً من لحاق جنود فرعون به،  
 ﴿يَتَرَقَّبُ﴾، أي: يتلفت ويتوقع لحاقهم بهم ويتربص فرج الله له وغوثة.

﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، أي: من فرعون وقومه الظالمين بتقتيلهم  
 أبناء بني إسرائيل، واستحيائهم نساءهم، وبتأمرهم على قتله مع أنه قد تاب من ذنبه،  
 ولم يقصد القتل.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾، أي: قصد بوجهه جهة «مدین» جنوب فلسطين، حيث لا سلطان لفرعون عليها.

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٰ أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾، أي: أن يدلني ويرشدني إلى قصد السبيل، أي: إلى وسط الطريق وأقومها وأخصرها إلى مدین، فهده الله إليها، وإلى الطريق المستقيم في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾، أي: ولما وصل إلى مدین، وورد ماءها، أي: بثرها الذي يرده الرعاة لسقي مواشيهم.

﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾، أي: وجد على مائها، ﴿أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾، أي: جماعة من الناس يسقون مواشيهم.

﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ﴾، أي: من دون تلك الجماعة؛ أي: سواهم من الناس الذين يسقون.

﴿أَمْرَاتَيْنِ تَذُودَانِ﴾، أي: تذودان أغنامهما عن الماء، أي: تحبسان أغنامهما وتمنعانها أن ترد مع أغنام الرعاة؛ لعدم قدرتهما على مزاحمة الرجال الواردين، وخلو قلوبهم من المروءة والرقّة والرحمة بهما، والسقي لهما، فهما ينتظران مها طال الانتظار حتى يُصدروا.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمْ﴾، أي: رق لهما موسى، وقال لهما: ﴿مَا خَطْبُكُمْ﴾، أي: ما شأنكما لا تسقيان؟ ولماذا لا تردان الماء مع الواردين؟

﴿قَالَتَا﴾؛ مبيتين لماذا لا يسقيان: ﴿لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾. قرأ أبو جعفر وابن عامر وأبو عمرو بفتح الياء وضم الدال: «يُصْدِرُ»، وقرأ الباقون بضم الياء وكسر الدال: ﴿يُصْدِرَ﴾.

أي: جرت العادة بأننا لا نسقي أغنامنا ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾، أي: إلى غاية أن يُصدر الرعاء، أي: ينتهوا من سقي مواشيهم، وينصرفوا بها عن الماء، فإذا خلا لنا الجو سقينا.

﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾؛ لا يستطيع بسبب الكبر والضعف أن يسقي ماشيته؛

لهذا وكل ذلك إلينا.

فذكرنا لموسى أمرين:

الأول: أنهما لا يسقيان حتى يصدر الرعاة من سقي مواشيهم؛ لعدم استطاعتها مزاحمتهم.

الثاني: أن أباهما شيخ كبير لا يستطيع سقي ماشيته؛ لكبره وضعفه، فوكل ذلك لهما.

﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾، أي: فرق لهما موسى عليه السلام، وسقى لهما غنمهما رحمة بهما من غير أجر.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، قال: فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال، فإذا هو بامرأتين تذودان، قال: ما خطبكما؟ فحدثناه، فأتى الحجر فرفعه، ثم لم يستق إلا ذنوبًا واحدًا، حتى رويت الغنم»<sup>(١)</sup>.

﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾؛ ليستظل فيه من الشمس، ويستريح من التعب، وكان في وقت شدة الحر وسط النهار.

﴿فَقَالَ رَبِّ﴾، أي: يا رب، ﴿إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾؛ اللام للتوكيد، و«ما» موصولة، أي: إني للذي ﴿أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، أي: محتاج، ومفتقر إلى الخير الذي تسوقه إلي، وتيسره لي، وهذا سؤال منه بحاله، والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال، وكما قيل:

حَالِ الْمَقْلِّ نَاطِقٌ عَمَّا خَفِيَ مِنْ عَيْبِهِ

فَإِنْ رَأَيْتَ عَارِيًّا فَلَا تَسَلْ عَنْ ثَوْبِهِ<sup>(٢)</sup>

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر، وكان حافيًا، فما وصل مدين حتى سقطت نعل قدمه، وجلس في

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٢٣٧/٦؛ من رواية أبي بكر بن أبي شيبة، وقال: «إسناد صحيح».

(٢) البيتان لبدر الدين الشافعي. انظر: «شذرات الذهب» (١٠/٤٨٧).

الظل، وهو صفوة الله من خلقه، وإن بطنه لاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلى شق قمره»<sup>(١)</sup>.

قوله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْتِيَنَّكَ اسْتِجْرَاءٌ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجْرَتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٥٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُتَكَبَّرَ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَابًا وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُتَكَبَّرَ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَابًا فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلِينَ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٥٨﴾﴾:

قوله: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا﴾، أي: إحدى البنتين اللتين سقى لهما.

﴿تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾؛ الجملة في محل نصب على الحال، أي: حال كونها تمشي على استحياء؛ لكرم عنصرها، وحسن خلقها، ولما رأته من حسن خلق موسى وكرمه. عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ قال: «جاءت مسترة بكم درعها، أو بكم قميصها»<sup>(٢)</sup>.

﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ﴾؛ يظهر من هذا أنها أخبرتا أباهما بأن موسى سقى لهما، واللام في قولها: ﴿لِيَجْزِيَكَ﴾؛ للتعليل، أي: لأجل أن يجزيك، أي: يعطيك جزاء وأجر.

﴿مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾؛ «ما» مصدرية، أي: أجر سقيك لنا، أي: يكافئك على إحسانك إلينا بسقيك لنا.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾، أي: فاستجاب موسى لدعوة أبيهما، فلما

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٢٣٧/٦، وأخرجه مختصراً الطبري وابن أبي حاتم؛ انظر: «جامع البيان»

٢١٦/١٧، «تفسير ابن أبي حاتم» ٩/٢٩٦١، ٢٩٦٢.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢١٨/١٧، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٩/٢٩٦٤، وذكره ابن كثير في

«تفسيره» ٢٣٨/٦ - وقال: «هذا إسناد صحيح».

جاءه وقص عليه قصصه وخبره، وما جرى له في مصر، وسبب خروجه منها.

﴿قَالَ﴾؛ مطمئناً له: ﴿لَا تَخَفْ﴾، أي: كن آمناً مطمئناً، وطب نفساً، وقر عيناً.

﴿مَجُوتٍ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾؛ تعليل لقوله: ﴿لَا تَخَفْ﴾، أي: لأنك نجوت

من القوم الظالمين، أي: من فرعون وملئه، بوصولك إلى بلادنا «مدين»؛ لأنه لا سلطان لهم عليها.

ومن عجيب لطف الله ودقيق صنعه وتقديره أن يأت جواب صاحب مدين

لقوله: ﴿لَا تَخَفْ مَجُوتٍ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ موافقاً لسؤال موسى عليه السلام ودعائه لما خرج من المدينة خائفاً يترقب، وقال: ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا﴾، أي: إحدى ابنتيه: ﴿يَتَّابَتْ﴾؛ قرأ ابن عامر وأبو جعفر بفتح

التاء: «يَا أَبَت»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿يَتَّابَتْ﴾.

والمعنى: يا أبي، ﴿أَسْتَجِرُّهُ﴾، أي: اجعله أجيراً عندك يرعى الغنم ويسقيها.

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ أَسْتَجَرْتَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ﴾؛ تعليل لقولها: ﴿يَتَّابَتْ أَسْتَجِرُّهُ﴾،

أي: إن موسى خير من استأجرت ﴿الْقَوِيَّ الْأَمِينُ﴾، أي: الذي جمع بين القوة والأمانة.

وهذان الوصفان لا بد منهما لكل من يتولى عملاً من الأعمال؛ لأن الخلل إنما يكون

بفقدهما أو فقد أحدهما، واجتماع هذين الوصفين ليس بالكثير.

ولهذا روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ أنه قال: «اللهم إليك أشكو جلد

الفاجر وعجز الثقة»<sup>(١)</sup>.

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَتَّابَتْ

أَسْتَجِرُّهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ أَسْتَجَرْتَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ ﴿٢١﴾﴾؛ قال: فأحفظته الغيرة أن

قال: وما يدريك ما قوته وأمانته؟ قالت: أما قوته، فما رأيت منه حين سقى لنا، لم أر

رجلاً قط أقوى في ذلك السقي منه، وأما أمانته، فإنه نظر حين أقبلت إليه وشخصت

له، فلما علم أي امرأة صوب رأسه فلم يرفعه، ولم ينظر إلي حتى بلغته رسالتك، ثم قال

(١) انظر «السياسة الشرعية» ص ١٥، «مجموع الفتاوى» ٢٨/٦٨.

لي: امشي خلفي وانعتي لي الطريق، ولم يفعل ذلك إلا وهو أمين، فسري عن أبيها، وصدقها، وظن به الذي قالت»<sup>(١)</sup>.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: قوله: ﴿قَالَتِ إِحْدَاهُمَا يَتَأْتِ أَسْتَجِرُّهُ<sup>ط</sup> إِنَّ خَيْرَ مَنْ أَسْتَجَرَّتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٥٦﴾﴾؛ قال: يا بنية، ما علمك بأمانته وقوته؟ قالت: أما قوته: فرفعه الحجر لا يرفعه إلا عشرة»<sup>(٢)</sup>.

والأظهر: أنها أخذت وصفه بـ «القوي» من نشاطه في نزع الدلو، وأخذت وصفه بـ «الأمين» من كونه سقى سقى كاملاً وأتى بذلك على وجهه وجعل الغنم ترتوي.

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «أفرس الناس ثلاثة: أبو بكر حين تفرس في عمر، وصاحب يوسف حين قال: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ [يوسف: ٢١]، وصاحبة موسى حين قالت: ﴿يَتَأْتِ أَسْتَجِرُّهُ<sup>ط</sup> إِنَّ خَيْرَ مَنْ أَسْتَجَرَّتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾»<sup>(٣)</sup>.

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيْ هَاتَيْنِ﴾؛ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به للفعل «أريد»، أي: أريد أن أزوجك إحدى ابنتي هاتين، وفي الإشارة بقوله: ﴿هَاتَيْنِ﴾؛ دلالة على وجودهما معها.

﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَلِي حَجَّجٌ﴾، أي: على أن تكون أجيراً عندي ثماني حجج، ترعى غنمي وتسقيها وتقوم عليها. و«على» من صيغ الشرط في العقود.

و«حجج»: جمع «حجّة» بكسر الحاء، وهي السنّة، أي: ثماني سنين، سميت السنّة: حجة اشتقاقاً من الحج؛ لأن الحج يقع كل سنة، وموسم الحج يقع في آخر شهر من السنة العربية.

والمعنى: إني أريد أن أزوجك إحدى ابنتي هاتين على أن يكون صداقها ومهرها عملاً أجيراً عندي ثماني سنين.

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٢٢٥، وابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٦٧.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٦/ ٢٩٦٦، وانظر ٩/ ٢٩٦٤.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٩/ ٢٩٦٦. وذكره السيوطي في «تاريخ الخلفاء» (ص ٨٤)، ونسبه لابن

وهذا التخيير قبل انعقاد النكاح، فليس فيه جهل المعقود عليها.  
﴿فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾، أي: فإن أتممت رعي عشر سنين فهو تبرع من عندك ليس بواجب عليك.

﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾، أي: وما أريد أن أشق عليك باشتراط العشر، وما أريد أن أكلفك مشقة في العمل، فهو سهل يسير.

وفي الحديث: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى»<sup>(١)</sup>.  
﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾؛ السين: للاستقبال والتحقيق والتقريب، أي: ستجدني في معاملتي لك من الصالحين في حسن معاملتك، والرفق بك، والتيسير عليك، ونحو ذلك. وهذا ترغيب لموسى بقبول العمل عنده.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام مخاطباً لصهره: ﴿ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾، والإشارة تعود إلى قوله: ﴿أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَابٍ﴾ إلى آخر الآية، أي: قد تم الأمر بيني وبينك، وقبلته على ما شرطته عليّ وعليك، كل فيما هو من عمله، وبهذا تم العقد بينهما بحصول الإيجاب من صاحب مدين، والقبول من موسى عليه السلام.

﴿أَتَمَّا الْأَجْلَيْنِ فَضَيْتُ﴾؛ «أي»: اسم شرط جازم، و«ما»: زائدة للتوكيد، أي: أيّ المدتين أتممت أجيراً عندك، سواء قضيت ثمان سنين؛ كما هو الشرط الواجب بيني وبينك، أو تبرعت بستين فأتممتها من عندي عشر سنين.

﴿فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾؛ بتجاوز الشرط، والمطالبة بزيادة على مدة العقد، وهي ثمان سنين. أو طلب أو فعل ما ينافي مطلق العقد، والعدوان: تجاوز الحد والحق.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾؛ «ما» موصولة أو مصدرية، أي: والله على الذي نقوله أنا وأنت وسائر الخلق، أو على قولنا.

﴿وَكَيْلٌ﴾، أي: شهيد مطلع حفيظ رقيب علينا في هذا العقد.  
فاستشهد عليه السلام على نفسه وصهره بشهادة الله، ووعد بمراقبة الله تعالى في

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٧٦)، والترمذي في البيوع (١٣٢٠)، وابن ماجه في التجارات (٢٢٠٣)؛ من حديث جابر رضي الله عنه.

ذلك، وصدق عليه السلام، فقد وقى وكفى. وقد ذكر أنه أتم أطول الأجلين، تبرعاً منه وجوداً وكرماً.

قوله: ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ متعلق بالخبر ﴿وَكَيْلٌ﴾ وقدّم عليه؛ لتأكيد تمام وكالته عز وجل على كل قول، كما أنه عز وجل على كل شيء وكيل كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

وإذا سبرت أحوال الناس وجدت كثيراً منهم يتبجح بقوله بلسانه: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾؛ ليخدع بذلك خصمه، وهو مضمّر الخيانة، ولا شك أن الله وكيل على قوله، صدقاً كان أو كذباً، لكن استشهاده بهذه الآية مع إضمار الخيانة استهزاءً بالله وآياته، يجب الحذر منه، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

#### الفوائد والأحكام:

١- خروج موسى عليه السلام من مصر خائفاً على نفسه، يترقب ويتلفت حذراً من لحاق جند فرعون به، بعد إخبار الرجل الناصح له بتأمرهم لقتله، ونصحه له بالخروج، وفي هذا دلالة على مشروعية ترك الإنسان الإقامة والخروج؛ حفاظاً على نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾.

٢- أن الخوف الطبيعي من الخلق لا ينافي الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾.

٣- توجهه عليه السلام إلى ربه بالدعاء، وسؤاله أن ينجيه من فرعون وملئه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لموسى عليه السلام؛ لقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي﴾، وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبِّي﴾، وقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

٥- دعاؤه عليه السلام وسؤاله الله بوصف الربوبية؛ كما هو أكثر دعاء الأنبياء عليهم السلام؛ لأن معنى «الرب»: الخالق المالك المدبر؛ فكأن السائل بهذا الاسم يقول: يا من له الخلق والملك والتدبير، ويده الأمر والنهي، والعتاء والمنع، استعجب

دعائي، وأعطني سؤالاً.

٦- أنه لا مُنْجِي ولا مُنْقذ من ظلم الظالمين، ومن الشدائد كلها، إلا الرب عز وجل، فيجب اللجوء إليه وحده، وسؤاله النجاة دون سواه.

٧- بلوغ فرعون وقومه الغاية في الظلم؛ لظلمهم بني إسرائيل والمستضعفين، وظلمهم لموسى عليه السلام، في تأمرهم لقتله، مع أن ما حصل منه من قتل القبطي وقع من غير قصد منه للقتل، وقد اعترف بظلمه، واستغفر ربه، فغفر له؛ ولهذا وصفهم بالظلم موسى في دعائه، كما وصفهم صاحب مدين بقوله: ﴿لَا تَحْفَظُ بَحْوَتَ مِنَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ﴾.

٨- توجه موسى عليه السلام جهة مدين، وسؤاله ربه أن يهديه إلى وسط الطريق وأقومها وأخصرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

٩- أنه لا هادي إلى الطريق السوي المستقيم حسيّاً كان أو معنوياً، ولا موفق للحق إلا الرب عز وجل، فيجب سؤاله الهداية وحده.

١٠- في خروج موسى عليه السلام وتوجهه إلى مدين - وهو لا يعرف الطريق - خوفاً من القتل، ارتكاب أخف الضررين؛ لأن خروجه أقرب لسلامته.

١١- وصول موسى عليه السلام إلى مدين، ووروده ماءها، ووجوده عليها جماعة من الناس يسقون مواشيهم، ومن دونهم امرأتين تذودان غنمهما، ومبادرته بسؤالهما عن شأنهما عطفاً عليهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾.

١٢- إخبار المرأتين له عن حالهما، وأنها ينتظران صدور الرعاء، ليسقيا غنمهما؛ لعدم استطاعتها مزاحمة الرجال، ولأن أباهما شيخ كبير لا يستطيع لضعفه وكبره سقي غنمه، فرقّ لها موسى عليه السلام، ورحمها وسقى لها؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ فسقى لهما.

١٣- بر هاتين المرأتين بوالدهما وخدمتهما له ورحمتها به وعطفها عليه وأدبها

وتلطفها معه؛ لقولهما: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ وقول إحداهما: ﴿يَا بَابُ اسْتَجِرْهُ﴾.  
 ١٤- كرم خلق موسى عليه السلام، ونبل ما جبله الله عليه من جليل الصفات؛ من العطف على المساكين والمستضعفين، والرقه لهم، والرحمة بهم، وغير ذلك، وهذه أخلاق الأنبياء عليهم السلام.

١٥- أن في الناس من ليس عنده أدنى مروءة، ولا في قلبه أي رحمة، أمثال هؤلاء الرعاة الجفافة الذين يسقون، ولا يلتفتون لهاتين المرأتين الضعيفتين، وقد قال ﷺ: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»<sup>(١)</sup>، وقال ﷺ: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»<sup>(٢)</sup>.

ولا عجب أن يحصل مثل هذا من غلاظ القلوب؛ فقد جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: أتقبّلون أبناءكم؟ إن لي عشرة من الأبناء ما قبّلت واحداً منهم! قال النبي ﷺ: أرحم الخلق بالخلق: «أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟!»<sup>(٣)</sup>.

١٦- تولى موسى عليه السلام بعد أن سقى لهما إلى الظل؛ ليستريح ويستظل من شدة حر الشمس، وتضرعه عليه السلام إلى ربه عز وجل، وتوسله إليه بحاله وفقره وحاجته إلى الخير من ربه؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

١٧- أن السؤال بالحال مع الرضا بما قسم الله تعالى، أبلغ من السؤال بلسان المقال.  
 ١٨- فضيلة موسى عليه السلام، وقوة إيمانه ويقينه، وتعلقه بربه، وتضرعه إليه، وسؤاله إياه، ولجوؤه إليه في كل حال، فسأل ربه أن ينجيه من القوم الظالمين، ثم سأله أن يهديه سواء السبيل، ثم سأله وتوسل إليه وفقره وحاجته إلى الخير من ربه؛ كما سأله

(١) أخرجه البخاري في الجناز ١٢٨٤، ومسلم في الجناز ٩٢٣، وأبو داود في الجناز ٣١٢٥، والنسائي في الجناز ١٨٦٨؛ من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٩٤١، والترمذي في البر والصلة ١٩٢٤؛ من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه البخاري في الأدب ٥٩٩٨، ومسلم في الفضائل ٢٣١٧، وابن ماجه في الأدب ٣٦٦٥؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

قبل هذه الآيات أن يغفر له، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦].  
 ١٩- شدة حاجة الإنسان إلى ربه، واستحباب دعائه وسؤاله بربوبيته، والتوسل إليه بإظهار المسكنة والافتقار إليه؛ لقول موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

٢٠- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لقول موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ﴾.

٢١- كرم خلق هاتين المرأتين وأبيهما ووفاءهم، وتقديرهم لجميل صنع موسى ومعروفه، حيث أخبرت البنتان أباهما بسقيه لهما، فأرسل إحداهما تدعوه؛ ليجزيه ويكافئه على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾.

٢٢- تمام عفة هاتين البنتين، وشدة حيائهما؛ كما هو حال البيوت الصالحة الأصلية العريقة، والحياء من الإيمان، ومن الأخلاق الممدوحة.

٢٣- ما كان عليه موسى عليه السلام من الوقار، حيث جاءت إليه إحداهما تمشي على استحياء توقيراً واحتراماً له.

٢٤- أن الإنسان إذا عمل عملاً لأحد من الناس قاصداً بذلك وجه الله تعالى، ثم حصل له مكافأة على ذلك من غير استشراف لها، فلا بأس بذلك.

٢٥- طمأنة أبيهما لموسى، وبشارته له بالنجاة لما جاءه وقص عليه ما جرى له في مصر من قتل القبطي، وتآمر آل فرعون على قتله، وخروجه من مصر خائفاً يترقب بسبب ذلك؛ وذلك لأنه لا سلطان لفرعون وملئه على بلاد مدين.

وهذه أول بشائر الخير له عليه السلام، جزاء صبره، وصنيعه المعروف، وأول الغيث قطرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

٢٦- قوة موسى وأمانته؛ لهذا طلبت إحدى هاتين البنتين من أبيها استجاره؛ لقوته وأمانته؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ

## الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٦٦﴾ ❦.

٢٧- ينبغي لمن يتولى اختيار أرباب المسؤوليات في الأمة أن يختار ممن تتوفر فيهم القوة والأمانة؛ لأنه لا بد لنجاح كل من يتولى عملاً من الأعمال أن تتوفر فيه هذان الوصفان: القوة، والأمانة؛ لأن الخلل إنما يكون بفقدتهما، أو فقد أحدهما.

٢٨- جواز مشورة الصغير على الكبير والأدنى على الأعلى والولد على والديه.

٢٩- عرض أبيهما على موسى أن ينكحه إحدى ابنتيه مقابل أن يعمل أجيراً عنده ثماني سنوات؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَبِيبٌ﴾ ❦.

٣٠- جواز عرض الرجل مولاته على من يتزوجها رغبة في صلاحه، ومراعاة لمصلحتها، وقد عرض عمر بن الخطاب رضي الله عنه ابنته حفصة رضي الله عنها لما تأيمت على أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما، ثم تزوجها النبي ﷺ<sup>(١)</sup>.

٣١- جواز كون المهر منفعة أجرة أو غير ذلك، وقد قال ﷺ<sup>(٢)</sup> لرجل: «زوجتكها بما معك من القرآن»<sup>(٢)</sup>.

٣٢- رغبة صهر موسى أن يزيد موسى في العمل أجيراً عنده سنتين، فبتم عشر سنوات، دون إلزامه بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَنْتَمَّتْ وَعَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ ❦.

٣٣- حسن معاملة صاحب مدين، وترغيبه لموسى بالعمل أجيراً عنده؛ لوعده له بعدم تكليفه ما يشق عليه، أو إلزامه بالزيادة على ما تم العقد عليه، وهو ثمان سنوات، وأن يكون من الصالحين في معاملته واليسير عليه؛ لقوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْسُقَ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ❦؛ وهذا من مكارم الأخلاق؛ أن يحسن خلقه لخادمه وأجيريه.

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠٠٥، والنسائي في النكاح ٣٢٤٨؛ من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٥٠٢٩، ومسلم في النكاح، وأبو داود في النكاح ٢١١١، والنسائي في النكاح ٣٣٥٩، والترمذي في النكاح ١١١٤، وابن ماجه في النكاح ١٨٨٩؛ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

٣٤- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية، وأن مشيئة الخلق كلهم تابعة لمشيئة الله تعالى؛ لقول موسى: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾.

٣٥- أن صاحب مدين مؤمن، وعلى ملة؛ لقوله: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّالِحِينَ﴾.

٣٦- أن الرجل الصالح يطلب منه ويؤمل فيه من حسن المعاملة أكثر من غيره.

٣٧- جواز مدح الإنسان لنفسه إذا كان لغرض في الدين أو المعاملة لداع حسن؛ كما قال يوسف عليه السلام: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

٣٨- أن من الأدب أن يقرن ما وعد أن يفعله في المستقبل بالمشيئة؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يعمل شيئاً إلا بمشيئة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِيْ شَيْءٌ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٣٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ﴿٣٤﴾﴾ [الكهف: ٢٣ - ٢٤].

ولهذا قال ﷺ في قصة سليمان عليه السلام: «لو قال إن شاء الله لم يحدث، وكان درگًا لحاجته»<sup>(١)</sup>.

٣٩- قبول موسى لهذا العقد بينه وبين صهره بشروطه بينهما، على أن له أن يقضي أي الأجلين: ثماني سنين، أو عشر سنين، ولا يُعتدى عليه بإلزامه إتمام العشر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾.

٤٠- أن العقود عهود وأن المتشارطين على شروطهم إلا ما كان منها باطلاً، وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يخالف شرعنا.

عن عوف المزني، قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلمون على شروطهم، إلا شرطاً حرم حلالاً، أو أحل حراماً»<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه البخاري في كفارات الأيمان - الاستثناء في الإيمان ٣٦٤١، ومسلم في الإيمان - الاستثناء ١٦٥٤ -

من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الأحكام ١٣٥٢، وابن ماجه في الأحكام ٢٣٥٣، وقال الترمذي: «حديث حسن

صحيح».

وعن عقبه بن عامر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج»<sup>(١)</sup>.

٤١- جواز إسهاد الله على القول والعقد؛ لأن موسى عليه السلام أشهد الله على قوله هو وصهره، وما تم بينهما؛ لقول موسى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾؛ وفي هذا وعد منه عليه السلام بالوفاء بهذا العقد، وهكذا فعل عليه السلام، بل الأظهر والأقرب أنه أتم أطول الأجلين، عشر سنين؛ كرمًا منه وتفضلاً.

٤٢- جواز عقد الإجارة وغيرها من العقود من دون إسهاد، ما عدا عقد النكاح، فالإسهاد عليه شرط من شروط النكاح في شريعتنا.

٤٣- إحاطة علم الله تعالى واطلاعه وشهادته ووكالته على جميع الخلق وأقوالهم وأفعالهم.

\* \* \*

(١) أخرجه البخاري في الشروط ٢٧٢١، ومسلم في النكاح ١٤١٨، وأبو داود في النكاح ٢٦٣٩، والنسائي في النكاح ٣٢٨١، والترمذي في النكاح ١١٢٧، وابن ماجه في النكاح ١٩٥٤.

قال الله تعالى: ﴿ فَمَا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوَسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدَبِّرًا لَّمْ يُعَقِّبْ يَمْوَسَىٰ أَقْبَلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّا كُنَّا مِنَ الْأَمِينِ ﴿٣١﴾ أَسَلْنَاكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمْنَا لِيَدِكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا فَلْسِيقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنُنَزِّلُ عَصَاكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ۞

قوله تعالى: ﴿ فَمَا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوَسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدَبِّرًا لَّمْ يُعَقِّبْ يَمْوَسَىٰ أَقْبَلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّا كُنَّا مِنَ الْأَمِينِ ﴿٣١﴾ أَسَلْنَاكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمْنَا لِيَدِكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا فَلْسِيقِينَ ﴿٣٢﴾ ۞

قوله: ﴿ فَمَا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ ۞، أي: فلما فرغ وأتم موسى الأجل الذي بينه وبين صهره في العمل عنده أجيرا ثلثي سنين، أو زاده ستين فآتم عشرا، وهو المتوقع من موسى؛ لكرمه وإحسانه ووفائه.

عن سعيد بن جبیر، قال: سألت ابن عباس: أيّ الأجلين قضى موسى؟ قال:

«خيرهما وأطيبهما»<sup>(١)</sup>.

﴿وَسَارَ بِأَهْلِيهِ﴾، أي: وسار بزوجه إلى مصر، حيث اشتاق إلى أهله ووالدته وعشيرته، ووطنه، وعزم على زيارتهم على خفية من فرعون وملئه، ولعلمهم من طول المدة قد نسوا ما صدر منه، وبينما هو في مسيره في ليلة مظلمة مطيرة باردة، وقد ضل الطريق، واحتاج إلى الدفء ومعرفة الطريق.

﴿ءَأَسَّ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾، أي: أبصر ورأى من جانب جبل الطور، أي: من جهته نارًا تضيء من بُعد، وهي ليست نارًا حقيقية، ولكنها نور.

﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾، أي: اجلسوا وأقيموا هنا، ﴿إِنِّي ءَأَسَّتُ نَارًا﴾، أي: أبصرت ورأيت نارًا، أي: حتى أذهب إليها، أو سأذهب إليها، أي: أرجو أن أجثكم من هذه النار، أي: من أهلها بخبر؛ أي: بخير.

﴿لَعَلِّي ءَأْتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾؛ أي: أرجو أن أجثكم من هذه النار، أي: من أهلها بخبر نعرف به الطريق ونهتدي إليه، ونعرف ما تبقى منه، ونحو ذلك، ويظهر أن موسى قد اشتبه عليه الطريق، واحتاج إلى دليل.

﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾؛ قرأ عاصم بفتح الجيم: ﴿جَذْوَةٍ﴾، وقرأ حمزة وخلف بضمها: «جذوة»، وقرأ الباقون بكسرها: «جذوة».

و«أو» عاطفة، أي: أو آتاكم بجذوة، أي: بقطعة وشعلة من النار.

والجذوة: عود في طرفه نار مشتعلة.

﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾، أي: لأجل أن تصطلوا، أي: تستدفئوا بها من البرد؛ كما قال تعالى في سورة طه: ﴿إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءَأَسَّتُ نَارًا لَّعَلِّي ءَأْتِيكُمْ مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠]، وقال في سورة النمل: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِيهِ إِنِّي ءَأَسَّتُ نَارًا سَتَاتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَأْتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧].

﴿فَلَمَّا أَتَتْهَا﴾، أي: فلما أتى النار التي أبصرها من جانب الطور، أي: جاءها ووصل إليها.

(١) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٨٤، والطبري في «جامع البيان» ١٨/٢٣٥.

﴿نُودِي﴾، أي: ناداه الله، بدليل قوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].  
 ﴿مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾، أي: من جانب الوادي الأيمن. وشاطئ الشيء: جانبه، يقال: شاطئ البحر، وشاطئ النهر، أي: جانبه.  
 والوادي: مجرى الماء، و«الأيمن»: صفة للوادي، أي: الأيمن بالنسبة لموسى، أي: شاطئ الوادي الأيمن أي: الذي على يمين موسى، كما قال تعالى في سورة مريم: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ۝٥٥﴾ [الآية: ٥٥]، فناداه عز وجل من بُعد ثم قرّبه وناجاه.

﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ﴾؛ البقعة: القطعة من الأرض، ﴿الْمُبْرَكَةِ﴾ ذات الخير الكثير، التي بارك الله فيها لموسى عليه السلام، واختارها لنزول الوحي عليه، وسماعه كلام الله تعالى فيها.

﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ بدل من شاطئ، فهو تخصيص بعد تخصيص، أي: من جانب الشاطئ الأيمن، ومن ناحية الشجرة وجهتها.

﴿أَن يَمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ٣٠؛ «أن» تفسيرية، فالجملة تفسير للنداء، أي: يا موسى إني أنا الله رب العالمين الذي أناديك وأكلمك وأخاطبك، لا رب لهم غيري، ولا معبود لهم سواي، فاعبدي، وادع إلى عبادتي؛ كما قال تعالى في سورة طه: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمُوسَىٰ ۝١١ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا آخِزْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ۝١٣ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۝١٤﴾ [طه: ١١ - ١٤]، وقال تعالى في سورة النمل: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٨﴾ يَمُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٩﴾ [النمل: ٨ - ٩].

وبدا بالألوهية؛ لأنها هي المقصود وثنى بالربوبية؛ لأنها وسيلة للألوهية، فمن أقر بالربوبية لزمه الإقرار بالألوهية.

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾، معطوف على قوله: ﴿أَن يَمُوسَىٰ﴾، أي: وأن ألق عصاك من يدك، أي: ضعها على الأرض، فألقاها، كما قال في سورة طه: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾

يَمُوسَى ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهِهَا وَأُهْسُ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَعَارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَالْقَلْبَهَا ﴿[الآيات: ١٧ - ٢٠].

﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهَتَّرُ﴾، أي: فألقاها ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهَتَّرُ﴾، أي: تتحرك وتضطرب وتسعى سعيًا شديدًا؛ كما قال تعالى: ﴿فَالْقَلْبَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه: ٢٠].

﴿كَانَتْهَا جَانٌّ﴾، أي: كأنها حية حقيقية في سرعة حركتها وصورتها المخيفة. والجان: ذكر الحيات، وهو الثعبان، كما قال تعالى: ﴿فَالْقَلْبَ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ نُعْبَانٌ مُّيِّنٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٠٧].

﴿وَلَىٰ مُدْبِرًا﴾: ﴿مُدْبِرًا﴾: حال مؤكدة لعاملها، أي: ولاها دبره، أي: ظهره، هاربا منها.

﴿وَلَوْ يُعَقِّبُ﴾، أي: ولم يلتفت، ولم يرجع، وهذا من مقتضى الطبيعة البشرية. ﴿يَمُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾، أي: فقال الله له: يا موسى أقبل ولا تخف، أي: وكن آمنًا مطمئنًا.

﴿إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ﴾؛ تعليل لقوله: ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾، أي: لأنك من الأمنين وهم الرسل وأتباعهم؛ كما قال تعالى في سورة النمل: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهَتَّرُ كَأَنَّهُا جَانٌّ وَلَىٰ مُدْبِرًا وَلَوْ يُعَقِّبُ يَمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَىٰ الْمُرْسَلُونَ﴾ [الآية: ١٠]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

فأقبل عليه السلام آمنًا مطمئنًا غير خائف، واثقًا بوعد ربه، فقال الله له: ﴿أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾، أي: أدخل يدك في جيب درعك، أي: في فتحة وطوق قميصك، أي: ثم أخرجها؛ ولهذا قال: ﴿تَخْرُجُ بَيَّضَاءَ﴾؛ أي: شديدة البياض وكان موسى عليه السلام «آدم» أي: بشرته بين البياض والسواد.

﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾، أي: من غير برص، ولا عيب؛ كما قال تعالى في سورة طه: ﴿وَأَضْمَمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيَّضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [طه: ٢٢]. ﴿وَأَضْمَمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾، أي: واضمم يدك إلى جنبك وصدرك.

﴿مِنَ الرَّهْبِ﴾؛ قرأ نافع وأبو جعفر وأبو عمرو ويعقوب وابن كثير بفتح الراء والهاء: «الرَّهْبِ»، وقرأ حفص بفتح الراء وإسكان الهاء: ﴿الرَّهْبِ﴾، وقرأ الباقون بضم الراء وإسكان الهاء: «الرُّهْبِ».

والرُّهْبُ: الخوف، والمعنى: لتأمن الرهب، أو ليزول عنك الرهب والخوف.

قال ابن كثير<sup>(١)</sup>: «وهو أنه أمر عليه السلام إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب، وهي يده، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجد من الخوف، وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء، فوضع يده على فؤاده يزول عنه ما يجد أو يخف إن شاء الله وبه الثقة».

﴿فَذَانِكَ﴾؛ قرأ أبو عمرو ورويس عن يعقوب بتشديد النون: «فَذَانُكَ»، وقرأ الباقون بتخفيفها على الأصل في التثنية: ﴿فَذَانِكَ﴾، أي: فهذان، أي: العصا، واليد، وكل منهما مؤنث، وإنما ذُكر المشار به إليهما «فذانك» مراعاة لخبره: «برهانان»، أي: انقلاب عصاك حية، وخروج يدك بيضاء من غير سوء.

﴿بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ﴾، أي: دليلان قاطعان، وحجتان ظاهرتان، وآيتان باهرتان من ربك على صدقك وصحة ما جئت به، وأنه حق وصدق.

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾، أي: أرسلك ربك بهما أو أرسلناك بهما إلى فرعون وملئه. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾؛ تعليل لقوله: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ﴾ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾، أي: لأنهم كانوا قوماً فاسقين، أي: خارجين عن طاعة الله، مخالفين لدين الله بالكفر والشرك والظلم والمعاصي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾<sup>(٣٢)</sup> وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنْتِ أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣١﴾ قَالَ سَنَسُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أَنْتُمْ وَمَنْ أَتَّبَعَكُمَا الْغٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾:

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾، أي: قال موسى: يا رب، ﴿إِنِّي قَتَلْتُ

(١) في «تفسيره» ٦/٢٤٥.

مَنْهُمْ ﴿١٤﴾، أي: من آل فرعون ﴿نَفْسًا﴾؛ يعني: الرجل القبطي.

﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾؛ إذا رأوني بدم ذلك القتل؛ كما في سورة الشعراء: ﴿وَلَهُمْ عَلَىٰ ذُنُوبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ ﴿١٤﴾ [الشعراء: ١٤].

﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ أي: أبن مني منطوقًا، وأوضح كلامًا؛ وذلك أن موسى كان في لسانه لثغة وثقل في التعبير؛ كما قال في سورة الشعراء: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾ ﴿١٣﴾ [الشعراء: ١٣]؛ ولهذا قال: ﴿وَأَحَلَّلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿١٧﴾ يَقْفَهُوا قَوْلِي ﴿١٨﴾﴾ [طه: ٢٧-٢٨].

﴿فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾؛ قرأ نافع وأبو جعفر بالتخفيف: «رِدْءًا». وقرأ الباقون بالهمز على الأصل: «رِدْءًا».

وقرأ عاصم وحمزة بضم القاف: «يُصَدِّقُنِي»، وقرأ الباقون بجزمها: «يُصَدِّقُنِي».

أي: اجعله رسولاً معي، ﴿رِدْءًا﴾؛ حال، أي: مؤيدًا لي ومعينًا ومساعدًا ووزيرًا، ﴿يُصَدِّقُنِي﴾، أي: يشهد بصدقي، ويفصح لهم من معنى الأدلة ما قصر عنه نطقي.

وقوله: ﴿فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾؛ صريح في أن موسى لم يرد بكلامه السابق الاعتذار عن قبول الرسالة، ولكنه أراد أن يرسل الله معه أخاه هارون؛ ليكون مؤيدًا له ووزيرًا، ومعينًا له وظهيرًا؛ كما قال في سورة طه: ﴿وَأَجْعَلِ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدَّ بِهٖ أَزْرَى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾ [طه: ٢٩-٣٢].

﴿يُصَدِّقُنِي﴾ أي: يكون مصدقًا لي، يقوي كلامه كلامي ويصدقه.

وخص هارون وعينه؛ لعلمه بصدقه وأمانته وإخلاصه، وفصاحته لسانه، وغير ذلك، وفيه محض النصيح لأخيه، حيث شفع فيه إلى ربه أن يجعله معه رسولاً.

ولهذا فإن أعظم منة من بها أخ على أخيه هي منة موسى على أخيه هارون بوجاهته له عند الله أن يكون معه رسولاً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَوَكَّانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾؛ تعليل لسؤاله إرسال أخيه هارون معه، وتأكيد لقوله: ﴿يُصَدِّقُنِي﴾، أي: إني أخشى أن يكذبون.

﴿قَالَ﴾، أي: قال الله تعالى مجيباً لسؤال موسى إرسال أخيه هارون معه.

﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾، السين: للتوكيد والتقريب، أي: سنقويك ونعز جانبك بأخيك هارون، ونؤيدك به، ونرسله معك؛ كما في الآية الأخرى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴿٣٦﴾﴾ [طه: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم: ٥٣].

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمْ سُلْطٰنًا﴾، أي: ونجعل ونصير لكم - شرعاً وكوناً - حجة ظاهرة، وتسلطاً وغلبةً وتمكناً، وهذه بشرى ثانية لهما جميعاً.

﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾؛ بسوء، وهذا وعد من الله تعالى بحفظهما، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافُ إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦].

﴿بِقَائِنَتِنَا﴾؛ الباء: سببية، أي: بسبب تأييدنا لكم بآياتنا، وتبليغكما إياها، وما دلت عليه من الحق المبين.

﴿أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمْ أَغْلِبُونَ﴾؛ لكل من ناوأكم وخالفكم؛ كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة: ٦٧]، إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعِصْمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٢١].

### الفوائد والأحكام:

١- إكمال موسى الأجل الذي بينه وبين صهره، ومسيره بأهله قاصداً مصر؛ حيث اشتاق إلى والدته وعشيرته ووطنه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾.

٢- في اشتغاله عليه السلام برعي الغنم طيلة هذه السنوات تهيئة من الله تعالى له للنبوّة والرسالة ورعاية مصالح الخلق، وقد قال ﷺ: «ما بعث الله نبياً إلا راعي غنم»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه البخاري في الإجارة ٢٢٦٢، وابن ماجه في التجارات ٢١٤٩؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٣- إبصاره وهو في مسيره وقد ضل الطريق في ليلة مظلمة باردة نارًا تضيء من بُعد؛ لقوله تعالى: ﴿ءَأَنْتَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾. وذلك من أسباب تهيئته للوصول إلى المكان الذي أراد الله أن يوحى إليه فيه.

٤- أمره أهله بالكمث، وذهابه صوب هذه النار؛ ليلتمس خبرًا عن الطريق، أو جذوة نار يستدفئون بها؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾. وهذا يدل على أنه قد اشتبه عليه الطريق، وأنهم كانوا في الشتاء، وفي برد.

٥- حسن معاملته عليه السلام ومعاشرته لأهله، حيث أخبرهم سبب ذهابه ومقصده منه، وأنه لالتماس خبر، وجذوة من النار لتدفئتهم، وقد قال ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»<sup>(١)</sup>.

٦- نداء الله تعالى وتكليمه لموسى عليه السلام لما أتى النار من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة، وإعلامه بأن الذي يكلمه هو الله رب العالمين؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَلْطِيِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوَسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥١﴾﴾.

٧- إثبات صفة النداء والتكليم لله عز وجل، وتكليمه عز وجل لموسى بحرف وصوت يسمعه كما يليق بجلال الله عز وجل وعظمته؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٦].

وفي هذا رد على الجهمية والأشاعرة الذين ينفون أن يكون الله يتكلم بحرف وصوت مسموع، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

٨- فضيلة موسى عليه السلام وتشريفه وتكريمه من بين الرسل بتكليم الله تعالى له، وإثبات نبوته عليه السلام ورسالته.

(١) سبق تخريجه.

٩- مباركة الله تعالى في هذه البقعة التي نادى عز وجل فيها موسى وكلمه وأوحى إليه.  
 ١٠- إثبات ألوهية الله عز وجل وربوبيته العامة للعالمين، والاستدلال بتفرده في الربوبية على تفرده بالألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ يَكْمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

١١- أمره عز وجل لموسى بإلقاء عصاه؛ ليريه آية من آياته الكبرى التي سيؤيده بها، وامتثاله عليه السلام لذلك، وإلقاؤه إياها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ أَلْقَىٰ عَصَاكَ﴾.

١٢- المعجزة الكبرى والآية العظمى في انقلاب عصاه بعد إلقائه إياها حية تهتز كأنها جان؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدَبِّرًا لَّمْ يَعْقِبْ﴾.

١٣- أن موسى عليه السلام، وكذا غيره من الرسل، يعترهم الخوف الطبيعي كغيرهم من البشر، لكن الله يثبتهم ويطمئنهم ويسكن قلوبهم، ويؤمنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدَبِّرًا لَّمْ يَعْقِبْ﴾، وقوله: ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾.

١٤- طمأنة الله تعالى له، وأمره بالإقبال وعدم الخوف، وتأمينه وعنايته به؛ لقوله تعالى: ﴿يَلْمُوسَىٰ أَقْبَلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ﴾؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَلْمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيْ الْمُرْسَلِينَ﴾ [النمل: ١٠].

١٥- أمره عز وجل له بإدخال يده في جيبه تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى؛ لقوله تعالى: ﴿أَسْلُكُ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾؛ كما قال تعالى في سورة طه: ﴿وَأَضْمُمُ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٢٢].

١٦- أمره عز وجل له بأن يضمم يده إلى جنبه وصدرة؛ ليزول عنه الرهب ويطمئن ويسكن قلبه؛ آية من آيات الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾.

١٧- أن هاتين المعجزتين الكبيرتين هما برهانان من الله عز وجل لموسى، للدلالة على صدقه، وصحة ما جاء به أرسله الله بهما إلى فرعون وملته؛ لقوله تعالى: ﴿فَدَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾.

١٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لموسى عليه السلام؛ لقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ﴾.

١٩- عظم الآيات والمعجزات التي أيد الله تعالى بها موسى، الدالة على كمال قدرة الله عز وجل، وتمازج حكمته في كونها مناسبة لحال المرسل إليهم.

٢٠- بلوغ فرعون وملئه الغاية بالفسق والكفر والخروج عن طاعة الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

٢١- إقامة الحججة على العباد بإرسال الرسل، وتأيدهم بالآيات والمعجزات، وتحذيرهم من الكفر والفسوق والخروج عن طاعة الله.

٢٢- إيداء موسى عليه السلام تخوفاً من أن يقتله فرعون وملؤه بدم القبطي الذي قتله منهم قبل خروجه من مصر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾<sup>(٢٢)</sup>، وهذا خوف طبيعي لا ينافي الإيمان.

٢٣- سؤاله عليه السلام ربه أن يرسل معه أخاه هارون؛ لأنه أفصح منه لساناً؛ ليكون مؤيداً له ومعيناً ومصداقاً له ووزيراً؛ لقوله: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنْتِ أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾<sup>(٢٣)</sup>.

٢٤- أن هارون أفصح من أخيه موسى، وذلك أن موسى عليه السلام كان في لسانه لثغة؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ [الشعراء: ١٣].

٢٥- إنصاف موسى عليه السلام وإقراره بالفصاحة لأخيه، فإن من الناس من يكون ناقصاً لكن لا يستطيع أن يقول الحق بكمال غيره ونقصه هو.

٢٦- أن فصاحة اللسان لها أثر قوي في الدعوة والتأثير على القلوب وفي الحديث: «إن من البيان لسحرا»<sup>(١)</sup>.

٢٧- أن التعاون في الدعوة إلى الله من أعظم أسباب النجاح فيها.

٢٨- فضيلة موسى عليه السلام، وعظم منزلته، ووجاهته عند الله تعالى؛ حيث

(١) أخرجه البخاري في النكاح - باب الخطبة ٤٨٥١، ومسلم في الجمعة - تخفيف الصلاة والخطبة ٨٦٩ - من

حديث ابن عمر رضي الله عنهما

أجاب عز وجل سؤاله، بل وأعطاه أكثر مما سأل وشد عضده بأخيه هارون رسولاً معه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾؛ وهذا من توفيق الله وعونه لموسى؛ لأن ما خافه من فرعون وملئه من التكذيب وقع.

٢٩- أنه لا أحد أعظم منة على أخيه من موسى على أخيه هارون عليهما السلام؛ حيث شفع فيه فجعله الله نبياً رسولاً، وإنما اختار موسى أخاه هارون بعينه؛ لعلمه بصدقه وأمانته، وإخلاصه وفصاحته، ونحو ذلك.

٣٠- تكفله عز وجل لهما بجعل الحجة والسلطان لهما وحفظهما، فلا يصل فرعون وملؤه إليهما، بسبب ما يؤيدهما به عز وجل من الآيات والمعجزات، وأنها ومن اتبعهما الغالبون؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمْ سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾.

٣١- أن من أیده الله تعالى بالسلطان والحجة والآيات، واستقام على صراط الله المستقيم، ودعا إليه، فهو الغالب لا محالة، وهم الرسل عليهم السلام وأتباعهم.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي ءَابَائِنَا الْأُولِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّتِ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطَّيْنِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْتَهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَأُنزِلُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى التَّارِكِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي ءَابَائِنَا الْأُولِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّتِ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾، الباء للمصاحبة والملابسة أي: فلما جاء موسى إلى فرعون وملئه بآيات الله البينات، والحجج الواضحات والمعجزات الباهرات، والدلائل القاطعات، على صدقه وأخيه، وصحة ما جاء به من إثبات وحدانية الله تعالى في ربوبيته وإلهيته، ووجوب عبادته وحده لا شريك له.

ولم يذكر «هارون»؛ لأن موسى هو الأصل في الرسالة.

﴿قَالُوا﴾، أي: قال فرعون وملؤه عنادًا واستكبارًا، وظلمًا وطغيانًا: ﴿مَا هَذَا﴾؛ الإشارة إلى ما جاءهم به موسى من الآيات البينات الحسية، كالعصا واليد، والآيات المعنوية.

﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَى﴾، «إلا» أداة حصر، أي: إلا سحر مفتعل مختلق مكذوب بادعاء أنه من عند الله، وإخفاء كونه سحرًا؛ كما قالت قريش: ﴿بَلِ أَقْتَرِلُهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء: ٥].

﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾؛ يعنون: ما جاءهم به موسى من الرسالة، وما دعاهم إليه من وجوب عبادة الله وحده.

﴿فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ﴾، أي: في وقت أبائنا الأولين؛ أي: السابقين، وهذا كذب منهم فقد أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّكُمْ مَتَا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن نَّبَعَكَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر: ٣٤].

وأيضاً فإن الرسل من لدن نوح إلى موسى، بل وإلى خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم كلهم دعوا إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، وما هذا منهم إلا كإنكار ضوء الشمس في رابعة النهار، وقد قيل:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد  
وينكر الفم طعم الماء من سقم<sup>(١)</sup>  
وقال المتنبي<sup>(٢)</sup>:

وهبني قلت: هذا الصبح ليل أعمى العالمون عن الضياء!  
وكون آبائهم كذبوا الرسل وعاشوا على الشرك والضلال ليس حجة لهم في رد ما جاءهم من الحق وإبطاله، وعلى فرض صحة أنهم ما سمعوا بهذا في آبائهم الأولين، فهذا لا يبرر رد ما جاءهم به موسى من الحق وإبطاله؛ لأن الحق إذا جاء وجب قبوله، وإن لم يكن موجوداً في الأولين.

﴿وَقَالَ مُوسَى﴾؛ قرأ ابن كثير: «قَالَ» بغير واو، وقرأ الباقر بالواو: ﴿وَقَالَ﴾.  
﴿رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ﴾ «من» موصولة، أي: ربي أعلم بالذي جاء بالهدى، أي: بالوحي.

﴿مِنْ عِنْدِهِ﴾، أي: من عند الله عز وجل، أهو أنا أو أنتم؟ وسيفصل بيني وبينكم؛ ولهذا قال:

﴿وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء: «يكون»،

(١) البيت للبوصيري. انظر: «ديوانه» (ص ٢٤٧).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص ٢) بترقيم الشاملة.

وقرأ الباقر بالتاء: «تكون»، وهو معطوف على قوله: «من جاء بالهدى». أي: وأعلم بمن تكون له عاقبة الدار، أي: وأعلم بالذي تكون له العاقبة المحمودة، من النصر والظفر والتأييد في الدنيا، والفوز بالجنة والنجاة من النار في الآخرة، أي: أهو أنا أم أنتم. وهم في الحقيقة موسى وأتباعه، وجميع المؤمنين.

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾؛ أي: من أيّ الفريقين كانوا، أي: لا يفوزون بالمطلوب، ولا ينجون من المهوب، فلا يسعدون في حياتهم، ولا ينجون من النار في آخرتهم، بل لهم سوء العاقبة، ولهم سوء الدار، وهم في الحقيقة فرعون وأتباعه، ومن سلك مسلكهم بالكفر والشرك.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطَّيْنِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٨﴾ وَأَسْتَكَبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَأُنْظِرُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٣١﴾ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾؛ اجترأ منه على الله، وطمغياناً وكفراً، وعلواً واستكباراً، وتمويهاً على ضعاف العقول والسفهاء من قومه:

﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾، «من» لتأكيد عموم النفي، و«إله» نكرة في سياق النفي، فتعم، أي: ما علمت لكم أيّ إله غيري، أي: أنا إلهكم ومعبودكم، لا إله ولا معبود لكم سواي ولا رب لكم غيري، وليس ربكم «الله» كما يقول موسى ولا إلهكم.

ولهذا هدد موسى وتوعده بقوله: ﴿قَالَ لَئِن أُتِّخِذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]؛ كما قال لموسى منكراً ربوبية الله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، وقال: مخاطباً قومه: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤].

وبهذا استخف قومه فعبدوه وأطاعوه؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَسْتَخَفَّ قَوْمَهُ

فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا فَوْسِقِينَ ﴿٥٤﴾ [الزخرف: ٥٤].

﴿فَأَوْقَدَ لِي يَهْمَنْ عَلَى الطِّينِ﴾؛ «هامان»: وزير فرعون، ومدبر رعيته، ومشير دولته، أي: فأشعل النار وأوقدها لي يا هامان على الطين، أي: اطبخه حتى يكون أجراً وفخاراً.

﴿فَجَعَلَ لِي﴾، أي: فابن لي من هذا الطين بعد طبخه وصنع اللبن منه ﴿صَرَخًا﴾، أي: قصرًا عاليًا منيفًا، وبناء شاخخًا مرتفعًا.

﴿لَعَلِّي أَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾، أي: لأجل أن أطلع إلى إله موسى الذي يدعيه، وانظر إليه وأقف عليه وهكذا قال المشركون: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾؛ الواو اعتراضية، أو عاطفة، واللام للتوكيد، أي: وإني لأظن موسى في زعمه أن له إلهًا غيري، أو أن للعالمين ربًّا ومعبودًا سواي، ﴿مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾؛ الذين بلغوا الغاية في الكذب.

وهذا كقوله تعالى في سورة غافر: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنْ ابْنُ لِي صَرَخًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الآيتان: ٣٦، ٣٧].

﴿وَأَسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ﴾ السين والتاء: للمبالغة، أي: استكبر هو وجنوده استكبارًا شديدًا، بلغ الغاية في الاستكبار والتعالي والتعاضم.

﴿فِي الْأَرْضِ﴾، أي: في أرض مصر و«ال» للعهد الذهني.

ويجوز أن يراد بها: جنس الأرض؛ لأنهم كانوا يومئذٍ أعظم أمم الأرض، فادعى فرعون الربوبية والألوهية، واستكبر هو وجنوده عن قبول الحق، وعلى الخلق، وكذبوا موسى وطغوا وتجبروا، وساموا المستضعفين من العباد سوء العذاب، وأكثروا في الأرض الفساد؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿١٣﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٥﴾﴾

[الفجر: ١٠-١٤].

﴿يَغَيِّرِ الْحَقِّ﴾، أي: بالباطل وهذا بيان للواقع، ومبالغة في تقييده؛ لأن الاستكبار لا يكون بالحق.

﴿وَوَطُّنُوا﴾، أي: اعتقدوا ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي بفتح ياء المضارع: «يُرْجَعُونَ»، وقرأ الباقون بضمها: ﴿يُرْجَعُونَ﴾.

أي: أنكروا البعث والحساب والجزاء على الأعمال، وصرح بهذا؛ لإبطال هذا الاعتقاد، والتعريض بالمشركين الذين ينكرون البعث مثلهم.

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ﴾، الفاء: للسببية أي: فعاقبناه وجنوده، بسبب استكبارهم، ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾، أي: فطرحناهم وألقيناهم في البحر وأغرقناهم على وجه الإذلال لهم والإهانة مقابل استكبارهم.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾؛ الخطاب لكل من يصلح له. أي: فانظر وتأمل بقلبك وفكرك كيف كانت عاقبة الظالمين بالكفر والاستكبار، ونهايتهم الأليمه، وعقوبتهم الوخيمه، فأجسادهم للغرق، وأرواحهم للنار والحرق، متواصل عذابهم في الدنيا مع عذابهم في الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾؛ كونًا وقدرًا، أي: صيرناهم في الدنيا ﴿أَيِّمَةً﴾، أي: قادة يقتدى بهم في الكفر والشرك، ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾، أي: يدعون بأقوالهم وأفعالهم من اتبعهم إلى ما يوجب دخول النار من الكفر والاستكبار، ورد الحق، وتكذيب الرسل. وإذا كانوا يدعون إلى النار فهم من أهلها ومرتكبون ما يوجب دخولها والخلود فيها.

وفي هذا تعريض بالمشركين، وما هم عليه من الكفر، والتكذيب للنبي ﷺ، وصد الناس عن دعوته.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾، أي: لا أحد ينصرهم فيدفع عنهم عذاب

الله، أو يرفعه، بل يتبرأ منهم القريب والبعيد؛ كما قال تعالى: ﴿أَهْلَكْتَهُمْ فَلَاحِصَرَهُمْ﴾ [محمد: ١٣].

﴿وَأَتَّبَعْتَهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾، أي: وألحقناهم في هذه الدنيا ﴿لَعْنَةً﴾؛ من الله بطردهم وإبعادهم عن رحمته، ولعنة من خلق الله بالدعاء عليهم بطردهم عن رحمة الله.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾، أي: من المذمومين، المستقدرة أفعالهم وصفاتهم، المطرودين المبعدين عن الجنة، المخلدين في النار؛ كما قال تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُنْسَى الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩].

### الفوائد والأحكام:

١- تكذيب فرعون وملئه لما جاءهم به موسى من الآيات البيّنات، وزعمهم أنها سحر مختلق؛ عناداً منهم واستكباراً، وطغياناً وكفراً؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى﴾.

٢- مسارعة أهل الباطل عندما تدمغهم براهين الحق ودلائله وآياته ومعجزاته الواضحة البيّنة إلى المكابرة والعناد، ورمي الحق بأسوأ الأوصاف وأقبحها، كقولهم: سحر، ومفتري، ورمي ما جاء به بأنه ساحر، ونحو ذلك؛ كما قال فرعون للسحرة لما آمنوا وأسقط في يده: ﴿إِنَّهُ لَكَيْفُرُكَ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [الشعراء: ٤٩، طه: ٧١].

وصدق الله العظيم: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

٣- نفي فرعون وملئه أن يكونوا سمعوا بما جاءهم به موسى من الدعوة إلى توحيد الله تعالى في آبائهم الأولين؛ لقولهم: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ﴾.

وهذا كذب؛ فإن الرسل منذ وقع الشرك في الأرض متتابعون في الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، من لدن نوح عليه السلام إلى أن ختموا بمحمد ﷺ.

وقد أرسل الله إليهم يوسف قبل موسى عليهما السلام؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

وعلي تقدير صحة زعمهم أنهم ما سمعوا بهذا في آبائهم الأولين فليس ذلك بحجة لهم في رد ما جاءهم من الحق.

٤- جهلهم وسفاههم؛ لاعتدادهم بما عليه آبائهم ولو كان باطلاً، وتقليدهم لهم تقليداً أعمى.

٥- صبر موسى عليه السلام ومضيه قُدماً في دعوته لهم بعد تكذيبهم له، وتنزله معهم في الخطاب، وهو يعلم أنه هو الذي جاء بالحق من عند الله، ويعلم أن الله أعلم بذلك، وأن العاقبة له ولأتباعه، وهذا من باب إرخاء العنان للخصم؛ لعل ذلك ينجع فيه؛ لقوله عليه السلام: ﴿رَبِّتْ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لموسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّتْ﴾.

٧- إثبات علم الله الواسع بالخلق وأحوالهم وأعمالهم ونياتهم، وأن ما جاء به موسى هو الهدى من عنده عز وجل، وأن عاقبة الدار الحسنی له ولأتباعه، وثقة موسى بوعد الله تعالى له بذلك.

٨- إثبات أن الهدى هدى الله، والتعريض بأن ما عليه فرعون وملؤه هو الضلال، وتهديدهم بأن العقبي السيئة لهم؛ لمفهوم قوله: ﴿رَبِّتْ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾.

٩- التعريض بما هم عليه من الظلم، والوعيد لهم ولغيرهم من الظالمين بالخيبة والخسران، وعدم الفلاح، والتحذير من الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

١٠- جراءة فرعون ومكابرتة وزعمه الباطل أنه لا إله غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾، وهذه أعظم كذبة كذبها الخلق كلهم.

١١- تمويهه على قومه وترويجيه لزعمه الباطل بباطل آخر، وهو بناء صرح لكي

يطلع - بزعمه - إلى إله موسى، ليبين كذبه؛ لقوله: ﴿فَأَوْقَدَ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صِرَاحًا لَعَلِّي أُنطَلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

١٢- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لأن قول فرعون هذا يدل على أن موسى قال له: إن الله في السماء.

١٣- أن هامان كان وزيراً لفرعون، ومدبراً لرعيته، ومشيراً لدولته.

١٤- أن الطين إذا أوقد عليه في النار وطبخ قوي واشتد، وصار أجراً وفخاراً يصنع منه اللبن، ويتماسك به البناء الرفيع.

١٥- تنقُص فرعون لله جل وعلا بقوله: ﴿إِلَهِ مُوسَىٰ﴾ بل وتكذبه بوجود الرب الخالق الصانع المعبود وحده؛ لقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

١٦- تمادي فرعون وجنوده بالاستكبار والفساد في الأرض، بتكذيب موسى، ورد الحق، والتعالي على الخلق وأذيتهم، والطغيان والتجبر والتكبر بالباطل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَكْبَرُوا وَهُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

١٧- إنكارهم الرجوع إلى الله تعالى والبعث والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾، ويفهم من هذا إثبات البعث والرجوع إلى الله.

١٨- عقوبة الله تعالى العاجلة لفرعون وجنوده؛ بإلقائهم في البحر وإغراقهم وإهلاكهم جميعاً؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾.

١٩- حكمة الله تعالى التامة وقدرته في إهلاك فرعون وجنوده بالغرق في الماء الذي كان يفتخر به بقوله: ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا بُصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١].

٢٠- ينبغي النظر والتفكر في عقوبة الله تعالى لفرعون وجنوده، وإهلاكهم بالغرق؛ بسبب ظلمهم بتكذيب موسى، واستكبارهم عن قبول الحق وعلى الخلق، ففي ذلك عبرة وعظة لكل من ينظر ويتأمل، وتهديد والتحذير للظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

٢١- بلوغ فرعون وجنوده الغاية في الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ

كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾.

٢٢- قضاء الله عز وجل وتقديره الكوني عليهم؛ لكفرهم وعنادهم أن يكونوا في الدنيا أئمة وقادة يدعون إلى النار بأقوالهم وأفعالهم، ومصيرهم يوم القيامة إليها؛ حيث لا ناصر لهم يدفع عنهم العذاب أو يرفعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

٢٣- إلحاقهم في هذه الدنيا لعنة من الله، وطردهم عن رحمته، وعن كل خير، ولعنة من الخلق بالدعاء عليهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾.

٢٤- تقييحهم ودمهم في الآخرة بحرمانهم من الجنة وتخليدهم في النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾.

٢٥- إثبات القيامة وما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءآيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِتَذَّرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِن نَّذِيرٍ مِّن قِبَلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ قَيْلُ لَوْلَا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءآيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْقَى لَوْلَا أَوْقَى مِثْلَ مَا أَوْقَى مُوسَىٰ أَوْلَىٰ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْقَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ \* وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ﴾، أي: أعطينا موسى الكتاب؛ يعني: التوراة.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾؛ «ما»: مصدرية، أي: من بعد إهلاك

القرون الأولى، أي: الأمم المكذبة؛ كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط، وغيرهم من الأمم الماضية.

وفي هذا إشارة- كما قال المفسرون- إلى أنه بعد نزول التوراة انقطع الهلاك العام، وشرع جهاد الكفار بالسيف، كما أن فيه إشارة إلى حاجة الناس إلى الرسالة بعد تطاول الزمن.

﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾؛ «بصائر»: حال من الكتاب، أو مفعول لأجله، أي: ذا بصائر

للناس، أو لأجل تبصرة الناس وهم قوم موسى خاصة، بنو إسرائيل.

و«بصائر»: جمع بصيرة وهي: نور القلب، كما أن البصر: نور العين، أي: دلائل وبيانات يستبصرون بها من الضلال والغي؛ كما قال موسى مخاطباً فرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

﴿وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً﴾؛ معطوفان على «بصائر»، أي: ﴿وَهَدَىٰ﴾؛ يهديهم ويدهم ويرشدهم إلى الحق وإلى الطريق المستقيم، ﴿وَرَحْمَةً﴾ لهم.  
﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

«لعل»: للتعليل أي: لعلهم يتعظون ويعتبرون، ويعملون بما فيه من الأحكام.  
قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ٤٤ ﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ ٥٥ ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ٦٦:

لما ذكر الله تعالى لنبيه ﷺ قصة موسى عليه السلام، وما اشتملت عليه من الأخبار الغيبية؛ أكد صحة هذه الأخبار، ودالاتها على صدق رسالته ﷺ؛ لأنها لا تعلم إلا من جهة الوحي.

قوله: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾، أي: وما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي، وقيل: الوادي الغربي، وقيل: المكان.

وموسى عليه السلام نودي من جانب جبل الطور، ونودي بالواد المقدس طوى.  
﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾، أي: حين قضينا وأوحينا إلى موسى أمر الرسالة إلى فرعون؛ أي: فتسمع وحيناً إليه.

﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾، أي: وما كنت من الشاهدين الحاضرين لذلك، فترى خبر موسى عن معانين، حتى يقال: إنه وصل إليك من هذا الطريق أو ذاك.  
﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا﴾، أي: خلقنا وأوجدنا أمماً من بعد موسى.

﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾، التاء والطاء في: ﴿فَتَطَاوَلَ﴾ للمبالغة. والعمر:

الزمن. ومعنى «فتطاول»؛ أي: زاد في الطول، أي فطالت أعمارهم فنسوا العهود، واندرس العلم، وطمست آثاره، وانقطع الوحي، واحتاج الناس إلى الرسالة، فجئنا بك، وأوحينا إليك خبر موسى وغيره.

﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾، أي: وما كنت مقيمًا في أهل مدين، ونازلًا بينهم تقرأ وتقص عليهم آياتنا فتعرف قصتهم، فتخبر بها. والمراد بأهل مدين القوم الذين أتى إليهم موسى واستأجره والد المرأتين وزوجه إحداهما؛ أي لم تكن يا محمد مقيمًا في أهل مدين حتى تخبر بذلك، وإنما جاءك ذلك عن طريق الوحي.

وقيل الضمير في «عليهم» يعود على المشركين، أي: وما كنت: تتلو على المشركين آياتنا.

﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، أي: ولكننا أرسلناك وأوحينا إليك، وأخبرناك بذلك كله، بدءًا من أول إيجاء الله إلى موسى وتكليمه له إلى آخر قصته؛ كما أخبرناك بكثير من قصص الأنبياء السابقين وأممهم؛ كأنك شاهد وحاضر لها. قال ابن القيم: «كأنه قال: وما كنت من الشاهدين لما جرى لموسى عليه السلام، ولكننا أوحينا إليك، وسبب هذا الوحي: أنا أنشأنا قرونًا إلى زمانك، فتطاول عليهم العمر، أي: مدة الفترة، فُنسي ما كان جرى، فأوحينا إليك، فيكون المحذوف هو السبب، والمذكور الدال عليه هو سببه»<sup>(١)</sup>.

وهذا كما قال تعالى بعد ذكر قصة مريم: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

وقال تعالى بعد أن أخبره بقصة نوح عليه السلام: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

وقال تعالى بعد ذكر قصة يوسف عليه السلام: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٥٠.

إِيَّاكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ [يوسف: ١٠٢].  
وقال تعالى في آخر سورة طه: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ  
آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ [طه: ٩٩].

﴿وَمَا كُنْتَ﴾، أي: وما كنت يا محمد ﴿بِجَانِبِ الطُّورِ﴾، أي: بجانب جبل  
الطور الذي كلم الله عليه موسى، وهو الجبل المعروف في سيناء، وجانب الشيء جهته،  
﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾، أي: حين نادينا موسى وكلمناه، قال تعالى: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ  
الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ [مريم: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ [الشعراء:  
١٠]، وقال تعالى: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ [النازعات: ١٦].

﴿وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾، أي: وما كنت مشاهدًا لشيء من ذلك، ولكن ربك  
أوحاه إليك وأخبرك به، رحمة منه عز وجل، و«رحمة»: مفعول لأجله، أي: ولكن  
أرسلناك رحمة من ربك بك، وبالعباد بإرسالك إليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ  
إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿لِنُنذِرَ﴾؛ اللام للتعليل، أي: أرسلناك لأجل أن تنذر.  
﴿قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَّذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾؛ وهم كفار قريش، الذين بلغوا حدًّا  
بعيدًا في الكفر، فهم أول من أنذرهم ﷺ، وإلا فقد بُعث لهم ولغيرهم، كما قال تعالى:  
﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ [الفرقان: ١].

و«من» في قوله: ﴿مِنْ نَّذِيرٍ﴾: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى  
لعموم النفي، أي: ما أتاهم أي نذير من قبلك.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، أي: لعلهم يتعظون ويعتبرون، فيمثلون أمر الله،  
ويجتنبون نهيهِ، ويعبدون الله وحده، ويدعون ما هم عليه من الشرك.

وهو رسول عام لهم ولغيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لِنَاسٍ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ  
إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ  
مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

قوله: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ﴾؛ الواو عاطفة، و«لولا» شرطية غير عاملة، وهي حرف امتناع لوجود، أي: ولولا أن تنزل بهم عقوبة أو عذاب.

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ الباء للسببية، و«ما» موصولة، أي: بسبب الذي قدمته أيديهم، أي: بسبب الذي عملوه من الكفر والمعاصي.

﴿فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾؛ الفاء عاطفة، و«لولا» حرف تضيض، أي: فيقولوا: يا ربنا، هلا أرسلت إلينا رسولاً.

﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾؛ الفاء للسببية، أي: فتتبع آياتك التي أرسلت بها إلينا رسولك، ونعمل بها بجوارحنا.

﴿وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ معطوف على جملة: «نتبع»، أي: ونكون من المؤمنين بك، المصدقين بما جاء به رسولك بقلوبنا، المتقادين له ظاهراً وباطناً.

وجوب الشرط محذوف؛ أي: لعاجلناهم بالعقوبة أو لما أرسلناك إليهم. أي: فأرسلناك يا محمد إليهم؛ لنقيم الحجة عليهم، ولنقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب الله بسبب كفرهم وضلالهم، فلا يحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير.

كما قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴿١٥٧﴾﴾، وقال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٦﴾﴾ [المائدة: ١٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَّلًا يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَفْرٍ نَوْتٌ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأَنُوتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ أَتَّبَعَ هَوَاهُ بَعْدَ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ \* وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾:

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ﴾؛ الفاء عاطفة، أي: فلما جاء المشركين القائلين: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾، أي: القرآن الكريم الذي أرسلنا به محمداً ﷺ.

﴿قَالُوا﴾؛ على وجه التكذيب والتعنت والعناد، والكفر والجهل والإلحاد: ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾، «لولا»: تحريضية، أي: هلا أعطي محمد مثل الذي أعطي موسى من الآيات الظاهرة، مثل: العصا، واليد، والظوفان، والقمل، والضفادع، والدم، وقلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، إلى غير ذلك من الآيات والمعجزات الحسية الظاهرة.

وفي هذا تجاهل منهم عن كون القرآن أعظم الآيات، وأكبر المعجزات. ويحتمل أيضاً: مثل ما أُوتِيَ موسى من كون التوراة أنزلت عليه جملة واحدة. فيرون لجهلهم المركب، وفهمهم الفاسد، ونظرهم القاصر؛ أن القرآن ما دام ينزل مفرقاً فليس من عند الله؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢].

وما علموا أن من سر إعجاز القرآن، وكماله، وعناية الله تعالى به وبمن أنزله عليه؛ أن نزل مفرقاً؛ ولهذا رد الله عليهم بقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: ٣٢، ٣٣].

﴿أَوَّلًا يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلِ﴾؛ الاستفهام للإنكار، و«ما»

موصولة، أولم يكفروا بالكتاب الذي أوتي موسى من قبل؟! والمراد: أولم يكفر فرعون وملؤه من المكذبين أمثالهم بالكتاب الذي أوتي موسى؟ أي: التوراة؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون: ٤٨].

عن مجاهد: ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾؛ قال: يهود تأمر قريشاً أن تسأل محمداً مثل ما أوتي موسى، يقول الله لمحمد ﷺ: قل لقريش يقولوا لهم: ﴿أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ (١).

وقد قيل: إن الخطاب في قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ﴾ لليهود، فقال الله لهم: ﴿أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾، وهذا بعيد؛ لأن السورة مكية واليهود بالمدينة.

﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وعاصم: ﴿سِحْرَانِ﴾؛ بكسر السين وإسكان الحاء من غير ألف قبلها، وقرأ الباقون بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء: «ساحران».

أي: قال المشركون- بعد الإنكار عليهم كيف يقولون: ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾؛ وقد كفر المكذبون أمثالهم بما أوتي موسى من قبل: ﴿سِحْرَانِ﴾؛ يعنون: التوراة والقرآن، ﴿تَظَاهَرَا﴾، أي: تعاونوا في سحرهما وإضلال الناس، وصدق كل منهما الآخر في ذلك.

﴿وَقَالُوا﴾، أي: قال المكذبون بكل من الكتابين؛ التوراة والقرآن: ﴿إِنَّا بِكُلِّ﴾، «بكل» متعلق بالخبر «كافرون»، وقُدِّم لإفادة الحصر والتوكيد والإغاطة، ﴿كُفْرُونَ﴾، أي: جاحدون مكذبون.

وهذا على قراءة: ﴿سِحْرَانِ﴾؛ ولهذا قال بعد ذلك: ﴿قُلْ فَأَنزِلْ بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٨/٢٦٥، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٩/٢٩٨٤.

اللَّهُ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١﴾.

أما على قراءة: «ساحران» فقالوا: المراد محمد ﷺ وموسى عليه السلام، وقال مجاهد وسعيد بن جبير وأبو رزين وغيرهم: «ساحران تظاهرا» يعنون: موسى وهارون» (١). قال ابن كثير (٢): «وهذا قول جيد».

﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين وأمثالهم من المكذبين للتوراة والقرآن:

﴿فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، أي: منزل من عند الله.

﴿هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا﴾، أي: هو أهدى من هذين الكتابين: التوراة والقرآن، أي: هو

أعظم وأكمل هداية للخلق، وأشد تأثيراً في قلوبهم منها.

وهذا من باب التحدي والتعجيز لهم؛ إذ لا سبيل لهم إلى هذا.

ولهذا كثيراً ما يقرن عز وجل بين القرآن والتوراة؛ لأن القرآن الكريم أعظم وأشرف

وأفضل كتب الله تعالى على الإطلاق، يليه في المرتبة الثانية التوراة؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ

مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهَدًى لِلنَّاسِ﴾؛ إلى قوله تعالى:

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥٥]،

وقالت الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

﴿أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ في قولكم، هذا مبالغة في التعجيز لهم، وبيان

أن تكذيبهم للتوراة والقرآن ليس طلباً للحق والهدى، وإنما ذلك لمجرد اتباع الهوى؛

ولهذا قال: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾، أي: فإن لم يجيبوك عما قلت لهم من الإتيان

بكتاب هو أهدى منها؛ لعدم استطاعتهم ذلك، ولم يجيبوك فيما دعوتهم إليه من اتباع

الحق بعد قيام الحجة عليهم.

﴿فَاعَلَمَ أَنَّمَا يُتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾، أي: فاعلم أنهم في عدم استجابتهم، وعدم

اتباعهم لك، وفي كفرهم وردهم ما جئت به بلا حجة ولا دليل، ﴿أَنَّمَا يُتَّبِعُونَ

(١) أخرجه عنهم الطبري في «جامع البيان» ١٨/٢٦٧، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٩/٢٩٨٥-٢٩٨٦.

(٢) في «تفسيره» ٦/٢٥٢.

﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ «أنا»: أداة حصر.

أي: ما يتبعون إلا ما تهواه نفوسهم، وليسوا يطلبون الحق والهدى.

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾

[الأحقاف: ٦].

﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾؛ الواو استئنافية، و«من» اسم استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد

﴿أَضَلُّ﴾، أي: أشد ضلالاً.

﴿مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾، أي: من الذي اتبع ما تهواه نفسه الأمانة بالسوء.

﴿بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾، أي: بغير توفيق من الله.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، أي: لا يوفق القوم الظالمين بالكفر

والمعاصي واتباع أهوائهم، وذلك لأن الهوى يعمي ويصم عن الحق؛ ولهذا قال تعالى:

﴿أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣]،

وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ

وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقد أحسن القائل:

وأفة العقل الهوى فمن علا على هواه عقله فقد نجا<sup>(١)</sup>

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾؛ الواو استئنافية، واللام: لام القسم لقسم مقدر؛

و«قد»: حرف تحقيق، أي: والله لقد وصلنا لهم القول، أي: بلغناهم القرآن، وفصلناه

لهم وبيناه، وتابعناه شيئاً بعد شيء؛ رحمة بهم ولطفاً.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، أي: لعلهم يتعظون ويعتبرون ويعملون به، أي: لأجل

أن يتعظوا ويعتبروا ويعملوا به.

**الفوائد والأحكام:**

١ - إثبات رسالة موسى عليه السلام، وإيتائه التوراة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا

## مُوسَى الْكَتَبَ ﴿﴾.

٢- فضيلة التوراة وشرفها؛ لأنها أعظم كتب الله تعالى بعد القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿الْكَتَبَ﴾ بالتنكير؛ تعظيماً وتشريفاً لها.

٣- أن موسى إنما أوتي التوراة بعد إهلاك الأمم المكذبة؛ كقوم نوح وعاد وشمود وقوم لوط؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾؛ وفي هذا- والله أعلم كما قال المفسرون- : إشارة إلى أنه بعد نزول التوراة انقطع الإهلاك العام.

٤- أن في التوراة بصائر ودلالات يُستبصر بها من العمى، وهداية إلى طريق الحق، ورحمة للعباد؛ ليتذكروا ويتعظوا، ويعملوا بأحكامها؛ لقوله تعالى: ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

٥- إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى الكونية الشرعية؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ وقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

٦- تقرير رسالة النبي ﷺ، وذلك بما أخبر به عن وقائع رسالة موسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾. الآية.

٧- أن النبي ﷺ لم يكن بجانب الجبل الغربي حين أوحى الله إلى موسى وعهد إليه بالنبوة والرسالة، ولم يكن من الشاهدين لذلك، وإنما أخبره الله بوجهه إليه بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٤﴾﴾؛ الآية إلى قوله: ﴿وَلَا كُنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾.

٨- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ﴾، وقوله: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾.

٩- أن الشاهد لا تقبل شهادته إلا إذا كان حاضرًا يسمع، أو شاهدًا يرى.

١٠- أن الله عز وجل أرسل نبينا محمدًا ﷺ بعد فترة من الرسل، واندراس العلم، وانطماس السبل؛ لبيان الحق، وإقامة الحججة على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا كُنَّا أَنشَأْنَا

قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴿٤٣﴾.

١١- أنه ﷺ لم يكن مقيماً في أهل مدين يتلو عليهم آيات الله تعالى، وإنما أخبر عنهم فيما أخبر؛ لوحي الله تعالى إليه بذلك بالرسالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾.

١٢- أنه ﷺ لم يكن حاضراً بجانب جبل الطور حين نادى الله موسى وكلمه؛ فينقل لنا خبر ذلك عن معاينة، وإنما رحمة من الله تعالى به وبالعباد أوحى الله تعالى إليه بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

١٣- الرد على المكذبين له ﷺ، المنكرين لرسالته، المدّعين تقوله للقرآن من ذات نفسه؛ بما أخبر به ﷺ في القرآن مما لا يمكن معرفته إلا من طريق الوحي والرسالة؛ من أخبار بعثة موسى عليه السلام، ونداء الله تعالى له، وخبر أهل مدين، وغير ذلك.

١٤- الرد على الذين يزعمون أنه ﷺ يعلم الغيب؛ لأن ما أخبر به من الغيوب السابقة أو اللاحقة إنما أوحاه الله تعالى إليه.

١٥- إثبات صفة الرحمة لله تعالى الخاصة والعامة؛ لقوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

١٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ، وتشريفه بإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبِّكَ﴾.

١٧- أن الله تعالى أوحى إليه ﷺ وأرسله رحمة؛ لإنذار مشركي مكة الذين ما أتاهم من نذير من قبله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، وهو نذير لهم ولغيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

وقوله: ﴿مَّا أَتَتْهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ لا ينافي أن إسماعيل عليه السلام قد أتاهم قبل النبي ﷺ، ولكن لما طال العهد، واندرست معالم رسالة إسماعيل وفشا الشرك فيهم، وصاروا محتاجين إلى النذر ما جاءهم طوال هذه الفترة نذير قبله ﷺ؛ فأرسله عز

وجل إليهم، وبه ختمت الرسالات، وكان من دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩].

١٨- أن الحكمة من إرساله ﷺ؛ ليتذكر الناس ويتعظوا بامثال أمر الله، واجتناب نبيه، وطلب مرضاته، والحذر من عقابه؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

١٩- أن هؤلاء المكذبين لو تصيبيهم عقوبة بسبب ما هم عليه من الكفر والمعاصي قبل إنذارهم لقالوا: ربنا، هلا أرسلت إلينا رسولا فتتبع آياتك قبل أن تعذبنا ونكون من المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٤].

٢٠- أن ما يقع من المصائب والعقوبات؛ إنما هو بسبب الذنوب والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

٢١- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَقُولُوا رَبَّنَا﴾.

٢٢- أنه بعد حلول العذاب لا مجال لاتباع الآيات والإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [٨٤] ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤-٨٥].

٢٣- كذبهم في دعواهم أنه لو أرسل الله إليهم رسولا اتبعوا الآيات وآمنوا، وكفرهم بالقرآن لما جاءهم من عند الله، وعنادهم وتعنتهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٤] ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾، أي: مثل ما أوتي موسى من الآيات والمعجزات الحسية الظاهرة، كالعصا واليد، ونحو ذلك، أو مثل ما أوتي موسى من كون التوراة أنزلت عليه جملة واحدة.

٢٤- تجاهل المشركين المكذبين أن القرآن الكريم أعظم الآيات، وأكبر المعجزات، وفهمهم الفاسد، ونظرهم القاصر، وجهلهم، بطعنهم في كون القرآن منزلا من عند الله، بسبب كونه ينزل مفرقا، ولم ينزل جملة واحدة، وما علموا أن ذلك من أسرار

إعجازه.

- ٢٥- أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق من عند الله.
- ٢٦- إثبات رسالة موسى عليه السلام، وتأيد الله له بالآيات.
- ٢٧- أنه لا حجة للمشركين في تكذيبهم النبي ﷺ بدعوى أنه لم يؤت مثل ما أوتي موسى من الآيات الظاهرة؛ لأنه ﷺ أوتي القرآن الكريم، وهو الآية الكبرى، والمعجزة العظمى، ولأن موسى عليه السلام كُذِّبَ مع ما جاء به من الآيات الظاهرة؛ كما أنه لا حجة لهم في تكذيبهم بالقرآن؛ لكونه لم ينزل جملة واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾، وفي هذا إفحام لهم بإبطال قولهم بفعلهم.
- ٢٨- جرأة المشركين والمكذبين على وصف القرآن والتوراة بأنها سحران تعاوننا، وإظهارهم كفرهم بكل منهما، وعلى وصف النبي ﷺ وموسى عليه السلام بأنها ساحران تعاوننا، وكفرهم بهما وهذا ديدن المكذبين للرسول وأتباعهم من الدعاة إلى الله؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾.
- ٢٩- التنزل معهم، وتحديهم أن يأتوا بكتاب هو أهدى من التوراة والقرآن، ويتبعه ﷺ إن كانوا صادقين أن هناك ما هو أهدى منها؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩﴾﴾.
- ٣٠- إثبات أن التوراة والقرآن كل منهما من عند الله.
- ٣١- إعلامه عز وجل له ﷺ بأنهم إن لم يستجيبوا له بالإتيان بكتاب أهدى من التوراة والقرآن؛ لعدم استطاعتهم ذلك، ولم يستجيبوا له باتباعه والإيمان بما جاء به بعد قيام الحجة عليهم؛ فإنهم إنما يتبعون أهواءهم، وليسوا يطلبون الحق والهدى؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾.
- وفي هذا دلالة على جواز التعليق بالشرط فيما هو محقق الوقوع، كما في الحديث: «وإننا إن شاء الله بكم لاحقون»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه مسلم في الجنائز - ما يقال عن دخول القبور والدعاء لأهلها ٩٧٤- من حديث عائشة رضي الله عنها، ٩٧٥- من حديث بريدة رضي الله عنه.

٣٢- أن من لم يستجب للرسول ﷺ، وذهب إلى قول مخالف لقول الرسول ﷺ؛ فإنه لم يذهب إلى هدى، بل ذهب إلى هوى.

٣٣- أنه لا أحد أضل طريقاً ممن اتبع هواه، وتنكب هدى الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾، وفي هذا دلالة على اختلاف مراتب الناس في الضلال.

٣٤- أنه لا هادي ولا موفق للحق وإلى الطريق المستقيم إلا الله عز وجل.

٣٥- أن الهوى قد يكون موافقاً للهدى، وفي الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»<sup>(١)</sup>.

٣٦- حرمان الظالمين من هداية الله تعالى وتوفيقه؛ بسبب ظلمهم بالكفر والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

٣٧- الرد على القدرية الذين يقولون: إن الله لم يقدر أفعال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وفيها أيضاً: رد على الجبرية الذين يقولون بأن الإنسان مجبور على أفعاله وأقواله لا اختيار له؛ لأنه لو كان هذا صحيحاً لكانت نسبة الظلم إليهم ووصفهم به ظلماً، والله تعالى لا يظلم أحداً.

٣٨- إقامة الحجة على الخلق بتبليغهم القرآن وتفصيله وبيانه لهم؛ لعلمهم يتذكرون ويتعظون، ويعملون بما فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾<sup>(٥١)</sup>.

\* \* \*

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة ١ / ١٢ رقم (١٥)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُنزَّلَ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَّمْ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَئِنْ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهْدَىٰ مَعَكَ نُنَحِّطُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لِمَ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَأَمَّا يُجِيبِي إِلَيْهِ نَمَرْتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَئِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُنزَّلَ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَّمْ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ﴾، أي: الذين أعطيناهم التوراة

والإنجيل ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل القرآن ﴿هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾، أي: هم بالقرآن يصدقون ويعملون به.

والمراد بهذا: العلماء الأولياء منهم، الذين لم يغيروا ولم يبدلوا، أمثال ورقة بن نوفل، وصهيب، وعبدالله بن سلام، ورفاعة القرظي وغيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

﴿وَإِذَا يُنزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾، أي: وإذا يقرأ عليهم القرآن، ﴿قَالُوا ءَأَمَّا بِهِ﴾، قالوا ذلك مباشرة؛ أي: صدقنا به قولاً وعملاً واعتقاداً.

﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا﴾؛ تعليل لقولهم: ﴿ءَأَمَّا بِهِ﴾، أي: لأنه الحق الثابت المنزل من ربنا، أخباره صدق، وأحكامه عدل.

﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ﴾، أي: إنا كنا من قبل القرآن ونزوله على محمد ﷺ.  
 ﴿مُسْلِمِينَ﴾، أي: موحدين مستسلمين لله تعالى ظاهراً وباطناً، آمننا بالكتاب الأول،  
 وآمنا بالقرآن؛ لأن كلاً منهم مصدق للآخر، فالتوراة والإنجيل أخبرتا عن بعثة النبي  
 ﷺ ونزول القرآن عليه، وهو مصدق لهما، ومصدق ما أخبرتا به؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ  
 أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ  
 وَعَدُّ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٩﴾ [الإسراء: ١٠٧ -  
 ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَنَجْجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ  
 ذَلِكَ بَأْتٍ مِنْهُمْ قَبِيحِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾  
 وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا  
 عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ [المائدة: ٨٢ - ٨٣].  
 ﴿أَوْلِيَاكَ﴾، أي: الذين آمنوا من أهل الكتاب بكتابهم، وآمنوا بالقرآن.  
 ﴿يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾، أي: يعطون أجرهم مرتين: أجر إيمانهم بكتابهم، وأجر  
 إيمانهم بالقرآن الكريم.

﴿بِمَا صَبَرُوا﴾؛ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب صبرهم على اتباع  
 الحق، والانقياد له في كتابهم وفي القرآن، وهذا يشمل أنواع الصبر الثلاثة: الصبر على  
 الطاعة، وعن معصية الله، وعلى أقداره المؤلمة.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتون  
 أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبه ثم آمن بي، وعبد مملوك أدى حق الله  
 وحق مواليه، ورجل كانت له أمة، فأدبها وأحسن تأديبها، ثم أعتقها فتزوجها»<sup>(١)</sup>.

﴿وَيَذَرُونِ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾، أي: ويدفعون السيئة بالحسنة، فلا يقابلون السيئة

(١) أخرجه البخاري في العلم، تعليم الرجل أمته وأهله ٩٧، ومسلم في الإيمان، وجوب الإيمان برسالة نبينا  
 محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته ١٥٤، والنسائي في النكاح ٣٣٤٤، والترمذي في النكاح  
 ١١١٦، وابن ماجه في النكاح ١٩٥٦.

بالسيئة، بل إذا أساء إليهم أحد قابلوا إساءته بالإحسان بالعفو والصفح عنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلقَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلقَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥].

وأيضًا: يدرؤون بالحسنة السيئة من فعلهم بأنفسهم، فإذا فعلوا سيئة أتبعوها بفعل الحسنة، فتمحوها وتدفعها.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، أي: ومن الذي رزقناهم وأعطيناهم ينفقون من النفقات الواجبة كالزكاة والنفقة على الأهل والأولاد وغيرهم ممن تجب نفقتهم، ومن النفقات المستحبة كالصدقة والهدية.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾؛ اللغو: الباطل، وما لا نفع فيه، ولا فائدة منه. ﴿أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾، بقلوبهم وأبدانهم، ولم يصغوا إليه، ولم يخاطبوا أهله ولم يعاشروهم، بل كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]

﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾، أي: كل منا سيجازي بعمله الذي عمله وحده، فلا تُسئلون عن أعمالنا، ولا تُسئل عن أعمالكم، ونحن نتبرأ مما أنتم عليه من اللغو والباطل.

﴿سَلِّمْ عَلَيْهِ كُمْ﴾، أي: سلام عليكم منا، ومفارقة لكم، فلا نستمع للغوكم. ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾، أي: لا نريدهم ولا نسلك طريقهم، ولا نصحبهم، ولا نقابل جهلهم بمثله. والمراد بالجاهلين: السفهاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلِّمْ عَلَيْنَا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وهذا يوحي بأن أهل اللغو يريدون منهم أن يصانعوهم ويوافقوهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَئِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ تَتَخَفَّ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمْكِن لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجَبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَئِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿٥١﴾:

### سبب النزول:

عن المسيب رضي الله عنه، قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبدالله بن أبي أمية، فقال: «أي عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله»، فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية: أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيدانه بتلك المقالة، حتى قال آخر ما كلمهم: على ملة عبدالمطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. قال رسول الله ﷺ: «والله، لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣]، وأنزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ﴿١﴾.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ لعمه: «قل: لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة». قال: لولا أن تعيرني قريش؛ يقولون: إنها حملة على ذلك الجزع، لأقررت بها عينك. فأنزل الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ﴿٢﴾.

وعلى هذا جمهور الصحابة رضي الله عنهم: أنها نزلت في أبي طالب.

قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، أي: إنك يا محمد لا تستطيع هداية من أحببت هداية توفيق بجعل الإيمان في قلبه، لا أنت ولا غيرك من الخلق. لأنه إذا كان ﷺ لا يستطيع هداية من أحب فغيره من الخلق لا يستطيع ذلك من باب أولى؛ لأن ذلك مما اختص الله تعالى به؛ ولهذا قال:

﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، أي: يهدي هداية توفيق ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾

٤٧٧٢، ومسلم في الإيمان ٢٤، والنسائي في الجنائز، النهي عن الاستغفار للمشركين ٢٠٣٥.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥، والترمذي في تفسير سورة القصص ٣١٨٨، وأحمد ٤٣٤/٢.

هدايته وتوفيقه للإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَا كِنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

فالمراد بالهداية في الآية: هداية التوفيق والقبول؛ كما أن المراد بالمحبة في قوله ﴿مَنْ أَحَبَّتْ﴾: المحبة الطبيعية، لا المحبة الشرعية.

قال ابن القيم: «وقد ثبت في «الصحاحين» أنها نزلت في أبي طالب عم رسول الله ﷺ، كان يحوطه وينصره ويقوم في صفه، ويحبه حباً طبيعياً لا شرعياً، فلما حضرته الوفاة، وحن أجله، دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان والدخول في الإسلام، فسبق القدر فيه، واختطفه من يده، فاستمر على ما كان عليه من الكفر، والله الحكمة التامة» (١).

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾، أي: وهو عز وجل أعلم بمن يستحق الهداية، ممن يستحق الغواية، يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله.

﴿وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهْدَىٰ مَعَكَ﴾، أي: وقال كفار قريش: نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى، وخالفنا من حولنا من العرب المشركين الذين عادوك وخالفوك.

﴿تُخْطَفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾، أي: أن نقصد بالقتل والأسر والأذى في أرضنا أينما كنا. والتخطف: سرعة أخذ الشيء وانتزاعه؛ والتاء فيه للمبالغة.

أي: فلا نأمن على أنفسنا ولا على أهلينا وأولادنا وأموالنا؛ لمعاداة الناس لنا، وهذا كذب واعتذار باطل؛ ولهذا رد الله تعالى عليهم بقوله:

﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾؛ الاستفهام للإنكار، والتوبيخ والتقرير، أي: أولم نجعل لهم حرماً آمناً معظماً منذ وضع، يأمنون فيه من الإغارة والقتل، مما يقع على غيرهم.

أي: أما قد مكنا لهم حرماً آمناً. فكيف يكون هذا الحرم آمناً في حال كفرهم وشركهم، ولا يكون آمناً وقد أسلموا واتبعوا الحق؟! وقد قال إبراهيم عليه السلام في

دعائه: ﴿وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦].

﴿يُجَبِّئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ قرأ نافع وأبو جعفر ورويس عن يعقوب بالتاء على التأنيث: «تُجَبِّئُ»، وقرأ الباقر بالباء على التذكير: ﴿يُجَبِّئُ﴾، أي: يجلب إليه ويجمع

ثمرات كل شيء، أي: من سائر الثمار من قريب ومن بعيد.

﴿رَزَقًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾، أي: عطاء لهم من عندنا؛ بسبب دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون؛ ولهذا قالوا ما قالوا؛ كما أن أكثر الخلق لا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويرفعهم عند الله تعالى.

### الفوائد والأحكام:

١- إيمان علماء أهل الكتاب المنصفين بالقرآن، وتصديقهم به؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾..

٢- إصغائهم واستماعهم لتلاوته، وإيمانهم به، عن اقتناع، وشهادتهم أنه الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَنَّا بِهِ ءِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا﴾.

وفي هذا كله شهادة ودلالة على صدقه ﷺ وصحة ما جاء به، وتأنيب للجاهلين المكذبين على الكفر به، وثناء على الذين آمنوا به من أهل الكتاب ولم يستكبروا، وشهدوا بالحق ولم ينكروا.

٣- أن القرآن من عند الله تعالى، وهو الحق.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للمؤمنين؛ لقولهم: ﴿مِنْ رَبِّنَا﴾.

٥- جمع أهل الكتاب بين الاستسلام والانقياد للكتاب الأول وللقرآن؛ لقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾.

وفي هذا جواز الثناء على النفس إذا كان ذلك لمصلحة وعلى سبيل الإخبار، لا الافتخار.

٦- إعطاؤهم أجرهم مرتين بسبب صبرهم وانقيادهم لكتابهم وللقرآن؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾.

٧- أن الجزء من جنس العمل؛ فكما انقادوا للكتاب الأول والكتاب الثاني أوتوا أجرهم مرتين، وهذا من تمام عدل الله عز وجل.

٨- فضيلة الصبر والترغيب فيه؛ لأن عاقبته حميدة.

- ٩- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾.
- ١٠- أن من صفاتهم الحميدة دفع السيئة بالحسنة، وعدم مقابلة المسيء بالإساءة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾.
- ١١- الترغيب في درء السيئة بالحسنة، بمقابلة الإساءة بالإحسان، وإتباع السيئة الحسنة تمحها؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات.
- ١٢- امتداحهم بالانفاق مما رزقهم الله وأعطاهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.
- ١٣- أن الرزق كله من الله تعالى، لا رازق للخلق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾.
- ١٤- الترغيب في الانفاق من رزق الله وفضله.
- ١٥- إعراضهم عن اللغو إذا سمعوه، وتميزهم بأعمالهم عن أعمال أهل اللغو، ومسالمتهم لهم، وبعدهم عن الجاهلين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَّمْ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾.
- ١٦- الترغيب في الإعراض عن اللغو وأهله، والبعد عن الجاهلين. قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»<sup>(١)</sup>.
- ١٧- أن النبي ﷺ لا يستطيع هداية من أحبه هداية توفيق، وغيره من الخلق من باب أولى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، وإنما عليه ﷺ هداية البلاغ والإرشاد؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].
- ١٨- محبة النبي ﷺ لعمه أبي طالب محبة طبيعية لا شرعية؛ لما له عليه من الأيادي البيضاء في الدفاع عنه، وعن دعوته.
- ١٩- جواز محبة الكافر غير المحارب محبة طبيعية لا شرعية.
- ٢٠- أن الله عز وجل يهدي ويوفق من شاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله؛ لقوله

(١) أخرجه البخاري في الرقاق - حفظ اللسان ٦٤٧٥، ومسلم في الإيمان - الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت، وكون ذلك كله من الإيمان ٤٧ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

- تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، وله الحكمة التامة في ذلك كله.
- ولعل من حكمة الله تعالى في عدم إيمان أبي طالب أنه لو آمن ما تمكن من الدفاع الذي حصل منه للرسول ﷺ، إذ لو آمن لكان محل إيذاء للمشركين، لكن لما بقي على ملتهم كانوا يحترمونه، فكان من حكمة الله في بقاءه على الكفر ما هو ظاهر، وإلا لما استطاع أن يحمي الرسول ﷺ تلك الحماية.
- ٢١- أن الله تعالى أعلم بمن هو أهل للهداية فيهديه بفضله، ومن هو أهل للغواية فيغويه بعدله؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.
- ٢٢- أن على المؤمن الدعوة إلى الله ما استطاع، وهداية القلوب بيد علام الغيوب، فلا تذهب نفسه حسرات على من لم يهتد.
- ٢٣- اعتذار المشركين المكذبين للنبي ﷺ عن اتباع ما جاء به من الهدى بعذر كاذب؛ وهو خشية تحطف الناس لهم من أرضهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفَ مِنْ أَرْضِنَا﴾؛ وفي هذا سوء ظن بالله أنه لا ينصر دينه وأولياءه، وأن الباطل سيعلو على الحق.
- ٢٤- إقرارهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ الهدى.
- ٢٥- إبطال عذرهم الكاذب؛ لأن الله قد مكن لهم حرماً آمناً منذ وضع، فكيف يكون آمناً في حال كفرهم ولا يكون آمناً لهم بعد أن أسلموا واتبعوا الحق؟! لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾.
- ٢٦- الامتنان على أهل الحرم بكونه آمناً تجلب إليه ثمرات كل شيء رزقاً من الله عز وجل؛ لقوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَافِظِ بَطْلًا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].
- ٢٧- أن أكثر هؤلاء المشركين القائلين: ﴿إِن نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفَ مِنْ أَرْضِنَا﴾ لا يعلمون؛ ولهذا قالوا هذه المقالة؛ كما أن أكثر الخلق لا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويرفعهم عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فِتْلِكَ مَسَّاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَتْ رُبُّكَ مُهْلِكِ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ رُسُلًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا أَوْثِقْنَا مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدَا حَسَنًا فَهُوَ لَئِيمٌ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَذَعَبُوهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فِتْلِكَ مَسَّاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَتْ رُبُّكَ مُهْلِكِ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ رُسُلًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾:

لما ذكر زعم كفار قريش أن اتباعهم له ﷺ سبب لتخطفهم، وزوال أمنهم، أتبع ذلك بيان أن الكفر والظلم ومخالفة الرسل هو سبب هلاك كثير من أهل القرى وزوال أمنهم؛ تحذيرًا لهم. وهكذا وقع فكان هلاك كفار مكة بسبب كفرهم.

قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾؛ الواو: استثنائية، و«كم»: هي الخبرية، تفيد التكثير، أي: وكثيرًا من القرى أهلكتنا، والمراد: أهلها.

﴿بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾، أي: طغت وأشرت وكفرت نعمة الله تعالى عليها.

كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [النحل: ١١٢].

وفي الآيتين تعريض بأهل مكة، وتحذير لهم؛ ولهذا قال بعد آية النحل: ﴿وَلَقَدْ

جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ [النحل: ١١٣].  
﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمَّا نُسَّكِنَ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: إلا زمناً قليلاً، أو  
إلا ساكناً قليلاً، أي: فتلك مساكنهم باقية، خاوية خالية؛ هلاكهم عن بكرة أبيهم،  
موحشة لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً، فيها أكبر العظة والعبرة للمعتبرين.  
كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي  
مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ  
لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ  
لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٣٦﴾ [السجدة: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَوْنَ إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ  
كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

﴿وَكُنَّا نَحْنُ أُولَئِكَ﴾؛ للأرض ومن عليها؛ كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْأَرْضَ  
وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم: ٤٠].  
﴿وَمَا كَانَتْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ﴾؛ بسبب ظلمهم وكفرهم.  
﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ﴾، أي: حتى يقيم الحجة عليها بأن يبعث، أي: يرسل.  
﴿فِي أُمَّهَاتِهَا﴾؛ وهي مكة أم القرى وأشرفها وأعظمها؛ كما قال تعالى: ﴿لَتُنذِرَ  
أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧].  
وسميت مكة: أم القرى؛ لأنها هي القرية والمدينة التي يرجع إليها ويتجمعها كل  
ما حولها من القرى للميرة وغير ذلك.

﴿رَسُولًا﴾ وهو النبي الهاشمي الخاتم، أفضل الرسل، وسيد الخلق، نبينا محمد ﷺ.  
﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾، أي: يقرأ عليهم آياتنا القرآن الكريم.  
وفي هذا دلالة على عموم رسالته ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي  
رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿لَا نُذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾  
[الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَأَلْنَا مَوْعِدَهُ﴾ [هود: ١٧].  
ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ  
مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨].

أي: بعد قيام الحجة عليها ببعثة محمد ﷺ برسالاته العامة لجميع القرى وعامة الخلق.

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾؛ «إلا»: أداة استثناء، والواو: حالية، أي: إلا والحال أن أهلها ظالمون، أي: بالكفر والمعاصي، وتكذيب الرسل، مستحقون للعقوبة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِّن شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفْلا تَعْقِلُونَ ﴿٦٦﴾ أَفَمَن وَعَدَّنَاهُ وَعَدَا حَسَنًا فَهُوَ لَئِيهٍ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

قوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِّن شَيْءٍ﴾، أي: وما أعطيتم أيها الناس ﴿مِّن شَيْءٍ﴾؛ تمييز «ما»، أي: من شيء من الأشياء أيًا كان في هذه الحياة من المآكل والمشرب والملابس والأثاث والمراكب، وغير ذلك من الملذات.

﴿فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا﴾، أي: فهو كله متاع الحياة الدنيا وزينتها، يتمتع به ويتزين به في هذه الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة الفانية متاعًا قليلًا مشوبًا بالأكدار والمنغصات، ثم يزول سريعًا، وينقضي جميعًا، ولا يبقى إلا ما أريد به وجه الله؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الأجر العظيم، والثواب الجزيل، والنعيم المقيم لعباده الصالحين.

﴿حَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ مطلقًا، أي: أفضل وأعظم وأدوم من الدنيا كلها ومتاعها وزينتها. كما قال تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٦٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦ - ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَّعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وقال ﷺ: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه - يعني السبابة - في اليم، فلينظر بم ترجع؟»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٥٨، والترمذي في الزهد ٢٣٢٣، وابن ماجه في الزهد

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ روى الدوري عن أبي عمرو: «يَعْقِلُونَ»؛ بياء الغيبة، وقرأ  
الباقون: ﴿تَعْقِلُونَ﴾ بناء الخطاب.

والاستفهام: للإنكار والتفريع، أي: أفلا تكون لكم عقول تدركون بها فرق ما بين  
الحياة الدنيا، والدار الآخرة، وتعرفون حقارة الدنيا وفناءها، فلا تغترون بها، وعظم  
منزلة الآخرة وبقائها، فتعملون لها؟ وكيف تؤثرون الدنيا الحقيرة الفانية على الآخرة  
العظيمة الباقية؟! قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾  
[الأعلى: ١٦-١٧].

﴿أَمَّنْ وَعَدَّ لَهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَلْقَيْهِ﴾؛ الاستفهام: للإنكار والنفي، أفيستوي  
المؤمن الذي عمل صالحًا ووعدناه وعدًّا حسنًا بالجنة وما فيها من النعيم المقيم.

﴿فَهُوَ لَقَيْهِ﴾؛ لا محالة؛ لأن الله لا يخلف الميعاد.

﴿كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، أي: كالكافر المكذب بلقاء الله ووعدته  
ووعدته، الذي تمتعناه المتاع الزائل في الحياة الدنيا، يأكل ويشرب كالبهيمة.

﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾؛ للجزاء ومناقشة الحساب، وللخلود في  
النار والعذاب؟! كما قال تعالى إخبارًا عن ذلك المؤمن لما أشرف على صاحبه وهو في  
الدرجات، وذلك في الدرجات: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾  
[الصافات: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْجِنَّةَ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨].

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة محمد: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا  
الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ  
وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [الآية: ١٢].

وشتان شتان بين من آمن وعمل صالحًا ووعدته الله وعدًّا حسنًا بدخول الجنة فهو  
لاقيه وصائر إليها، وبين من كفر وتمتع في الحياة الدنيا كالبهيمة، ثم هو يوم القيامة من  
المحضرين إلى النار، شتان بين العاملين، وشتان بين الجزاءين.

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعاً فما الضدان يجتمعان (١)

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَلْؤَلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَاتَمَّ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأُوا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعِمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾:

قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾:

لما ذكر سوء حال المشركين والكفار، وتوعدهم بإحضارهم إلى النار، أتبع ذلك بذكر تقريرهم وتوبيخهم على اتخاذ الشركاء مع الله.

قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾، أي: واذكر يوم ينادي الله عز وجل المشركين ويسألهم منكرًا عليهم، وموبخًا لهم، ومبينًا عجز شركائهم، ﴿فَيَقُولُ﴾ لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؛ الاستفهام للإنكار والتقريع والتوبيخ، وفيه معنى النفي، أي: أين شركائي الذين كنتم تزعمون أنهم لي شركاء، واتخذتموهم آلهة من دوني، ترجون منهم جلب النفع لكم، ودفع الضر عنكم؟ أين هم بذواتهم؟ وأين هم بنفعهم لكم ودفعتهم عنكم عذاب الله؟.

كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الآيات: ٩٢، ٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾، أي: الذين وجب وتعين وتحمم وثبت عليهم القول، أي: الذين حقت عليهم كلمة العذاب الشديد في النار، وهم رؤوس الكفر

(١) البيت لابن القيم. انظر: «النونية» (ص ١١).

ودعاة الضلال منهم: ﴿رَبَّنَا هَوِّنْ لَنَا﴾، أي: يا ربنا، هؤلاء، يشيرون إلى أتباعهم.  
 ﴿الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾، أي: الذين أوقعناهم في الغي والضلال.  
 ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾، أي: دعوناهم للغواية فاتبعونا؛ كما دعانا غواة قبلنا  
 فاتبعناهم، وكلنا مشترك في الغواية وحق عليه كلمة العذاب، أي: أننا لم نكرههم على  
 الغواية.

﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾، أي: نحن براء إليك منهم ومن عبادتهم وعملهم.  
 ﴿مَا كَانُوا يَعبُدُونَ﴾؛ «ما»: نافية، أي: ما كانوا يعبدوننا نحن.  
 فشهدوا أنهم أغوهم فاتبعوهم، ثم تبرؤوا منهم ومن عبادتهم؛ كما قال تعالى:  
 ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعبَادَتِهِمْ  
 وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ [مریم: ٨١-٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ  
 دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ  
 النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ [الأحقاف: ٥-٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا  
 اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ  
 يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ  
 مِنْ نَاصِرِينَ ﴿العنكبوت: ٢٥﴾،

وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأُوا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ  
 بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿٣٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا  
 كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿البقرة: ١٦٦-١٦٧﴾.

﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾، أي: نادوهم واسألوهم أن يخلصوكم مما أنتم فيه من  
 العذاب؛ كما كنتم ترجون ذلك منهم وتؤملونه فيهم.  
 ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾؛ الفاء: عاطفة، أي: فنادوهم وهاهنا بهم وسألوهم.  
 ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾؛ الفاء: عاطفة، والسين والتاء: للمبالغة، أي: فلم  
 يجيبوهم، فیدفعوا عنهم عذاب الله.

﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ﴾، أي: وشاهدوا العذاب الذي كانوا يكذبون به، وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة.

﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾؛ «لو»: حرف شرط جازم، وجواب الشرط محذوف، تقديره: لو أنهم كانوا يهتدون ما رأوا العذاب في الآخرة.

وحمل بعضهم «لو» على أنها حرف تمنٍّ، أي: ودوا وتمنوا حين عاينوا العذاب ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾، أي: لو أنهم كانوا في الحياة الدنيا يهتدون إلى الحق وإلى الصراط المستقيم، ويتحرونه ويتطلبونه، ويستمعون لمن يدعوهم إليه، فندموا حيث لا ينفع الندم، فلو كانوا يهتدون في الدنيا إلى طريق الحق، لاهتدوا في الآخرة إلى طريق الجنة، ونجوا من العذاب.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف: ٥٢-٥٣].

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾؛ سألمهم أولاً عن التوحيد، ثم سألمهم هنا عن إثبات النبوات وتصديق المرسلين.

قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾، أي: واذكر يوم يناديهم، أي: يسألهم. ﴿فَيَقُولُ﴾؛ في سؤاله إياهم: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾؛ «ماذا»: اسم استفهام، أو «ما»: اسم استفهام، و«ذا»: اسم موصول، أي: ما الذي به أجبتهم المرسلين الذين دعوكم إلى توحيد الله ونبذ الشرك؟ هل صدقتموهم واتبعتموهم، أم كذبتموهم وخالفتموهم؟ كما يسأل الإنسان في قبره: من ربك؟ ومن نبيك؟ وما دينك؟

عن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قعد المؤمن في قبره أتى ثم شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله»<sup>(١)</sup>.

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «وأما المنافق والمرتاب

(١) أخرجه البخاري في الجائز ١٣، والترمذي في الزهد ٦٩، وأبو داود في السنة ٤٧٥٠.

فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته»<sup>(١)</sup>.

والمراد بالمرسلين: ما يعم جميع المرسلين سواء كان الخطاب لجميع المشركين من سائر الأمم، أم للمشركين من هذه الأمة؛ لأن من كذب محمداً ﷺ أو غيره من الرسل فقد كذب جميع المرسلين، ومن صدقه أو غيره من الرسل فقد صدق جميع المرسلين.

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ﴾، أي: فخفيت عليهم الأخبار، وانطمست عليهم الحجج، فلم يجدوا جواباً.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم القيامة في ذلك الموقف العصيب، فأخرسوا وسكتوا، فلم يجيروا جواباً.

﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾، أي: لا يتساءلون عن الأنباء؛ لأنهم لو سألوا ما وجدوا خبراً، ولا يتراجعون بينهم فيماذا يجيبون به ولو كان كذباً؛ لشدة الهول والموقف، وعلمهم أنهم لم يقابلوا الرسل إلا بالتكذيب والعناد، فأى جواب يجيبونه؟ فأثروا السكوت.

وقيل: لا يتنادون بالقرابة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠].  
وصدق الله العظيم: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢].

﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ﴾، أي: رجع وأتاب إلى الله تعالى مما هو عليه من الشرك والكفر، ﴿وَأَمَّنَ﴾؛ بقلبه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وبكل ما أوجب الله تعالى الإيمان به.

﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، أي: وعمل عملاً صالحاً بجوارحه، فأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وصام رمضان، وحج البيت الحرام، وغير ذلك مما أوجه الله تعالى على المؤمن من الأعمال، كبر الوالدين، وصلة الأرحام وغير ذلك، مع القيام بما استطاع من الأعمال المندوبة.

وحذف الموصوف في قوله: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾؛ وأبقى الصفة؛ لأن المهم في العمل كونه صالحاً، خالصاً لله تعالى، موافقاً لسنة نبيه ﷺ.

(١) أخرجه البخاري في العلم ٨٦، ومسلم في الكسوف ٩٠٥.

﴿فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾؛ الفاء: واقعة في جواب الشرط «من»، أي: فعسى أن يكون من اتصف بهذه الصفات: التوبة والإيمان، والعمل الصالح.  
﴿مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾؛ الفائزين بالجنة والثواب، الناجين من النار والعذاب، السعداء في الدنيا والآخرة.

و«أن» والفعل «يكون» في تأويل مصدر في محل رفع فاعل «عسى» و.  
و«عسى» من الله واجبة، أي: أن هذا وعد واقع بفضل الله ومثله لا محالة.

### الفوائد والأحكام:

١- الإخبار بكثرة القرى التي أهلكها الله بسبب كفرها بنعم الله تعالى، فصارت مساكنهم خاوية خالية موحشة لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فِتْلِكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

٢- وجوب شكر النعم والتحذير من كفرها وتعريضها للزوال بالكفر أو المعاصي؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

٣- أن الله عز وجل هو الوارث للأرض ومن عليها، وإليه يرجعون؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾.

٤- إقامة الحججة على الخلق قبل إهلاكهم، وأن الله عز وجل ما كان مهلك القرى المشركة الكافرة حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياته، ويدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له والإيمان به، ويقيم بذلك الحججة عليهم، وفي هذا تعريض بالمشركين وتهديد لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾.

وقد بعث عز وجل في أم القرى مكة سيد الرسل وخاتمها نبينا محمداً ﷺ، فأقام به الحججة على الخلق جميعاً.

٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ، وتشريفه وتكريمه بخطاب الله تعالى له، وإضافة اسم الرب أو وصفه إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾.

٦- إثبات رسالته ﷺ وبعثته في أم القرى مكة شرفها الله تعالى رسالة عامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾.

٧- كمال عدل الله عز وجل، وأنه ما كان مهلك القرى - بعد إقامة الحجة على أهلها - إلا بظلم منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾.

٨- التحذير من الظلم بالكفر والشرك والمعاصي وغير ذلك؛ لأنه سبب هلاك العباد، وخراب البلاد.

٩- أن كل ما أوتي الخلق في هذه الحياة من النعم فهو مجرد متاع الحياة الدنيا وزينتها الحقيرة الفانية الزائلة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾.

١٠- أن ما عند الله من الأجر العظيم والنعيم المقيم لعباده الصالحين؛ أفضل وأعظم وأدوم من الدنيا كلها ومتاعها وزينتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

١١- التزهيد في الدنيا ومتاعها وزينتها الفانية، والترغيب في الآخرة وثوابها ونعيمها المقيم.

١٢- الإنكار والتقريع لمن كفر وأشرك بالله وآثر الدنيا وزينتها الزائلة، على الآخرة ونعيمها المقيم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

١٣- أن من اختار الكفر على الإيمان وآثر الدنيا على الآخرة فليس بعاقل وإن ادعى ذلك.

١٤- شتان بين من آمن وعمل صالحًا ووعده الله تعالى وعدًا حسنًا بالجنة ونعيمها، وهو لاقية لا محالة، وبين من كفر ومتع ومتاع الحياة الدنيا كالبهيمة، وتوعد بكونه يوم القيامة من المحضرين في النار؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾.

١٥- الترغيب والإغراء بالإيمان؛ لوعده الله الحسن المحقق للمؤمنين، والترهيب والتحذير من الكفر لما توعد به الكفار من إحضارهم إلى النار.

- ١٦- إثبات القيامة، والحساب والجزاء، والجنة ونعيمها، والنار وعذابها.
- ١٧- نداء الله عز وجل وسؤاله المشركين عن إثبات التوحيد، وسؤاله إياهم عن شركائهم الذين أشركوهم معه بزعمهم: أين هم؟ وأين نفعهم لهم ودفعهم عنهم؟ وذلك إنكاراً عليهم، وتقريراً لهم، وبياناً لبطلان شركهم، وعجز شركائهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٦﴾﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْبِعُونِ إِلَّا أَلْقَانًا وَإِن هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [يونس: ٦٦].
- ١٨- إثبات النداء والكلام لله عز وجل بحرف وصوت يسمع؛ كما يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾.
- ١٩- تبرؤ الذين حق عليهم كلمة العذاب من دعاة الكفر ورؤساء الضلال ممن أغووهم من الأتباع، وأنهم أغووا هؤلاء الأتباع، كما غووا هم قبلهم، وكلهم مشترك في الغواية والعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا عَوَيْنَا تُبْرَأْنَا إِلَيْكَ﴾.
- ٢٠- إنكار المعبودين من دون الله عبادة عابديهم؛ لقولهم: ﴿تُبْرَأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾.
- ٢١- أمرهم بدعاء شركائهم وسؤالهم أن يخلصوهم مما هم فيه من العذاب تبكيتاً لهم، وإظهاراً لعجزهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾.
- ٢٢- دعاؤهم وسؤالهم شركاءهم؛ ليخلصوهم من العذاب، وعدم استجابتهم لهم؛ لأنهم لا يملكون لأنفسهم ولا لعابديهم نفعاً ولا ضرراً؛ لقوله تعالى: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾.
- ٢٣- رؤيتهم العذاب، وتيقنهم أنهم صائرون إلى النار لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ﴾.
- ٢٤- تمنيتهم ومودتهم لما رأوا العذاب لو كانوا في الدنيا يهتدون؛ لقوله تعالى:

﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾.

٢٥- نداء الله تعالى لهم، وسؤاله إياهم ثانيًا عن إثبات النبوت وتصديق المرسلين، وهو نداء لجميع الأمم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٦٥).

٢٦- خفاء الأنبياء عليهم، وسكوتهم وعجزهم عن الجواب، وعن التساؤل والتراجع بينهم فيما يجيبون به؛ لهول الموقف وشدة الأمر، وعلمهم أنهم لم يقابلوا الأنبياء إلا بالتكذيب؛ ولهذا آثروا السكوت؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٦٦).

٢٧- أنه في ذلك اليوم لا يسأل أحدًا أحدًا، ولا يغني أحد عن أحد.

٢٨- وعد الله تعالى المحقق، الذي لا يخلف لمن تاب من الشرك والكفر، وآمن بقلبه، وعمل صالحًا بجوارحه بكونه من المفلحين؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ (٦٧).

٢٩- الترغيب في التوبة والإيمان والعمل الصالح؛ لأن الله رتب على ذلك الفلاح. ٣٠- أن التخلية قبل التحلية؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ﴾؛ الآية، فلا بد من التخلي أولاً عما يصاد الإيثار من الكفر والشرك، ونحو ذلك، ثم الدخول في الإيثار.

٣١- لا بد من الجمع بين إيمان القلب، والعمل الصالح بالجوارح الظاهرة.

٣٢- لا بد من كون العمل صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لسنة النبي ﷺ.

٣٣- أن «عسى» من الله واجبة، أي: دالة على الوعد المحقق من الله عز وجل؛ لأنه سبحانه لا يخلف وعده؛ كما قال عز وجل ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج: ٤٧].

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾.

قوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾؛ الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، أي: وربك يا محمد يخلق الذي يشاء خلقه من المخلوقات؛ لأنه الرب المتفرد بالخلق سبحانه وتعالى ﴿وَيَخْتَارُ﴾، أي: ويصطفي من خلقه ويختبي الذي يشاء، من الأشخاص والأماكن والأزمان والأوامر والأحكام وغير ذلك؛ لأنه الرب المتفرد بالملك والتدبير: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وقال: ﴿مَا يَشَاءُ﴾، ولم يقل: «من يشاء» تغليبا لغير العاقل؛ لأنه أكثر، أو لأنه روعيت الأوصاف.

قال ابن القيم: «وليس المراد ههنا بالاختيار: الإرادة التي يشير إليها المتكلمون بأنه الفاعل المختار، وهو سبحانه كذلك، ولكن ليس المراد بالاختيار ههنا هذا المعنى، وهذا الاختيار داخل في قوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾؛ فإنه لا يخلق إلا باختياره، ودخل في قوله: ﴿مَا يَشَاءُ﴾؛ فإن المشيئة هي الاختيار، وإنما المراد بالاختيار ههنا: الاجتباء

والاصطفاء، فهو اختيار بعد الخلق، والاختيار العام اختيار قبل الخلق، فهو أعم وأسبق، وهذا أخص، وهو متأخر، فهو اختيار من الخلق، والأول اختيار للخلق»<sup>(١)</sup>.

﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ﴾؛ «ما»: نافية، أي: ما كان للخلق الاختيار لأنفسهم.  
كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقيل: يجوز كون «ما»: موصولة، أي: ويختار الذي لهم الخيرة.  
والصحيح: أنها نافية؛ لأن الآية في بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار، وأنه لا نظير له؛ ولهذا قال بعده: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.  
قال ابن القيم: «وأصح القولين: أن الوقف التام على قوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾؛ ويكون: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ﴾؛ نفيًا، أي: ليس هذا الاختيار إليهم، بل هو إلى الخالق وحده؛ فكما أنه المنفرد بالخلق، فهو المنفرد بالاختيار منه، فليس لأحد أن يخلق، ولا أن يختار سواه، فإنه سبحانه أعلم بمواقع اختياره، ومحال رضاه، وما يصلح للاختيار مما لا يصلح له، وغيره لا يشاركه في ذلك بوجه.

وذهب بعض من لا تحقيق عنده ولا تحصيل إلى أن «ما» في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ﴾؛ موصولة، وهي مفعول «يختار»، أي: ويختار الذي لهم الخيرة. وهذا باطل، ثم ذكر بطلانه من ستة أوجه<sup>(٢)</sup>.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾، أي: تنزيهاً لله عز وجل ﴿وَتَعَالَى﴾، أي: وتعظيم وتقديس.  
﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ «ما»: مصدرية، أي: عن شركهم، أو موصولة، أي: عن الذي يشركون به من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئاً.

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، و«ما»: مصدرية، أي: وربك يعلم الذي تكنه صدورهم، أي: تخفيه وتضمه قلوبهم، وتستره من الكفر وغيره، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَأْسُوسًا بِهِ﴾

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٥٣.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣٥٣-٣٥٥.

نَفْسُهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِمْ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ [ق: ١٦].

﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، أي: ويعلم الذي يعلنونه ويظهرونه؛ كما قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠].

﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو؛ كما لا رب يخلق ويختار سواه.

﴿لَهُ﴾، أي: له خاصة ﴿الْحَمْدُ﴾؛ «ال» للاستغراق والاستحراق، أي: له وحده جميع المحامد، ﴿فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾، أي: في الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٥٢].

والحمد: وصف المحمود بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم، فله عز وجل الحمد المطلق، وهو المحمود في الدنيا والآخرة، على ما له من صفات الجلال والكمال، وعلى ما أسداه إلى خلقه من الإحسان والإفضال.

﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾، أي: وله خاصة الحكم المطلق التام في الدنيا والآخرة، بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه.

﴿وَالْيَهُ تَرْجِعُونَ﴾، أي: وإليه وحده تردون فيحاسبكم ويجازيكم بأعمالكم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

لما استدل على انفراده بالالهية بصفات ذاته؛ أتبع ذلك بالاستدلال على ذلك ببديع مصنوعاته وجلالاته وجماله ونعمته ورحمته، مع التعريض بكفر المشركين.

قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾؛ الاستفهام للتقرير في الموضوعين؛ أي قل: أخبروني إن صيرَّ الله عليكم الليل سرمدًا، أي: مستمرًّا دائمًا أبدًا بلا انقطاع؛ مما يضر بكم وبأبدانكم وحياتكم.

﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ﴾؛ الاستفهام: للنفي، أي: من إله ومعبود سوى الله من آهتكم ومعبوداتكم وغيرها، بزعمكم، يأتيكم بنهار ونور بتسخيره الشمس؟! كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً﴾ [يونس: ٥].  
والجواب: لا إله غير الله يأتيكم به.

﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾؛ الاستفهام: إنكاري، أي: أفلا تسمعون سماع فهم وانتفاع ما يتلى عليكم من الآيات البينات، فتقرون بوحدانية الله تعالى، وأنه لا إله غيره؛ كما أنه لا رب سواه.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، أي: إن صيرَّ الله عليكم النهار ﴿سَرْمَدًا﴾؛ مستمرًّا دائمًا بلا انقطاع إلى يوم القيامة.  
﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُونُ فِيهِ﴾؛ الاستفهام: للنفي، أي: من إله غير الله من آهتكم وغيرها.

﴿يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُونُ فِيهِ﴾، أي: تستريحون فيه من كثرة الحركة والعمل والأشغال بالنهار.  
والجواب: لا إله غير الله يأتيكم به.

ووصف الليل بقوله: ﴿تَسْكُونُ فِيهِ﴾؛ ولم يصف النهار بشيء - والله أعلم - لكثرة منافعه، واختلاف أنواعها، وعدم حصرها.

﴿أَفَلَا تَبْصُرُونَ﴾؛ الاستفهام: للإنكار، أي: أفلا تبصرون هذه الأشياء الدالة على عظيم صنع الله إِبْصَارَ تَفْهَمٍ وانتفاع، تهتدون به إلى الإقرار بوحدانية الله تعالى، وأنه لا إله غيره؛ كما أنه لا رب سواه.

وقال في الليل: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، وقال في النهار: ﴿أَفَلَا تَبْصُرُونَ﴾ والله أعلم؛ لأن سلطان السمع في الليل أقوى من سلطان البصر، وسلطان البصر في النهار

أقوى من سلطان السمع.

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ  
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

بعد أن ذكرهم بنعمة تعاقب الليل والنهار، وخوفهم من سلبها، بيّن لهم أن ذلك  
من رحمته بهم.

قوله: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ﴾ متعلق بـ«جعل»، وقُدّم عليه للاهتمام بمنة الرحمة، و«من»:  
سببية؛ أي: وبسبب رحمته بكم وبجميع المخلوقات.

﴿جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾، أي: خلق لكم الليل والنهار، وجعلها يتعاقبان  
﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾؛ اللام في الموضعين: للتعليل، أي: لتسكنوا في الليل، أي:  
تستريحوا فيه من التعب والنصب بعد العمل بالنهار.

﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾، أي: ولأجل أن تطلبوا من فضل الله؛ أي: من عطائه  
ورزقه في النهار، بالحركة والعمل والأشغال والأسفار؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَخْرَجُوا  
يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].  
وهذا من باب اللف والنشر.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: ولأجل أن تشكروا الله على إنعامه عليكم بتعاقب  
الليل والنهار، باستحضار هذه النعمة العظيمة ونسبتها إلى مسديها وهو الله عز وجل،  
واستعمالها في طاعته، والاستعانة بها على مرضاته؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ  
اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خَلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

وقال ﷺ: «إن الله يبسط يه في الليل؛ ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده في النهار؛  
ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها» (١).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾  
وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ

(١) سبق تحريجه.

عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾:

قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٦﴾﴾؛ الاستفهام للإنكار والتفريع والتوبيخ، وبيان بطلان شركهم، وعجز شركائهم. ولأهمية هذا النداء، والتحذير من الشرك أكد هذا السؤال مرة ثانية في هذا الموضع، وقد سبق في الآية [٦٢].

﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ﴾، أي: وأخرجنا من كل أمة من الأمم المكذبة بعد جمعهم يوم القيامة ﴿شَهِيدًا﴾؛ يشهد عليهم، وعلى ما جرى منهم في الدنيا من الكفر، وتكذيب الرسل، والشرك بالله، وغير ذلك.

واختلف في المراد بهذا الشهيد، فقيل، هو نبيهم، وقيل: هو كبيرهم وزعيمهم، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَزَعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًّا﴾ [مريم: ٦٩].

﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾؛ الفاء: عاطفة، أي فقلنا تحدياً لهم: أعطونا دليلكم وحثتكم على ما زعمتم من الشركاء لله، وهل أمرناكم بذلك؟ أو هل كان فيهم من يستحق العبادة من دون الله؟ أو يغني عنكم شيئاً؟

﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾؛ الفاء: عاطفة، أي: فعلموا أن الحق في العبادة لله تعالى وحده، حين لا ينفعهم ذلك، فأخرسوا فلم يحيروا جواباً، ولم ينطقوا بكلمة.

﴿وَوَضَّلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، أي: وذهب وغاب عنهم الذي كانوا يفترونه في الدنيا، أي: الذي كانوا يختلقونه من الكذب والشرك والشركاء.

### الفوائد والأحكام:

١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإضافة وصف الربوبية إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ﴾.

٢- إثبات تمام قدرته عز وجل، وأنه وحده الذي يخلق ما يشاء من المخلوقات؛ لأنه الرب المتفرد بالخلق وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾.

وهذا يوجب عبادته وحده، وبطلان عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ

دُونَ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمَوْتَ غَيْرَ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿النحل: ٢٠، ٢١﴾

٣- إثبات المشيئة لله تعالى وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَشَاءُ﴾.  
 ٤- اختياره عز وجل واصطفأؤه واجتباؤه ما يشاء من خلقه، من الأشخاص والأزمان والأماكن، والأوامر والأحكام، وغير ذلك؛ لأنه الرب المالك المدبر وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَخْتَارُ﴾.

٥- إثبات الإرادة لله تعالى؛ لأن الاختيار مبني على الإرادة، كونية أو شرعية.  
 ٦- أنه ليس لأحد أن يختار لنفسه إلا ما اختاره الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾.

والمعنى: ما كان لهم الخيرة المطلقة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].  
 وليس في قوله: ﴿مَا كَانَتْ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ نفي أن يكون للإنسان اختيار- كما تقوله الجبرية. قال الله تعالى: ﴿مِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨].  
 فأثبت عز وجل للإنسان إرادة ومشية واختياراً. لكن اختيار الإنسان وإرادته ومشيته وفق ما اختاره الله تعالى وأراده وشاءه له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

٧- تنزيهه عز وجل لنفسه، وتعظيمه لها، عما يشرك المشركون به من الأصنام والأنداد، وعن شركهم؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.  
 ٨- علم الله تعالى التام بما يُسر الخلائق في قلوبهم وما يعلنون به؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ﴿٦١﴾. وهذا يوجب مراقبة الله في السر والعلن.

٩- إثبات تفرد عز وجل وحده بالالوهية، فلا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

١٠- اختصاصه واستحقاقه عز وجل المحامد كلها في الدنيا والآخرة؛ لما له من صفات الكمال، ولما أسداه إلى خلقه من الإحسان والإفضال؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾.

١١- تفرد عز وجل بالحكم في الدنيا والآخرة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾.

١٢- إثبات المعاد ورجوع الخلائق كلهم إلى الله تعالى للحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَرْجَعُونَ﴾.

١٣- الامتنان على العباد بخلق الليل والنهار، وجعل النهار مضيئاً ووقتاً للعمل، والليل مظلماً ساكناً ووقتاً للراحة والسكون، وبين تمام قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ﴾.

١٤- تخويف العباد وتحذيرهم من تغيير هذه النعمة عليهم؛ بجعل الليل عليهم سمرمداً إلى يوم القيامة، فلا إله غيره يأتيهم بضياء، أو بجعل النهار سمرمداً إلى يوم القيامة، فلا إله غيره يأتيهم بليل يسكنون فيه.

١٥- تحدي المشركين أن تجلب لهم معبوداتهم من دون الله نفعاً، أو تدفع عنهم ضرراً.

١٦- الإنكار على المكذبين وتقريعهم وتوبيخهم على عدم سماعهم الآيات سماع تفهم وتدبر وانتفاع؛ وعدم تبصرهم وتأملهم فيها؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، وقوله: ﴿أَفَلَا تَبْصُرُونَ﴾.

١٧- تفرد عز وجل وحده بالخلق والأمر، لكمال ربوبيته ووحدانيته؛ كما قال تعالى: ﴿إِلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

١٨- أن النعم إنما تقاس بضدها، وتعرف بفقدائها، فلا يعرف قيمة الإنعام إلا من تذوق مرارة الحرمان، وكما قيل: «الصححة تاج على رءوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى»، «وبضدها تتميز الأشياء»؛ لهذا يجب على العبد أن يوازن بين ما هو فيه من

النعم بفقدها؛ ليعرف تمامًا موضع المنة وقدر النعمة، فيشكر الله تعالى على ذلك.

١٩- إثبات القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، وقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ الآية.

٢٠- أن من رحمته عز وجل بعباده أن خلق لهم الليل والنهار؛ ليسكن الناس في الليل، وليطلبوا من فضله ورزقه في النهار، ويشكروه على تعاقب الليل والنهار، بطاعته، وطلب مرضاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

٢١- إثبات العلة والحكمة في أفعال الله وأحكامه، وأن منها ما هو قدري، كالعلة في قوله: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾، ومنها ما هو شرعي، كالعلة في قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

٢٢- أن الفطرة التي فطر الله الناس عليها: أن جعل الليل وقتًا للسكن والراحة والنوم، وجعل النهار وقتًا للعمل وطلب المعاش، وهذا هو الأصلح والأصح لقوى الإنسان البدنية والعقلية والنفسية، فمن عكس الأمر أضرب جميع هذه القوى.

٢٣- إثبات صفة الرحمة الذاتية لله تعالى، والرحمة الفعلية التي يوصلها إلى عباده.

٢٤- أن الفضل والرزق والعطاء كله من الله تعالى.

٢٥- الترغيب بشكر نعمة الله عز وجل بجعل الليل والنهار خلفه؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

٢٦- نداء الله عز وجل للمشركين، وسؤاله إياهم عن شركائهم الذين أشركوهم معه: أين هم؟ وأين نفعهم لهم ودفعهم عنهم؟ إنكارًا عليهم، وتقريعًا وتبكيًا لهم، وبيانًا لعجز شركائهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

٢٧- إخراجهم عز وجل من كل أمة من الأمم المكذبة- بعد جمعهم يوم القيامة- شهيدًا عليهم بأعمالهم السيئة من تكذيب الرسل والكفر والشرك، وغير ذلك؛ لقوله

تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾.

٢٨- مطالبتهم بالإتيان ببرهانهم وحجتهم ودليلهم على ما زعموا من الشركاء لله؛ تحدياً لهم وتبكيئاً؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾.

٢٩- عجزهم عن الإتيان ببرهان على ما زعموه من الشركاء لله تعالى، وعلمهم تماماً ذلك اليوم أن الحق في العبادة لله تعالى وحده، وأن لا إله إلا هو، ولا معبود بحق سواه، وبطلان ما كانوا عليه من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

٣٠- ذهاب وغياب ما كانوا يفترونه ويختلقونه كذباً من الشرك والشركاء، وشفاعتهم لهم، وتخليهم عنهم أحوج ما كانوا إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿\* إِنَّ قَدْرُونَ كَانُوا مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُرُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ بِآيَةِ اللَّهِ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ دُونِهِمْ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَدْرُونَ إِنَّهُ لَنَدُوْحَظٍ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقِّهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَانَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾\*.

قوله تعالى: ﴿\* إِنَّ قَدْرُونَ كَانُوا مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُرُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ بِآيَةِ اللَّهِ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾\*.

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في تكذيبهم الحق، وتعاضمهم بجاههم وأموالهم؛

كما في قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

وقولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

كما وبخهم على هذا في مواضع من القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى

النَّعْمَةِ وَمَهَلُكُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ [المزمل: ١١]، وقوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ

لَهُرُ مَا لَمْ يَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُرُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا ﴿١٦﴾

[المدثر: ١١-١٦].

قوله: ﴿إِنَّ قَرُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾، أي: من قوم موسى بني إسرائيل، صدقه وآمن به، قال أكثر المفسرين: هو ابن عم موسى.

﴿فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾، أي: طغى وتجاوز حده في الكبر والعلو والتعجب عليهم؛ مغترًا بكثرة ماله.

﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾، أي: وأعطيناه من الخزائن والأموال الشيء الكثير العظيم.

﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ﴾؛ «ما»: اسم موصول في محل نصب مفعول به ثانٍ لـ «أتيناه»، أي: الذي إن مفاتحه، و«إن»: للتوكيد، و«مفتاح»: جمع «مِفْتَاحٍ» بكسر الميم وفتح التاء؛ وهو: آلة الفتح، ويسمى «مِفْتَاحًا»، وجمعه: «مفاتيح».

﴿لَتَنْوُوا بِالْعُصْبَةِ﴾؛ اللام: للتوكيد، أي: لتثقل بالعصبة؛ أي: تثقلهم، أي: يثقل حملها على العصبة، أي: على الجماعة الكثيرة، التي يعصب بعضها بعضًا.

﴿أُولَى الْقُوَّةِ﴾، أي: أصحاب القوة، أي: على الجماعة الكثيرة القوية من ثقل حملها هذه المفاتيح، فما بالك بالخزائن؟!

﴿إِذْ قَالَ لَهُرُ قَوْمُهُ﴾، أي: حين قال له قومه المؤمنون، ناصحين له، ومحذرين له من الطغيان: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾، أي: لا تفرح فرح بطر وأشر وتكبر، ومرح وفخر واختيال وبغي.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾؛ تعليل للنهي عن الفرح، أي: لأن الله لا يحب الفرحين بما أوتوا فرح بطر وأشر واختيال، وانشغال بذلك عن طاعة الله تعالى، وعن شكره.

وليس من هذا أن يفرح المؤمن بنعمة الله تعالى عليه الدينية والدينية؛ اغتباطا منه بذلك، واعترافًا بفضل الله ورحمته، وشكرًا له على ذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

فهذا فرح محمود يؤجر عليه المؤمن.

﴿وَأَتَّبِعْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾؛ معطوف على قوله: ﴿لَا تَقْرَحْ﴾، أي: والتمس واطلب في الذي أعطاك الله من الأموال الكثيرة والكنوز العظيمة.

﴿الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾، أي: ما يقربك إلى الله تعالى، وتنجو به من النار وتفوز به بالجنة. وذلك باستعماله في طاعة الله تعالى، والاستعانة به على ذلك، والإنفاق منه في سبيل الله، والتصدق به في أنواع القربات.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] فالمراد بالدار الآخرة الجنة.

﴿وَلَا تَتَسَنَّسْ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، أي: ولا تترك حظك من الدنيا باستعمال بعض ما آتاك الله وصرفه فيما أباح الله لك من المأكل والمشرب، والملابس، والمسكن والمراكب، والمناجح، وغير ذلك.

كما في حديث أبي جحيفة رضي الله عنه: أن سلمان الفارسي قال لأبي الدرداء رضي الله عنهما: إن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فأعط كل ذي حق حقه، فأتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: «صدق سلمان»<sup>(١)</sup>.

وقال ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «إن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فأعط كل ذي حق حقه»<sup>(٢)</sup>.

﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾؛ «ما»: مصدرية، والكاف: للتعليل، أي: وأحسن في عبادة الله تعالى، وأحسن إلى عباد الله؛ كما أحسن الله إليك بما وهبك من هذه الأموال.

ويؤخذ من فحوى هذا: تحذيره من مقابلة الإحسان بالإساءة.

﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: ولا تبغ الفساد في الأرض بالعلو والتكبر، والأشر والبطر والاختيال، والمعاصي ونحو ذلك.

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٦٨، والترمذي في الزهد ٢٤١٣.

(٢) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٧٥، ومسلم في الصيام ١١٥٩، والنسائي في الصيام ٢٣٩١، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنَ الذَّنَبِ﴾ [فاطر: ٤٥].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾؛ تعليل للنهي عن ابتغاء الفساد في الأرض، أي: لأن الله لا يحب المفسدين.

وإذا كان عز وجل لا يحبهم فهو يبغضهم؛ لأن الصفات المنفية تدل على إثبات ضدها، ومن أبغضه الله عاقبه؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا عَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال قارون راداً لنصيحة قومه، كافراً بنعمة ربه، مغترّاً بنفسه: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾؛ «إنما»: أداة حصر، أي: إن ما أعطيته من الكنوز والأموال الكثيرة، ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾، أي: على علم عندي بوجوه المكاسب، ومعرفتي وحذقي، وحولي وقوتي، وعلم الله أني مستحق لذلك؛ لفضلي ورضاه عني. قال ابن القيم: «أي: على علم علمه الله عندي، أستحق به ذلك، وأستوجهه، وأستأهله»<sup>(١)</sup>.

وهذا كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتُهُ نِعْمَةً مِّثْلًا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الزمر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَلِيِّنْ أذَقْتَهُ رَحْمَةً مِّثْلًا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠]، أي: أستحقه.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ﴾؛ الاستفهام: للإنكار والتقرير. وجملة: ﴿أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ﴾ سدت مسد مفعولي

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/٣٥٧-٣٥٨.

«يعلم».

أي: أولم يعلم قارون أن الله قد أهلك من قبله من الأمم المكذبة الباغية.  
﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ قُوَّةً﴾ أي في بدنه، ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾؟ أي: أكثر جمعاً للمال وتحصيلاً،  
وأكثر مالاً منه، أي: أنه قد علم ذلك، وتجاهله.

فلم يكن إعطاؤهم القوة والأموال دليلاً على رضا الله تعالى عنهم، ومنزلتهم عنده، واستحقاقهم لذلك، وإنما كان ابتلاءً واختباراً لهم واستدراجاً؛ كما لم يمنع ما أعطوه من القوة والأموال من إهلاكهم لما خالفوا أمر الله، وكذبوا رسله، وكفروا وطغوا وبغوا.

وفي هذا تهديد لقارون بسبب بغيه وطغيانه، وكفره وعدم شكره، ورد لزعمه كذباً أن ما أوتيته من المال لعلمه وفضله، واستحقاقه لذلك.

﴿وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ المجرمون: مرتكبوا الجرائم، من الكفر والمعاصي، أي: لا يسألون سؤال استخبار؛ لعلم الله تعالى بهم وبدنوبهم؛ كما قال:  
﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩].

لكنهم يسألون سؤال تقريع وتوبيخ وتبكيك وتنديم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، وقال تعالى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَسْئَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣].

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّادِقُونَ ﴿٧٧﴾.

قوله: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ﴾، أي: فخرج قارون ذات يوم على قومه من بيته.  
﴿فِي زِينَتِهِ﴾؛ في أبهى وأجمل وأرفع ما يكون من الملابس والمراكب؛ في خدمه وحشمه وغير ذلك؛ أي: في زينته التي كان يفخر بها على قومه.

﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، أي: الذين منتهى إرادتهم وغاية مبتغاهم ورغبتهم ومطلبهم الحياة الدنيا وزينتها، ليس لهم إرادة سواها.

﴿يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾، أي: نتمنى أن يكون لنا مثل الذي أعطي قارون من الكنوز والأموال ومتاع الدنيا وزينتها.

﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾؛ تعليل لتمنيهم أن يكون لهم مثله، أي: لأنه ذو حظ عظيم، أي: إنه لصاحب نصيب عظيم، فغبطوه على ما هو فيه؛ مما لا يغبط عليه؛ بسبب نظرهم القاصرة، وإرادتهم الدنيوية الحقيرة.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾، أي: الذين أعطاهم الله العلم، وانتفعوا بعلمهم، وعرفوا حقائق الأشياء، وعرفوا عظم ما وعد الله به في الآخرة - مخاطبين الذين تمنوا أن يكون لهم مثل ما أوتي قارون:

﴿وَيَلَكُمُ﴾؛ كلمة زجر وتعجب، ﴿ثَوَابُ اللَّهِ﴾، أي: جزاء الله في الدنيا والآخرة مما لا يقدر قدره، أو جزاء الله في الآخرة في الجنة.

﴿خَيْرٌ﴾؛ مطلقاً مما أوتي قارون في الدنيا.

﴿لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، أي: للذي آمن بقلبه، وعمل عملاً صالحاً بجوارحه.

كما قال ﷺ: «يقول الله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، واقروا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]» (١).

﴿وَلَا يُلَقَّهَا﴾، أي: ولا يتقبل هذه النصيحة ويوفق للعمل بها، أو لا يوفق لهذه الخصلة، وهي الإيمان والعمل الصالح، أو لا يوفق للجنة التي هي أعظم ثواب الله.

﴿إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾؛ الذين وفقهم الله للصبر على طاعته، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة.

قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ

(١) سبق تخرجه.

مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَتَّوْا مَكَانَهُ بِالْأُمِّسِ  
يَقُولُونَ وَيَكْفُرُونَ وَاللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَنَّ اللَّهُ  
عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيُكَافِّرُ، لَا يَفْلِحُ الْكٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾:

لما ذكر ما وصل إليه حال قارون من البغي والاختيال بزيبته والافتخار، أخبر بما أعقب ذلك من العقوبة والنكال.

قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾؛ الفاء: عاطفة، والخسف: جعل بعض ظاهر الأرض في باطنها؛ أي: فخسفنا بـ «قارون» وبداره الأرض؛ أي: غيبناه وداره في الأرض.

وإنما كانت عقوبته بالخسف؛ لبغيه وعلوه وتكبره، والجزاء من جنس العمل، كما قال تعالى: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «بينما رجل يمر إزاره خيلاء خسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة»<sup>(١)</sup>.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه، مرَّ جمل جمته؛ إذ خسف به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة»<sup>(٢)</sup>.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل فيمن كان قبلكم، خرج في بردين أخضرين يختال فيهما، أمر الله الأرض فأخذته؛ فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة»<sup>(٣)</sup>.

﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ﴾ «من»: مؤكدة لعموم النفي؛ أي: فما كان له أيُّ فئة، أي جماعة ﴿يَصْرُوهُ﴾، أي: يدفعون عنه عذاب الله قبل وقوعه ويمنعونه، ويرفعونه عنه بعد وقوعه، ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾، أي: غير الله؛ لأنه هو الذي حكم عليه كوناً

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٤٨٥، والنسائي في الزينة ٥٣٢٦.

(٢) أخرجه البخاري في اللباس ٥٧٨٩، ومسلم في اللباس والزينة ٢٠٨٨.

(٣) أخرجه أحمد ٤٠/٣ بإسناد حسن.

بالعذاب وأوقعه فيه، فلا ناصر له من دونه.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَصَرِّينَ﴾، أي: وما كان من المنتصرين بنفسه لنفسه، أي: فلا نُصِرَ من غيره، ولا انتصر لنفسه.

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ﴾، أي: وصار الذين تمنوا مثل ما أوتي قارون ﴿بِالْأَمْسِ﴾، أي: بالزمن القريب بقولهم: ﴿يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

﴿يَقُولُونَ﴾؛ بعد أن خسف الله به وبداره الأرض متعظين ومعتبرين، وخائفين من وقوع العذاب بهم: ﴿وَيَكَاَنَ اللَّهُ﴾؛ «ويك»: كلمة تأسف وتوجع وتعجب، قال عنتره:

ولقد شفا نفسي وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

أو: ﴿وَيَكَاَنَ اللَّهُ﴾، أي: ألم تر أن الله، أو أولاً ترى أن الله.

﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾، أي: يوسع الرزق والعتاء ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾، أي: للذي يشاء من عباده.

﴿وَيَقْدِرُ﴾؛ معطوف على «يسط»، أي: ويضيق الرزق على من يشاء من عباده، كما قال تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق: ٧]، أي: ضيق.

قال ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم؛ كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من أحب»<sup>(١)</sup>.

والمعنى: نعلم ونقر أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، حسب مقتضى حكمته، وأن ما أعطاه الله لقارون من الكنوز ليس دليلاً على فضله، وحسن حظه، ونأسف على تمنينا مثله، وقولنا: ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

﴿لَوْلَا أَن مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾؛ قرأ يعقوب وحفص بفتح الخاء والسين: ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾، وقرأ الباقون بضم الخاء وكسر السين: ﴿لَخَسِفَ بِنَا﴾.

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٨٧؛ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

«لولا»: حرف شرط غير جازم، ﴿أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾؛ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع مبتدأ، أي: لولا من الله، أو منته علينا ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾، واللام واقعة في جواب «لولا»، أي: لولا منته عز وجل علينا ولطفه بنا وفضله علينا، لخسف بنا الأرض؛ كما خسف بقارون؛ لأننا تمنينا أن نكون مثله.

فصار هلاكه عبرة وعظة لهم، والسعيد من وعظ بغيره.

﴿وَيَكَاذِبُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾، أي: ألم تعلم أنه ﴿لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾؟ بالله ونعمه، أي: أن قارون كان كافرًا، ولا يفلح الكافرون، أي: لا يفوزون بالمطلوب، ولا ينجون من المهوب، لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ ولهذا عوقب بالخسف.

#### الفوائد والأحكام:

١- الإخبار بحال قارون، وأنه كان من بني إسرائيل، فطغى وتجبر عليهم مغترًا بما آتاه الله من الأموال الكثيرة، وضرب المثل به للمشركين في تعاضمهم بجاههم وأموالهم، وتكذيبهم الحق؛ تحذيرًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ قَرُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾ الآية.

٢- أن الغنى سبب للطغيان، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ﴿٦١﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَى﴾ [العلق: ٧٦]. فالابتلاء كما يكون بالفقر يكون أيضًا بالغنى، بل الابتلاء بالغنى أشد، لأن المبتلى بالفقر قد يصبر، لكن المبتلى بالغنى قل أن يشكر.

٣- عظم ما أعطاه الله لقارون من الكنوز وخزائن الأموال، حتى إن مفاتحه ليثقل حملها الجماعة القوية من الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾.

٤- تحذير قومه له من الفرح بما أوتي فرحًا بطر وأشر واختيال وبغي؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾.

٥- نفى محبة الله عن الفرحين فرحًا بطر وبغي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾.

٦- أن من حسن الدعوة إلى الله أن تقرن الأحكام بالدليل أو التعليل؛ لقوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾.

- ٧- إثبات المحبة لله تعالى؛ لمفهوم قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾؛  
فمفهوم هذا أنه عز وجل يجب من قيّد نعمة الله تعالى بالشكر، ولم يطغ، ولم يتكبر.
- ٨- نصحهم وموعظتهم له بأن يطلب بما آتاه الله مرضاة الله تعالى وجنته؛ لقوله  
تعالى: ﴿وَأَتَّبِعْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾. وفي هذا ما يشير إلى أنه كان ينفق المال  
في غير الوجه الشرعي، من الفساد والمعاصي وغير ذلك.
- ٩- ينبغي لمن أنعم الله عليه بالمال البذل والإنفاق منه في الوجوه المشروعة؛ طلباً  
لرضا الله، والدار الآخرة.
- ١٠- أن المعطي والمانع للمال وغيره هو الله تعالى، فلا ينبغي أن يبخل العبد بما آتاه  
الله، قال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].
- ١١- إثبات الدار الآخرة والجنة.
- ١٢- لا لوم على الإنسان أن يتمتع بشيء مما آتاه الله في المباحات؛ من المآكل  
والمشرب والملابس والمسكن والمراكب وغير ذلك، بل يجب ذلك في حدود الحفاظ  
على النفس؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْسَ نَفْسِكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾.
- ١٣- نصحهم له بالإحسان في عبادة الله تعالى، وإلى عباد الله؛ شكراً لله تعالى على  
إحسانه إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾. وما جزاء الإحسان إلا  
الإحسان.
- ١٤- نهيم إياه عن ابتغاء الفساد في الأرض بما آتاه الله من الأموال؛ بالعلو  
والتكبر، والأشر والبطر والاختيال، والمعاصي والكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ  
فِي الْأَرْضِ﴾.
- ١٥- التحذير من الفساد، وبيان عدم محبة الله تعالى للمفسدين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ  
اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾، أي: بل يبغضهم ويكرههم.
- ١٦- إثبات محبة الله تعالى للمصلحين؛ لمفهوم قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ  
الْمُفْسِدِينَ﴾.
- ١٧- كفر قارون بنعمة ربه وإنكاره فضل الله عليه، وردّه موعظة قومه ونصيحتهم

له، واغتراره بنفسه، وأن ما أوتيته لعلمه بوجوه المكاسب وحذقه، واستحقاقه لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾.

١٨- إنكار الله تعالى على قارون زعمه أن ما أوتيته من مال على علم عنده؛ وتقريره عز وجل إياه، بأنه يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون المكذبة من هم أشد منه قوة وأكثر أموالاً، فلم يكن ما أعطوه دليلاً على رضا الله تعالى عنهم، ولم يمنع ذلك من إهلاكهم لما كذبوا رسل الله وكفروا وطغوا وبغوا، وفي هذا تهديد ووعد له؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا﴾.

١٩- أن المجرمين لا يسألون عن ذنوبهم سؤال استفسار، واستخبار؛ لأن الله أعلم بهم وبنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾، وفي هذا تهديد لهم.

٢٠- استمرار قارون في بغيه وطغيانه، وخروجه على قومه ذات يوم في كامل زينته، متكبراً مختالاً، مظهراً العظمة والأبهة؛ لقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾.

٢١- اغترار من قصرت همهم على إرادة الحياة الدنيا بما أوتي قارون من المال والزينه، وتمنيهم أن يكون لهم مثله، وغبطتهم له في حظه، مما لا يغبط عليه، بل يرثى لصاحبه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

٢٢- زجر الذين أوتوا العلم، وعرفوا حقائق الأشياء، للذين تمنوا أن يكون لهم مثل ما أوتي قارون، وبيانهم لهم أن ما عند الله من الثواب خير من ذلك وخير من الدنيا وما فيها، لمن آمن وعمل صالحاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَا كُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾.

٢٣- فضل العلم وأهله العارفين بالله، وما يجب له، وما أعده لأوليائه.

٢٤- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح، وبيان عظم ما أعد الله من الثواب، الذي لا يناله إلا من آمن وعمل صالحاً.

٢٥- شتان بين ثواب الله تعالى لمن آمن وعمل صالحًا، وبين من أعطي من زينة الدنيا وزهرتها الفانية ما أعطي، حتى لو ملك الدنيا بحذافيرها، وشتان بين من كانت غاية همه وإرادته الدنيا الحقيرة الزائلة، وبين من كان همه ومراده ما عند الله من الثواب العظيم في الآخرة.

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعًا فما الضدان يجتمعان (١)

وكما قيل:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم (٢)

٢٦- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب، والعمل الصالح بالجوارح.

٢٧- لا بد من كون العمل صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

٢٨- أنه لا يتقبل النصيحة ويعمل بها، ولا يوفق للإيمان والعمل الصالح ﴿إِلَّا

الصَّابِرُونَ﴾؛ الذين وفقهم الله للصبْر على طاعته، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُلَقِّهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾.

٢٩- عقاب الله تعالى وأخذه الشديد لقارون؛ بسبب بغيه وطغيانه، وأشره وبطره

واختياله، بخسف الأرض به وبداره، وعظم قدرة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾.

٣٠- عدم وجود من ينتصر له لما أحل الله به عقوبته، وعدم قدرته على الانتصار

لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾.

٣١- سوء عاقبة البغي والكبر والتجبر وكفر النعم، ووجوب الحذر من ذلك.

٣٢- اتعاظ واعتبار الذين تمنوا أن يكون لهم مثل قارون لما خسف الله به، وأحل

به عقوبته، وندمهم على غبطتهم له، وتمنيهم مثله، وإقرارهم بأن الله يبسط الرزق لمن

(١) البيت لابن القيم. انظر: «النونية» (ص ١١).

(٢) البيتان للمتنبى. انظر: «ديوانه» (ص ٢٧٢).

يشاء، ويضيقه على من يشاء، وأن العطاء ليس دليل الرضا، وليس بحول الإنسان وقوته، واعترافهم بمنة الله تعالى وفضله، حيث لم يصبهم ما أصابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَانَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَّا﴾.

٣٣- إثبات صفة المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية.

٣٤- حكمة الله تعالى البالغة في بسط الرزق لمن يشاء من عباده، وتضييقه على من

يشاء؛ وهو العليم الحكيم.

٣٥- أن الله يبتلي بالنعمة والسراء؛ كما يبتلي بالنقم والضراء، وليس عطاؤه دليلاً

على رضاه، ولا منعه دليلاً على سخطه.

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت وابتلي الله بعض القوم بالنعمة<sup>(١)</sup>

٣٦- إثبات كفر قارون، وأنه لا يفلح الكافرون، فلا يفوزون بالمطلوب، ولا

ينجون من المهروب؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَكَانَ لَهُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾. ومفهوم هذا أن الفلاح للمؤمنين.

\* \* \*

(١) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» (ص ٥٧٧).

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٧﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ إِنَّ الَّذِي قَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨٩﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٠﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٧﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾:

لما ذكر قارون وما كان عليه من البغي والبطر والتجبر، والاختيال والعلو والتكبر، وعقوبته الدنيوية بخسف الأرض به وبقوته الدنيوية بخسفه، أتبع ذلك بذكر عقوبته الأخروية هو وغيره من أهل العلو في الأرض والفساد فيها؛ بما هو أشد وأعظم؛ وهو حرمانهم ثواب الآخرة في الجنة، وإذا حرموا في الآخرة الثواب فليس لهم فيها إلا النار والعذاب.

قوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾، أي: تلك الدار الآخرة العظيمة، أي: الجنة، دار السلام وما فيها من النعيم المقيم.

﴿نَجْعَلُهَا﴾، أي: نصيرها دارًا وقرارًا ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: لا يريدون بغيًا وتكبرًا في الأرض، ببطر الحق، والتعاضم على الخلق.

وعن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «وَأَنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ: أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه مسلم في الجنة ونعيمها ٢٨٦٥، وأبو داود في الأدب، باب التواضع ٤٨٩٥، وابن ماجه في الزهد، البراءة من الكبر ٤١٧٩.

﴿وَلَا فَسَادًا﴾، أي: ولا يريدون في الأرض فسادًا بالكفر والمعاصي؛ لأن الكفر والمعاصي سبب لفساد الأرض، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾، أي: والعاقبة المحمودة، العقبى، والنهاية الحسنة، عاجلاً وأجلاً، في الدنيا والآخرة، ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، أي: للذين اتقوا الله بفعل أو امره، واجتناب نواهيه، عاجلاً وأجلاً، وتواضعوا لله تعالى، ولم يتعالوا عن قبول الحق، ولا على الخلق. ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ «من»: شرطية في الموضوعين، والباء: للمصاحبة في الموضوعين؛ أي: من جاء بالحسنة مصطحباً لها يوم القيامة.

أي: من عمل الحسنة، بفعل مأمور، أو ترك محذور، قولاً أو فعلاً أو بذلاً، وجاء بذلك يوم القيامة، ولقي الله تعالى به، ولم يعمل ما يحبطه؛ لأن الأعمال بالخواتيم. ﴿فَلَهُ﴾؛ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فله ثواب وجزاء ﴿حَيْرٌ مِّنْهَا﴾ خيرية مطلقة، كمية، بمضاعفة الحسنة بعشر أمثالها، فضلاً منه عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

ومضاعفتها أكثر من ذلك إلى أضعاف كثيرة؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أضعافاً كثيرة﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «كل عمل ابن آدم له، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، إلا الصوم؛ فإنه لي وأنا أجزي به»<sup>(١)</sup>.

وخير منها كيفية بدوام جزائها، ففعل الحسنة ليس بدائم، وجزاؤها دائم، لا ينقطع فضلاً من الله عز وجل.

(١) سبق تخرجه.

﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾، أي: ومن جاء بالسيئة مصطحباً لها يوم القيامة من غير توبة. والسيئة: ضد الحسنة.

﴿فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ الفاء رابطة لجواب الشرط، و«إلا» أداة حصر، و«ما» موصولة، أو مصدرية، و«السيئات»: الأعمال السيئة، أي: فلا يجزي الذين عملوا الأعمال السيئات إلا الذي كانوا يعملونه، أو إلا الذي عملوا؛ عدلاً منه تعالى؛ لأن الجزء من جنس العمل.

والمعنى: ومن جاء بالسيئة فلا يجزي إلا مثلها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠]. وقال ﷺ: «إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتب الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة»<sup>(١)</sup>.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾؛ الخطاب للنبي ﷺ، أي: إن الذي أنزل عليك القرآن، وأوجب عليك تلاوته، وتبليغه لأمتك، والعمل بها فيه.

﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لمرجعك والخلائق كلهم إلى معاد، وهو يوم القيامة؛ للحساب والجزاء؛ ليجازي كلاً بعمله؛ إذ لا يليق بحكمته عز وجل أن يكلف الخلائق بالقرآن والعمل به، ثم لا يحاسبهم فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته؛ كما قال قبل هذه الآية: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

(١) أخرجه البخاري في الرقاق- من هم بحسنة أو بسيئة ٦٤٩١، ومسلم في الإيمان- باب إذا هم العبد بحسنة ١٣١- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وهذا معنى قول من قال من السلف: «لرادك إلى الجنة»؛ لأن معاده ﷺ - بلا شك - إليها.

وفي هذا إشارة إلى أنه عز وجل سيسأل النبي ﷺ عن تبليغ هذا القرآن، كغيره من الرسل؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف: ٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَجِئَاءَ بِالتَّيِّبِينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩].

وحل بعض المفسرين قوله: ﴿لَرَأَدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، أي: إلى بلدك مكة فاتحاً بعد إخراجك.

عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿لَرَأَدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾؛ قال: إلى مكة<sup>(١)</sup>. وهذا القول بعيد؛ لأن السورة مكية، فكيف يقال له وهو في مكة: ﴿لَرَأَدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾؛ أي: لرادك إلى مكة.

والقول الأول هو الصحيح وهو المناسب؛ لصدر الآية ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ أي: أن الله لم ينزل عليك القرآن ويوجب عليك تلاوته وتبليغه واتباعه؛ عبثاً، بل؛ ليعيد الخلاق ويجاسبهم ويمجزيهم.

﴿قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، أي: قل يا محمد للمشركين المكذبين لك: ربي أعلم بالذي جاء بالهدى من عنده: أهو أنا أم أنتم؟ وبمن هو المهتدي منا: أهو أنا أم أنتم؟

﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، أي: وهو عز وجل أعلم بمن هو منا في ضلال مبين، أي: في ضلال بين واضح، أهو أنا أم أنتم؟

وهذا من باب التنزل معهم، وإلا فهو ﷺ يعلم، ويعلم أن ربه يعلم أنه هو الذي جاء بالهدى من عنده، وأن المكذبين له هم الذين في ضلال مبين.

وهذا كقوله ﷺ فيها حكاه الله تعالى عنه: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٧٧٣، والطبري في «جامع البيان» ١٨، ٣٥٠.

ولم يقل: «ممن لم يأت بالهدى، أو ممن لم يأت به»، وأتى بـ «في» الدالة على الظرفية فقال: ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: منغمس في الضلال محيط به من كل جانب كقوله تعالى: ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلْمَتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].  
وأيضاً: فإنه ليس بعد الهدى إلا الضلال، كما قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢].

﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾، أي: وما كنت تؤمل وتطمع أن ينزل عليك هذا القرآن العظيم.  
﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، أي: لكن رحمة من ربك بك وبالامة أنزله عليك؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].  
أي: فاعتبط بهذه النعمة العظيمة والمنحة الجسيمة من ربك.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾، أي: فلا تكونن معيناً لهم على كفرهم، بل اصدع بما جاءك من الحق بينهم، وجاهدهم به جهاداً كبيراً.  
﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾، أي: ولا يصدنك هؤلاء الكفار، أي: لا يصرفنك عن آيات الله الشرعية وما جاءك فيها من الحق بعد إنزالها إليك، ولا تبالهم ولا تكثرث بمخالفتهم لك، فإن الله معك ومؤيدك، ومظهر ما جئت به من الحق. وفي قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ تذكير له ﷺ بهذه الحجة، وهو أنها منزلة من عند الله، وتثبيت له ﷺ.

﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، أي: واستمر في دعوة الناس إلى توحيد ربك، وعبادته وحده لا شريك له.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ الذين أشركوا مع الله غيره.  
﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾، أي: ولا تعبد مع الله معبوداً آخر، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لأنه لا إله إلا هو، أي: لا معبود بحق سواه.  
وهذا بيان لحقيقة الشرك، وتأكيد للنهي عنه، وبيان لحقيقة التوحيد.

وليس في نهيهِ ﷺ عن أن يصدوه عن آيات الله، وعن أن يكون من المشركين، وعن أن يدعوا مع الله إلهًا آخر، ليس في هذا كله ما يدل على حصول ذلك منه، ولا توقع حصوله ولا جواز حصوله لا شرعًا ولا كونًا؛ لأنه ﷺ معصوم من ذلك كله، وكذا غيره من الرسل عليهم السلام.

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾؛ تعليل للنواهي السابقة، أي: كل شيء فانٍ زائل، ومضمحل ومعدوم بعد الوجود ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾؛ «إلا» أداة استثناء، ﴿وَجْهَهُ﴾؛ مستثنى منصوب، أي: إلا إياه، أو: إلا هو عز وجل، فعبّر بالوجه عن الذات.

فهو عز وجل الحي الذي لا يموت، القيوم الدائم الباقي وحده، والخلاق كلهم يموتون؛ كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣]، فهو عز وجل الأول قبل كل شيء والآخر بعد كل شيء.

كما أن كل شيء باطل إلا ما أريد به وجهه عز وجل؛ ولهذا قال ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر، كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»<sup>(١)</sup>.

وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾، أي: مما كتب الله عليه الهلاك والفناء، دون ما كتب الله له البقاء وخلق له لذلك؛ كالجنة والنار؛ فإن الله خلقهما للبقاء لا للفناء.

﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾، أي: له عز وجل وحده الحكم كله: الحكم الكوني بمعنى: التصرف والتدبير، وله الحكم الشرعي، وله الحكم الجزائي، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه؛ لأن الخلق خلقه، والملك ملكه، والأمر أمره؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿فَأَلْحَمْنَا لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢].

﴿وَالِيَهُ تُرْجَعُونَ﴾، أي: وإليه وحده تردون بعد البعث يوم القيامة، فيحاسبكم ويمجازيكم على أعمالكم خيرها وشرها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّ

(١) أخرجه البخاري في المناقب، أيام الجاهلية ٣٨٤١، ومسلم في الشعر ٢٢٥٦، والترمذي في الأدب ٢٨٤٩، وابن ماجه في الأدب، باب الشعر ٣٧٥٧، وأحمد ٢/٢٤٨، ٣٩٣؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عَلَيْنَا حِسَابُهُمْ ﴿٥٦﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].

كما أن إليه مصير الأمور كلها، كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣].

### الفوائد والأحكام:

- ١- إثبات الدار الآخرة، وتعظيمها؛ لما فيها من الحساب والجزاء، وإثبات الجنة وتعظيمها لما فيها من الثواب العظيم والنعيم المقيم للمتقين المتدللين لربهم، المتواضعين لعباده، الذين لا يريدون علواً ولا فساداً في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾.
- ٢- امتداح أهل التذلل والإصلاح؛ لعظيم ما وعدهم الله به، وذم أهل العلو في الأرض والإفساد؛ لحرمانهم من ثواب الآخرة ونعيم الجنة، ومن حرم من ذلك فليس له إلا النار وبئس القرار.
- ٣- أن مدار الأعمال على النيات.
- ٤- أن الكفر والمعاصي سبب لفساد الأرض، وخراب البلاد.
- ٥- أن العاقبة الحسنى، والمآل الحسن لمن اتقى الله بفعل أو امره، واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. وفي هذا ترغيب بالتقوى، وبيان فضلها.
- ٦- فضل الله عز وجل وجوده وكرمه؛ لمجازاته من جاء بالحسنة بخير منها، كمية وكيفية، ومضاعفتها بما لا حد له ولا عد فضلاً منه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾.
- ٧- كمال عدل الله عز وجل؛ لمجازاته من جاء بالسيئة بمثلها فقط دون زيادة؛ عدلاً منه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.
- ٨- أن الأعمال بالخواتيم؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾، وقوله: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾. فمن اتبع الحسنة بما يبطلها لم يجز عليها، ومن اتبع السيئة بما يمحوها لم يعاقب عليها.
- ٩- أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان.
- ١٠- الترغيب في عمل الحسنات، والترهيب من عمل السيئات.

١١- أن الله عز وجل أنزل القرآن على النبي ﷺ، وأوجب عليه تلاوته وتبليغه والعمل به هو وأمته؛ ليجازيهم على العمل به؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾.

١٢- إثبات رسالته ﷺ بإنزال القرآن الكريم عليه، وتشريفه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾، وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾؛ الآية.

١٣- إثبات البعث والمعاد، والحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾.

١٤- أن الله عز وجل أعلم بمن جاء بالهدى من عنده؛ وهو نبيه ﷺ، لا المكذبون له، وأعلم بمن هو في ضلال مبین؛ وهم المشركون المكذبون؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾؛ كما أنه ﷺ يعلم ذلك، لكن هذا من باب التنزل مع الخصم.

١٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ، وتشريفه بإضافة اسم الرب إلى ضميره؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّيَ﴾، وقوله: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾.

١٦- ليس بعد الهدى إلا الضلال؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

١٧- أنه ﷺ ما كان يظن أو يؤمل أو يطمع أن ينزل عليه القرآن، ولكن رحمة من ربه عز وجل به وبالعباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ﴾.

وفي هذا رد على الذين يقولون: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، إذ لو كان كما يقولون لكان متطلعاً إليه.

١٨- أن القرآ، رحمة من الله عز وجل للخلق في دنياهم وأخراهم، به حياة قلوبهم في الدنيا وصلاح أحوالهم، وبه نجاتهم من النار ودخولهم الجنة في الآخرة.

١٩- نهي الله عز وجل له ﷺ أن يكون ظهيراً للكافرين، وعن أن يصدوه عن

القرآن وتبليغه بعد أن منَّ الله عليه بإنزاله إليه، ونبيه عن أن يكون من المشركين، وعن أن يدعو من دون الله إلهًا آخر؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ (٨٦) وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ.

وفي هذا كله تقوية لقلبه للثبات على دعوته، والصبر في مواجهة الكاذبين له، والاستمرار في دعوته، وعدم الاكتراث ولا المبالاة بمن خالفه، وفي هذا كله نهي لأُمَّته عن ذلك.

٢٠- تحريم مظاهر الكافرين، ووجوب الحذر من محاولتهم صد المؤمنين عن دينهم، ووجوب الدعوة إلى الله، والحذر من الشرك؛ لأن الخطاب له ﷺ ولأُمَّته.  
٢١- أن حقيقة الشرك: دعوة إله آخر وعبادته مع الله تعالى.

٢٢- إثبات توحيد الألوهية، وأنه لا إله ولا معبود بحق إلا الله؛ كما أنه لا رب للعالمين سواه؛ لقوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

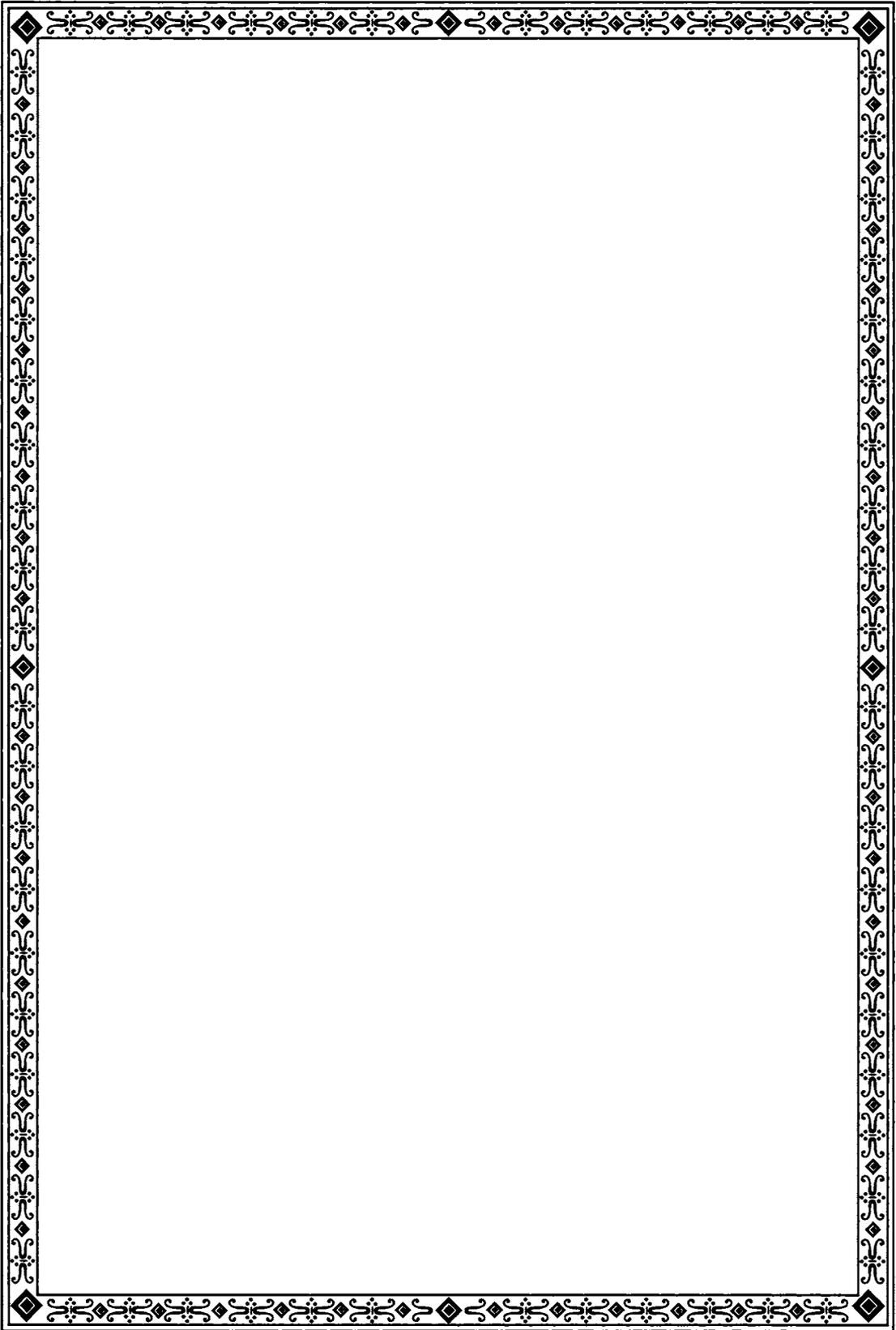
٢٣- أن كل شيء هالك فإن إلا الله عز وجل، فهو سبحانه الحي الذي لا يموت، الباقي الدائم؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، وذلك من أعظم دلائل وحدانيته، وموجبات توحيدته.

٢٤- إثبات صفة الوجه لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾؛ وهذا لا ينافي أن يكون المراد بالوجه في الآية: ذاته كلها؛ لأن الوجه يطلق على الذات كلها.

٢٥- أن الله عز وجل وحده الحكم والتدبير والتصرف في الكون؛ كما أن له الحكم الشرعي، والحكم الجزائي، لا يسأل عما يفعل، ولا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾.

٢٦- أن مرجع الخلائق كلهم ومردهم إلى الله تعالى، إليه إياهم، وعليه حسابهم وجزاؤهم؛ ومصير أمورهم إليه لقوله تعالى: ﴿وَالِيَهُ تُرْجَعُونَ﴾.

# تَفْسِيرُ سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ



## المقدمة

## أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة العنكبوت»؛ لذكر العنكبوت فيها في قوله تعالى:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

## ب- مكان نزولها:

مكة.

## ج- موضوعاتها:

١- افتتحت هذه السورة بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ﴾ للدلالة على إعجاز القرآن

الكريم، ثم شرعت في الحديث عن تكاليف الإيمان، وما يترتب عليه من الابتلاء، كما هي سنة الله تعالى في السابقين لتمحيص المؤمنين؛ ليعلم الله الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، وإبطال ظن الذين يعملون السيئات أنهم يسبقون الله أو يعجزونه، وبيان سوء حكمهم الجائر.

٢- بشارة من كان يرجو لقاء الله واستعد لذلك اللقاء، بأن أجل الله آت وهو السميع العليم؛ يسمع أقوال العباد، ويعلم أعمالهم وسيجازيهم عليها، وبيان أن من جاهد وبذل طاقته في طاعة الله تعالى وتقواه؛ بفعل المأمورات وترك المحظورات، فإنها جزاء جهاده لنفسه؛ لأن الله غني عن العالمين.

٣- وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات بتكفير سيئاتهم ومجازاتهم بأحسن الذي كانوا يعملونه، وإدخالهم في الصالحين.

٤- وصية الله عز وجل الإنسان بالإحسان إلى والديه، وعدم طاعتها إن أمراه بالإشراك بالله ومصاحبتهما في الدنيا معروفًا، فإليه عز وجل مرجع الجميع، فينبئهم بأعمالهم ومجازيهم عليها.

٥- ذم فريق من الناس يقولون: آمنا بالله، فإذا أؤذي في ذات الله تراجع؛ لضعف إيمانه، وجعل ما يصيبه من أذى الناس وفتنتهم له بسبب إيمانه كعذاب الله، ولئن جاء نصر من الله للمؤمنين ليقولن: إنا كنا معكم، وهو كاذب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

٦- بيان غرور الكافرين، وشدة ما هم عليه من التكذيب، والصد عن دين الله، وإنكار البعث والحساب والجزاء؛ لقولهم كذباً للذين آمنوا: ﴿أَتَبِعُوا سَبِيلَنَا وَلَنَحْمِلُ خَطِيئَتَكُمْ؟﴾ والرد عليهم بقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِحَمِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسَّأَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

٧- ذكر قصص عدد من الأنبياء مع أقوامهم، منهم: نوح وإبراهيم ولوط وشعيب، عليهم السلام، وما جرى بينهم وبين أقوامهم، وإنجائهم وأتباعهم المؤمنين، وإهلاك المكذبين، مع ما أعد لهم في الآخرة من العذاب الأليم، وفي ذلك تسلية له ﷺ، وتقوية لقلبه، وتحذير وتهديد للمكذبين له.

٨- ذكر عاد وثمود الذين تشهد مساكنهم على إهلاكهم بسبب ضلالهم، وذكر قارون وفرعون وهامان وقد جاءهم موسى عليه السلام بالبينات فاستكبروا في الأرض، فأهلكوا وما كانوا سابقين.

٩- بيان أخذه عز وجل كلاً من المكذبين بالعقوبة المناسبة لذنبه؛ فمنهم من أرسل الله عليه حاصباً، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خسف الله به الأرض، ومنهم من أغرقه الله: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِيُظِلَّيَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

١٠- تحقير آلهة المشركين التي اتخذوها من دون الله أولياء، والتهكم بها، وتشبيههم وضعف معبوداتهم بالعنكبوت التي تتخذ بيتاً هو أوهن البيوت، وبيان علمه عز وجل بما يدعون من دونه من شيء، وهو العزيز الحكيم، والتنويه بضربه عز وجل الأمثال للناس، وبيان أنه لا يعقلها إلا العالمون.

١١- بيان أنه عز وجل خلق السموات والأرض بالحق، وأن في خلقها آية للمؤمنين على تمام قدرة الله تعالى ووحدانيته في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

١٢- أمره عز وجل له ﷺ بتلاوة ما أوتي الكتاب وقراءته على الناس واتباعه، وإقام الصلاة، وبيان أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

١٣- نهى المؤمنين عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا

منهم، وأن يقولوا: ﴿ءَأَمَنَا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَحْدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٤٦)، وبيان أن من أهل الكتاب من يؤمن بالقرآن، كما أن من العرب من يؤمن به، وما يكفر به ويحجد إلا الكافرون من الفريقين.

١٤- الرد على من يزعمون أن النبي ﷺ افترى القرآن واختلقه من عنده، ويجحدون آيات الله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ (٤٩).

١٥- اقتراح الكفار المكذبين المعاندين إنزال الله تعالى آيات على النبي ﷺ، وأمر الله عز وجل له أن يقول لهم: إنما الآيات عند الله، وإنما أنا نذير مبين، وتوبيخهم لما لم يكفهم أن الله أنزل عليه ﷺ القرآن يتلى عليهم، فيه الرحمة والذكرى لقوم يؤمنون.

١٦- بيان كفايته عز وجل شهيداً بينه ﷺ وبينهم: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَطْلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٥٢).

١٧- استعجالهم بالعذاب تكديباً به: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾، وتأكيد إتيانه إليهم بغتة، وإحاطة جهنم بهم، وغشيان العذاب لهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم وتقريعهم.

١٨- بيان سعة أرضه عز وجل؛ ترغيباً بالهجرة من الأرض التي لا يستطيع المسلم فيها إقامة شعائر دينه؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾ (٥٦).

١٩- حكم الله وقضائه بالموت على كل نفس، ثم بعث الخلائق ورجوعهم إليه للحساب والجزاء، ووعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات بإسكانهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار، وامتداح أجرهم والثناء عليهم بعملهم وصبرهم وتوكلهم على ربهم.

٢٠- تكفله عز وجل برزق جميع الدواب، وجميع الخلق: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦٠).

٢١- إقرار المشركين بتوحيد الربوبية، وأنه عز وجل هو الذي خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر، وهو الذي أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبيان تفرد عز وجل ببسط الرزق وتضييقه على من يشاء، وعلمه بكل شيء،

والتعجب كيف يُصرفون عن عبادته وحده، فيشركون معه غيره، مع إقرارهم بربوبيته!  
﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٦٢).

٢٢- بيان حقارة الدنيا، وأن الدار الآخرة هي الدار الحقيقية: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٦٤).

٢٣- إخلاص المشركين الدعاء لله حال الشدة إذا ركبوا في الفلك، فإذا نجاهم إلى البر رجعوا إلى الشرك وكفروا نعمة الله عليهم، وتهديدهم ووعدهم.

٢٤ الامتنان على مشركي قريش بأن جعل عز وجل لهم حرماً آمناً، لا يُعتدى عليهم فيه، في حين يُتخطفُ الناس من حولهم قتلاً وسلباً، والإنكار عليهم وتوبيخهم على إيمانهم بالباطل وكفرهم نعمة الله تعالى.

٢٥- لا أظلم ممن افترى على الله كذباً، وكذب بالحق لما جاءه، والوعد والتهديد بكون جهنم مثوى للكافرين.

٢٦- وعد الله عز وجل - الذي لا يُخلف وعده- للذين جاهدوا في الله، وأحسنوا بهدایتهم سبله الموصلة إلى مرضاته وجنته: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٦٦).

\* \* \*

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْعَرَّ ١﴾ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

قوله: ﴿الْعَرَّ﴾؛ سبق الكلام على الحروف المقطعة، وبيان الحكمة فيها في الكلام على مطلع سورة البقرة.

﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا﴾؛ الاستفهام للإنكار، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعولي «حسب»، أي: أظن الناس أن يتركوا، ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾؛ في تأويل مصدر في محل جر بلام أو بياء محذوفة، أي: لأن يقولوا، أو بأن يقولوا.

﴿ءَامَنَّا﴾، أي: صدقنا بقلوبنا، وانقدنا بجوارحنا، ودخلنا في الإسلام، واتبعنا الرسول.

﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾؛ الجملة حالية، أي: والحال أنهم لا يفتنون، أي: لا يختبرون، ولا يمتحنون بالشدائد؛ ليتبين المؤمن من المنافق.

أي: لا يحسبوا ذلك ولا يظنوه؛ إذ لا بد من الابتلاء والامتحان؛ كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ [التوبة: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ﴾ ﴿١١١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّٰدِقِينَ ﴿١١٢﴾ [آل عمران: ١٤١ - ١٤٢].

وقال ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمل فالأمل، يتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه» (١).

وقال ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم؛ فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط» (٢).

وعن عبدالله بن مغفل رضي الله عنه، قال: قال رجل للنبي ﷺ: يا رسول الله، والله إني لأحبك، فقال: «انظر ماذا تقول» قال: والله إني لأحبك. فقال: «انظر ماذا تقول»، قال: والله إني لأحبك، ثلاث مرات، فقال: «إن كنت تحبني فأعد للفقر تحفافاً؛ فإن الفقر أسرع إلى من يحبني من السيل إلى منتهاه» (٣).

ولقد لاقى أصحاب رسول الله ﷺ صنوفاً من الابتلاء والأذى على أيدي المشركين؛ كما فعل ببال وخباب وعمار بن ياسر ووالديه رضي الله عنهم، وغيرهم. واستمر المشركون في الأذى بالقول والفعل والتعذيب لكل من آمن والتضييق عليهم، حتى اضطروا إلى الهجرة إلى الحبشة، ثم الهجرة صحبة رسول الله ﷺ إلى المدينة.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؛ الواو: عاطفة، واللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: ولقد امتحنا وابتلينا الذين من قبلهم من الأمم؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

وكما فعل أصحاب الأخدود في تحريقهم المؤمنين في النار، قال تعالى: ﴿قَتَلَ أَصْحَابَ الْأَخْدُودِ ﴿١﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا فُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ

(١) أخرجه الترمذي في الزهد، الصبر على البلاء ٢٣٩٨، وابن ماجه في الفتن، الصبر على البلاء ٤٠٢٣، وأحمد ١٧٢/١، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٥٠، وقال: «حديث حسن غريب».

شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ [البروج: ٤ - ٨].  
وعن خباب بن الأرت رضي الله عنه، قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال: «كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض حفرة، فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليُتَمَنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»<sup>(١)</sup>.

﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾؛ الفاء عاطفة، وكذلك الواو، واللام في الموضعين: لام القسم لقسم مقدر، والنون فيها للتوكيد، أي: فليعلمن الله الذين صدقوا في دعواهم الإيـان، وقولهم: ﴿أَمَنَّا﴾، أي: يظهر علمه فيهم، فيثيهم بما ظهر منهم، وينجيهم من الفتنة.

﴿وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَافِرِينَ﴾؛ في قولهم ودعواهم الإيـان، أي: يظهر علمه فيهم، فيعاقبهم بما ظهر منهم ويزيغ قلوبهم؛ لأن الله قد علم أزلًا ما هم عاملون، وكتبه وقدره قبل أن يعملوه، لكنه لا يجازيهم على ذلك إلا بعد أن يعلم وقوع ذلك منهم، أي: بعد أن يعملوه.

فالابتلاء بأنواع الفتن والمحن، وبالضراء والسراء، والشدة والرخاء، من سنن الله الكونية في الأمم السابقة وفي هذه الأمة؛ ليميز الله الخبيث من الطيب، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين، وليظهر الصادق من الكاذب والمؤمن من المنافق، ومن ثبت على الحق أمام الفتن والشبهات والشهوات، ممن يزيغ ويتزلزل بسبب ذلك.

نسأل الله الثبات على دينه، وأن يثبتنا على القول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.  
﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾؛ «أم»: هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أحسب، أي: أظن الذين يعملون الأعمال السيئة؛ من الشرك والكفر، والصد عن دين الله، وأذية المؤمنين

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦١٢، وأبو داود في الجهاد ٢٦٤٩.

وتعذيبهم، وغير ذلك من الذنوب والمعاصي، التي تسوء صاحبها في الحال والمآل، وقد تسوء غيره؛ لما للمعاصي من آثار سيئة على العباد والبلاد؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

﴿أَنْ يَسْبِقُونَا﴾؛ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعولي: «حسب». ومعنى ﴿يَسْبِقُونَا﴾: يعجزونا ويفوتونا بأنفسهم، ويفلتوا من عذابنا.

﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ «ساء»: فعل ماضٍ لإنشاء الذم، أي: بنس ما يحكمون، و«ما»: مصدرية أو موصولة، أي: ساء حكمهم، أو ساء الذي يحكمونه؛ من ظنهم أنهم سيعجزوننا ويفلتون من عذابنا، قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٥١].  
وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِمُعْجِزَةٍ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤].

فهذا ذم لحسابهم، وإبطال له، وتقرير لمعنى الإنكار عليهم، وتوكيد له.  
قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾.

قوله: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾، أي: من كان يرجو ويؤمل لقاء الله رغبة وطمعاً في ثوابه، فاستعد للقاء ربه بالإيمان والأعمال الصالحة.  
﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾؛ الفاء رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية، واللام: للتوكيد، أي: فليبشر؛ فإن أجل الله والوقت الذي حدده للبعث ووعده ولقاءه آتٍ لا محالة، وكائن ولا بد، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾، أي: وهو السميع لأقوال عباده المجيب لدعائهم، الذي وسع سمعه جميع الأصوات.

﴿الْعَلِيمُ﴾ بهم وبأعمالهم وأحوالهم وبجميع المخلوقات، الذي وسع كل شيء علماً. ﴿وَمَنْ جَاهِدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾، أي: ومن بذل جهده في فعل ما يقربه إلى الله تعالى من الطاعات، وفي الابتعاد عما يغضب الله من المعاصي والسيئات، وجاهد نفسه وشيطانه وأعداء الله.

﴿فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾، أي: فإنما جهاده لنفسه؛ لأن نفعه راجع إليه، وثمرته عائدة إليه؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [الجاثية: ١٥].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنِيَّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾؛ الجملة تعليلية، واللام للتوكيد، أي: لأن الله غني عن العالمين، فمن جاهد منهم فنفع جهاده وثمرته لنفسه؛ لأن الله غني عنهم، ليس به حاجة إليهم، ولا تنفعه طاعة المطيع منهم، ولا تضره معصية العاصي.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ بقلوبهم، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾؛ اللام في الموضعين: لام القسم لقسم مقدر، أي: لنمحون عنهم سيئاتهم ونذهبها ونتجاوز عنها؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وقال ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان؛ مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»<sup>(١)</sup>.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي: ولنجزينهم ثواب أحسن الذي كانوا يعملونه، وهو كل ما عملوه ابتغاء وجه الله وطلب مرضاته من الواجبات والمندوبات، وما تركوه خوفاً منه من المنهيات، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

### الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿الْم﴾.

(١) سبق تحريجه.

٢- لا بد من ابتلاء الناس، وبخاصة المؤمنين، وامتحانهم بالضراء والسراء والشدة والرخاء، وصنوف المحن؛ حكمة الله عز وجل؛ ليميز الخبيث من الطيب، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

٣- أن الابتلاء والامتحان من سنن الله الكونية في الأمم كلها؛ ليظهر الصادق من الكاذب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

٤- إحاطة علم الله تعالى بالذين صدقوا وبالكاذبين، وأنه عز وجل لا يحاسب الخلائق على ما علمه أولاً وكتبه وقدره عليهم، وإنما يحاسبهم بعد أن يظهر علمه فيهم فيثيبهم ويعاقبهم بما ظهر منهم.

٥- أن طريق الإيمان والجنة ليس مفروشا بالورود والرياحين، بل فيه العقبات والأشواك؛ ولهذا قال ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»<sup>(١)</sup>. وقد أحسن القائل:

فدرب الصاعدين كما علمتم به الأشواك تكثر لا الورود

٦- الوعيد للذين يعملون السيئات، ويظنون أنهم سيفلتون من عذاب الله، وتهديدهم والإنكار عليهم، وأنهم لن يعجزوا الله هرباً، ولن يفلتوا من عذابه أو يفوتوه؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا﴾.

٧- ذم حسابهم ذلك وإبطاله، وتقرير الإنكار عليهم وتوكيده؛ لقوله تعالى: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

٨- البشارة لمن كان يرجو لقاء الله رغبة في ثوابه، مع الاستعداد لذلك بالإيمان والعمل الصالح؛ بأن أجل الله آتٍ لا محالة، وكائن ولا بد؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾.

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٩؛ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

- ٩- إثبات القيامة ولقاء الله تعالى، ومحاسبته العباد ومجازاته إياهم على أعمالهم.
- ١٠- إثبات اسمي الله عز وجل: «السميع» و«العليم»، وأنه عز وجل ذو السمع الذي وسع جميع الأصوات، وذو العلم الذي وسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.
- ١١- في اقتران صفة السمع الواسع، وصفة العلم الواسع في حقه عز وجل كمال إلى كمال.
- ١٢- الترغيب في طاعة الله تعالى وعبادته، ومجاهدة النفس والشيطان والأعداء في طلب مرضاة الله، وأن ثمرة ذلك تعود للمرء نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾.
- ١٣- غنى الله التام عن الخلق كلهم، وعدم حاجته إلى أحد منهم، وأنه لا تنفعه طاعة المطيع؛ كما لا تضره معصية العاصي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.
- ١٤- وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات بمحو سيئاتهم، ومجازاتهم أحسن الجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾، وفي هذا ترغيب في الإيمان والعمل الصالح.
- ١٥- لا بد من الجمع بين الإيمان والتصديق بالقلب، والعمل الصالح بالجوارح.
- ١٦- لا بد من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لسنة نبيه ﷺ.
- ١٧- أن التخلية قبل التحلية، فتكفير السيئات والتطهير منها قبل الجزاء.
- ١٨- أن الجزاء من جنس العمل، بل أحسن منه وأفضل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْلَىٰ آللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾﴾:

### سبب النزول:

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه؛ أنه نزلت فيه آيات من القرآن، قال: «حلفت أم سعد ألا تكلمه أبداً حتى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب؛ قالت: زعمت أن الله أوصاك بوالديك، وأنا أملك، وأنا أمرك بهذا.

قال: مكثت ثلاثاً حتى غشي عليها من الجهد! فقام ابن لها، يقال له: عمارة، فسقاها، فجعلت تدعو على سعد، فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ (١).

قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾؛ «حسناً»: مفعول مطلق لفعل محذوف نائب عن المصدر، والتقدير: أحسن إليهما حسناً، أو صفة لمصدر محذوف، أي: إيصاء ذا حسن.

والوصية: العهد بأمر مهم، والمعنى: أمرنا الإنسان وأوجبنا عليه الإحسان بوالديه والبر بهما؛ قولاً وفعلاً وبذلاً، ومحبة واحتراماً وتقديراً وإجلالاً، كما قال تعالى:

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، فضائل سعد بن أبي وقاص ١٧٤٨، والترمذي في أبواب التفسير، باب ومن سورة العنكبوت ٣١٨٩، وأحمد ١/ ١٨١، ١٨٥ - ١٨٦.

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۗ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [النساء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَوَلِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤].

وإنما عظم الله تعالى حق الوالدين، وأكدته، وقرنه بحقه في مواضع كثيرة من كتابه؛ لعظم فضلها وإحسانها - بعد الله تعالى - إلى الولد، فهما سبب وجوده، وقد قاسى كل منهما من المشقة والتعب والعناء - وبخاصة الأم - ما لا يعلمه إلا الله. وما يقدم لهما من البر والإحسان - مهما كان - ليس بكثير في حقها؛ ولهذا قال ﷺ: «لا يجزي ولد والداً، إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه، فيعتقه»<sup>(١)</sup>.

﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾.

أوصى عز وجل بالإحسان إلى الوالدين رافة ورحمة بهما، وتعظيماً لحقهما، ثم أتبع ذلك بنهييه عن طاعتها إذا أمراه بالشرك بالله، تعظيماً لأمر الشرك وخطورته، وحتى لا يظن ظان أن من برهما طاعتها في هذا الأمر الخطير. والمعنى: وإن بذلا جهداً في دعوتها لك؛ لأجل أن تشرك بي، أي: لأجل أن تدعو معي شريكاً آخر.

﴿ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾؛ «ما» موصولة، أي: الذي ليس لك به علم. أو نكرة موصوفة، أي: شيئاً ليس لك به علم، وهذا بيان للواقع، وهو أن كل شرك بالله لا علم للإنسان به.

والمعنى: وإن جاهدك لأجل أن تدعو معي شريكاً ليس لك به علم، أي: لا تعلم صحته ولا جوازه، بل تعلم بطلانه وحرمة؛ كما قال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ ﴾ ﴿٧﴾.

(١) أخرجه مسلم في العتق ١٥١٠، وأبو داود في الأدب ٥١٣٧، والترمذي في البر والصلة ١٩٠٦، وابن ماجه في الأدب ٣٦٥٩، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[الحج: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلَّ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [الأعراف: ٣٣].

﴿فَلَا تُطْعَمُهُمَا﴾؛ الفاء رابطة لجواب الشرط، أي: فلا تطعها في الإشراف بي؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

﴿إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾، أي: إلي مردكم أنتم وآباؤكم وجميع الخلائق.

﴿فَأَنْبِئِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ الفاء عاطفة، أي: فأخبركم بعملكم، أو بالذي كنتم تعملونه، وأحاسبكم وأجازيكم عليه.

وفي هذا وعد وترغيب بالإحسان إلى الوالدين وطاعتها بالمعروف، ووعيد وترهيب من عقوبتها، أو طاعتها في معصية الله تعالى، كما قال تعالى في سورة لقمان: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعَمُهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الآية: ١٥].

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ بين عز وجل فيما سبق أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، يكفر الله عنهم سيئاتهم ويجزيهم أحسن الذي كانوا يعملون، وذكر هنا جزاء آخر؛ وهو إدخالهم في الصالحين.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: آمنوا باطنًا بقلوبهم، وعملوا الأعمال الصالحات ظاهرًا بجوارحهم.

﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾؛ اللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: لندخلهم في الجنة في جملة عباد الله الصالحين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩ - ٧٠].

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾:

قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ﴾، أي: ومن الناس فريق يقولون بألسنتهم كذبًا: ﴿ءَامَنَّا﴾، أي: صدقنا وانقدنا، ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ

الْأَعْرَابُ ءَأَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴿١٤﴾ [الحجرات: ١٤].

﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾؛ الفاء عاطفة، أي: فإذا حصل له أذى بسبب إيمانه بالله، بتعبير وسب، أو ضرب، أو أخذ مال، ونحو ذلك- ابتلاء وامتحاناً من الله له- لم يصبر ولم يثبت، بل: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾، أي: صيرّ واعتبر ﴿فِتْنَةَ النَّاسِ﴾، أي: عذابهم وأذاهم له ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾، أي: مثل عذاب الله الدنيوي والأخروي، فارتد عن دينه، أو ترك الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وعمل الخير.

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج: ١١].

﴿وَلَيْنَ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾؛ الواو عاطفة، واللام: موطئة للقسم، أي: ولئن جاء نصر من ربك يا محمد لك وللمؤمنين على أعدائكم؛ من فتح مكة، وتمكين وغلبة ومغانم، ونحو ذلك.

﴿لَيَقُولُنَّ﴾؛ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: ليقولن هذا الفريق من الناس الذين آمنوا بالستهم، ولما يدخل الإيمان في قلوبهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾، أي: معكم في الإيمان، فأشركونا في الغنيمة.

كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَرَضَّوْنَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْكُمْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمْ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١]، وقال تعالى: ﴿فَعَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنفُسِهِمْ تَدْمِينًا﴾ [المائدة: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لَّيَبْطِئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُّصِيبَةٌ قَالَهُ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَيْنَ أَصَابِكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٢-٧٣].

﴿أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين﴾؛ الاستفهام فيه معنى الإنكار عليهم في قولهم كذباً: ﴿ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ﴾، وقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾، وفيه معنى

التقرير، أي: تقرير علم الله بما في صدور العالمين.

والمعنى: أوليس الله بأعلم بالذي في صدور العالمين؟ أي: بالذي في قلوبهم من صدق الإيمان أو عدمه، أي: بلى هو أعلم بما في صدورهم؛ ولهذا فضحهم وبين حالهم.

﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ الواو: عاطفة في الموضعين، واللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: وليعلمن الله الذين آمنوا باطنًا وظاهرًا، أي: بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، وفي هذا وعد لهم.

﴿وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُتَنَفِّقِينَ﴾؛ الذين يظهرون الإيمان بألسنتهم وجوارحهم، ويبطنون الكفر، وفي هذا وعيد لهم.

ومعنى «ليعلمن»، أي: يظهر علمه فيهم، فيجازيهم بما ظهر منهم، وليس المراد: علمه السابق وكتابته ذلك وتقديره عليهم؛ لأنهم قد يحتجون على الله بأنهم لو ابتلوا لثبتوا.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلْيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾:

قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾، أي: اتبعوا ديننا، واسلكوا طريقنا، أي: اكفروا وارجعوا عن دينكم.

﴿وَلْنَحْمِلْ خَطِيئَتَكُمْ﴾؛ الواو عاطفة، واللام: لام الأمر، أي: ولنحمل نحن عنكم ذنوبكم وآثامكم، إن كان ثمة ذنوب وآثام. والمراد بالأمر هنا الخبر، أي: ونحن نحمل خطاياكم.

وإنما جعلوا الخبر بصيغة الأمر؛ لإظهار التزامهم بذلك، فكأنهم يقولون: ونحن نأمر أنفسنا ونلزمها بذلك، ومرادهم: اتبعوا سبيلنا، ولا شيء عليكم.

﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ الجملة اعتراضية، و«من» - في قوله: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ - زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي.

أي: وما هم بحاملين عنهم من خطاياهم أي شيء، مهما قل أو صغر؛ لأن ذلك ليس بأيديهم، فلا أحد يتحمل ذنب أحد فهذا ممتنع قدرًا وغير جائز شرعًا.

كما قال تعالى: ﴿وَأَن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِيلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ اللام للتوكيد، أي: إنهم لكاذبون في قولهم: ﴿وَلَنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ﴾، فأكد عز وجل كذبهم بكون الجملة اسمية وبـ«إن»، ولام التوكيد. ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾.

لما كذبهم في قولهم: ﴿وَلَنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ﴾، أتبع ذلك بقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ الآية؛ لئلا يتوهم براءة هؤلاء المضلين من تبعة دعائهم إلى الضلال، فبين أنهم يحملون أثقال ضلالهم، ويحملون أثقال دعائهم إلى الضلال.

قوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾؛ الواو: عاطفة، واللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله ليحملن يوم القيامة ﴿أَثْقَالَهُمْ﴾، أي: أوزارهم بسبب ذنوبهم التي ارتكبوها بأنفسهم، وسميت الذنوب أثقالاً؛ لشدة ثقلها على صاحبها.

﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾، أي: وليحملن أثقالاً أخرى مع أثقالهم، أي: أوزاراً مع أوزارهم، بسبب من أضلوا من الناس، من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئاً؛ كما قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنَ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِلَّا لَسَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

وقال ﷺ: «ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من آثامهم شيئاً»<sup>(١)</sup>.

وقال ﷺ: «لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل»<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه مسلم في العلم ٢٦٧٤، وأبو داود في السنة ٤٦٠٩، والترمذي في العلم ٢٦٧٤؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٣٦، ومسلم في القسامة ١٦٧٧، والنسائي في تحريم الدم ٣٩٨٥، والترمذي في العلم ٢٦٧٣، وابن ماجه في الديات ٢٦١٦؛ من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

﴿وَلَيْسَ لَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾؛ الواو: عاطفة، واللام: لام القسم، و«ما» مصدرية، أو موصولة، أي: وليسألن يوم القيامة، سؤال توبيخ وتقريع عن افتراءهم، أو عن الذي كانوا يفترونه، أي: عن الذي كانوا يخلطون من الإفك والكذب والبهتان: من دعوى الإيمان مع ما هم عليه من الكفر، والصد عن سبيل الله، وزعمهم حمل أوزار من اتبعهم، وغير ذلك.

### الفوائد والأحكام:

١- عظم حق الوالدين، ووجوب الإحسان إليهما، والبر بهما؛ قولاً وفعلاً وبذلاً ومحبة واحتراماً وتوقيراً وإجلالاً، وطاعتها بالمعروف، ولو كانا كافرين؛ لما أسدياه إلى أولادهما من الإحسان والمعروف والجميل؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾.

٢- رحمة الله تعالى حيث أوصى الإنسان بوالديه، كما أوصى الوالدين بأولادهما.

٣- عظم أمر الشرك، وشدة خطره؛ لأن الله قرن الأمر بالإحسان إلى الوالدين بالنهي عن الشرك تحذيراً من طاعتها إن أمرا الولد بالشرك؛ كما إذا كانا مشركين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾.

٤- لا طاعة للوالدين ولا لغيرهما من الخلق في معصية الله تعالى.

٥- بطلان الشرك، وأن من أشرك بالله فلا علم عنده، ولا حجة له، ولا برهان ولا دليل على صحة أو جواز الشرك بالله؛ لقوله تعالى: ﴿لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾.

٦- إثبات المعاد ورجوع الخلائق كلهم إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾.

٧- إخبار كل عامل بعمله يوم القيامة من والد وولد وغيرهم، ومحاسبة ومجازاة كل منهم بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنْبِئْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٨- إثبات علم الله تعالى، وإحاطته بالعباد وأعمالهم.

٩- أن الجزاء من جنس العمل؛ وكما يدين المرء يدان.

١٠- وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات بإدخالهم الجنة في جملة الصالحين؛

لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ①﴾، وفي هذا فضيلة الصالحين.

١١- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب وبين العمل بالجوارح، ولا بد من كون العمل صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

١٢- أن منزلة الصالحين من أعظم المنازل عند الله تعالى؛ ولهذا وعد الله تعالى بها من آمن وعمل صالحًا، ويدخل في الصالحين: الأنبياء والصديقين والشهداء، وغيرهم من المؤمنين على اختلاف درجاتهم.

١٣- فضح وذم فريق من الناس يقولون: ﴿ءَامَنَّا﴾ بألسنتهم، مع عدم ثباتهم عند الابتلاء، وجعلهم ما يصيبهم في ذات الله من الناس من الأذى كعذاب الله، وارتدادهم عن دينهم، أو تركهم ما كانوا عليه من عمل الخير، والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بسبب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾.

١٤- حكمة الله تعالى في ابتلاء العباد؛ لأن الابتلاء هو المحك الذي يتبين به الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق.

١٥- شتان بين عذاب الناس وعذاب الله؛ فعذاب الله أشد وأشق وأكبر وأعظم وأدوم؛ كما قال تعالى: ﴿فِيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ ② وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥-٢٦].

١٦- أن النصر من الله، ومن عنده عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِإِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾.

١٧- تشریف النبي ﷺ وتكريمه بربوبيته عز وجل له ربوبية خاصة، وإضافة اسمه عز وجل إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

١٨- مبادرة هذا الصنف من الناس عندما يحصل نصر للمؤمنين وفتح ومغنم - بقولهم كذبًا: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾؛ ليشاركوا المؤمنين في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِإِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولَنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾.

١٩- تقرير وإثبات علم الله تعالى بها في صدور الخلائق كلهم، والإنكار على

هؤلاء المذكورين قولهم كذباً: ﴿ءَامَتَا بِاللَّهِ﴾، وقولهم للمؤمنين: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾، مع إضمارهم بقلوبهم خلاف ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾.

٢٠- إحاطة علم الله تعالى بالذين آمنوا، وبالذين نافقوا، أي: بما في القلوب من الإيثار والكفر، ووعده للمؤمنين، ووعيده للمنافقين، وأنه سبحانه إنما يحاسب الخلائق بعد ظهور علمه الأزلي فيهم، فيثيبهم ويعاقبهم على ما ظهر منهم وعملوه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾. فعلم في السابق ما سيقع منهم، وعلم في اللاحق أنه وقع، وجزأهم عليه.

٢١- أن الحكمة من الابتلاء تمييز المؤمن من الكافر.

٢٢- إثبات النفاق، وأنه خلاف الإيثار.

٢٣- الحث على الإيثار والإخلاص، والتحذير من النفاق.

٢٤- سعي الذين كفروا جهدهم لرد المؤمنين عن دينهم، وأمرهم لهم باتباع سبيلهم، ووعدهم إياهم كذباً وزوراً بحمل خطاياهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ﴾، وفي قولهم: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ﴾ كذب وتهكم، أي: أنه لا شيء عليكم.

٢٥- نفي الله ما ادعوه من حمل خطايا المؤمنين، وبيان كذبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾، فليس ذلك بجائر شرعاً، ولا واقع قدراً.

٢٦- أنه لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا تزر وازرة وزر أخرى.

٢٧- حمل هؤلاء الكفار يوم القيامة أوزارهم وأوزاراً أخرى بسبب من أضلوا من الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾.

٢٨- كمال علم الله تعالى، وتماز عدله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾. ﴿وَلْيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾.

٢٩- خطورة الدعاء إلى الضلال؛ لأن الداعي إلى ذلك يحمل مع وزره وزر دعوته غيره إلى ذلك، ووزر دعوة من تبعهم إلى يوم القيامة.

٣٠- سؤاھم فی ذلک الیوم سؤال تقریع وتوبیخ عما كانوا یختلقون من الإفک والبهتان، ودعوی الإیمان کذبًا، والکفر، ودعوة المؤمنین لاتباع سبیلهم، وزعمهم زورًا حمل خطایاهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَرُونَ﴾.

٣١- إثبات القيامة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۗ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۗ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَاسُوءُ مِنْ رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴿٢٥﴾ \* فَمَنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ۗ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾﴾:

لما ذكر عز وجل ما عليه الكفار من الكذب والافتراء، وتوعدهم بسؤالهم يوم القيامة عن ذلك، أتبع ذلك بالتسلية والبشارة له ﷺ؛ بذكر ما جرى للرسول عليهم السلام قبله من أمهم من التكذيب، وإنجائه رسله وأتباعهم المؤمنين، وإهلاكه أعداءهم المكذبين، وفي هذا تهديد ووعيد للمكذبين له ﷺ، وبشارة وعدة للمؤمنين.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾، أي: ولقد أرسلنا عبدنا ونبينا ورسولنا نوحًا عليه السلام إلى قومه، وهو أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض بعد أن حدث فيها الشرك.

﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾، أي: فمكث وأقام فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، يدعوهم إلى عبادة الله وحده وتقواه، وترك الشرك واجتنابه.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٢ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ٣﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَذِّبْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ٤ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ٦ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ٧ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا ٨ وَأَسْتَكْبَرُوا ٩ اسْتِكْبَارًا ١٠ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ١١ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ١٢ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبِّي إِنَّهُ كَانَ عَفَّارًا ١٣﴾، إلى قوله: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا ١٤﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا ١٥﴾ وَقَالُوا لَا تَنْزِرْ آيَاتِنَا وَلَا تَنْزِرْ وَدًّا وَلَا سِوَاعَا وَلَا يَعْوِثَ وَيَعْوِقُ وَنَسْرًا ١٦﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ١٧﴾ [نوح: ١-٢٤].

إلى أن دعا عليهم بقوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكٰفِرِينَ دَيًّا ١٨﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَجْرًا كَفَّارًا ١٩﴾ [نوح: ٢٦-٢٧].

فمع طول لبثه عليه السلام فيهم، وتنويعه في أساليب دعوته لهم؛ لم ينجح ذلك فيهم، ولم يؤمن منهم إلا القليل؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾، أي: فأهلكهم وأغرقهم الطوفان، وهو الماء النازل من السماء، والنابع من الأرض، الذي غطى الأرض كلها، سهولها وأوديتها، ومرتفعاتها وجبالها؛ كما قال تعالى: ﴿فَفَنَحْنَا أَيْتَانَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثْمَرٍ ٢٠﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ٢١﴾ [القمر: ١١، ١٢].

﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾؛ الجملة حالية، أي: وهم ظالمون بكفرهم ومكرهم واستكبارهم

وفجورهم وضلالهم، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣].  
 ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾؛ الفاء عاطفة، أي: فأنجينا نوحًا من الغرق، ﴿وَأَصْحَابَ  
 السَّفِينَةِ﴾؛ أي: وأنجينا أصحاب السفينة، أي: أهل السفينة، الذين ركبوا معه فيها  
 ممن آمن به من أهله وغيرهم، وهم قليل، وممن حمل معه من الأزواج من الحيوانات،  
 كما قال تعالى: ﴿ثَلَاثًا أَحْمَلُ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ  
 وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾، أي: وجعلنا قصة إنجائه عليه السلام من الغرق،  
 ومن ركب معه في السفينة، وإغراق قومه بالطوفان عظة وعبرة للعالمين، تدل على كمال  
 قدرة الله تعالى، ونصرته لرسله وأوليائه المؤمنين، وانتقامه من أعدائه الكافرين.  
 ويحتمل: أن يعود الضمير في «جعلناها» إلى السفينة، أي: إلى نوع السفينة وتسخير  
 السفن تجري في البحر على ظهر الماء، ولا تغرق مع ثقل حمولتها.  
 ولا مانع من حمل الآية على المعنيين؛ ففي كل منها دلالة على كمال قدرة الله، وعظة  
 وعبرة، ونعمة من الله تعالى على العباد.

كما قال تعالى: ﴿وَأَيُّ لَّهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ﴾ [١١] ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ  
 مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [١٢] ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَدُونَ﴾ [١٣] ﴿إِلَّا رَحْمَةً  
 مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يس: ٤١-٤٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [١١] ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيهَا أُنُورٌ  
 وَعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١-١٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ  
 اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [لقمان: ٣١]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ  
 لَتَجْرِي الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ [الجاثية: ١٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ  
 إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [١٦] ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ  
 الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ  
 وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ إِتِيهِ تُرْجَعُونَ﴾ [١٧] ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّنْ

قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾:

قوله: ﴿وَابْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾، أي: واذكر إبراهيم عبد الله ورسوله وخليته حين قال لقومه ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، أي: اخلصوا له العبادة وأطيعوه، وامثلوا أمره.

﴿وَأَنْتَوُوهُ﴾، أي: وخافوه بترك الشرك، واجتناب نهيته؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ أَرَّ أَنْتَخِذُ أَصْنَامًا ءِالِهَةً إِنِّي أَرَىكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧].

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أي: عبادة الله تعالى وتقواه خير لكم خيرية مطلقة في دينكم ودنياكم وأخراكم، وخير لكم مما أنتم عليه من الشرك؛ لأنه لا سبيل إلى نيل رضا الله والسعادة في الدنيا والآخرة إلا بعبادة الله تعالى وتقواه.

وهذا من استعمال التفضيل فما ليس في الطرف الآخر منه شيء؛ لأنه لا خير مطلقاً في ترك عبادة الله وتقواه، بل ذلك شر محض.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْمُونَ﴾؛ العلم الذي تنتفعون به وتهتدون به إلى الحق، وتعلمون به أن عبادة الله تعالى وتقواه خير لكم. وفيه حث على هذا العلم، أي: اعلّموا ذلك.

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾؛ لما أمرهم بعبادة الله تعالى وتقواه، ونهاهم عن عبادة ما سواه، بين لهم نقص ما يعبدونه من دون الله من الآلهة، وأنها لا تستحق العبادة؛ لأنها لا تملك لهم رزقاً، ولا تملك من الأمر شيئاً، ولا تضر ولا تنفع.

قوله: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾؛ «إنما»: أداة حصر، أي: ما تعبدون من دون الله إلا أوثاناً، أي: أصناماً.

﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾، أي: تفترون وتختلقون كذباً، بصناعتكم هذه الأصنام بأيديكم وتسميتها آلهة، وإشراكها مع الله وعبادتها من دونه.

كما قال يوسف عليه السلام: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [يوسف: ٤٠].

وقال هود عليه السلام: ﴿أَتُجَدُّونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ

مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴿٧١﴾ [الأعراف: ٧١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ٢٣].

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعَبَّدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، أي: غير الله، ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾؛ «رزقًا»: نكرة في سياق النفي، فتعم، أي: لا يملكون أي رزق مهما قل؛ لأنهم لا يملكون نفعًا ولا ضرًا.

﴿فَأَبْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾، أي: فاطلبوا عند الله وحده الرزق؛ لأن الرزق بيده وحده؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨].  
وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]،  
وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ [فاطر: ٣].

﴿وَأَعْبُدُوهُ﴾، أي: واعبدوه وتوكلوا عليه وحده يرزقكم، ويدر عليكم النعم، ويدفع عنكم النقم؛ كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴿٣٣﴾﴾ [طه: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢].

﴿وَأَشْكُرُوا لَهُ﴾، أي: واشكروا له على رزقه لكم، وما أولاكم من النعم، وما دفع عنكم من النقم، بنسبة ذلك إليه وحده، واستعماله في طاعته، والاستعانة به على ذلك.

﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي: إليه وحده تردون يوم القيامة، فيحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم خيرها وشرها.

﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا﴾، أي: وإن تكذبوا بما جئتمكم به من الحق، وما دعوتكم إليه من عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وتقواه، وأن ذلك خير لكم، وبطلان ما تعبدون من دونه، وأن رزقكم عليه عز وجل، ورجوعكم إليه.

﴿فَقَدْ كَذَبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ فلستم بدعاً من المكذبين؛ فقد كذب أمم كثيرة من قبلكم لرسولهم.

﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾.

هذا يحتمل أن يكون تنمة من كلام إبراهيم عليه السلام؛ لقوله في الآيات التالية: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

ويحتمل أن يكون استثناءً من كلام الله تعالى؛ تسلياً للنبي ﷺ.

قوله: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ﴾، أي: وما على الرسول تجاه المرسل إليه.

﴿إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾، أي: البلاغ البين الواضح، أي: إلا إبلاغهم، أي: إيصالهم رسالة ربه، وأما هداية القلوب فهي بيد علام الغيوب؛ كما قال تعالى للنبي ﷺ: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ﴾ [المائدة: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَا كِنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَا كِنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [الفصص: ٥٦].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ١١ ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ١٢ ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ ١٣ ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ١٤ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَسِيرُونَ مِنْ رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ١٥:

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالخطاب: «تَرَوْا»، وقرأ الباقون بالغيبة: ﴿يَرَوْا﴾.

والاستفهام للإنكار، والكلام: إما مستأنف من كلام الله عز وجل، أو تنمة من

كلام إبراهيم عليه السلام، أي: أولم يشاهدوا في أنفسهم وفي غيرهم من المخلوقات، ويعلموا ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾، أي: كيف ينشئ الله الخلق ويوجده من العدم؛ كما أنشأهم وأوجدهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً؟ كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنزِلَ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ ﴿الإنسان: ١﴾.

﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، أي: ثم يعيد الخلق مرة أخرى، وخلقاً آخر؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿الروم: ١١﴾.

﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾، أي: بدء الخلق ثم إعادته، ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾، أي: سهل يسير عليه عز وجل؛ لتام قدرته فلا يعجزه شيء؛ ولأنه هو الذي بدأ الخلق أول مرة، فهو على إعادته أقدر؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ ﴿الروم: ٢٧﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿ق: ١٥﴾، وقال تعالى: ﴿فَأَنمَأْهِيَ زَجْرًا وَجْدَةً﴾ ﴿الصافات: ١٩، النازعات: ١٣﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجْدَةٌ كَلَمَجٍ بَالْبَصَرِ﴾ ﴿القمر: ٥٠﴾.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ أنكر عليهم عدم النظر والتأمل في بدء عز وجل الخلق وإعادته، وبين سر ذلك عليه، ثم أمرهم بالسير في الأرض والتأمل في ذلك، أي: سيروا في الأرض بأبدانكم ﴿فَانظُرُوا﴾؛ بأبصاركم، وتأملوا واعتبروا ببصائرهم وقلوبكم.

﴿كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾، أي: كيف أنشأ الله الخلق أول مرة شيئاً فشيئاً، وأوجد هذا الخلق العظيم: السموات والأرض وما فيهن من المخلوقات؛ كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾؛ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الشين وألف بعدها: «النَّشْأَةُ»، وقرأ الباقون بإسكان الشين من غير ألف: ﴿النَّشْأَةُ﴾.

أي: ثم الله يخلق ويوجد ﴿النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾، أي: الخلق الآخر، فيعيدهم مرة أخرى خلقاً جديداً.

وسميت نشأة، وهي إعادة؛ لاختلاف حياة الآخرة اختلافاً كثيراً عن حياة الدنيا، وقد قال عز وجل في ذكر أطوار الجنين في بطن أمه: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ الجملة تعليلية، وقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ متعلق بالخبر «قدير»، وقدّم عليه؛ لتأكيد شمول قدرته عز وجل لكل شيء؛ من بدء الخلق وإعادته وغير ذلك، وأنه لا يعجزه شيء؛ وكما قدر على ابتداء الخلق، فقد رته على إعادته من باب أولى.

والقدرة يقابلها العجز، ولا يوصف بها إلا ذو شعور، بخلاف القوة التي يقابلها الضعف، فإنه يوصف بها ذو الشعور وغيره، فيقال: رجل قوي، وحديد قوي، وبناء قوي، ونسيج قوي وغير ذلك.

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾؛ بعدله وحكمته، ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾؛ بفضلته وحكمته، له الخلق والملك والتدبير، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو الحكم العدل، ذو الجود والفضل.  
و«من» موصولة في الموضعين.

﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾، أي: وإليه وحده تردون وترجعون يوم القيامة، فيحاسبكم ويمجازيكم على أعمالكم، فاستعدوا للقائه.

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ الباء: زائدة للتوكيد، أي: وما أنتم أيها المكذبون بمعجزين الله، أي: بفائتين ومفلتين من عذابه في الأرض ولا في السماء، أي: في أي مكان كنتم؛ كما قالت الجن: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نَّعْجِرَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نَّعْجِرَهُ هَرَبًا﴾ [الجن: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَدْعُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتِ اللَّهُ يُعْجِرُهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

﴿وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ﴾، أي: غير الله، ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ «من» و«لا» كل منهما زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة للنفي من حيث المعنى، أي: ما لكم غير الله أي ولي وأي نصير، والولي: من يجلب النفع والخير، والنصير: من يدفع الضر والشر.

أي: وما لكم غير الله من ولي يجلب النفع والخير لكم، ولا نصير يدفع الضر والشر عنكم، فيدفع عنكم عذاب الله أو يرفعه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: جحدوا وكذبوا، ﴿يَنَالِتِ اللَّهُ﴾ الشرعية والكونية ﴿وَلِقَائِهِ﴾، أي: وكذبوا ببقائه؛ بإنكار القيامة والبعث والحساب، والجزاء على الأعمال. قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ ﴿٦﴾ [الانشقاق: ٦].

﴿أُولَئِكَ يَسْأَلُونَ مِنْ رَحْمَتِي﴾، أي: يئسوا وقنطوا من رحمتي، أي: من جنتي، ومن أن أرحمهم ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: مؤلم موجع حسياً للأبدان، ومعنوياً للقلوب، في الدنيا بفقدان السعادة الحقيقية، وأنواع المصائب والعقوبات، وفي الآخرة في النار وبئس القرار.

قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ ﴿١٥﴾:

قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾، أي: فما كان جواب قوم إبراهيم عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة الله تعالى وتقواه، ومحضهم النصيحة، وأقام عليهم البرهان، وتوجهت عليهم الحجة.

﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾، أي: إلا أن أجابوه بشر جواب، وعدلوا إلى استعمال جاههم وقوتهم وجبروتهم؛ مما يدل على شدة كفرهم وعتوهم وعنادهم ومكابرتهم، ودفعهم الحق بالباطل، «إلا» أداة حصر، و«أن» والفعل «قالوا» في تأويل مصدر في محل رفع اسم «كان» مؤخر، أي: إلا قولهم:

﴿اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾؛ بالنار، فاقتلوه بأبشع وأشنع قتلة؛ كما قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ﴿١٦﴾ [الأنبياء: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا أَبْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ ﴿١٧﴾ [الصفوات: ٩٧].

﴿فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾، أي: فسلمه الله من النار، بأن جعلها عليه برداً وسلاماً،

فخاب سعيهم، وبطل كيدهم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَكَتَرُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ  
إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٦﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٦٩ - ٧٠].  
﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾، أي: إن في إنجاء إبراهيم عليه السلام من النار، وجعلها عليه  
بردًا وسلامًا، وإبطال كيد قومه الكافرين.

﴿لَايَتٍ﴾؛ اللام للتوكيد، أي: لدلالات بينات ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ بالله وبتبام  
قدرته ووحدانيته، وبصدق إبراهيم، وصحة ما جاءهم به.

﴿وَقَالَ﴾، أي: وقال إبراهيم عليه السلام في جملة ما قاله في نصحه لقومه: ﴿إِنَّمَا  
أَتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، قرأ ابن كثير وأبو  
عمرو والكسائي ورويس: «مَوَدَّة»؛ بالرفع من غير تنوين، و«بَيْنِكُمْ»؛ بالجر على  
الإضافة إلى «مودة»، و«مَوَدَّة» على هذه القراءة مرفوعة خبرًا لمبتدأ محذوف، أي: إنما  
اتخذتم من دون الله أوثانًا «مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ»، أي: هي مودة بينكم في الائتلاف والاجتماع  
على هذا الحنث العظيم.

وقرأ حمزة وحفص وروح: ﴿مَوَدَّة﴾؛ بالنصب من غير تنوين، و«بَيْنِكُمْ»؛  
بالجر على الإضافة، وقرأ الباقون: «مَوَدَّة»؛ بالنصب مع التنوين، ونصب: «بَيْنِكُمْ».  
و«مودة»؛ على قراءتي النصب مفعول لأجله، أي: لأجل المودة بينكم.

و«ما» في قوله: ﴿إِنَّمَا﴾؛ كافة ومكفوفة، أي: إنما جعلتم ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾، أي:  
غير الله ﴿أَوْثَانًا﴾، أي: أصنامًا وأهله تعبدونها؛ ﴿مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ  
الدُّنْيَا﴾، أي: محبة وألفة بينكم في هذه الحياة الدنيا الحقيرة الفانية، ثم سرعان ما تنتهي  
تلك المودة، وتنقطع وتضمحل، وتعقبها الحسرات والندامة والعداوة.

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾، أي: ثم نتيجة ذلك يوم القيامة  
يتبرأ بعضكم من بعض، وينكر بعضكم بعضًا، فيتبرأ كل من العابدين والمعبودين من  
الآخر، وينكر كل منهما الآخر ويعاديه؛ كما قال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ  
وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرَكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ  
خَيْرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا

يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ ﴿[الأحقاف: ٥-٦].

﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾، أي: ويلعن كل من العابدين والمعبودين، والأتباع والمتبوعين الآخر؛ كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴿١٧﴾ رَبَّنَا إِنَّا إِتَيْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ شُرَكَاءَ فَكُلَّمَا نَادَوْا لِأَصْحَابِهِمْ هَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكُمْ قُوَّةً كَمَا كُنَّا نَدْعُوا الْفِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ إِذْ ذُكِّرُوا بِآيَاتِهِمْ فَلَمَّا ذُكِّرُوا بِهَا خَرَّتْ لَهُمْ رِجَالُهُمْ وَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨]، وقال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأُوا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يَرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧].

﴿وَمَا أَوْلَاكُمْ النَّارُ﴾، أي: ومصيركم جميعاً العابدين والمعبودين، ومستقركم النار؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿١٨﴾ لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءِ آلهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨-٩٩]، وقال تعالى: ﴿أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات: ٢٢-٢٣].

﴿وَمَا لَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ﴾؛ «من»: زائدة من حيث الإعراب، ومؤكدة من حيث المعنى، أي: وما لكم أي ناصرين ينصرونكم من عذاب الله، ويدفعون عنكم عذاب النار.

قوله تعالى: ﴿فَقَامَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمَنَّ الصَّالِحِينَ ﴿٣٧﴾﴾:

﴿فَقَامَنَ لَهُ لُوطٌ﴾؛ الفاء عاطفة، أي: فآمن لإبراهيم لوط، أي: صدقه،

وهو ابن أخي إبراهيم هارون بن آزر- فيما ذكر أكثر المفسرين- ولم يؤمن بإبراهيم سواه، وسارة امرأة إبراهيم عليهم السلام.

﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾، أي: وقال إبراهيم: إني مهاجر إلى ربي، وذلك حين كذبه قومه وأذوه، اختار المهاجرة من بين أظهرهم، وترك أرضهم أرض السوء، إلى أرض الشام المباركة.

وقوله: ﴿إِلَى رَبِّي﴾، أي: ابتغاء مرضاته، وفي سبيل الدعوة إلى توحيدهِ، والتمكن من إظهار وإقامة شعائر دينه، قال ﷺ: «من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله»<sup>(١)</sup>.

ومن حلمه عليه السلام ورحمته لم يدع على قومه كما دعا بعض الأنبياء، ولم يكن الله ليجري عليهم بسببه عذاباً عاماً، ومما يدل على ذلك: أنه راجع الملائكة في إهلاك قوم لوط، وجادلهم ودافع عنهم، وهم ليسوا قومه.

ويحتمل عود الضمير في قوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ إلى «لوط»؛ لأنه أقرب مذكور، وقد هاجر مع إبراهيم عليهما السلام.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾، أي: إن ربي هو العزيز، أي: ذو العزة التامة، عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

﴿الْحَكِيمُ﴾، أي: ذو الحكم التام بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

فله عز وجل العزة التامة؛ يعز رسله وأوليائه، ويذل أعداءه وأعداءهم، وله الحكم التام، والحكمة البالغة في هداية من شاء، وإضلال من شاء، وفي جعل بعض الأرض أرض سوء، وجعل بعضها أرضاً مباركة، يختار ما يشاء من الأشخاص والأماكن والأزمان، فيبارك فيه، ويختار منها ما يشاء لغير ذلك، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾، أي: ووهبنا لإبراهيم عليه السلام، أي:

(١) سبق تخريجه.

أعطيناه بعدما هاجر إلى الشام إسحاق ويعقوب.  
كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْذُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩]، فإسحاق ولد له لصلبه، و«يعقوب» ولد لابنه إسحاق في حياة جده إبراهيم.

ولهذا قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الآية: ٧٢].  
وقال تعالى مبشراً لزوجته سارة: ﴿فَبَشِّرْهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، وقال تعالى: ﴿أَمْرٌ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وقال ﷺ: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام»<sup>(١)</sup>.

﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ أي: وجعلنا في ذرية إبراهيم النبوة والكتاب، وقدم الجار والمجرور: ﴿فِي ذُرِّيَّتِهِ﴾ للدلالة على الحصر، أي: جعلنا الأنبياء بعده كلهم من سلالته والكتب فيهم، فأنبياء بني إسرائيل كلهم إلى آخرهم عيسى بن مريم كلهم من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

وآخر الرسل وخاتمهم وأفضلهم وسيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام؛ ولهذا يكنى إبراهيم عليه السلام «أبو الأنبياء».

و«الكتاب» اسم جنس، أي: الكتب السماوية؛ كالتوراة والإنجيل والزيور والقرآن. ﴿وَعَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾؛ بإنجائه من النار، ونصره على أعدائه، وبالولد الصالح والزوجة الحسنة الصالحة، والرزق الواسع والثناء الجميل.

كما قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [شكراً لانتعته أجتبهه وهدته إلى صراط مستقيم] ﴿وَعَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [٣٧] ثُمَّ

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٩٠؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿[النحل: ١٢٠-١٢٣]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: ٦٧].

وبالذكر الحسن؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠].  
ومن ذلك أن كل مصلِّ يذكر في التشهد صلاة الله تعالى وبركاته على إبراهيم وعلى آل إبراهيم.

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثًا حسنًا لمن وعى (١)

﴿وَأَنذَرُ فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ﴾، أي: أكمل الصالحين وأفضلهم بعد نبينا محمد ﷺ، واللام: للتوكيد.  
**الفوائد والأحكام:**

١- إثبات رسالة نوح عليه السلام إلى قومه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾.

٢- طيلة لبث نوح عليه السلام في قومه يدعوهم إلى توحيد الله، وترك الشرك، وشدة معاناته ومعالجته لهم؛ حيث لبث في دعوته إياهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، مما لم يلبثه نبي غيره، ومع ذلك لم ينجع ذلك فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾.

٣- شدة عتوهم وتماديهم بالاستكبار والكفر، والمكر والظلم، وإغراقهم وإهلاكهم بالطوفان؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

٤- إنجاء الله عز وجل نوحًا من الغرق ومن معه في السفينة من أهله والمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾.

٥- جعله عز وجل إهلاك قوم نوح بالغرق، وإنجاء نوح ومن معه في السفينة عبرة وعظة للعالمين؛ ليحذروا من سلوك طريق المكذبين، وليسلكوا طريق المهتدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.

(١) البيت لابن دريد. انظر: «العقد الفريد» (١/١٩٤).

٦- أن في إزجاء الفلك وتسييرها على ظهر البحر تمخر عبابه دون أن تغرق، مع ما تحمله من الأثقال العظام- آية من آيات الله الدالة على عظيم قدرته وتمام نعمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.

٧- إثبات رسالة إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام ودعوته قومه لعبادة الله تعالى وحده، وتقواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾.

وفي التذكير به عليه السلام وبغيره من الرسل ثناء عليهم، وإعلاء لمرتبهم، ودعوة للاقتداء بهم واتباعهم، والصبر كما صبروا؛ كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٩٠].

٨- وجوب عبادة الله تعالى وحده وتقواه، وأن ذلك خير مطلقاً لمن وفقه الله، وكان ذا علم اهتدى به إلى عبادة الله وتقواه، ومعرفة أن ذلك خير له؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

٩- أن اسم التفضيل قد يستعمل فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

١٠- توبيخ المشركين وتسفيه عقولهم في عبادتهم من دون الله أوثاناً لا تستحق العبادة، اختلقوها وصنعوها بأيديهم، وسموها آلهة، وأشركوها مع الله كذباً وافتراءً؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾.

١١- أن هذه المعبودات من دون الله لا تملك لعبادتها رزقاً ولا غيره؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾. وهذا استدلال بالمحسوس على المعقول.

١٢- أن الرزق كله بيد الله، فيجب طلب الرزق منه تعالى وحده؛ مع بذل السبب، وعبادته والتوكل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾.

١٣- وجوب شكر الله تعالى على رزقه، وعلى جميع نعمه الظاهرة والباطنة بنسبتها إلى الله، واستعمالها في طاعته، والاستعانة به على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ﴾.

١٤- أن العبادة سبب للرزق، والشكر سبب لبقائه وزيادته وديمومته.

١٥- إثبات البعث والمعاد، والرجوع إلى رب العباد، والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، وقوله: ﴿يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾، وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾.

١٦- بيان إطباق كثير من الأمم على تكذيب الرسل، والتحذير مما حل بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾. فليس تكذيب قوم إبراهيم له، ولا تكذيب المشركين للنبي ﷺ بدعاً في الأمم؛ فأكثرهم كذبوا رسلهم، وصار مصيرهم الهلاك.

١٧- أنه ليس على الرسول إلا إبلاغ أمته رسالة ربه بلاغاً بيناً، وأما هداية القلوب فأمرها إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.

١٨- الإنكار على المشركين تكذيبهم بالبعث، وإنكارهم قدرة الله تعالى عليه، مع أنهم يرون ويشاهدون كيف بدأ الله الخلق وأنشأه من العدم، فكيف ينكرون قدرته على الإعادة؟! لأنه إذا كان قدر على بدء الخلق فقدرة على إعادته خلقاً آخر من باب أولى لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾.

١٩- أن إعادة الخلق مرة أخرى أمر يسير على الله تعالى؛ كما بدأه أول مرة؛ لتمام قدرته، فلا يعجزه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

٢٠- أمر العباد بالسير في الأرض بأبدانهم، والنظر بأبصارهم، والتأمل بقلوبهم، فيستدلوا بالمبدأ على المعاد؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾.

٢١- إثبات قدرة الله تعالى التامة على كل شيء، فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وقوله: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾.

٢٢- أن الخلق والأمر لله تعالى، يعذب من يشاء بعدله، ويرحم من يشاء بفضله؛ لقوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾، وفي هذا إثبات الأفعال

الاختيارية لله عز وجل.

- ٢٣- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية، وهي مقرونة بالحكمة.
- ٢٤- تهديد المكذبين ووعيدهم، وأنهم لن يعجزوا الله هرباً، ولن يفلتوا أو يفوتوا من عذابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾.
- ٢٥- ضعف الخلق، وأنه لا ملجأ لهم ولا مفر من الله إلا إليه.
- ٢٦- أنه لا ولي للكفار من دون الله يجلب لهم النفع، ولا نصير لهم يدفع عنهم الضر، ويقيهم عذاب الله أو يرفعه عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.
- ٢٧- تبييس الذين كفروا بآيات الله ولقائه من رحمة الله تعالى وجنته؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَكْسِبُونَ مِنْ رَحْمَتِي﴾.
- ٢٩- إثبات رحمة الله تعالى وجنته.
- ٢٨- إثبات رؤية الله تعالى ولقائه يوم القيامة ووجوب الإيمان بذلك.
- ٣٠- تهديد الذين كفروا بآيات الله ولقائه بالعذاب الأليم في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.
- ٣١- شدة عتو قوم إبراهيم واستكبارهم وعنادهم؛ لعدوهم- لما قامت عليهم الحجة فيما دعاهم إليه إبراهيم من عبادة الله تعالى وتقواه، وترك الشرك- إلى استعمال جاههم وقوتهم وجبروتهم؛ لقتله أو إحراقه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾.
- ٣٢- عناية الله تعالى التامة بإبراهيم، وحفظه إياه، وإنجاؤه من النار؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾، بل جعلها الله عليه برداً وسلاماً؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].
- ٣٣- أن في إنجاء إبراهيم عليه السلام من النار وجعلها عليه برداً وسلاماً- وهي من طبيعتها الإحراق- دلالات واضحة لقوم يؤمنون، فيستدلون بذلك على تمام قدرة الله تعالى، وصدق إبراهيم عليه السلام وصحة ما جاء به من الحق، وإنجاء الله تعالى لأولياءه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

٣٤- أن الأسباب لا تفعل فعلها إلا بإرادة الله تعالى وإذنه، فمهما قويت الأسباب فإن الله قد يمنع تأثيرها، كما جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم.

٣٥- أنه لا ينتفع بالآيات الكونية والشرعية إلا المؤمنون.

٣٦- أن كل ما يعبده المشركون من دون الله من الأوثان وغيرها، غاية ما فيه الاجتماع والتواد على هذا الأمر الباطل في هذه الحياة الدنيا الحقيرة الفانية؛ ثم يوم القيامة يعقب ذلك الندامة والحسرات، والعداوة بين العابدين والمعبودين، وبين الأتباع والمتبوعين، ويكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا أَخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾.

٣٧- انقلاب كل خلة في الدنيا عداوة إلا ما كان في الله والله؛ كما قال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

٣٨- أن مأوى المشركين ومعبوداتهم جميعاً النار وبئس القرار، ولا ناصر لهم يدفع عنهم عذاب الله أو يرفعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَوْلَاكُمْ أَلْتَارُ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّصِيرِينَ﴾.

٣٩- إيمان لوط لإبراهيم عليهما السلام، واتباعه إياه، ومهاجرته معه؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَامَ لَهٗ وِلْدَانٌ لَّوْطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾.

٤٠- هجرة إبراهيم عليه السلام إلى ربه؛ ابتغاء مرضاته، وفي سبيل الدعوة إلى عبادته تعالى وحده، وإقامة شعائر دينه، إلى أرض الشام المباركة، وتركه أرض قومه؛ لأنها أرض سوء؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾.

٤١- وجوب الهجرة من بلد الشرك الذي لا يتمكن فيه المسلم من إظهار شعائر دينه إلى بلد الإسلام.

٤٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لإبراهيم ولوط عليهما السلام؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى رَبِّي﴾.

٤٣- إثبات اسمي الله عز وجل: «العزیز» و«الحکیم»، وأنه عز وجل ذو العزة التامة، والحكم التام، والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

٤٤- هبة الله تعالى لإبراهيم - بعد أن هاجر إلى الشام - ابنه إسحاق، ويعقوب بن إسحاق في حياة إبراهيم عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

٤٥- أن ابن الابن ابن؛ لأن الله جعل «يعقوب» موهوباً لإبراهيم، وهو ابن ابنه إسحاق، وقد قال ﷺ في الحسن: «إن ابني هذا سيداً»<sup>(١)</sup>.

٤٦- منة الله تعالى العظمى، ونعمته الكبرى، على إبراهيم بجعل الأنبياء بعده كلهم من سلالته، والكتب كلها فيهم؛ لفضله وعظم منزلته عند ربه؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾.

٤٧- إيتاؤه أجره في الدنيا، بإنجائه من النار ونصره على أعدائه، والزوجة الحسنة الصالحة، والذرية الصالحة، والرزق الواسع، والثناء الجميل، والذكر الحسن، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾.

٤٨- جعله في الآخرة من الصالحين، بل أكملهم وأفضلهم بعد نبينا محمد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

٤٩- إثبات الأجر والجزاء الديني.

٥٠- إثبات الآخرة والجزاء الأخروي.

٥١- فضل الصلاح، وفضيلة الصالحين الذين جمعوا بين الإخلاص لله تعالى،

واتباع شرعه.

\* \* \*

(١) أخرجه البخاري في الصلح ٢٥٥٧، من حديث أبي بكره نفع بن الحارث رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَيْتَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَتَيْنَا بَعْدَآبِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنْ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَجِيعَنَّهٗ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَاتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَةً بِهِمْ وُضِعَ الْعَذَابُ قَالُوا لَا نَخَفُ وَلَا نَخَافُ إِنَّا مِنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَاتِكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَيْتَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَتَيْنَا بَعْدَآبِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾:

قوله: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾، أي: واذكر نبي الله وعبد ورسوله لوطاً عليه السلام حين قال لقومه، ناصحاً ومحدراً لهم، وموبخاً لهم، ومنكراً عليهم: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾؛ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم وأبو جعفر ويعقوب بهمزة واحدة على الإخبار المستعمل في التوبيخ: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾.

وقرأ الباقون بهمزتين: همزة الاستفهام الإنكاري، وهمزة «إن»: «أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ». واللام في قوله: ﴿لَتَأْتُونَ﴾؛ للتوكيد، أي: لتفعلون وترتكبون الفاحشة الكبرى، التي هي أعظم الفواحش: «فاحشة اللواط».

وقوله: ﴿الْفَاحِشَةَ﴾ بالتعريف؛ لأنها كانت معلومة لديهم، ولتعظيم شناعتها وقبحها وفحشها عند الله، وعند الخلق كلهم؛ ولهذا قال تأكيداً لشناعتها:

﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب،

مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما سبقكم إلى فعل هذه الفاحشة الشنيعة المخالفة للفطرة أيُّ أحد من العالمين كلهم؛ ولهذا قال الوليد بن عبد الملك بن مروان: «لولا أن الله عز وجل قص علينا قصة قوم لوط في القرآن ما ظننت أن ذكراً يعلو ذكراً»<sup>(١)</sup>. ولهذا لا يوجد في الحيوانات كلها- التي لم تخرج عن الفطرة السوية- أن ذكراً منها يعلو ذكراً مثله.

﴿أَيُّنَّكُمْ لَتَفْعَلُونَ الْفَاحِشَةَ فِي أَدْبَارِ الرِّجَالِ؟﴾؛ الهمزة: للاستفهام الإنكاري، واللام للتوكيد، أي: أئنكم لتفعلون الفاحشة في أدبار الرجال؟!!

﴿وَتَقَطَّعُونَ السَّبِيلَ﴾، أي: وتقطعون الطريق باعتراض المسافرين؛ لنهب أموالهم، وفعل الفاحشة بمن تختارون منهم، وقذف المارة وأذيتهم، وغير ذلك. ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ﴾؛ النادي: المكان الذي يتندي فيه الناس، أي: يجتمعون ويجلسون، أي: وتأتون في مجلسكم الذي تجتمعون فيه.

﴿الْمُنْكَرَ﴾، أي: ما ينكره الشرع والفطر السليمة، والعقول المستقيمة؛ من فعل الفاحشة، والسخرية بالناس، وقذف المارة وأذيتهم، وغير ذلك مما لا يليق.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾، أي: فما كان جواب قومه له لما دعاهم إلى عبادة الله، وتصديقه عليه السلام فيما جاءهم به، وإنكاره عليهم فعل هذه الفاحشة العظيمة، وقطع السبيل، وفعل المنكر في مجالسهم.

﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾؛ «إلا»: أداة حصر، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع اسم «كان» مؤخر، أي: فما كان جواب قومه إلا قولهم.

﴿أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، أي: عجل لنا عذاب الله إن كنت من الصادقين فيما تقول، يقولون هذا على سبيل التحدي والتعجيز.

وهذا يدل على شدة كفرهم، وتكذيبهم وعتوهم، وعنادهم واستكبارهم وسخريتهم.

﴿قَالَ﴾، أي: قال لوط داعياً الله عليهم، ومستنصراً به.

(١) انظر: «البداية والنهاية» (٩/١٦٣).

﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي﴾، أي: يا رب، انصُرني ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾؛ في الأرض بكفرهم وتكذيبهم، وفعلهم الفاحشة والمنكر، وقطع السبيل.  
أي: أظهرني واجعل الغلبة لي عليهم، وعذبهم وأهلكهم؛ ليظهر لهم صدقي، ويرتاح العباد والبلاد منهم ومن فسادهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّا أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنِّي لَفِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَجِّيَنَّهٗ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَاتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْزِلُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْرًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ﴾؛ الواو: استئنافية، و«لما»: ظرف بمعنى: «حين» متضمن معنى الشرط، أي: وحين جاءت رسلنا من الملائكة إبراهيم.

﴿بِالْبَشْرَى﴾ الباء: للمصاحبة، أي: بالخبر السار، وهو البشارة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، كما قال تعالى: ﴿وَأَمْرَانَهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: ٧١].

﴿قَالُوا﴾، أي: قالوا له فيما أخبروه من سبب مجيئهم.  
﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾، أي: أهل قرية: «سدوم»؛ وهم قوم لوط عليه السلام، استجابة لدعاء لوط عليه السلام، وفي الإشارة إلى قريتهم بـ«هذه» دليل على قربها من إبراهيم.

﴿إِنَّا أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾؛ بالكفر والتكذيب للوط عليه السلام، وإتيان الفاحشة، وقطع السبيل، وفعل المنكر في مجالسهم، وغير ذلك، وهذا تعليل وبيان لسبب إهلاكهم.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي لَفِيهَا لُوطًا﴾، أي: فكيف تهلكون أهلها

ولوط بين أظهرهم؟

﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا﴾، أي: قال الرسل من الملائكة: نحن أعلم بالذين فيها، ممن هم ظالمون يستحقون الإهلاك، وممن ليسوا كذلك؛ ولهذا قالوا:

﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف وأبو بكر عن عاصم بتخفيف الجيم مع سكون النون الثانية: «لَنُنَجِّيَنَّهُ»، وقرأ الباقون بتشديد الجيم وفتح النون: «لَنُنَجِّيَنَّهُ».

واللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: لننجين لوطاً، أي: لننقذنه من الهلاك ﴿وَأَهْلَهُ﴾؛ وهما ابتاءه، حيث أمره الله عز وجل أن يسري بهم بقطع من الليل.

﴿إِلَّا أَمْرَاتَهُ﴾؛ «إلا»: أداة استثناء، أي: إلا زوجته ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾، أي: من الباقين في العذاب الهالكين؛ لكفرها، ومساعدتها قومها على فعل الفاحشة، وإخبارها لهم بأضياف لوط عليه السلام.

﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ﴾ «لما»: ظرفية شرطية، و«أن»: زائدة للتوكيد، والباء: للسببية، أي: سيء بسببهم، أي: ساءه مجيئهم.

﴿وَوَضَّاقَ بِهِمْ ذُرْعًا﴾ «ذرعاً» تمييز، أي: ضاقت قوته وحيلته بهم؛ خوفاً عليهم من قومه؛ لأنه لم يعرفهم، وظن أنهم من جملة الضيوف أبناء السبيل.

﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾، أي: أخبروه أنهم رسل الله، وقالوا له: لا تخف ولا تحزن.

﴿إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتِكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾؛ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي: «مُنْجُوكَ» بسكون النون، وقرأ الباقون بفتحها وتشديد الجيم: ﴿مُنْجُوكَ﴾، والجملة تعليلية، أي: لا تخف ولا تحزن؛ لأننا منجوك وأهلك، وفي هذا إشارة أيضاً إلى أن مما جعله يستاء لمجيئهم ويضيق بهم ذرعاً مخافة أن يعمه العذاب.

﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾؛ قرأ ابن عامر بتشديد الزاي: «مُنْزِلُونَ»، وقرأ الباقون بتخفيفها: ﴿مُنْزِلُونَ﴾.

﴿رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾، أي: عذاباً شديداً من السماء.

﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى؛ بكفرهم وتكذيبهم لوطاً، وارتكاب الفاحشة والمنكر، وقطع السبيل.

فقلب الله عليهم ديارهم، وجعل عاليها سافلها، وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود؛ كما قال تعالى في سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ [الآية: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ فَجَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر: ٧٣، ٧٤].

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِّنْهَا آيَةً بَيِّنَةً﴾، أي: ولقد تركنا وأبقينا من عقوبتهم، وآثار قريتهم ﴿آيَةً بَيِّنَةً﴾، أي: علامة ظاهرة، وعظة وعبرة واضحة. ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أي: لقوم ذوي عقول نيرة، تهديهم إلى التأمل والتفكير في الآيات والعظات والعبر، والانتفاع بذلك؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر: ٧٥].

حيث جعل الله مكان قريتهم بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح، وجعلها بسبيل مقيم، يمر بها المسافرون ليلاً ونهاراً؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَيْسَبِيلٌ مَّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الحجر: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴿٧٧﴾﴾ وَبِالْيَلِّ أَفْلا تَعْقِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨].

### الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة لوط عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾، وفضله والثناء عليه.

٢- إنكاره المؤكد الشديد عليه السلام على قومه إتيان فاحشة اللواط، بإتيان الرجال في أدبارهم، وقطعهم السبيل، وإتيانهم في مجلسهم المنكر؛ لقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَّطِعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ﴿٧٩﴾﴾.

٣- أن فاحشة اللواط أشد من فاحشة الزنا؛ لهذا لا تذكر فاحشة اللواط إلا معرفة بـ«ال»: «الفاحشة»، بينما تذكر فاحشة الزنا أحياناً منكراً؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢].

٤- أنه لم يسبق قوم لوط إلى فعل فاحشة اللواط بركوب الذكر الذكر أحد من بني آدم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾؛ بل ولم يعهد ذلك في سائر الحيوانات.

٥- شدة تكذيب قوم لوط وكفرهم، وعتوهم وعنادهم، واستكبارهم وسخريتهم؛ حيث قابلوا دعوة لوط لهم إلى عبادة الله تعالى، وتصديقه فيما جاءهم به، وإنكاره ما هم عليه من الأفعال القبيحة، بطلبهم منه إتيانهم بعذاب الله إن كان من الصادقين؛ تعجيزاً له؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنَّا مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

٦- أن لوطاً عليه السلام حذرهم وخوفهم عذاب الله؛ لقولهم: ﴿أَأْتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنَّا مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

٧- دعوة لوط عليه السلام عليهم؛ بسؤاله ربه أن ينصره عليهم، وتبرؤه منهم؛ لإفسادهم في الأرض بالكفر والتكذيب، وفعل الفاحشة والمنكر، وقطع السبيل، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾.

٨- أن المعاصي من أعظم أسباب الفساد في الأرض؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

٩- جواز الدعاء على أهل الكفر والشر والفساد والعناد، وقد قال نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

وقال نبينا ﷺ: «اللهم اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف»<sup>(١)</sup>.

١٠- أن اللواط من أعظم الفساد في الأرض.

١١- حاجة الأنبياء- كغيرهم من البشر- إلى دعاء الله واللجوء إليه، وضرورتهم

إليه، وغيرهم من باب أولى.

- ١٢- بشارة رسل الله تعالى من الملائكة لإبراهيم بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَىٰ﴾ الآية.
- ١٣- أن من طبيعة البشر الفرح بالولد؛ الأنبياء ومن دونهم.
- ١٤- إثبات أن من الملائكة رسلاً، وتشريفهم بإضافتهم إلى الله؛ لقوله تعالى: ﴿جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾.

- ١٥- استجابة الله تعالى لدعاء لوط عليه السلام بنصر الله تعالى له على قومه.
- ١٦- إخبارهم إبراهيم بأنهم جاؤوا لإهلاك قوم لوط؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾، وفي هذا دلالة على فضيلة إبراهيم، وأنه أفضل من لوط عليه السلام.

- ١٧- إفصاح رسل الله من الملائكة لإبراهيم عن سبب إهلاكهم قوم لوط، وهو ظلمهم بالكفر، وتكذيب لوط، وإتيان الفاحشة والمنكر، وقطع السبيل، ونحو ذلك؛ لقولهم: ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾.

- ١٨- أن الهلاك إذا نزل قد يعم الصالح وغيره؛ ولهذا قال إبراهيم عليه السلام للملائكة- شفقةً منه وحلمًا-: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾؛ كما قال عز وجل للنبي ﷺ: ﴿قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تَرَفِّي مَابُعْدُونَ ﴿١٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ٩٣، ٩٤].

- ١٩- طمأنة الملائكة لإبراهيم، بإخبارهم له بعلمهم عن القرية من يستحقون الإهلاك ومن لا يستحقون النجاة، وإخبارهم إياه بإنجاء إبراهيم وأهله إلا امرأته؛ لكونها من الباقيين في العذاب المهلكين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهٗ وَأَهْلَهُٗ إِلَّا أُمَّرَتَهُ ۗ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾.
- ٢٠- إثبات القول والعلم للملائكة، وفي هذا دلالة على أن لهم عقولا ونطقاً، وأجساداً، خلافاً لمن نفى ذلك.

- ٢١- جواز إضافة الشيء إلى سببه؛ لقول الملائكة: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ

الْقَرْيَةِ ﴿٢٢﴾، وقولهم: ﴿لَنْجِيَّتَهُ﴾؛ فانسبوا الإهلاك والإنجاء إلى أنفسهم، مع أن المهلك والمنجي هو الله تعالى.

٢٢- أن زوجة الرجل داخلة في أهله؛ لقول الملائكة: ﴿لَنْجِيَّتَهُ وَأَهْلَهُ﴾، ثم استثنوا من ذلك امرأته، فقالوا: ﴿إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ﴾.

وفي هذا رد على الرافضة أخزاهم الله، الذين يخرجون أزواج النبي ﷺ من أهل بيته، ويقعون فيهن.

٢٣- أنه لا يشفع لأحد عند الله نسبه ولا حسبه، فامرأة لوط لم ينجها من العذاب كونها زوجته عليه السلام.

٢٤- أن العذاب إذا نزل عم الظالمين ومن أعانهم على ظلمهم وأيدهم؛ كما حصل لامرأة لوط عليه السلام.

٢٥- استياء لوط عليه السلام بمجيء الرسل من الملائكة إليه وضيقة بهم ذرعاً، وطمأننتهم له؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا نَخْفُ وَلَا نَحْزَنُ إِنَّا مُنْجُونَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ﴾.

٢٦- أن الرسل كغيرهم من البشر تعترتهم العوارض البشرية من الاستياء، وضيقة الذرع ونحو ذلك.

٢٧- الاستدلال على الأحوال بالملامح، لقول الملائكة: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ الآية؛ لأنه ظهر لهم من ملامحه - والله أعلم - أنه استاء منهم وضاقت بهم.

٢٨- إهلاك قوم لوط بعذاب من السماء، بقلب ديارهم، وجعل عاليها سافلها، وإتباعها بالحجارة، بسبب فسقهم وظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ﴿٣١﴾.

٢٩- أن من سنن الله الكونية إنجاء الرسل وأتباعهم المؤمنين، وإيقاع العذاب بالمكذبين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣].

٣٠- إثبات العلو لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ﴾.

٣١- إثبات الأسباب، وأن الفسق سبب للعقوبة.

٣٢- بقاء عقوبة قوم لوط وآثار قريتهم آية بيّنة، ودلالة واضحة على تمام قدرة الله تعالى، وعظة وعبرة للمعتبرين من ذوي العقول؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ مما يوجب الحذر من هذه الفعلة الشنيعة، الموجبة لغضب الله وسخطه، وأليم عقابه.

وعلى من ابتلي بها التوبة والإنابة إلى الله، والخوف من عقابه، وسؤاله العصمة والحفظ منها ومن غيرها من الفواحش والذنوب.

اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين.

٣٣- شدة عقاب الله تعالى لقوم لوط؛ لما هم عليه من الإفساد في الأرض والكفر والظلم والفسق، وإتيان الفاحشة التي لم يسبقهم إلى فعلها أحد من العالمين، ووجوب الحذر من مسلكهم.

٣٤- أنه إنما ينتفع بالآيات، والعبر والعظات، ذوو العقول الراجحة، الذين تهديهم عقولهم إلى النظر والتأمل بالآيات وأخذ العظات والعبر منها؛ بخلاف غيرهم ممن لم ينتفعوا بذلك، وإن كانت لديهم العقول التي هي مناط الإدراك، فهم لا يعقلون.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا  
 الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ  
 فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ  
 مَسَاكِينِهِمْ زُرَّيْنِ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ  
 وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَدْرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَلَكُوا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ  
 فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَالِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ  
 فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا  
 بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَفْنَا وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ  
 يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا  
 الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ  
 فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٣٧﴾:

قوله: ﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، أي: وأرسلنا إلى أهل مدين البلدة  
 المعروفة المشهورة، أو القبيلة المعروفة المشهورة، أخاهم شعيبًا.

﴿فَقَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، أي: اعبدوا الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى:  
 ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾، أي: وارجوا واطلبوا بعبادتكم ثواب الله، واخلشوا  
 وخافوا عقابه في اليوم الآخر يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ  
 الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: ولا تفسدوا في الأرض، أي: ولا تسعوا  
 في الأرض مفسدين؛ بالبغي والكفر وبخس المكاييل والموازين، وقطع الطريق، وصد  
 الناس عن سبيل الله وغير ذلك من الفساد الحسي، والفساد المعنوي المؤدي إلى الفساد  
 الحسي؛ كما قال تعالى في سورة هود: ﴿وَيَتَقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ  
 وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الآية: ٨٥].

وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الآية: ٨٦].

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، أي: فكذبوا شعبيًا في رسالته وفيما دعاهم إليه من عبادة الله تعالى وحده، رجاءً في ثوابه، وخوفًا من عقابه، وفيما نهاهم عنه من السعي بالإفساد في الأرض.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾، أي: فأهلكتهم الزلزلة الشديدة، والصيحة التي رجفت منها الأرض لشدتها.

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ﴾، أي: فصاروا في دارهم صرعى هالكين ميتين. كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ﴾ [هود: ٩٤].

قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ ذُرِّيَّتَ لِهِمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ ﴿٣٨﴾ وَقُرُونِ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَلَانَ وَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾:

قوله: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا﴾، أي: وأهلكنا عادًا وثمود، أو: واذكر عادًا وثمود. ﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ﴾؛ الواو: حالية، و«قد»: حرف تحقيق.

أي: والحال أنه قد تبين لكم من مساكنهم، أي: وقد تبين لكم إهلاكهم، وأخذنا إياهم من آثار مساكنهم التي لم تسكن من بعدهم إلا قليلًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَكُرِّهَ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فِتْلَکَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تُسْکَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيْلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِيْنَ﴾ ﴿٥٨﴾ [القصص: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرِيْنَ إِلَّا مَسَاكِينَهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِيْنَ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

﴿وَرِيَّتَ لِهِمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾، أي: حسن لهم الشيطان أعمالهم السيئة؛ من الكفر والشرك بالله، وتكذيب رسله، والاستكبار والعناد، حتى ظنوا أنهم على الحق.

﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾، أي: فصر فهم عن سبيل الله وعن صراطه المستقيم، وطريقه القويم.

وعرّف السبيل وأفرده؛ لأن طريق الحق واحد، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾، أي: وكانوا ذوي بصائر وعقول، يستطيعون أن ينظروا بها آيات الله ودلائل هدايته، ومعرفة الحق، لكنهم يتعامون عنها اتباعاً لأهوائهم، وتقديماً لشهواتهم وملذاتهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

﴿وَقَرُّونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ﴾.

ضرب الله مثلاً لقريش بالأمم المكذبة للرسول، وكيف انتقم الله منهم، ثم ضرب مثلاً لصناديد قريش، مثل: أبي جهل وأمّية بن خلف والوليد بن المغيرة وأبي لهب، وأمثالهم، بصناديد الكفر في عهد موسى عليه السلام، كيف أهلكهم الله وانتقم منهم؟! أي: وأهلكنا قارون، أو: واذكر قارون، الذي آتاه الله الكنوز العظيمة، وفرعون، وهو ملك مصر في عهد موسى عليه السلام، وهامان وزير فرعون.

قيل: وقدم «قارون»؛ لعلو نسبه؛ لأنه من بني إسرائيل، وهم أشرف من الأقباط الذين منهم فرعون وهامان.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾، أي: بالآيات البينات، والحجج والدلائل الواضحات، على صدقه وصحة ما جاء به من الحق، والباء: للمصاحبة.

﴿فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾؛ فكذبوا موسى ورموه بالسحر، وردوا ما جاء به من الحق، وتكبروا على الخلق، وأذوهم وأذلوهم.

﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾، أي: وما كانوا سابقين لله ولا معجزين له، ولا مفلتين من عذابه ولا فائتيه؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾ [العنكبوت: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يَعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنفال: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ

الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴿٥٧﴾ [النور: ٥٧].

﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾، أي: فكلاً من هؤلاء وغيرهم من الأمم المكذبة،  
 ﴿أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾، أي: عاقبناه عقوبة مناسبة بقدر ذنبه، وبسبب ذنبه، من الكفر  
 والشرك وغير ذلك؛ لأنهم اجتمعوا كلهم على تكذيب الرسل، والكفر والشرك.  
 قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ [المؤمنون: ٤٤]،  
 وقال تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا  
 بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

﴿فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ «من» في المواضع الأربعة موصولة، أي:  
 فمنهم الذي أرسلنا عليه حاصبًا، أي: ريحًا ترميهم بالحصباء؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا  
 عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [فصلت:  
 ١٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَّحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٦﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ  
 كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٩-٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَةَ ﴿١٨﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ  
 إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرِّيمِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات: ٤١-٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادُ فَاهْلَكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ  
 عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى ﴿٧﴾﴾ [الحاقة: ٦-٧].  
 ﴿وَمِنْهُمْ مَن أَخَذْتَهُ الصَّيْحَةَ﴾، أي: ومنهم الذي أهلكته الصيحة، وهم  
 ثمود قوم صالح عليه السلام، أهلكوا بالصيحة، وهي صوت من السماء شديد، قطع  
 قلوبهم في أجوافهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَاهْلَكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾ [الحاقة: ٥]، أي:  
 الصيحة الشديدة.

﴿وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾، أي: ومنهم الذي خسفنا به الأرض، أي:  
 غيبناه فيها، وهو قارون الذي طغى وبغى، ومشى في الأرض مرحًا، فعاقبه الله بإذلاله  
 بنخسف الأرض به.

﴿وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا﴾، أي: ومنهم الذي أغرقناه، وهو فرعون ووزيره هامان

وجنوده، حيث كان فرعون يفتخر بالأنهار والماء بقوله: ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا بُصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١]، فأهلكه الله ووزيره وجنوده بالماء.

والسياق بهذا الترتيب من باب اللف والنشر، فذكر عز وجل الأمم المكذبة وهم في هذا السياق: عاد، وثمود، وقارون، وفرعون، وهامان، ثم ذكر عقوباتهم.

وقد قيل: المراد بقوله: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾: قوم لوط، وبقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ أَعْرَفْنَا﴾: قوم نوح، وبقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾: قوم شعيب.

والأول أقرب وأظهر؛ لأن الله قد ذكر قوم نوح وقوم لوط وقوم شعيب وعقوباتهم كلاً منهم على حدة قبل هذا في هذه السورة، وقد طال الفصل بينهما أيضاً.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ﴾؛ اللام: لام الجحود أو الإنكار، والمصدر المؤول: «أن يظلمهم» في محل جر باللام متعلق بمحذوف خبر «كان»، أي: وما كان الله في عقابه إياهم ظالماً لهم، ولا يكون منه ذلك، ولا يليق به.

﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؛ بسبب كفرهم وشركهم، وتكذيبهم للرسول، واستكبارهم وعصيانهم؛ حيث عرضوها لعقاب الله تعالى.

و«أنفسهم»: مفعول لـ«يظلمون»، وقدم عليه؛ مراعاة للفواصل، ولإفادة الحصر، وأنهم ما ظلموا إلا أنفسهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦].

### الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة شعيب عليه السلام إلى مدين، وأنه أخوهم في النسب؛ لقوله تعالى: ﴿وَأِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾.

٢- دعوته عليه السلام إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له؛ كما هي دعوة غيره من الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْحَمُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾.

٣- إثبات اليوم الآخر وما فيه من الحساب والجزاء، ووجوب الاستعداد له بعبادة الله تعالى وحده وطاعته، رجاء ثواب الله، وخوفاً من عقابه.

٤- نهيه عليه السلام لهم عن السعي في الأرض بالبغي والفساد، بالكفر والشرك، ونقص المكايل والموازن، وقطع الطريق، وصد الناس عن سبيل الله؛ لقوله تعالى:

﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

٥- أن الكفر والشرك والمعاصي من أعظم الفساد في الأرض؛ لأن ذلك سبب لخراب البلاد، وهلاك الحرث والنسل.

٦- تكذيبهم له، وإصرارهم على ما هم عليه من الكفر، وبخس الكيل والوزن، وغير ذلك، وإهلاكهم بالرجفة والصيحة التي قطعت قلوبهم في أجوافهم، فصاروا في دارهم جثثاً هامدة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ﴾.

٧- التذكير بإهلاك عاد وثمود، بسبب تكذيبهم رسل الله، وبقاء آثار مساكنهم الخاوية- التي لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً- شاهدة على ما حل بهم من العقوبات؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّن مَّسَكِنِهِمْ﴾.

٨- تحسين الشيطان لهم ولغيرهم من المكذبين أعمالهم السيئة؛ من الكفر، وتكذيب الرسل، والاستكبار، ومخالفة أمر الله، وصددهم عن سبيل الله وصراطه المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾.

٩- الرد على الجبرية في زعمهم أن الإنسان مجبر على أفعاله؛ لقوله تعالى: ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾، فنسب الأعمال إليهم، فدل على أنها باختيارهم.

١٠- أن الأعمال السيئة سبب للضلال عن طريق الحق؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٤) [المطففين: ١٤].

١١- ذم هؤلاء المكذبين؛ لاختيارهم الباطل على الحق؛ اتباعاً لأهواهم، وإيثاراً لشهواتهم، وعدم التأمل والانتفاع بما منحهم الله من البصائر والعقول؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾.

١٢- وجوب الاعتبار بأحوال الماضين من المكذبين وعقوباتهم، والحذر من الشيطان، وتزيينه الأعمال السيئة، ووجوب التأمل والتفكر في آيات الله، بما منحنا الله من العقول؛ لمعرفة الحق واتباعه، واجتناب الباطل.

١٣- التذكير بإهلاك قارون وفرعون وهامان ودمهم؛ لتكذيبهم ما جاء به موسى من البينات، واستكبارهم عن اتباع الحق، وعلوهم على الخلق، وأذيتهم لهم، وأنهم ما

كانوا معجزين لله، ولا مفلتين من عقابه، وفي هذا تهديد للطغاة من المشركين وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَرُّونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَكَانُوا سَلِيلِينَ﴾ (٣١).

١٤- إثبات رسالة موسى عليه السلام إلى فرعون وبني إسرائيل.

١٥- أن من أعظم أسباب الاستكبار: المال والجاه والرئاسة؛ فقارون استكبر بسبب المال، وفرعون وهامان استكبرا بسبب الرئاسة والجاه والمنصب.

١٦- أنه لا أحد يستطيع أن يعجز الله، أو يفوته، أو يفلت من عقابه؛ لقوله تعالى:

﴿وَمَا كَانُوا سَلِيلِينَ﴾.

١٧- عقوبة الله تعالى كل أمة بقدر ذنبها وبما يناسبه؛ عدلاً منه تعالى؛ لأن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَعْرَقْنَا﴾.

١١٨- كمال عدل الله عز وجل في عقابه المكذبين، وأنه ما كان ظالماً لهم حين عذبهم، ولا يكون منه الظلم لأحد من خلقه، ولا يليق به؛ لأنه سبحانه الحكيم العدل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ﴾.

١٩- أن سبب إهلاك الأمم المكذبة: هو ظلمهم لأنفسهم بتكذيب الرسل والكفر والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، فعاقبهم الله عز وجل بقدر ذنوبهم وبسببها.

٢٠- التهديد الشديد، والوعيد الأكيد، للمكذبين الظالمين، من المشركين وغيرهم من هذه الأمة عامة، ولرؤوس الكفر منهم خاصة، أن يحل بهم ما حل بالمكذبين قبلهم.

٢١- أن النفس ودیعة عند الإنسان، يجب أن يحملها على ما فيه سعادتها في دينها ودنياها وأخرها، ويحرم عليه أن يظلمها ويوقعها فيها فيه هلاكها وشقاؤها بفعل المعاصي.

قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ أَتَى مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾: هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في عبادتهم من دون الله آلهة يوالونها، ويرجون نفعها لهم، ودفعها عنهم، وهي في غاية الضعف والعجز، أوهى من نسج العنكبوت؛ كما قال تعالى في سورة الحج: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْأَلْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ١٧٣].

قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ «مثل»: بمعنى شبه، أي: مثل المشركين الذين جعلوا غير الله أولياء لهم، أي: آلهة يعبدونهم من دونه، ويوالونهم، ويرجون منهم جلب النفع لهم؛ من النصر والرزق وغير ذلك، ودفع الضر والشر عنهم.

﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ﴾، أي: كمثل العنكبوت، وهي: دويبة صغيرة ضعيفة، ﴿اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾، أي: جعلت لنفسها بيتًا أشبه بالخيمة وبيت الشعر، من لعبها، يكون خيوطًا منسوجة مشدودة بين طرفين، تحتجب فيه، وتفرخ فيه.

﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ﴾، أي: أضعفها وأوهاها، ﴿لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾؛ اللام للتوكيد، وإنما كان بيت العنكبوت أوهن البيوت؛ لأنه لا يحتمل مس أدنى

الحيوانات، ولا أخف الرياح، ولا يقي من الآفات، ولا من حر ولا برد؛ ولهذا ما ازدادت باتخاذها إلا ضعفًا.

وكذلك هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونهم، ويوالونهم، ويستنصرون بهم، وهم في غاية الضعف والعجز، لا يملكون لهم نفعاً، ولا دفعاً، ولم يزدادوا بعبادتهم إياهم إلا ضعفًا إلى ضعفهم، ووهناً إلى وهنهم.

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾؛ «لو»: شرطية غير جازمة، أي: لو كانوا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويعلمون حقيقة ضعف هذه الآلهة ما اتخذوها أولياء من دون الله.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ قرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب: ﴿يَدْعُونَ﴾ بالغيب، وقرأ الباقون: «تَدْعُونَ» بالخطاب.

و«ما»: نافية، و«من» في قوله: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾؛ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة للنفى من حيث المعنى، أي: إن الله يعلم أنهم ما يدعون ويعبدون من دونه عز وجل أي شيء، وإنما يدعون عدماً؛ كما قال تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: ٣٦].

وعلى هذا المعنى يكون السياق انتقل من بيان ضعف آلهتهم غاية الضعف إلى ما هو أبلغ، وهو أنها ليست بشيء؛ لأنه عند التحقيق يتبين بطلانها وعدمها.

ويحتمل أن تكون «ما»: موصولة، أي: إن الله يعلم الذي يدعون ويعبدون غيره من أي شيء كان من الأنداد والشركاء، وسيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾، أي: وهو ذو العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

وفي هذا تهديد للمشركين بأخذه الشديد لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

﴿الْحَكِيمُ﴾؛ ذو الحكم التام: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية، «الحكيم» في خلقه وقدره وشرعه، الذي يضع الأمور مواضعها، «الحكيم» في إمهاله المشركين والمكذابين، وعدم معاجلتهم بالعقوبة.

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾؛ «الأمثال»: جمع «مثل».

و«ضرب المثل»: تشبيه أمر معنوي معقول بأمر حسي؛ لتقريب المعنى وزيادة الإيضاح والبيان؛ كما في تمثيل آلهة المشركين الذين اتخذوهم من دون الله أولياء بالعنكبوت باتخاذها بيتاً.

وكقوله تعالى في تمثيل مضاعفة أجر المنفقين أموالهم في سبيل الله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وهي مما امتن الله به على الناس؛ لما فيها من تقريب المعاني وبيانها؛ ولهذا أشار إليها بإشارة البعيد: «تلك»؛ امتناً بها، وتعظيماً لشأنها، أي: وتلك الأمثال العظيمة نضربها في القرآن، أي: نجعلها أمثالاً لأجل الناس؛ تقريباً للمعاني لهم، وإقامة للحجة عليهم.

﴿وَمَا يَعْقِلُهَا﴾، أي: وما يعقل الأمثال ويتدبرها ويفهمها، ويطبقها على ما ضربت له.

﴿إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾؛ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا أهل العلم الذين أنار الله بصائرهم بالعلم، ووقفهم للانتفاع بعلمهم، وفي هذا امتداح من الله تعالى لهم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال: «عقلت عن رسول الله ﷺ ألف مثل» (١).  
وعن عمرو بن مرة، قال: «ما مررت بآية في كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنتني؛ لأنني

سمعت الله يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(١١)</sup> أَتْلُ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾<sup>(١٥)</sup>:

قوله: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾؛ الباء: للملابسة، أي: خلق الله السموات والأرض بالحق والعدل، ولإقامة الحق والعدل، أي: لعبادته وتوحيده وإقامة شرعه، وظهور تمام قدرته وحكمته وعدله في مجازاة كل بعمله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾<sup>(٥٦)</sup> مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾<sup>(٥٧)</sup> [الذاريات: ٥٦ - ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَفُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ﴾<sup>(٣١)</sup> [النجم: ٣١].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ الإشارة إلى خلق السموات والأرض بالحق، واللام للتوكيد، أي: إن في خلق السموات والأرض دلالة بينة على تمام قدرة الله تعالى وعظمته وحكمته، ونعمته، وكمال ربوبيته وإلهيته وأسماؤه وصفاته، وأنه لا رب غيره، ولا معبود بحق سواه.

﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: للمؤمنين خاصة؛ لأنهم هم الذين يتأملون في آيات الله، وينتفعون بها، وتهديهم إلى الحق.

﴿أَتْلُ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾؛ الخطاب للنبي ﷺ، أي: اقرأ الذي أوحى إليك من القرآن واتبعه، وأمر أمتك بقراءته واتباعه، والاهتداء بهديه، والعمل به، بتطبيق أحكامه، وتدبر معانيه، وتصديق أخباره.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾؛ هذا من عطف الخاص على العام؛ لعظم أمر الصلاة، فهي أعظم العبادات، وأعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، والأمر له ﷺ ولأُمَّته، أي: وأقم

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٣٠٦٤/٩.

الصلاة إقامة تامة، بشروطها، وأركانها، وواجباتها، وسننها؛ الفرائض منها والنوافل. والصلاة في اللغة: الدعاء.

في الشرع: التعبد لله تعالى بأقوال وأفعال مخصوصة، مبتدأة بالتكبير، مختتمة بالتسليم. ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾؛ تعليل للأمر بإقامتها، أي: لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، إذا أقيمت كما شرعها الله عز وجل. و«الفحشاء»: كل ما فحش وقبح في الشرع، وفي عرف المسلمين، وفي العقول السليمة، والفطر المستقيمة، كالزنا واللواط والسرقه وشرب الخمر، ونحو ذلك. و«المنكر»: كل ما أنكره الشرع وعرف المسلمون، والعقول السليمة، والفطر المستقيمة، وهو أعم من الفحشاء، فعطفه عليها من عطف العام على الخاص، فكل فحشاء منكر، وليس كل منكر فحشاء.

فمن أعظم مقاصد الصلاة وأهم ثمراتها: أنها تحمل على فعل الخير، وترك الشر والفواحش والمنكرات إذا أقامها العبد كما شرعها الله، وذلك لأنها تنير قلب المؤمن، وتطهر فؤاده، وتزيد إيمانه، وتقوي رغبته في الخير، وتضعف داعي الشر في النفس، فهي بمثابة الواعظ الناهي المذكر بالله تعالى على الدوام.

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر؛ لم يزد بصلاته من الله إلا بعداً»<sup>(١)</sup>.

﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾؛ الواو: عاطفة، واللام: للتوكيد، أي: ولذكر الله بالقلب واللسان والجوارح، والتعبد له في الصلاة التي هي أعظم العبادات، أو خارجها بقراءة القرآن والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وغير ذلك، ﴿أَكْبَرُ﴾، أي: أعظم وأفضل من كل شيء.

وأيضاً: ولذكر الله تعالى للذاكرين له عز وجل أكبر وأعظم وأفضل من ذكرهم له؛ كما قال تعالى: ﴿فَأذْكُرُونِي أَذْكَرَكُمُ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني،

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٨/٤٠٨.

فإذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم» (١).  
﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾؛ «ما» موصولة، أي: والله يعلم الذي تصنعونه. أو  
مصدرية، أي: يعلم صنعكم.

أي: يعلم الذي تعملونه من الأعمال، باطنها وظاهرها، دقيقها وجليلها، خفيها  
وجليها، خيرها وشرها، وسيحاسبكم ويجازيكم عليها أكمل الجزاء وأوفاه.

### الفوائد والأحكام:

١- تحقير المشركين وما اتخذوه من دون الله من آلهة يوالونها، ويرجون نفعها  
وشفعها هي في غاية الضعف والعجز، ولا تجدي عنهم شيئاً؛ لأن الله مثلهم في  
اتخاذهم لها بالعنكبوت باتخاذها بيتاً هو أوهن البيوت وأضعفها؛ لقوله تعالى: ﴿مَثَلُ  
الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ  
أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾.

٢- لا ينبغي أن يقال: هذا البيت أوهن من بيت العنكبوت؛ لأن الله قال: ﴿وَإِنَّ  
أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾ لكن يجوز أن يقال: هذه الحجة أو هي، أو أوهن  
من بيت العنكبوت.

٣- ذم الشرك وأهله وتجهيلهم، وأنهم لو كانوا يعلمون العلم الذي ينفعهم  
ويعلمون حقيقة ضعف هذه الآلهة ما اتخذوهم أولياء من دون الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ  
كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

٤- علم الله تعالى بأن المشركين ما يدعون من دونه أي شيء، وإنما يدعون عدماً  
وباطلاً؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ وهذا  
على اعتبار «ما»: نافية.

٥- تهديد المشركين بإحاطة علمه تعالى بكل الذي يدعون من دونه من أي شيء  
كان، وأنه سيحاسبهم ويجازيهم على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٠٥، ومسلم في الذكر ٢٦٧٥، والترمذي في الدعوات ٣٦٠٣، وابن ماجه

في الأدب ٣٨٢٢؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ۗ وَهَذَا عَلَىٰ اعْتِبَارِ «مَا»: موصولة.

٦- إثبات اسم الله عز وجل: «العزیز»، وأنه ذو العزة التامة، والقوة والقهر والغلبة والامتناع، وتحذير المشركين من أخذه عز وجل إياهم أخذ عزيز مقتدر؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾.

٧- إثبات اسم الله تعالى: «الحكيم»، وصفة الحكم التام له: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي. وصفة الحكمة الغائية، والحكمة الصورية، وأنه عز وجل الحكيم في إمهاله المشركين والمكذبين، وعدم معاجلتهم بالعقوبة؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَكِيمُ﴾.

٨- امتنان الله تعالى على العباد بضرب الأمثال في القرآن للناس، وتعظيم شأنها؛ لما فيها من تقريب المعاني المعقولة، وزيادة الإيضاح والبيان للناس، وإقامة الحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾.

٩- أنه لا يعقل الأمثال ولا يتدبرها ويفهمها وينتفع بها إلا أهل العلم، الذين أنار الله بالعلم بصائرهم، ووقفهم للانتفاع بعلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾، وفي هذا ترغيب في العلم وفي تدبر الأمثال.

١٠- فضيلة العلم وأهله، الذين يتدبرون بعلمهم كلام الله، ويهتدون به وفضيلة العقل الذي يهتدي به صاحبه إلى الحق.

١١- إثبات أن الله تعالى خلق السموات والأرض، وإثبات حكمته في خلقها، وأنه إنما خلقها بالحق والعدل، ولإقامة الحق والعدل، ولعبادته وحده لا شريك له، وإقامة شرعه ومجازاة كل بعمله؛ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾.

١٢- استدلال المؤمنين بخلق السموات والأرض على عظمة الله تعالى وتمام قدرته، ووحدانيته في ربوبيته وإلهيته، وأسمائه وصفاته، واستحقاقه العبادة دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٣- أنه لا يستفيد من الآيات، ولا يتأمل فيها وينتفع بها إلا المؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

- ١٤- إثبات رسالة النبي ﷺ، وتشريفه بوحي الله عز وجل إليه بالقرآن، وبخطابه عز وجل له؛ لقوله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾.
- ١٥- أمر الله عز وجل له ﷺ بقراءة القرآن، وتبليغه للناس واتباعه، والعمل به، وهو أمر له ﷺ ولأئمة؛ لأن لها به أسوة.
- ١٦- أمر الله تعالى له بإقام الصلاة: فرضها ونفلها، وهو أمر له ﷺ ولأئمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾.
- ١٧- وجوب تلاوة القرآن والعمل به واتباعه، ووجوب إقامة الصلاة.
- ١٨- عظم مكانة الصلاة في الإسلام؛ لأن الله خصها بالذكر من بين سائر العبادات، ولهذا فإن من لم يصل فهو كافر، لا حظ له في الإسلام؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَعَآتُوا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَعَآتُوا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].
- وقال ﷺ: «إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة»<sup>(١)</sup>.
- وقال ﷺ: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر»<sup>(٢)</sup>.
- وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة»<sup>(٣)</sup>.
- ١٩- أن من حكمة الأمر بالصلاة وتخصيصها بالذكر: أنها تنهى من أقامها - كما شرعها الله تعالى - وحافظ عليها عن فعل الفواحش والمنكرات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾؛ ولهذا فإن من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فإنه لم يقمها كما أمر الله.
- ٢٠- أن ذكر الله تعالى بأنواع الذكر، بالقلب واللسان والجوارح، والتعبد له في

(١) أخرجه مسلم في الإبان ٨٢، وأبو داود في السنة ٤٦٧٨، والترمذي في الإبان ٢٦٢٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٧٨؛ من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه النسائي في الصلاة ٤٦٣، والترمذي في الإبان ٢٦٢١، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٧٩ من حديث بريدة رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث صحيح غريب».

(٣) أخرجه مالك في «الموطأ»، كتاب الطهارة ٨٤؛ من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه.

الصلاة التي هي أعظم العبادات، أو خارجها بقراءة القرآن والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، وغير ذلك، أكبر وأعظم وأفضل من كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

٢١- إثبات علم الله تعالى الواسع بجميع أعمال العباد، وإحصائها عليهم، وأنه سيحاسبهم ويمجازيهم عليها، خيرها وشرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾.

٢٢- إثبات الاختيار والفعل للعبد؛ لقوله: ﴿تَصْنَعُونَ﴾ وفي هذا رد على الجبرية والقدرية.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَالْهِنَا وَالْهَكُمْ وَحَدُّ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٥٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُوهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْقَابِ الْمُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ ءَايَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦١﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٢﴾ وَتَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٦٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ قَوْفِهِمْ وَمَنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ يَقُولُ ذُوْقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٥﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَالْهِنَا وَالْهَكُمْ وَحَدُّ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٥٦﴾ .

قوله: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا ﴾، أي: ولا تخاصموا وتنازعوا، والنهي للأمة كلها.

﴿ أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾؛ اليهود والنصارى، أي: ولا تخاصموا في سبيل بيان الحق

لهم، والرد على باطلهم.

﴿ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾؛ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا بالطريقة والصفة التي هي

أحسن، وذلك بحسن القصد، بحيث يكون القصد بيان الحق، وهداية الخلق، ونقض الباطل؛ مع قوة الحجة في المناظرة التي تندفع بها حجة الخصم، وتقوم بها عليه الحجة من دلائل الكتاب والسنة والآيات الشرعية والكونية، مع أدب المناظرة، وكون ذلك بالقول اللين، والكلام الطيب اللطيف، دون مغالبة أو استعلاء.

كما قال تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدَلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَبُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾؛ «إلا»: للاستثناء، أي: إلا الذين ظلموا من أهل الكتاب، فسعوا إلى إبطال الحق، وكذبوا وعاندوا، وحاربوا أهله، فهؤلاء يعاملون بالقوة والجلاد، والقتال والجهاد، مع القدرة على ذلك، ومع عدم القدرة على ذلك يتركون ولا يجادلون؛ فلا فائدة من جدالهم؛ لأنه قد ظهر عنادهم وظلمهم.

﴿وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، أي: لتكن مجادلتكم لهم مبنية على هذا القول؛ لأنه من أحسن المجادلة؛ لما فيه من التوطئة والتمهيد، والتهديئة، والترغيب، أو الإلزام لهم، وردم الهوة بينكم وبينهم في الاختلاف، وبيان أن الأصل بينكم وبينهم الاتفاق على الأصول المهمة، وذلك طريق بل سبب للاتفاق على ما عداها.

أي: وقولوا: صدقنا بالذي أنزل إلينا، أي: بالقرآن الكريم على وجه التفصيل، وصدقنا بالذي أنزل إليكم؛ وهما: التوراة والإنجيل على وجه الإجمال.

﴿وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾، أي: ومعبودنا ومعبودكم واحد، هو الله عز وجل وحده لا شريك له.

وفي هذا إرغام للنصارى في قولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَالِثٌ ثَلَاثَةٌ﴾ [المائدة: ٧٣]، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي: ونحن له وحده مسلمون، أي: مستسلمون له بالتوحيد، منقادون لطاعته، مخلصون له عن الشرك.

ومفاد هذا: أنهم إذا أخبروكم بما لا تعلمون صدقه ولا كذبه، فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم؛ كما قال ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ

وَمَا أَنْزَلْنَا... ﴿الآية﴾ (١).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ وَبِئْسَ لِلظَّالِمِينَ إِذَا لَازَمَتِ الْأَمْبِلُوتَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، أي: كما أنزلنا الكتاب على من قبلك يا محمد من الرسل كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب، أي: القرآن الكريم، المصدق لجميع الكتب قبله، و«ال» في ﴿الْكِتَابَ﴾ للعهد الذهني.

﴿فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾؛ من اليهود والنصارى، الذين آمنوا بالتوراة والإنجيل قبل تحريفهما، وبما جاء فيهما من البشارة بمحمد ﷺ، أمثال: النجاشي وعبدالله بن سلام وسلمان الفارسي وغيرهم، الذين امتدحهم الله تعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُنزل عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّا بِهِ ءِنَّهُ الْخُبْرُ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَنْدَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٤].

فالمراد بالإيتاء في قوله: ﴿ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ الإيتاء الكوني والشرعي؛ لأن كثيراً من أهل الكتاب وإن أوتوه كوناً فإنهم لم يؤتوه شرعاً؛ لأنهم كذبوا به؛ ولهذا كذبوا القرآن مع تصديق كتبهم به.

﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، أي: يؤمنون ويصدقون بالقرآن ويتبعونه، ويحكمونه؛ لتيقنهم بأنه مصداق ما أخبرت وبشرت به كتبهم، وأنه المصدق لها، وسلامتهم من الحسد والهوى؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦].

﴿وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾، أي: ومن هؤلاء العرب - من قريش وغيرهم -

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة البقرة ٤٤٨٥؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

من يؤمن ويصدق به، أي: بالقرآن.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾، أي: وما يكذب بآياتنا وينكرها، ﴿إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾؛ «الإلا»: أداة حصر، أي: إلا الكافرون بالله من أهل الكتاب والمشركين وغيرهم، الذين دأبهم الكفر والجحود، وستر الحق بالباطل؛ عنادًا واستكبارًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

﴿وَمَا كُنْتَ﴾، أي: وما كنت يا محمد، ﴿تَتْلُو﴾، أي: تقرأ، ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾، أي: من قبل إنزال القرآن عليك، ﴿مِنْ كِتَابٍ﴾؛ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما كنت تقرأ من قبل إنزال القرآن عليك أي كتاب. ﴿وَلَا تَحْطُرُهُ بِيَمِينِكَ﴾، أي: ولا تكتب أي كتاب بيمينك؛ لأنك أمي لا تقرأ ولا تكتب؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [الجمعة: ٢].

وقال ﷺ: «نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب»<sup>(١)</sup>.

﴿إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾؛ «إذا»: حرف جواب، واللام: رابطة لجواب شرط مقدر بـ«لو»، أي: لو كنت تتلو قبله كتابًا أو تخطه لارتاب المبطلون، وهذا كقوله تعالى: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

والمعنى: لو كنت تقرأ وتكتب لارتاب المبطلون، أي: لشك الذين يريدون إبطال الحق ونصرة الباطل، وقالوا: إنما أخذ هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء. مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمي لا يحسن القراءة ولا الكتابة؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسْطِيرٌ الْأَوَّلِينَ أَكْتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩١٣، ومسلم في الصيام ١٠٨، وأبو داود في الصوم ٢٣١٩؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾؛ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل هذا القرآن آيات بينات، مفصلات واضحات الدلالة على الحق، أمرًا ونهيًا وخبرًا، وفي هذا امتداح للقرآن الكريم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦].

﴿فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾، أي: في صدور الذين أعطاهم الله العلم، فمنّ عليهم بحفظ القرآن في صدورهم، وتلاوته، وتعلمه وفهمه، والعمل به؛ ولهذا جاء في الكتب المتقدمة في صفة هذه الأمة: «أناجيلهم في صدورهم»<sup>(١)</sup>. وفي هذا ثناء على أهل العلم، الذين يحفظون القرآن ويتلونونه، ويفهمون معانيه، ويعملون به، ويتدبرونه حق تدبره. وليس الذين يقرؤونه ولا يجاوز تراقيهم، وما أكثرهم!

وفيه امتنان عليهم بتيسير حفظه وتلاوته، وتفسيره لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠].

وقيل: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾، أي: بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبله من كتاب، ولا تحطه بيمينك، آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب، والأول أظهر.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾، أي: وما يكفر بآياتنا ويكذب بها.

﴿إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾؛ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا الظالمون الذين بلغوا الغاية في الظلم؛ لكفرهم وشركهم، وإنكار حق الله عليهم، بل وصرفه لغيره، وتكذيبهم بآياته. قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أولم يكفهم أننا أنزلنا عليك الكتاب يثلي عليهم إن في ذلك لرحمةً وذكري لقومٍ يؤمنون ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيِّنًا وَبَيِّنَاتٍ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَطْلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٦/ ٢٩٥.

قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ﴾؛ قرأ ابن كثير وحمة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم: «آية» بالإنفراد، وقرأ الباقون: ﴿آيَاتٌ﴾ بالجمع. أي: وقال المشركون المكذبون: ﴿لَوْلَا﴾ للتحضيض، أي: هلاً أنزل على محمد ﴿آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ﴾، أي: دلالات وحجج وبراهين من ربه نشاهدها، تدل على صدقه وصحة ما جاء به؛ كفاقة صالح وعصا موسى، ونحو ذلك.

كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّحِيلٍ وَعِنَبٌ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتَ عَلَيْنَا كَيْسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِزُوقِكَ حَتَّى تُنزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ ۚ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۝﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

وهم في هذا كاذبون، فقد أراهم ﷺ عدداً من الآيات الحسية؛ كانشقاق القمر، وتسبيح الطعام بين يديه، وتسبيح الحصى في يده (١)، وغير ذلك.

كما جاءهم بأعظم الآيات المعنوية وأكبر الآيات السماوية القرآن الكريم، ولكنهم كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، أي: قل لهم: ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ «إنما»: أداة حصر في الموضوعين، أي: ما الآيات إلا عند الله، هو الذي إن شاء أنزلها، وإن شاء منعها بمقتضى علمه وحكمته؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩].

﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ﴾، أي: وما أنا إلا نذير، أي: محذّر ومخوِّف، ﴿مُذِيرٌ﴾، أي: بين النذارة والتحذير والتخويف.

والحصر هنا إضافي، أي: لا أستطيع أن آتيكم بالآيات، وإنما الذي أستطيعه هو

(١) سبق تحريجها.

إنذاركم وتحذيركم من عذاب الله إن عصيتم أمره، أو ارتكبتم نهيه، وليس عليّ من أمر الإتيان بالآيات شيء، وليس عليّ هدايتكم؛ كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾؛ الاستفهام للإنكار والتعجب، أي: أولم يكف هؤلاء المكذبين - القائلين: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ - آية على صدقك وصحة نبوءتك: إنزالنا عليك القرآن يتلى عليهم، ويقرأ على الدوام؟ فهو آية مستمرة إلى يوم القيامة، وهو أعظم الآيات، وأكبر المعجزات، عجزوا عن معارضته مع تحديه لهم؛ لبلوغه غاية الإعجاز في ألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره. وفيه كفاية وغنية عن كل آية، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةٌ أَن يَّعْلَمَهُرُ عُلَمَاؤُا۟ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوْلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣].

ولهذا قال ﷺ: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»<sup>(١)</sup>.  
﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: إن في إنزال الكتاب عليك ﴿لِرَحْمَةٍ﴾؛ اللام للتوكيد، أي: لرحمة خاصة لك وللمؤمنين، ورحمة عامة للعالمين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿وَذَكَرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، أي: تذكير وعظة لقوم يؤمنون؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بالذكرى.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ﴾ الباء: زائدة لإفادة التوكيد، أي: كفى الله ﴿بِعِبَادِي وَيَعْبُدُكُمْ شَهِيدًا﴾؛ عليّ فيما بلغتكم من رسالته؛ ولهذا أيدني بالمعجزات، والدلائل الواضحات، ولو تقولت عليه لانتقم مني؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ [لأخذنا

(١) سبق تخريجه.

مِنَهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٦﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٧﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٨﴾  
[الحاقة: ٤٤ - ٤٧].

وشهيداً عليكم فيما قابلتموني به من تكذيب رسالته إليكم وحاكماً بيني وبينكم، وسيجازي كلاً منا بما عمل.

﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: يعلم جميع الذي في السموات والأرض من المخلوقات، ومن الناس وأعمالهم ومنه حالي وحالكم، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وسيحاسبهم جميعاً على ذلك.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾؛ الواو: استثنائية، و«الذين»: مبتدأ، وخبره: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، وهذا من الحكم بينه وبينهم. و«الباطل»: ضد الحق، وهو كل ما عبد من دون الله؛ ولهذا قبله بقوله: ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

قال ﷺ: «أصدق كلمة قالها شاعر: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»<sup>(١)</sup>.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ الجملة في محل رفع خبر «الذين»، وحصر الخسران وأكده فيهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، مع ضمير الفصل «هم». أي: الذين بلغوا الغاية في الخسران، في دينهم ودنياهم وأخراهم، الذين خسروا أنفسهم وأهلبيهم، ففاتهم المطلوب، ولم ينجو من المهوب؛ كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِي قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ دُوُّوْا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾:

(١) سبق تحريجه.

قوله: ﴿وَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾، أي: ويستعجلك المشركون المكذبون يا محمد بالعذاب، أي: يطلبون منك دعاء الله بتعجيله؛ تحدياً؛ لشدة تكذيبهم وعنادهم وجهلهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [يونس: ٤٨، الأنبياء: ٣٨، النمل: ٧١، سبأ: ٢٩، يس: ٤٨، الملك: ٢٥].

﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾، أي: ولولا وقت محدد معين مضروب، حدده الله تعالى ووقته لتعذيبهم في الدنيا، أو يوم القيامة.  
 ﴿لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾؛ عاجلاً؛ كما استعجلوه. واللام: واقعة في جواب «لولا».  
 ﴿وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً﴾؛ اللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: وليأتينهم فجأة.  
 ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ الجملة: حالية، أي: وهم لا يشعرون بمجيئه، إما في الدنيا، وإما في الآخرة.

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ تأكيد لما قبله، أي: يطلبون منك تعجيل العذاب، وهو واقع بهم لا محالة؛ ولهذا قال:  
 ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾؛ الجملة تعليلية، واللام: للتوكيد، أي: وإن جهنم لمحيطة بالكافرين من كل جهة ومن كل جانب، إحاطة السوار بالمعصم، ولن يفلتوا منها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣٩].

﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾، أي: يغطيهم العذاب الحسي في جهنم من فوقهم ومن تحت أرجلهم؛ تشديداً عليهم.  
 كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].

﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ قرأ نافع وحمة والكسائي وعاصم بالياء: ﴿وَيَقُولُ﴾، وقرأ الباقون بالنون: «وَنَقُولُ».

أي: ويقول الله تعالى تبيكيتاً وتقريعاً وتوبيخاً لهم، وإهانة: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: ذوقوا وتجرعوا جزاء الذي كنتم تعملونه، أو جزاء عملكم.

وهذا عذاب معنوي ينصب على القلوب لا يقل عن العذاب الحسي؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ﴿٣٧﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكذَّبُونَ ﴿٣٨﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ أَصَلَوْهَا فَأَصْبَرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الطور: ١٣-١٦].

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا فَتَحَتْ أَبْوَابَهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٦﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزمر: ٧١، ٧٢]، وقال تعالى: ﴿أخْسَعُوا فِيهَا وَلَا تَكَامُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] وما بعدها.

وإنما جعل الذوق للعمل في قوله: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ لأن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان.

### الفوائد والأحكام:

١- نهي المؤمنين عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، أي: إلا بالطريق والصفة التي هي أحسن؛ لأن ذلك أدعى لقبول الحق ونبذ الباطل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

٢- وجوب المجادلة بالتي هي أحسن؛ لأن الله نهي عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، وغيرهم من باب أولى؛ كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

٣- بلوغ القرآن والتشريع الإسلامي الغاية في الحسن في دعوة الناس ومجادلة المخالفين؛ حتى مع أهل الكتاب أشد الناس عتوًّا ومخالفة للحق.

٤- حرص الشرع على تأليف القلوب للإسلام؛ لنهي القرآن عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، فغيرهم من باب أولى.

٥- أن من ظلم من أهل الكتاب فسعى لإبطال الحق، وكذب به، وعاند وحارب أهله؛ لا يعامل بالتي هي أحسن، بل يعامل بالقوة والمحاربة والقتال مع القدرة على ذلك، أو يترك مع عدم القدرة على قتاله، فلا فائدة من جداله، وقد عاند وظلم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾.

٦- عدل الإسلام في النهي عن مجادلة أهل الكتاب عامة إلا بالتي هي أحسن، ما عدا الذين ظلموا منهم، فيعاملون بما يردعهم ويرد ظلمهم، وهكذا غير أهل الكتاب من الكفار. وفي هذا دلالة على أن من أهل الكتاب من ليس بظالم بل يريد الحق، ومنهم الظالم المعاند، وهكذا غيرهم من الكفار.

٧- أن لكل شخص أو طائفة ما يناسبه في دعوته إلى الله، أو إنكار ما هو عليه من باطل، فلا يساوى بين الظالم وغيره، ونحو ذلك.

٨- أن مما أوجبه الله على سائر الأمم: الإيمان بجميع الكتب المنزلة، والإيمان بألوهيته وحده لجميع الخلق، والاستسلام والانقياد له وحده دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَوَحْدٌ لَهُ الْمُسْلِمُونَ﴾.

٩- أن الواجب قبول ما مع الخصم من الحق حتى ولو كان كافرًا، وعدم القدح في شيء مما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب؛ كما أن من حسن المناظرة وآدابها ذكر المسائل المتفق عليها أولاً؛ لتقريب الفجوة بين المتجادلين، وإخراج المتفق عليه من المجادلة، وحصرها في المختلف فيه؛ ليكون ذلك توطئة، بل سبباً للاتفاق على المسائل المختلف فيها.

١٠- أن أهل الكتاب يؤمنون بالله ويقرون بألوهيته.

١١- ينبغي إذا أخبرنا أهل الكتاب بما لا نعلم صدقه ولا كذبه ألا نصدقهم ولا

نكذبهم، بل نقول: ﴿ءَأَمَّنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾؛ كما أمرنا الله بذلك ورسوله ﷺ.

١٢- إثبات علو الله على خلقه بذاته وصفاته، وإنزال القرآن الكريم والتوراة والإنجيل من عنده، وأن القرآن كلام الله عز وجل، والرد على القائلين بخلق القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أُنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾.

١٣- امتنان الله تعالى على نبيه ﷺ بإنزال القرآن عليه، وإثبات رسالته ﷺ، وتشريفه بذلك وبخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أُنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، وقوله: ﴿أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، وقوله: ﴿وَلِيَسْتَعْلِمُونَ﴾.

١٤- إيمان المنصفين من أهل الكتاب بالقرآن، وتصديقهم به؛ لشهادة كتبهم وتصديقها له؛ لقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.

١٥- إيمان بعض العرب من قريش وغيرهم، وتصديقهم بالقرآن؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾.

١٦- وضوح آيات الله تعالى ودلالاتها التامة على أنها من عند الله تعالى، وعلى وحدانيته، وعلى صدق من جاء بها، وأنه لا يجحدها ولا يكذب بها وينكرها إلا الكافرون المعاندون، الذين ينكرون ضوء الشمس في وضوح النهار، الظالمون المعتدون؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾، وقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾.

١٧- أن النبي ﷺ ما كان يقرأ ولا يكتب قبل إنزال القرآن عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ﴾.

١٨- أنه لو كان ﷺ يقرأ ويكتب قبل إنزال القرآن عليه لارتاب المبطلون الذين يريدون إبطال الحق، ونصرة الباطل، ولقالوا: إنما أخذ هذا من كتب الأنبياء قبله؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا لَازَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

١٩- امتداح الله تعالى لكتابه القرآن الكريم، وأنه آيات بينات واضحات الدلالة على الحق؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾.

٢٠- ثناؤه عز وجل على أهل العلم الحافظين لكتاب الله في صدورهم، المتدبرين لألفاظه ومعانيه، العاملين به؛ لقوله تعالى: ﴿فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾.

٢١- فضيلة العلم وأهله والترغيب فيه وفي حفظ القرآن الكريم.

٢٢- تعنت المشركين المكذبين باقتراحهم وطلبهم الآيات، معرضين عما جاءهم من الآيات، وعن القرآن الكريم أعظم الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ﴾.

٢٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ، وإقرار المشركين بذلك؛ لقولهم: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ﴾.

٢٤- أن الآيات عند الله، وأمر إنزالها إلى الله تعالى وحده؛ لتتام قدرته، وعلمه وحكمته؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

٢٥- أنه ﷺ ما هو إلا نذير بين النذارة والتحذير من عذاب الله تعالى، وليس إليه أمر الآيات، ولا هداية الخلق؛ لقوله: ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

٢٦- الاكتفاء بذكر الإنذار؛ لأن المقام مقام محاجة للكافرين، وأيضاً فإن من لازم الإنذار التبليغ، ببيان التكليف، التي ينذر من خالفها، وفي المقابل يبشر من امتثلها.

٢٧- أن في إنزال القرآن على النبي ﷺ يتلى عليهم كفاية عن جميع الآيات؛ لأنه أجل الآيات، وأكبر المعجزات، وفيه دلالة واضحة على صدقه ﷺ، وصحة ما جاء به؛ لأهل الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

٢٨- أن في إنزال القرآن رحمة خاصة له ﷺ، وللمؤمنين، ورحمة عامة للعالمين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾.

٢٩- أنه إنما يتذكر بالقرآن ويتنفع به المؤمنون خاصة، دون غيرهم من المعرضين؛ لقوله تعالى: ﴿وَذِكْرِي لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

٣٠- كفاية الله عز وجل شهيداً بينه ﷺ وبين المكذبين له، يشهد عز وجل على صدقه ﷺ فيما بلغهم من رسالة ربه، ويشهد على مقابلتهم له بالتكذيب، ويحكم بينه

وبينهم ويجازي كلاً منهم بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾.

٣١- أن شهادة الله تعالى أعظم شهادة وأكبرها؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩].

٣٢- أن شهادة الله تعالى تكون بالقول، كما قال عز وجل للنبي ﷺ: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ﴾ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٣٢﴾ [النساء: ١٦٦].

وتكون بالفعل بالتأييد والتمكين والنصر.

٣٣- علم الله عز وجل الواسع المحيط بما في السموات والأرض ويكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

٣٤- خسارة الذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله غاية الخسران؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾. ومفهوم هذا أن من كفر بالباطل وآمن بالله فهو الرابع حقاً.

٣٥- استعجال المشركين المكذبين بالعذاب؛ لجهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾.

٣٦- حكمة الله تعالى، وأن كل شيء عنده بقدر وأجل، وأنه لولا وقت حدده الله وعيَّنه وضربه لتعذيبهم في الدنيا أو يوم القيامة؛ لجاهم العذاب عاجلاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾.

٣٧- تهديدهم ووعيدهم بإتيان العذاب إليهم فجأة وهم لا يشعرون به، وذلك أشد وأعظم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

٣٨- استعجالهم بالعذاب مع أنه واقع بهم لا محالة؛ إما في الدنيا، وإما في الآخرة بجهنم المحيطة بجميع الكافرين من كل جانب؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ ﴿٣٨﴾.

٣٩- غشيان العذاب الحسي لهم، وإحاطته بهم من فوقهم ومن تحتهم؛ لقوله

تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾.

٤٠- إثبات القيامة وجهنم وعذابها.

٤١- الجمع لهم بين العذاب الحسي في النار، وبين العذاب المعنوي المنصب على القلوب، بالتبكيك والتفريع والتوبيخ لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ دُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٤٢- أن الجزاء من جنس العمل؛ وكما يدين المرء يدان؛ لقوله تعالى: ﴿دُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وفي هذا إثبات عدل الله تعالى.

٤٣- إطلاق السبب على المسبب؛ لقوله: ﴿دُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهم يذوقون ما تسبب عن عملهم وهو العذاب.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿يَعْبُدِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعِبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرَ الْعَمِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَاَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾.

قوله تعالى: ﴿يَعْبُدِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعِبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرَ الْعَمِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾:

قوله: ﴿يَعْبُدِي﴾؛ «يا»: حرف نداء، و«عباد»: منادى، وهو مضاف، وياء المتكلم مضاف إليه.

والمراد بالعبودية هنا: العبودية الخاصة لله تعالى، وهي أشرف ما يوصف به البشر. ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ صفة لـ«عبادي»، أي: الذين آمنوا وصدقوا باطنًا وظاهرًا، بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، وفي نداء الله تعالى لهم بوصف عبوديتهم له، وبوصف الإيمان، تشریف وتكریم لهم. ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ امتنان عليهم بسعة أرضه عز وجل، وإعذار إليهم بأنه ما ضيق عليهم.

﴿فَإِنِّي فَاعِبُدُونِ﴾، أي: فاعبدوني وحدي، وهاجروا من الأرض التي لا تقدرون فيها على عبادتي وإقامة دينكم إلى أرضي الواسعة؛ حيث يمكنكم عبادتي وتوحيدي، وإظهار دينكم.

وهكذا فعل ﷺ وأصحابه الكرام حين كانت مكة دار شرك، فهاجر بعض

أصحابه الهجرة الأولى إلى الحبشة، ثم هاجر ﷺ وإياهم الهجرة الثانية إلى المدينة.

وقد توعد الله تعالى الذين تركوا الهجرة وأقاموا مع المشركين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمُشْرِكِينَ ظَالِمِينَ أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [النساء: ٩٧].

وقال ﷺ: «أنا بريء من أي مسلم يقيم بين أظهر المشركين»، قالوا: يا رسول الله، لم؟ قال: «لا تراءى ناراهما» (١).

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ جاءت هذه الآية في سورة آل عمران: الآية: ١٨٥، وفي سورة الأنبياء، الآية: ٣٥، أي: كل نفس ميتة من بني آدم وغيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٦٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٦٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [الجمعة: ٨]، وقال تعالى: ﴿أَيُّمَّا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

قال الشاعر:

كتب الموت على الخلق فكم فل من جمع وأفنى من دول (٢)

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾؛ قرأ أبو بكر عن عاصم بالغيب: «يُرْجَعُونَ»، وقرأ الباقون بالخطاب: ﴿تُرْجَعُونَ﴾.

أي: ثم إلينا تردون بعد البعث للحساب والجزاء؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٥٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥ - ٢٦].

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: آمنوا باطنًا بقلوبهم، وعملوا الصالحات ظاهرًا بجوارحهم.

(١) سبق تخريجه.

(٢) البيت لابن دريد، من لاميته.

﴿لَنْبُوتَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالثاء المثلثة، ساكنة بعد النون، وإبدال الهمزة ياء: «لَنْبُوتَنَّهُمْ»؛ من الثواء، وهو الإقامة، وقرأ الباقون بالباء الموحدة والهمزة: ﴿لَنْبُوتَنَّهُمْ﴾؛ من التبوء، وهو المنزل.

واللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: لنسكننهم ونزلنهم من الجنة غرفًا، أي: منازل ومساكن عالية؛ كما قال تعالى: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِّن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِعَادَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزمر: ٢٠].

﴿تَجْرِي مِّن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، أي: تجري وتسيل من تحت أشجارها وقصورها وغرفها الأنهار المختلفة، السارحة بغير أخذود، يصر فيها أهل الجنة حيث شاؤوا.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، أي: مقيمين وماكثين فيها إقامة أبدية، لا تحول ولا تزول؛ لأن الجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها، ولا يموت أهلها، ولا يهرمون، ولا يخرجون منها؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَمِنَ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوزٍ ﴿١٧﴾﴾ [هود: ١٠٨].

﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ﴾، أي: نعم هذه الغرف والمنازل العالية في الجنة والتي تجري من تحتها الأنهار وهم خالدون فيها.

﴿أَجْرُ الْعَمَلِينَ﴾، أي: جزاؤهم، وهذه مدح من الله تعالى لها، فأنعم بها من غرف! وأكرم بها من منازل! وفيه ثناء عليهم؛ ولهذا قال:

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾، أي: حبسوا أنفسهم على طاعة الله تعالى، فهاجروا وجاهدوا في سبيل الله، ولازموا طاعته، وصبروا عن معصية الله تعالى، وصبروا على أقداره المؤلمة.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، أي: وعلى ربهم وحده دون سواه يعتمدون، ويفوضون أمورهم إليه في جلب النفع لهم، ودفع الضر عنهم، مع تمام ثقتهم به عز وجل؛ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

﴿وَكَايِنٍ مِّن دَابَّةٍ﴾، أي: وكم من دابة، أي: وكثير من الدواب.

﴿لَّا تَحْمِلُ رِقْعًا﴾، أي: لا تستطيع أن تكتسب وتحصل رزقها، ولا تطيق جمعه وتحصيله، وادخار شيء منه لغد.

﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾، أي: يعطيها رزقها ويسره لها بأي سبب كان.

وقد ذكر أن الغراب إذا فقس عن فراخه البيض، وخرجوا وهم بيض، فإذا رآهم أبواهم كذلك نفرا عنهم حتى يسود الريش، فيظل الفرخ فاتحاً فاه يتفقد أبويه فيقيض الله له صغاراً من الحشرات كالبعوض، فيغشاه فيقتات منه تلك الأيام حتى يسود شعره، والأبوان يتفقدانه كل وقت، فكلما رآياه أبيض الريش نفرا منه، فإذا اسود ريشه عطفاً عليه بالحضانة والرزق؛ ولهذا قال الشاعر:

يا رازق النعاب<sup>(١)</sup> في عشه      وجابر العظم الكسير المهيض

﴿وَأَيَّاكُمْ﴾، أي: ويرزقكم ويسر رزقكم، فمن هاجر ابتغاء مرضاة الله لإقامة دينه أدر الله عليه الرزق أينما كان، ورزقه من حيث لا يحتسب؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وقد أحسن القائل:

وإذا رأيت الرزق ضاق ببلدة      وخشيت فيها أن يضيق المذهب

فارحل فأرض الله واسعة الفضا      طولاً وعرضاً شرقها والمغرب

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾، أي: ذو السمع الذي يسمع ويحيب الدعاء، ويسمع جميع الأقوال والأصوات. ﴿الْعَلِيمُ﴾ ذو العلم الذي وسع كل شيء،، ويعلم أحوال جميع الدواب، وحوائج جميع الخلائق ويرزقهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفِكُونَ﴾ ٦١ ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ٦٢ ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ٦٣:

(١) «النعاب»: فرخ الغراب، سمي بذلك لكثرة نعيبه.

قوله: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾؛ الواو في الموضوعين: استثنائية، واللام فيهما: موثقة للقسم، أي: والله لئن سألت هؤلاء المشركين والمكذبين الذين آمنوا بالباطل، وكفروا بالله، واستعجلوا العذاب. والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له.

﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، أي: من الذي أنشأ السموات والأرض وأوجدهما، وأتقنهما، وما فيهما من العوالم والمخلوقات؟ و«من» في الموضوعين: اسم استفهام.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾، أي: ومن الذي ذلل الشمس والقمر يجريان في فلكيهما بحساب دقيق لمصالح العباد ومنافعهم؟ كما قال تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا﴾ [الأنعام: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلًا نَّفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْآهْلِ فَلْيَنْصُرْهُمْ لِقَوْلِ اللَّهِ وَالْحَقِّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

﴿لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾؛ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: ليقولن: الله الذي خلق السموات والأرض، وسخر الشمس والقمر.

﴿فَأَنِّي يُؤْفَكُونَ﴾؛ الاستفهام: للإنكار والتعجب، أي: فكيف يؤفكون؟! ومعنى «يؤفكون»: يُصرفون، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُمْ يُصْرَفُونَ﴾ [غافر: ٦٩].

أي: فكيف يصرفون عن عبادة الله تعالى، ويجعلون إفكًا وكذبًا آلهة يعبدونها من دونه، وهم يعلمون ويعترفون بأنه الرب الخالق المالك المدبر، وأن هذه الآلهة لا تخلق ولا ترزق، ولا تملك من الأمر شيئًا؟!

فإقرارهم بربوبية الله تعالى وحده يوجب عليهم أن يعبدوه وحده، واعترافهم بأن

ألهتهم لا تملك من الأمر شيئاً يوجب الإقرار ببطلان عبادتها.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، أي: الله عز وجل وحده يوسع الرزق والعتاء للذي يشاء ويريد من عباده كلهم، مؤمنهم وكافرهم؛ لأن المراد بالعبودية هنا: العبودية العامة، قال تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هُنُوْلًا وَهُنُوْلًا مِّنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

﴿وَيَقْدِرُ لَهُ﴾، أي: ويضيق الرزق للذي يشاء ويريد من عبادهم كلهم؛ لحكمة يعلمها، ابتلاءً وامتحاناً، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠].

وليس توسيعه الرزق دليلاً على رضاه، ولا تضيقه دليلاً على سخطه.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ متعلق بالخبر «عليم»، وقُدِّم عليه؛ لتأكيد عموم علمه بكل شيء، وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مِّن نَّزَلٍ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، أي: ولئن سألت هؤلاء المشركين المكذبين: من الذي نزل من السماء ماءً وهو المطر.

﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ﴾، أي: فأحيا بهذا الماء - أي: بسببه - الأرض بالنبات والزروع والأشجار.

﴿مِن بَعْدِ مَوْتِهَا﴾، أي: من بعد قحطها وجدبها وبيسها؟

﴿لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾؛ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: ليقولن الله الذي نزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض من بعد موتها.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ لما اعترف المشركون بتفرده عز وجل بالخلق والرزق والإحياء والإماتة، وأنه ليس لألهتهم شرك في ذلك، وكان ذلك موجباً لإبطال إشراكهم مع الله بما لا يستطيعون إنكاره، والإقرار بالبعث؛ لأن من لازم الإقرار بتوحيد الربوبية الإقرار بتوحيد الألوهية؛ لهذا أمر الله رسوله ﷺ بقوله:

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي: الحمد لله على إقامته الحججة، وإيضاحه المحجة بأنه لا رب غيره، ولا معبود بحق سواه، وعلى قدرته التامة على البعث، وهو أمر له ﷺ ولكل مؤمن.

ومعنى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي: الثناء والوصف بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم، خاص بالله تعالى، مستحق له وحده؛ لكمال ربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل أكثرهم لا يتأملون بعقولهم في آيات الله تعالى ودلائل وحدانيته وربوبيته؛ ليهتدوا بذلك إلى وحدانيته في ألوهيته، ووجوب عبادته وحده لا شريك له.

### الفوائد والأحكام:

- ١- تصدير الخطاب بالنداء؛ للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْبَادِي﴾.
- ٢- تشریف الله تعالى وتكريمه للمؤمنين بنداثة لهم بوصف العبودية، الذي هو أجل وصف يوصف به البشر، وإضافتهم إليه في قوله: ﴿يَعْبَادِي﴾.
- ٣- وصفه عز وجل لعباده بوصف الإيثار؛ تشریفًا وتكریمًا لهم، وترغيبًا للاتصاف بهذا الوصف، وامثال الأمر بعده، وأن ذلك من مقتضيات الإيثار؛ كما أن عدم امتثاله يعد نقصًا في الإيثار؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾.
- ٤- إثبات عبودية المؤمنين لله تعالى عبودية خاصة.
- ٥- امتنانه عز وجل على العباد بسعة أرضه، والإعذار إليهم، بأنه ما ضيق عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾.
- ٦- وجوب الهجرة من الأرض التي لا يتمكن فيها الإنسان من إقامة دينه، إلى أرض يتمكن فيها من عبادة الله تعالى وإظهار دينه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ﴾، وهكذا فعل ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم؛ فهاجر بعضهم إلى الحبشة، ثم هاجر ﷺ بعد ذلك هو وكثير منهم إلى المدينة.
- ٧- وجوب إخلاص العبادة كلها لله تعالى وحده، وتأکید ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَأِنِّي فَأَعْبُدُونَ﴾.

٨- أن كل نفس ميتة لا محالة من جميع المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ دَآئِقَةٌ أَلْمُوتِ﴾.

٩- إثبات البعث والقيامة، ورجوع الخلائق كلهم إلى الله تعالى للحساب والجزاء على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾، وفي هذا وعد ووعد، وحث على

محاسبة النفس.

١٠- عظم ما أعد الله تعالى للذين آمنوا وعملوا الصالحات من المنازل العالية، والغرف الرفيعة في الجنة، وما فيها من الأنهار والنعيم خالدين فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

١١- لا بد من الجمع بين إيمان القلب وعمل الجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

١٢- لا بد من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه، وسنة نبيه ﷺ.

١٣- امتداح الله تعالى لما أعده للمؤمنين من الأجر العظيم؛ جزاء عملهم وصبرهم وتوكلهم على ربهم، والثناء عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ [٥٨] ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [٥٩].

١٤- أن الجزاء من جنس العمل، فمن أحسن العمل، بأن آمن وعمل صالحًا وصبر وتوكل على ربه؛ جوزي بأحسن الجزاء؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

١٥- تكفل الله عز وجل بهذا الثواب للمؤمنين؛ لإقسامه على ذلك بقوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾؛ وتسميته أجرًا في قوله: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾، مع أنه سبحانه لا يجب عليه شيء لخلقه، لكنه تكفل بذلك وأوجبه على نفسه؛ تفضلاً منه وكرمًا.

١٦- فضيلة الصبر وأهله؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾.

١٧- وجوب التوكل على الله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

١٨- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح والصبر والتوكل على الله عز وجل وحده؛ لعظم ما أعده عز وجل لمن آمن وعمل صالحًا، وصبر وتوكل على ربه.

١٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

١٨- تكفل الله عز وجل برزق جميع الخلق، والدواب ضعيفها وقويها؛ لقوله

تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾.

١٩- أن الأرزاق كلها بيد الله، وهو الرزاق وحده، فيجب بذل السبب، والتوكل على الله.

عن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، اتقوا الله، وأجملوا في الطلب؛ فإن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها، وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، خذوا ما حل، ودعوا ما حرم»<sup>(١)</sup>.

٢٠- إثبات اسمي الله عز وجل: «السميع» و«العليم»، وصفتي: السمع الواسع، والعلم الواسع له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. فهو عز وجل يسمع الأقوال والأصوات، ودعاء السائلين ويحييهم، ويعلم أحوال الخلق أجمعين ويرزقهم.

٢١- اعتراف المشركين بربوبية الله تعالى، وأنه هو الذي خلق السموات والأرض، وسخر الشمس والقمر، ونزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض من بعد موتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ ﷻ، وقوله: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولَنَّ اللَّهُ ﷻ﴾.

٢٢- إثبات ان الله هو الذي خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر، وأنزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها.

٢٣- الإنكار عليهم، والتعجب من صنيعهم؛ كيف يقرون بربوبية الله تعالى وحده، وأنه الذي خلق السموات والأرض، وسخر الشمس والقمر، وأنزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها دون آلهتهم، ومع ذلك يشركونها مع الله؟! لأن الإقرار بتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنِّي يُؤْفَكُونَ﴾.

٢٤- أن الإقرار بتوحيد الربوبية وحده لا يكفي، فالمشركون مقرّون به ولم ينفعهم ذلك.

(١) أخرجه ابن ماجه في التجارات ٢١٤٤.

٢٥- تفرده عز وجل واختصاصه بتقسيم الأرزاق على الخلق، يوسع الرزق لمن يشاء، ويضيقه على من يشاء، بحكمته البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾.

٢٦- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية.

٢٧- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنَ عِبَادِهِ﴾.

٢٨- علم الله تعالى المحيط بكل شيء من أحوال الخلق، وما يصلحهم في معاشهم ومعادهم، من بسط الرزق، أو تضييقه، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

٢٩- إقرار المشركين المكذبين بالبعث بأن الله يحيي الأرض من بعد موتها، وفي هذا حجة عليهم، على قدرته على بعث الأجساد بعد موتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾.

٣٠- قدرة الله تعالى التامة وحكمته، ورحمته في إنزال المطر من السماء وإحياء الأرض به، وإحياء الموتى وبعثهم.

٣١- إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ﴾.

٣٢- اختصاص الله عز وجل واستحقاقه للثناء والوصف بأكمل الصفات، ووجوب حمده؛ لإقامته الحجة، وإيضاحه المحجة، على وحدانيته في ألوهيته، وبطلان الشرك، وأنه لا رب غيره، ولا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

٣٣- أن أكثر المشركين وأكثر الخلق لا ينتفعون بعقولهم في التأمل في آيات الله تعالى ودلائل وحدانيته وربوبيته، فلا يستدلون بها على وحدانيته في ألوهيته، ووجوب عبادته وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْتَمْتَعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيَتَخَفَتُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبِطْلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْتَمْتَعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾:

قوله: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾؛ الحياة الدنيا: بدايتها منذ خلق الله الخليقة إلى قيام الساعة، أي: ما قبل الآخرة، وهي بالنسبة للفرد: منذ ولادته إلى أن يموت. وسميت: «دنيا»؛ لأنها قبل الآخرة زماناً؛ كما أنها دنيئة حقيرة، لا قيمة لها بالنسبة للآخرة؛ ولهذا أشار إليها هنا بقوله: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ للإشارة إلى حقارتها ودون مرتبتها، كما وصفها عز وجل بأنها لهو ولعب، بينما وصف الآخرة بأنها الحيوان؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

والمعنى: وما الحياة الدنيا في حقيقتها وقيمتها، «إلا»: أداة حصر، أي: إلا مجرد ﴿لَهْوٌ﴾؛ تلهو فيها القلوب، ﴿وَلَعِبٌ﴾؛ تلعب فيها الأبدان والجوارح؛ لما فيها من الفتنة والزينة واللذات والشهوات، وسرعان ما تزول وتنتهي.

كما قال تعالى: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَلًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَعٌ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعَ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ

وَأَبْقَى أَفْلا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ [القصص: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الشورى: ٣٦].

فمن قصد الدنيا وأرادها فليس له منها إلا اللهو واللعب، لكن من عرف حقارتها، وجعلها مطية للعمل للآخرة، فهي نعمت المطية والمحل لعمارة الدار الآخرة. ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾؛ اللام للتوكيد، أي: هي الحياة الكاملة حقاً؛ لاكتمال حياة البدن والقلب والنفس فيها، وجميع القوى، ولأنها دائمة باقية أبد الأباد، لا زوال لها ولا انقضاء.

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، «لو»: حرف شرط غير جازم، أي: لو كان الخلق يعلمون فرق ما بين الدارين، وحقارة الدنيا، وعظم منزلة الآخرة، لما اختار كثير منهم الدنيا على الآخرة، ولآثروا ما يبقى على ما يفنى، وجدّوا واجتهدوا للعمل للآخرة؛ كما قال الرجل المؤمن: ﴿يَقْوَمُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر: ٣٩].

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

ذكر اعتراف المشركين فيما تقدم بأن الذي خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر هو الله، وأن الذي ينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها هو الله، ثم ذكر اعترافهم أيضاً بلسان حالهم ومقالمهم أنه لا يفرج الكرب والشدة إلا الله دون آلهتهم.

قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّ﴾، أي: فإذا ركب المشركون في السفن، وأحاطت به أمواج البحر المتلاطمة وأحرق بهم الخطر والهلاك، واشتد بهم الحال، وضاق عليهم الأمر.

﴿دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، أي: دعوا الله تعالى وسألوه وحده مخلصين له الدين اضطراراً دون شركائهم؛ لعلمهم أنه لا ينجيهم في هذا الموقف إلا الله تعالى وحده.

كما ذكر محمد بن إسحاق عن عكرمة بن أبي جهل؛ أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة خرج فارّاً منها، فلما ركب البحر ليذهب إلى الحبشة، اضطربت بهم السفينة، فقال

أهلها: يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء؛ فإنه لا ينجي ههنا إلا هو. فقال عكرمة: والله إن كان لا ينجي في البحر غيره، فإنه لا ينجي غيره في البر أيضًا، اللهم لك عليّ عهد لئن خرجت لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد، فلأجدنه رؤوفًا رحيمًا، وكان كذلك» (١).

﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾؛ الفاء: عاطفة، و«لما» ظرف بمعنى حين متضمن معنى الشرط، أي: فلما نجاهم عز وجل إلى البر، وزالت عنهم الشدة.

﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾؛ «إذا»: هي الفجائية، أي: سرعان ما عرضوا، ونسوا دعاءهم إياه، وإنجاءه إياهم.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوًّا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾؛ قرأ ابن كثير وحمة والكسائي وخلف وقالون بإسكان اللام: «وَلِيَتَمَتَّعُوا»، وقرأ الباقر بكسر اللام: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾. واللام في الموضعين: لام العاقبة، أي: لتكون العاقبة أن يكفروا بما آتيناهم ويتمتعوا.

وقال بعضهم: هي لام التعليل، باعتبار أن الله قبض لهم ذلك. أي: ليكفروا بالذي أعطيناهم من الأمن في البلد الحرام والرزق، وإنجائهم من الغرق، ومن بعثة محمد ﷺ فيهم بالهدى ودين الحق، وأعظم بها من نعمة لو عرفوا قدرها.

﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾؛ أي وليتمتعوا في ملذاتهم وشهواتهم، وفسقهم وفجورهم. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾؛ «سوف»: حرف استقبال، وهذا وعيد وتهديد لهم، أي: فسوف يعلمون عاقبة شركهم، وكفرهم بما آتاهم الله، وجحودهم نعمه، وإيثارهم التمتع

(١) «تفسير ابن كثير» ٦/٣٠٢.

باللذات والشهوات والفسق والفجور، وذلك حين يحل بهم عقاب الله عاجلاً أو آجلاً.  
 قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَبِتَّخَطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ  
 أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ  
 كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا  
 لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾:

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾؛ الاستفهام للإنكار، أي: أ ولم ير  
 مشركو قريش، أي: يعلموا ويشاهدوا أنا صيرنا حرمًا آمنًا، وهو البلد الحرام، مكة  
 شرفها الله تعالى؟!!

﴿وَبِتَّخَطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾، أي: ويؤخذ الناس من حولهم بالاعتداء  
 عليهم بالقتل والنهب والسلب وغير ذلك، وهم آمنون مطمئنون، لا يعتدى عليهم في  
 مقامهم لحرمة الحرم، ولا في أسفارهم لأنهم أهل الحرم.

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِبْنَ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾  
 [القصص: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾  
 فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾  
 [قريش: ١-٤].

﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾؛ الاستفهام للإنكار، أي: أ فبالباطل، وهو ما هم عليه من  
 الشرك والكفر والفسوق والفجور، وكفر النعم ونحو ذلك، قال لييد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ..... (١)

﴿يُؤْمِنُونَ﴾، أي: يصدقون.

﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾، أي: وبما أنعم الله به عليهم من الأمن في الحرم،  
 وجلب الثمرات إليهم، وبعثة محمد ﷺ فيهم بالهدى ودين الحق.

﴿يَكْفُرُونَ﴾، أي: ييحدون تلك النعم وينكرونها، ويكذبون بها، بإشراكهم  
 مع الله غيره، وتكذيب رسوله. وفي هذا تهديد لهم مع الإنكار عليهم.

كما قال تعالى: ﴿\* أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَبَسَّ الْقِرَارُ ﴿﴾ [إبراهيم: ٢٨-٢٩]، وقال تعالى: ﴿\* وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿﴾ [إبراهيم: ٧].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾؛ الاستفهام للإنكار والنفي، أي: لا أحد أظلم، أي: لا أحد أشد ظلماً، أي: وأشد عقوبة.

﴿وَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، أي: من الذي اختلق على الله كذباً، بأن قال: إن الله أوحى إليّ، ولم يوح إليه شيء، أو قال على الله ما لا يعلم، أو نسب ما هو عليه من الضلال والشرك إلى الله.

كما قال تعالى: ﴿\* وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿\* قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿\* وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ [الأعراف: ٢٨].

﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾، أي: ولا أحد أشد ظلماً من الذي كذب بالحق حين جاءه من عند الله تعالى على لسان رسول الله ﷺ.

﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾؛ الاستفهام للتقرير، وفيه معنى الإنكار؛ كما في قول جرير (١):

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح؟!

أي: أليس في النار، وسميت النار بـ«جهنم»؛ لجهمتها وظلمتها، وبعد قعرها، وشدة حرها.

(١) انظر: «ديوانه» (ص ٩٣).

﴿مَثْوَىٰ لِلْكَافِرِينَ﴾، أي: مأوى لهم ومستقرًا ومسكنًا.

والمعنى: فيها مَثْوَى ومَأْوَى ومستقر لهم، ومحل إقامة، خالدین فيها أبدًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧].

وفي قوله: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ إظهار في موضع الإضمار؛ لتسجيل الكفر عليهم، وأنه سبب دخولهم النار، وليعم هذا الوعيد كل كافر.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

لما ذم المشركين المكذبين الكافرين، وأنكر عليهم كفرهم وعدم شكرهم، وتوعدهم بجهنم، أثنى على من جاهدوا في دينه عز وجل من المحسنين، ووعدهم بهدائيتهم إلى سبيل مرضاته، ومعيتهم لهم معية خاصة؛ جمعًا بين الترغيب والترهيب.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا﴾، أي: والذين بذلوا جهدهم وطاقتهم ﴿فِينَا﴾، أي: في سبيل الله ودينه، وابتغاء مرضاته، فجاهدوا أعداءه بالسيف والسنان، والحجة والبرهان، وجاهدوا أنفسهم بلزوم طاعة الله تعالى، والبعد عن محارمه؛ وهم الرسول ﷺ، وأصحابه، وأتباعهم على الإيثار إلى يوم الدين.

﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾؛ اللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: لنوفقنهم ونبصرنهم وندلنهم طرقنا الموصلة إلينا، وهي الأعمال الصالحة، الموصلة إلى مرضاة الله تعالى وجنته.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ اللام للتوكيد، أي: وإن الله لمع المحسنين معية خاصة؛ بهدأته إياهم، وتوفيقه لهم، وعونه وتسديده، ونصره وتأييده.

﴿وَالْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا في عبادة الله تعالى؛ إخلاصًا لله تعالى، ومتابعة لرسوله ﷺ، ممثلين قوله ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» (١).

وأحسنوا إلى عباد الله تعالى بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، قولًا وفعلًا وبذلًا، وجمعوا بين الإحسان القولي، والإحسان الفعلي وهذه الآية؛ كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ

(١) سبق تفريجه.

الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ [النحل: ١٢٨].

### الفوائد والأحكام:

١- حقارة الدنيا ودنو منزلتها؛ لأنها مجرد لهُو ولعب، وسرعان ما تزول وتنقضي، وتعقبها الندامة والحسرات؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾.

مما يوجب الحذر منها، وعدم الاغترار بها، وأن يجعلها الإنسان مطية للآخرة، ويعمرها بالإيمان والأعمال الصالحة، فإن فعل ذلك أفلح ونجح، وكانت له نعم المطية.

٢- أن الدار الآخرة هي الحياة الحقة الكاملة، والحياة الدائمة الباقية، التي لا زوال لها ولا انقضاء؛ مما يوجب أن يحسب المرء لها كل حساب، ويستعد لها بكل استعداد؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾.

٣- أن الخلق لو كانوا يعلمون فرق ما بين الدارين، وحقارة الدنيا، وعظم منزلة الآخرة، لما اختار أحد منهم الدنيا على الآخرة، ولآثروا الحياة الباقية على الحياة الفانية؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

٤- أن من آثر الدنيا على الآخرة فهو لا يعلم، وإن أرعد وأزيد وادعى أنه يعلم، بل هو جاهل مركب، وأجهل من حمار أهله، لا يعلم، ولا يعلم أنه لا يعلم.

٥- إخلاص المشركين الدعاء لله تعالى وحده إذا اشتد بهم الحال عند ركوبهم البحر وتلاطم أمواجه، وإحداق الخطر والهلاك بهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكبُوا فِي الْفُلِّ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، وفي هذا اعتراف منهم بلسان الحال- إن لم يكن بلسان- المقال بأن آلهتهم لا تنفعهم.

٦- أن اللجوء إلى الله تعالى عند الشدة أمر فطري .

٧- أن دعاء المسألة من الدين والعبادة؛ لقوله تعالى: ﴿دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ

الدِّينَ﴾.

٨- ذم المشركين بمبادرتهم بالرجوع إلى الشرك بالله بعد إنجائه إياهم إلى البر، ونسيانهم ما كانوا يدعون من قبل؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْبَرُّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

٩- رجوع المشركين بعد إخلاصهم الدعاء لله حال الشدة إلى الشرك- بعد إنجائه

إياهم - وكفرهم وجحودهم لما آتاهم الله وأنعم به عليهم؛ من الأمن في الحرم وفي أسفارهم، وجلب الأرزاق لهم، وإنجائهم من الغرق، وبما آتاهم الله على لسان رسوله ﷺ من الهدى ودين الحق. وإيثارهم للتمتع بما هم فيه من اللذات والشهوات والفسق والفجور؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾.

١٠- التهديد لهم بما يستقبلهم من العذاب الشديد في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

١١- أن المشركين المتأخرين أشد شركًا؛ لأنهم يشركون في الرخاء والشدّة.  
١٢- الإنكار على قريش عدم شكرهم لنعمة الله تعالى في جعل مكة حرماً آمناً، يأمنون بسببه في إقامتهم، وفي أسفارهم؛ لأنهم أهل الحرم وسكانه، بينما يتخطف الناس من حولهم، بالقتل والسلب والنهب؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾.

١٣- الإنكار عليهم في إيمانهم بالباطل؛ مما هم عليه من الشرك والكفر والظلم والافتراء والتكذيب، وكفرهم بنعمة الله في جعلهم آمنين في مقامهم في الحرم، وفي أسفارهم، وجلب الثمرات إليهم، وأعظم من ذلك وأهم - لمن عرف قدر ذلك - بعثة محمد ﷺ فيهم بالهدى ودين الحق؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾.

١٤- أن نعمة الأمن من أعظم النعم؛ لهذا امتن الله بها على قريش.  
١٥- أنه لا أحد أشد ظلمًا ممن اختلق على الله كذبًا بدعوى النبوة وهو كاذب، والقول على الله بلا علم، ونحو ذلك، أو كذب بالحق لما جاءه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾.

١٦- تقرير وإثبات أن جهنم مثوى الكافرين، ومستقرهم ومأواهم، خالدين فيها أبدًا، وبئس المصير؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾.

١٧- وعد الله تعالى - الذي لا يخلف وعده - للذين بذلوا جهدهم وطاقتهم في جهاد أعدائه بالسيف والسنان، والحجة واللسان، وفي لزوم طاعته، والبعد عن محارمه؛ بتوفيقهم وهدايته سبل مرضاته الموصلة إليه وإلى جنته؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ

جَهْدُوا فِينَا لِنَهْدِيَهُمْ سُبُلَنَا ﴿٦٤﴾، وفي هذا ترغيب وحث على المجاهدة في الله؛ ابتغاء مرضاته.

١٨- إثبات معية الله الخاصة للمحسنين، الذين أحسنوا في عبادة الله تعالى، وإلى عباده، وأنه عز وجل معهم معية خاصة بالتوفيق والنصر والحفظ والتأييد لهم، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٦٥﴾، وفي هذا إغراء وترغيب بالإحسان.

\* \* \*



## فهرس الموضوعات

- ٥ ..... تفسير سورة الشعراء
- ٧ ..... المقدمة
- ٧ ..... أ- اسم السورة:
- ٧ ..... ب- مكان نزولها:
- ٧ ..... ج- موضوعاتها:
- ١١ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿طَسَمَ ١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢﴾... ﴿الآيات [١-٩] ١١﴾
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ...﴾ ﴿الآيات [١٠-٢٢] ١٨﴾
- ٢٧ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ...﴾ ﴿الآيات [٢٣-٣٧] ٢٧﴾
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ...﴾ ﴿الآيات [٣٨-٥١] ٣٥﴾
- تفسير قوله تعالى: ﴿\* وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ...﴾ ﴿الآيات [٥٢-٦٨] ٤٤﴾
- ٥٢ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ...﴾ ﴿الآيات [٦٩-٨٩] ٥٢﴾
- ٦٦ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْجَنَّةَ لِمُتَّقِينَ...﴾ ﴿الآيات [٩٠-١٠٤] ٦٦﴾
- ٧٢ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ...﴾ ﴿الآيات [١٠٥-١٢٢] ٧٢﴾
- ٨٢ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ...﴾ ﴿الآيات [١٢٣-١٤٠] ٨٢﴾
- ٩٠ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ...﴾ ﴿الآيات [١٤١-١٥٩] ٩٠﴾
- ٩٨ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ...﴾ ﴿الآيات [١٦٠-١٧٥] ٩٨﴾
- تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ...﴾ ﴿الآيات [١٧٦-١٩١] ١٠٥﴾
- ١١٢ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِئِنَّهُ لَآتَزِيلُ رَبِّي الْعَالَمِينَ...﴾ ﴿الآيات [١٩٢-٢١٢] ١١٢﴾
- ١٢٣ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ...﴾ ﴿الآيات [٢١٣-٢٢٧] ١٢٣﴾

- تفسير سورة النمل ..... ١٣٧
- المقدمة ..... ١٣٩
- أ- اسم السورة: ..... ١٣٩
- ب- مكان نزولها: ..... ١٣٩
- ج- موضوعاتها: ..... ١٣٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿طَسَّ إِلَيْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ...﴾ الآيات [١-٦] ..... ١٤٢
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِيهِ إِنِّي آنستُ نَارًا...﴾ الآيات [٧-١٤] ..... ١٤٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا...﴾ الآيات [١٥-١٩] ..... ١٥٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَقَّذَ الطَّيْرَ...﴾ الآيات [٢٠-٢٦] ..... ١٦٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿\* قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ...﴾ الآيات [٢٧-٣٥] ..... ١٧٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُونَنِي بِمَالٍ...﴾ الآيات [٣٦-٤٤] ..... ١٨٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا...﴾ الآيات [٤٥-٥٣] ..... ١٩٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ...﴾ الآيات [٥٤-٥٨] ..... ٢٠٦
- تفسير قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى...﴾ الآيات [٥٩-٦٦] ..... ٢١٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا آبِنَا لَمُخْرَجُونَ...﴾ الآيات [٦٧-٨١] ..... ٢٢٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿\* وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ...﴾ الآيات [٨٢-٨٦] ..... ٢٤١
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَرِّعْ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ...﴾ الآيات [٨٧-٩٣] ..... ٢٤٦

- ٢٥٧ ..... تفسير سورة القصص
- ٢٥٩ ..... المقدمة
- ٢٥٩ ..... أ- اسم السورة:
- ٢٥٩ ..... ب- مكان نزولها:
- ٢٥٩ ..... ج- موضوعاتها:
- تفسير قوله تعالى: ﴿طَسَّرَ ۝ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ...﴾ الآيات [١-٦]
- ٢٦٣ .....
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ...﴾ الآيات [٧-١٣]
- ٢٦٨ .....
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا...﴾ الآيات [١٤-٢٠]
- ٢٧٨ .....
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ...﴾ الآيات [٢١-٢٨]
- ٢٨٧ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِيهِ ءَاتَتْهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا...﴾ الآيات [٢٩-٣٥]
- ٣٠١ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا يَبْتَئِنُ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى...﴾ الآيات [٣٦-٤٢]
- ٣١٢ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ...﴾ الآيات [٤٣-٥١]
- ٣٢١ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ...﴾ الآيات [٥٢-٥٧]
- ٣٣٥ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿وَكُرْ أَهْلَكُنَا مِنْ قَرَيْبٍ بَطِرْتَ مَعَيشَتَهُمْ...﴾ الآيات [٥٨-٦٧]
- ٣٤٣ .....
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ...﴾ الآيات [٦٨-٧٥]
- ٣٥٥ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرُونَ كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَنَىٰ عَلَيْهِمْ...﴾ الآيات [٧٦-٨٢]
- ٣٦٥ .....

- تفسير قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ  
وَلَا فُسَادًا...﴾ الآيات [٨٣-٨٨]..... ٣٧٨
- تفسير سورة العنكبوت..... ٣٨٧
- المقدمة ..... ٣٨٩
- أ- اسم السورة: ..... ٣٨٩
- ب- مكان نزولها: ..... ٣٨٩
- ج- موضوعاتها: ..... ٣٨٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿الْمَرْ ۝ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا  
يُفْقَهُونَ...﴾ الآيات [١-٧]..... ٣٩٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا...﴾ الآيات [٨-١٣] ..... ٤٠٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا  
خَمْسِينَ عَامًا...﴾ الآيات [١٤-٢٧]..... ٤١٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَنَا تُؤْمِنُونَ بِالْفَحِشَةِ مَا  
سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ...﴾ الآيات [٢٨-٣٥] ..... ٤٢٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا...﴾ الآيات [٣٦-٤٠] ..... ٤٣٨
- تفسير قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ  
الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا...﴾ الآيات [٤١-٤٥]..... ٤٤٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿\* وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا  
الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ...﴾ الآيات [٤٦-٥٥]..... ٤٥٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ...﴾  
الآيات [٥٦-٦٣]..... ٤٦٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ...﴾ الآيات [٦٤-  
٦٩] ..... ٤٧٩
- فهرس الموضوعات..... ٤٨٩







دار ابن الجوزي 8428146



9 786038 274958